الهيئة المصرية العامة للكتاب
سلسلة الجوائز
٣٤

رواية

جوزيه ساراماجو

البصيرة

ترجمة : أحمد عبد اللطيف

** معرفتي **
me3refaty.blogspot.com

جوزيه ساراماجو
كاتب برتغالي ولد عام ١٩٢٢ في مدينة أريتاجا البرتغالية.
عمل في مهن مختلفة كصانع أقفال وميكانيكي وصحفي ومترجم قبل أن يتفرغ للأدب تماماً.
أصدر روايته الأولى "أرض الخطيئة" عام ١٩٤٧ ورغم الاحتفاء النقدي بها إلا أنه توقف عن الكتابة أكثر من عشرين عاماً.
أصدر بعدها نحو عشرين كتاباً جعلته واحداً من أهم الكتاب في العالم، صدر له منها في الجوائز بالهيئة المصرية العامة للكتاب.. "الطوف الحجرى"، "الآخر مثلى"، "الذكريات الصغيرة"، "البصيرة"، وله تحت الإصدار..
"الكهف"، "تقطعات الموت"، "ثورة الأرض".
حصل على جائزة نادي القلم الدولي وجائزة كاموس البرتغالية قبل أن تتوج جوائزة بجائزة نوبل للآداب عام ١٩٩٨.

الجائزة : جائزة نوبل فى الآداب
أكبر جائزة فى العالم، وأعلى مرتبة من جميع التقديرات. تمنح فى فروعها المختلفة كل عام فى العاشر من ديسمبر، وهو تاريخ وفاة صاحبها الصناعى السويدى ومخترع الديناميت "ألفريد نوبل" الذى أسسها عام ١٨٩٥. كدعوة لتحقيق السلام فى العالم.
ومنذ عام ١٩٠١ أصبح العالم كله ينتظر توزيع الجائزة على الأدباء والعلماء ودعاة السلام، الذين يقومون بإنجازات أدبية وعلمية وخدمات اجتماعية نبيلة تهدف إلى رقى الإنسانية وتطورها.
وجائزة نوبل فى الآداب هى أرفع جائزة أدبية فى العالم، وهى تمنح لقمم الإبداع فى فروعه المختلفة: رواية.. شعر.. مسرح.
وأول من حصل عليها من العالم العربى الكاتب المصرى "نجيب محفوظ" عام ١٩٨٨.

معرفتي

البَصِيرَة

رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير	دكتور: ناصر الأنصارى
نائب رئيس مجلس الإدارة	دكتور: وحيد عبدالمجيد
نائب رئيس التحرير	دكتور: سهير المصادفة
الإشراف التنفيذى	السيد أبو شادى
مدير التحرير	السماح عبدالله
سكرتير التحرير	وردة عبدالحليم
التصميم الجرافيكى	دكتور: مدحت متولى
الإخراج الفنى	صبرى عبدالواحد
	على أبوالخير

ساراماجو ، جوزيه دى سوزا ، ١٩٢٢ -

البصيرة / جوزيه ساراماجو ؛ ترجمة أحمد عبداللطيف . ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٨.

٤٣٢ ص ؛ ٢٢ سم .

تدمك ٥ ٣٢٣ ٤٢٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١ - القصص البرتغالية.

(أ) عبداللطيف ، أحمد (مترجم)

(ب) العنوان :

رقم الإيداع بدار الكتب ٩١٧١/ ٢٠٠٨

I.S.B.N - 978 - 977 - 420 - 323 - 5

ديوى ٨٦٩.٣

البصيرة

رواية

جوزيه ساراماجو

ترجمة : أحمد عبد اللطيف

** معرفتي **

الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٨

- الكتاب: البصيرة Ensaio sobre alucidez
- تأليف: جوسيه ساراماجو José saramago
- ترجمة: أحمد عبد اللطيف

- يصدر هذا الكتاب باللغة العربية بإذن خاص من المؤلف والناشر الأصلى للهيئة المصرية العامة للكتاب.
- جميع حقوق الإصدار باللغة العربية محفوظة للهيئة المصرية العامة للكتاب فى مصر والخارج.
- جميع الحقوق الأخرى محفوظة للمؤلف والناشر الأصلى.

José saramago & Editotrial caminho, S.A. Lisboa, 2004 "by arrangement with Dr. Ray- Güde mertin, Literriasche Agentur, Bad Homburg, Germany".

- الطبعة الأولى ٢٠٠٨.
- طبع فى مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب.

«سلسلة الجوائز»

مازال أمام سلسلة الجوائز الكثير من الأحلام الكبرى، التى تعمل بدأب على تحقيقها، فلقد شهدت السنوات الأخيرة احتفاءً غير مسبوق بالأعمال الأدبية فى شتى أنحاء العالم، وزادت أعداد الجوائز المهمة وأشكال تكريم المبدعين، فازدادت بالتالى الروائع الأدبية، التى تنتظر الترجمة والنشر فى سلسلة الجوائز.

ولأننا نضع نصب أعيننا قطع المسافة بين الواقع والمأمول.. بين الممكن والمستحيل فقد قطعنا خطوات كبيرة وجادة للتغلب على التحديات التى تواجه عملية الترجمة بداية من احترام حقوق الملكية الفكرية للمؤلف ومرورًا بتطوير شكل الكتاب، ووصولاً إلى قناعة بأن النصوص الأدبية لها وضعها الخاص باعتبارها مؤلفات جمالية متفردة ومن ثم تكون ترجمتها إبداعًا موازيًا يتحمل المترجم وحده عبء النهوض به. كما أننا استحدثنا «ذاكرة الجوائز» كرافد للسلسلة لتقديم الآثار الأدبية، التى شكلت ذروة خالدة

فى مسيرة الإبداع العالمى ولم تترجم بعد، أو أنها ترجمت ونفدت طبعاتها، إيمانًا من السلسلة بأن الأعمال الأدبية يكون لها دائمًا تأثير لا يمحى بمرور زمنها وحتى يتسنى للأجيال الجديدة قراءتها.

لقد انطلقنا من نجاحات تحققت فى مجال ترجمة الأدب فى مصر والعالم العربى، ولذا شرعنا فى تأسيس بنك معلومات رأينا أن الترجمة بحاجة إليه، ويشمل هذا البنك كل الأعمال الأدبية التى حازت جوائز دولية أو محلية فى كل أنحاء العالم، أو حققت أصداء قوية، وأثرت فى وجدان مجتمعاتها بشكل يؤهلها للحصول على جوائز أكبر، كما أنه يوفر قاعدة بيانات كبيرة عن كل المترجمين من كل اللغات، لكى يتابع القارئ العربى ما تم إنجازه والمهمات التى تنتظر السلسلة.

إن الترجمة كانت وستظل هى الحل السحرى للعديد من مشكلات الاختلاف بين الشرق والغرب، وهى وسيلة التواصل والحوار، وترجمة الأدب بالذات هى الجسر، الذى تعبر عليه أفكار الشعوب وعاداتها ومعارفها بدون قيود، فالأدب كان وسيظل أساس التقدم والخير والحق والحرية والجمال.

ولذا ستسابق سلسلة الجوائز الزمن لتحتفى بأكبر قدر ممكن من حائزى الجوائز فى العالم، تلك الجوائز التى حققت مصداقية كبيرة وسمعة حسنة حتى يتوفر للقارئ المصرى والعربى عمل اتفقت على

جودته لجان متخصصة، مهمتها التحكيم لمنح جوائز دولية ومحلية لأهم الكتب وأكبر الكُتّاب.

ولسوف تتنوع اللغات المُتَرجم عنها فى أعداد السلسلة القادمة، ولسوف تقتحم سلسلة الجوائز جوائز جديدة. وأصواتًا لم يتعرف إليها بعد القارئ العربى، وذلك بفضل زخم الأعمال الإبداعية فى العالم وبفضل تنوع الجوائز المستحدثة، التى لاقت اختياراتها ترحيبًا واحترامًا من النقاد والمتابعين للمشهد الإبداعى.

د. ناصر الأنصارى

إهـــــداء

إلى بيلار، دائما

إلى مانويل باثكيث مونتالبان، الذى مازال حيًا

** معرفتي **

قال الكلب: علينا أن نعوي .

"كتاب الأصوات"

«إنه طقس سيئ لا يناسب يوم التصويت»، قال رئيس اللجنة الانتخابية رقم١٤ بعد أن أغلق وبشدة المظلة المبللة، وخلع معطف المطر الذى حماه قليلاً، فى المسافة التى تصل لأربعين مترًا، والتى سار فيها مسرعًا من حيث ركن سيارته حتى الباب الذى دخل منه، وبقلب يرتجف بداخله حتى كاد يقفز من فمه. «أتمنى ألا أكون آخر من وصل» - قال للسكرتير، الذى كان ينتظره مختبئًا، لكنه لم يستطع أن يقى نفسه الأعاصير المائية، التى تدفعها الرياح، فتغمر الأرض. «لم يأت بعد نائبك، لكننا مازلنا فى موعدنا» - هدأه السكرتير. «سيكون من البطولة وصولنا جميعا مع هذا المطر» - تفوّه الرئيس وهو يعبر الصالة التى سيتم فيها التصويت. ألقى التحية أولاً على زملائه فى اللجنة والذين سيقومون بدور المراقبين، بعدها حيّا ممثلى الأحزاب و نائبيهم. كان حريصًا على أن يستخدم مع الجميع نفس التحية، بدون أن يظهر على وجهه أو فى نبرة صوته أية إيماءة توشى بميوله السياسية أو الفكرية. إن أى رئيس، خاصة لو كان رئيس لجنة انتخابية مشتركة مثله، يجب أن يمسك زمام أمره فى كل المواقف وأن يتميز بالاستقلالية

بمعناها الأكثر صرامة، أو، بمعنى آخر، يجب أن يحافظ على مظهره أمام الجميع.

بالإضافة للرطوبة التى تجعل الجو كثيفًا، وخاصة داخل الصالة، التى ليس بها سوى نافذتتن صغيرتين تطلان على ممر مظلم حتى فى الأيام المشمسة، كان يسود القلق، ولأستخدم الاستعارة الدارجة، كان يقطعهم كالسكين. «كان من الأفضل تأجيل الانتخابات» ـ قال ممثل حزب الوسط، البى دى ام ـ «فمنذ الأمس والسماء تمطر بلا توقف، والهوات والفيضانات موجودة فى كل مكان، وسيسود هذه المرة الامتناع عن الانتخاب». قام ممثل حزب اليمين، البى دى دى، بالتأمين على كلامه بإيماءة من رأسه، لكنه اعتبر أن اشتراكه فى الحوار يجب أن يكتسى بالحذر. «بالطبع، أنا لا أقلل من هذا الخطر، لكننى أعتقد أن روح مواطنينا المخلصة والوطنية، والتى تم البرهنة عليها فى مرات سابقة، جديرة بثقتنا جميعًا، فهم واعون، نعم نعم، جد واعون، بالأهمية القصوى لهذه الانتخابات المحلية من أجل مستقبل العاصمة». بعد قوله هذا، التفت كل من ممثل حزب اليمين والوسط بنظرة نصفها مرتاب و نصفها ساخر، نحو ممثل حزب اليسار، البى دى إى، يملأهما الفضول لمعرفة أى رأى سيدلى به. فى هذه اللحظة بالتحديد، راشون الماء فى كل جانب، اقتحم نائب الرئيس الصالة، وكما كان متوقعًا، حيث اكتملت قائمة اللجنة الانتخابية، كان الترحيب به أكثر من ودود، كان حارًا. لم نعرف كامل

المعرفة رأى ممثل حزب اليسار، لكن بناء على أحداث سابقة ومعروفة، فمن المحتمل أنه سيعبر عن نفسه بالاتفاق مع تفاؤل تاريخى واضح، قائلاً عبارة مثل هذه على سبيل المثال: «إن المصوتين بحزبى أشخاص لا يفزعهم القليل، فهم ليسوا من الناس الذين يبقون فى بيوتهم بسبب أربع قطرات ماء جادت بها السماء». لكنها ليست أربع قطرات ماء، إنها مكعبات، إنها دوارق، إنها أنهار، لكنه الإيمان، بارك الله فيه دائمًا وأبدًا، فبالإضافة لكونه يبعد الجبال عن طريق من يتمتعون بقوته، هو أيضًا قادر على التجرؤ على الأمطار الأكثر غزارة ليخرجون من تحتها فقط مستهوين.

تشكَّلت اللجنة، كل واحد فى المكان المخصص له، وقّع الرئيس الوثيقة وأمر السكرتير بتعليقها، كما ينص القانون، فى مدخل المبنى، لكن الساعى، مقدما البراهين على حصافته الطبيعية، لفت انتباههم أن الورقة لن تثبّت فى الحائط ولا دقيقة واحدة، ففى لحظتين سيمحى حبرها وفى اللحظة الثالثة سيذروها الرياح. «علقوها إذًا بالداخل، حيث لا يصل المطر، فالقانون مقصر فى هذا الأمر تحديدًا، فالمهم هو تعليق المرسوم فى مكان يمكن رؤيته». سأل اللجنة إن كانت موافقة. أجابه الجميع بالإيجاب، مع التحفظ الواضح لممثل حزب اليمين بأن يبقى القرار ظاهرًا فى الوثيقة لتجنب الطعن فى المستقبل. عندما عاد السكرتير من مهمته المبلّلة، سأله الرئيس عن حالة

الطقس، فأجابه، ضامماً كتفيه، «مازال على حاله، طقس حسن من أجل الضفادع». «هل جاء أى ناخب بالخارج». «ولا ظل ناخب». نهض الرئيس من مكانه ودعا أعضاء اللجنة وممثلى الأحزاب لمرافقته فى مراجعة الكابينة الانتخابية، التى تحقق أنها نظيفة من العناصر التى من الممكن أن تعكر نقاء الانتخابات السياسية التى ستجرى بداخلها طول اليوم. وبعد أن أتموا الإجراء الرسمى، عادوا إلى أماكنهم ليفحصوا قوائم تعداد السكان، التى وجدوها أيضا خالية من أية مخالفات أو ثغرات أو شكوك. لقد جاءت اللحظة الحاسمة التى فيها يكشف الرئيس ويعرض الصناديق أمام الناخبين ليشهدوا أنها فارغة، بحيث غداً، عند الحاجة، يكونوا خير شهود على أنها لم تتعرض لأى عمل إجرامى، وأنه فى صمت الليل، لم تدخل الأصوات المزيفة التى قد تفسد إرادة المواطنين السياسية الحرة و ذات السيادة، ولن نعيد هنا مرة أخرى هذا التزييف التاريخى الذى أطلق عليه الاسم الرائع: تزييف الانتخابات، والذى من الممكن أن يحدث كثيراً، وعلينا ألا ننسى ذلك، خلال أو قبل أو بعد الجلسة، وهذا يتوقف على الفرصة المتاحة ومهارة الفاعلين والمتواطئين. كان الصندوق الانتخابى فارغاً، نقياً، طاهراً، لكن لم يوجد فى الصالة ولا ناخب واحد، ولا عيّنة واحدة لناخبين، ليُعرض أمامهم الصندوق. ربما هناك من يعبُر تائهاً، مكافحاً ضد وابل المطر، محتملاً أسواط الريح، معانقاً ناحية قلبه

المستند الذى يعتمده كمواطن له حق التصويت، لكن، كحال الأشياء التى مازالت فى السماء، سيتأخر كثيرًا فى الوصول، هذا إن لم يعد للبيت ويترك مستقبل المدينة مسلّمًا لهؤلاء الذين يركنون السيارات السوداء أمام الباب ومن أمام الباب يأخذونها، بعد أن يقوموا بالواجب المدنى لهذا الذى يجلس فى المقعد الخلفى.

بعد الانتهاء من عمليات التفتيش للمواد المختلفة، ينص قانون هذا البلد على أن يصوّت رئيس اللجنة وأعضاؤها وممثلو الأحزاب، كذلك النواب، إذا كانوا، بالطبع، مسجلين فى الدائرة الانتخابية التى تتبعها اللجنة، كما هو حالهم الآن. مع طول الوقت، كانت أربع دقائق كافية ليتلّقى الصندوق الانتخابى أحد عشر صوتًا. وبدأ الانتظار، بدون أن يجدوا منه مفرًا. وبالرغم من عدم مرور نصف ساعة - اقترح الرئيس، مضطربًا، على أحد أعضاء اللجنة - أن يخرج ليتحقق إن كان أحد من الناخبين قادمًا، فربما جاء ناخبون، لكن ربما وجدوا الباب مغلقًا بسبب الريح، فذهبوا محتجين، فلو أجّلوا الانتخابات كان عليهم على الأقل أن يراعوا شعور الآخرين بإبلاغهم عن طريق الراديو أو التليفزيون. قال السكرتير: «كل الناس تعرف أن الريح عندما تغلق بابًا تسبب ضجيجًا شديد الصوت، ونحن لم نسمع شيئًا من هذا». تردد عضو اللجنة، أذهب أم لا، لكن الرئيس ألّح فى طلبه، «فلتذهب حضرتك، اصنع فىَّ معروفا، وأحذر أن تبتل». كان الباب مفتوحًا، راسخًا فى مكانه. أطل العضو برأسه،

لحظة واحدة كانت كافية لينظر إلى جانب والجانب الآخر، بعدها انصرف للداخل بعد أن تصبب ماءً كما لو كان قد دخل تحت دش. كان يرغب أن يتصرف كعضو مجتهد، يسرّ رئيسه، ولأن هذه هى المرة الأولى التى طلب منه فيها مهمة كهذه، كان يريد أن يقدّره رئيسه على سرعته و كفاءته فى الخدمات التى يجب أن يؤديها، فمع الوقت و الخبرة، من يدرى، فربما ذات مرة يأتى اليوم الذى يترأس فيه لجنة انتخابية، فهناك من يصل لأعلى المراكز ولا أحد يندهش من الأمر. عندما عاد إلى الصالة، صاح الرئيس بنبرة تحمل الندم والمرح، «يارجل، لم يكن ضروريًا أن تبل نفسك بهذه الطريقة». «لا يهمك سيدى الرئيس» - قال العضو بينما كان يجفف وجهه بكم البذلة. «هل شاهدت أحدًا» . «على مدى البصر لم أر أحدًا، فالشارع كما الصحراء تغمرها الماء». نهض الرئيس، سار عدة خطوات حائرة أمام أعضاء اللجنة، وصل حتى الكابينة، نظر داخلها وعاد. تحدّث ممثل حزب الوسط ليذكّرهم بتوقّعه بتحقيق الامتناع عن الانتخاب من قبل الناخبين، بينما ألقى ممثل حزب اليمين الماء على النار، مؤكدًا أن اليوم مازال طويلاً للتصويت، وأن الناخبين فى انتظار اعتدال الجو. الآن فضّل ممثل حزب اليسار الصمت، وكان يفكّر فى الصورة الحزينة التى صنعها عندما ترك الكلمات تخرج من فمه عندما دخل نائب الرئيس إلى الصالة، أربع قطرات ماء تعيسة ليست كافية لتفزع مصوتى حزبى. قام

السكرتير، الذى وجه الجميع النظر صوبه منتظرين، اختار أن يقدم لهم اقتراحا عمليًا: أعتقد أنها لن تكون فكرة حمقاء الاتصال تليفونيًا بالوزارة لطلب معلومات عن خال الحركة الانتخابية هنا وفى بقية البلد، لنرى بذلك هل نقصان الدافع القومى حالة عامة، أم أننا الوحيدون الذين لا يعيرنا الناخبون اهتمامًا ولا يأتون لينيرون صالاتنا بأصواتهم الانتخابية. نهض ممثل حزب اليمين ساخطًا: «أطالب بتسجيل اعتراضى الشديد فى أوراق الجلسة، كممثل لحزب اليمين، ضد الألفاظ غير المحترمة وضد نبرة الاستهزاء غير المقبولة التى يشير بها السكرتير إلى الناخبين، الذين هم آخر حماة الديمقراطية، والذين بدونهم ستسود الديكتاتورية، أية ديكتاتورية من تلك التى تسود العالم، فى وطننا الذى وهبنا الوجود». رفع السكرتير كتفيه وسأل: «هل أسجّل طلب ممثل حزب اليمين، سيدى الرئيس». «أرى أن الأمر لا يستدعى كل ذلك، فنحن متوترون، حائرون، مشوشون، ومن المعروف أنه فى حالة كالتى نحن فيها الآن من السهل أن نقول أشياء لا نعتقد بها فى الواقع، فأنا متأكد أن السكرتير لا يقصد إهانة أحد، فهو نفسه ناخب مدرك لمسئولياته، والدليل على ذلك، أنه مثلنا جميعا، تحمل رداءة الطقس ليحضر إلى حيث ناداه واجبه، ومع ذلك، هذا الاعتراف الصريح لا يمنعنى أن أرجو السكرتير أن يؤدى مهام واجبه المنوط بها بصرامة وأن يمتنع عن التعليقات التى من الممكن أن تجرح الحس

الشخصى والسياسى للحضور». قام ممثل حزب اليمين بإيماءة جافة فضّل الرئيس أن يفسرها على أنها إيماءة موافقة، ولم يتطوّر الخلاف أكثر من ذلك، وحينها تدخل ممثل حزب الوسط ببراعة ليذكّرهم بالاقتراح الذى قدّمه السكرتير، أضاف: «الحقيقة أننا هنا كالغرقى فى وسط المحيط، بلا شراع و لا بوصلة، بلا سارية و لا مجداف، بل وبلا سولار فى التنك». «معك كل الحق - قال الرئيس - سأهاتف الوزارة. كان يوجد هاتف فى غرفة منزوية صوبها توجه الرئيس حاملاً ورقة التعليمات التى قد تسلّمها قبل أيام والتى فيها، من بين بيانات أخرى، كانت مكتوبة أرقام تليفونات وزارة الداخلية».

كانت المكالمة موجزة. «يتحدث إليكم رئيس اللجنة الانتخابية رقم١٤ أنا مشغول جدًا، هنا يحدث أمر جد غريب، حتى هذه اللحظة لم يظهر أى ناخب للتصويت، ونحن هنا منذ أكثر من ساعة بالباب مفتوحًا، ولا نفس واحدة حضرت، نعم سيدى، بالطبع، الحالة الجوية لا حل لها، أمطار ورياح وسيول، نعم سيدى، سنواصل بصبر و بقدم ثابتة، بالطبع، من أجل هذا أتينا، لست فى حاجة لقول ذلك». بداية من هذه النقطة، لم يشترك الرئيس فى الحوار اللهم إلا بإيماءات برأسه للموافقة على ما يقال له، و بعض صيغ التعجب الصماء وثلاث أو أربع بدايات جمل لم يستطع إتمامها. عندما وضع السماعة نظر لزملائه فى اللجنة، لكنه فى الحقيقة لم يكن يراهم، كما لو

كان أمامه منظر مكون من لجان انتخابية فارغة، من قوائم إحصائية بيضاء، برؤساء وسكرتارية فى حالة انتظار، بينما ممثلو الأحزاب يتبادلون فيما بينهم نظرات مريبة، كل منهم يعد حساباته ليعرف من انتصر ومن هُزم فى هذا الموقف، وعلى مسافة يعود من المدخل عضو لجنة يتصبب قطرات المطر فى صمت ويخبرهم أنه لم يأت أحد. سأل ممثل حزب الوسط عما أخبروه به فى الوزارة. «لا يجدون سببًا، فمن الطبيعى أن رداءة الطقس قد حجبت أناسًا كثيرين فى بيوتهم، لكن ما يحدث هنا يحدث بشكل فعلى فى المدينة بأسرها، لهذا «لا يجدون تفسيرًا». «ولماذا تقول بشكل فعلى؟» سأل ممثل حزب اليمين. «فى بعض اللجان الانتخابية ظهر ناخبون، نعم قلة لكنهم ظهروا، العدد قليل جدًا، وهو الأمر الذى لم يحدث سلفًا» . «وفى باقى البلد» ؟ سأل ممثل حزب اليسار، «فمن المؤكد أنها لا تمطر فى العاصمة وحدها». «هذا هو ما يربكنا، فهناك أماكن يشتد فيها المطر أكثر من هنا، ومع ذلك الناخبون يذهبون للتصويت، وكما هو طبيعى فالازدحام شديد فى الأماكن التى يسود فيها طقس جيد، وعن هذا الموضوع، يقولون إن هيئة الأرصاد الجوية تتنبأ بتحسن حالة الطقس على آخر النهار». «ومن الممكن أيضا أن يسير الطقس من سيئ لأسوأ، كما يقول المثل، وقت الظهيرة إما ينقطع المطر أو ينهمر» - رد العضو الثانى، الذى لم يكن قد نبس بكلمة حتى الآن

.. ساد الصمت. أدخل حينئذ السكرتير يده فى جيب البذلة الخارجى، أخرج تليفونه المحمول و اتصل برقم. وبينما كان فى انتظار الرد، قال : «هذا الأمر يشبه ما يحكى عن محمد والجبل، وحيث إننا لا نستطيع أن نسأل الناخبين الذين لا نعرفهم لماذا لم يأتوا للتصويت، فلنوجه سؤالنا لعائلتنا، فنحن نعرفها». «آلو، كيف الحال، إنه أنا، نعم، أمازلتِ هناك، لماذا لم تأتِ للتصويت، لأنها تمطر، أعرف ذلك، فمازالت أطراف بنطلونى مبللة، نعم، حقا، معذرة، لقد نسيت أنك أخبرتينى أنك ستأتين بعد الغداء، بالطبع، أهاتفك لأن الأمور هنا معقدة، لا تتخيلين، لو أقول لك إنه حتى الآن لم يطل علينا أحد ليصوّت، لن تصدقينى، حسنا، إذًا سأنتظرك، سلام». أنهى المكالمة وعلّق ساخرا، «لقد ضمنا على الأقل صوتًا، ستأتى زوجتى بعد الظهر» . تبادل الرئيس وأعضاء اللجنة النظر، كان من الواضح أن عليهم أن يقلّدوه، لكن أيضًا كان من الواضح أن أحدًا منهم لا يريد أن يأخذ المبادرة، وجدير بالاعتراف أنه فى سرعة الإدراك والجراءة يعد السكرتير هو من يحمل الشعلة فى هذه اللجنة. كان من الصعب على العضو الذى خرج إلى الباب ليرى إن كانت مازالت تمطر أم لا أن يدرك أن عليه أن يأكل كثيرًا من الخبز والملح لكى يصل لقامة سكرتير مثل هذا، مع غياب الجميع، يقوم هو بإحضار صوت انتخابى عبر التليفون المحمول مثل حاوٍ يخرج أرنبًا من قبعة عالية. عندما شاهد الرئيس، منزويًا فى

ركن، يتحدث مع بيته من تليفونه الشخصى، والآخرون، مستخدمون تليفوناتهم الشخصية، فى الخفاء، هامسين، يفعلون نفس الشىء، قدّر عضو الباب نزاهة زملائه الذين، بدون أن يستخدموا التليفون الأرضى الموضوع أمامهم، والمفروض استخدامه فى العمل، كانوا يدخّرون بنبل الأموال للدولة. الشخص الوحيد من الحاضرين لكونه لا يمتلك تليفونًا محمولاً كان يقتصر على معرفة الأخبار من الآخرين كان هو ممثل حزب اليسار، وعلينا أن نوضح أيضا أنه، بالإضافة لذلك، يعيش بمفرده فى المدينة تاركًا عائلته فى القرية، وبالتالى فالرجل المسكين ليس له من يهاتفه. واحدة بعد أخرى انتهت المكالمات، وكانت أطولها مكالمة الرئيس، وكما هو مرئى كان يطلب من محدثه أن يأتى فورًا، وسنرى كيف انتهى الأمر، على أى حال كان هو من يجب عليه أن يأخذ المبادرة فى المقام الأولى، وإن سبقه السكرتير، فعليه هو أن يستغل ذلك، فكما رأينا فالسكرتير ينتمى لهذا النوع اللئيم، فلو كان يحترم التدرج الوظيفى كما نحترمه نحن لقام ببساطة بعرض الفكرة على رئيسه. أطلق الرئيس التنهيدة التى كانت مخنوقة فى صدره، واحتفظ بالمحمول فى جيبه وسأل : «هل عرفتم شيئا». كان السؤال، بالإضافة لكونه لا ضرورة له، كما نقول سؤالاً خائنًا، فى المقام الأول لأنه من حيث المعرفة، هذا الذى يسمونه معرفة، دائمًا ما يُعرف شىء، حتى عندما نعرف شيئًا لا قيمة له، ثانيًا لأنه كان من الواضح أن المستقصى كان يستغل سلطته

الملتصقة بوظيفته ليتجنب الالتزام بتبادل المعلومات، وهو الأمر الذى افتتحه هو، بالسماع وبلا حيل. لكن إن لم نتجاهل التنهيدة والحدة الملّحة التى بدت لنا فى لحظة محددة من الحديث والتى لوحظت فى كلامه، فمن المنطقى أن نعتقد أن الحوار، الذى كان يدور ظنا مع أحد أفراد عائلته، لم يكن مريحًا و لا مثقفا ليليق بمواطن و رئيس، وإنه، بلا رباطة جأش ليتجرأ بارتجال غير سديد، يتجنب الآن كل صعوبة داعيًا مرءوسيه ليعبروا عن آرائهم، وهو الشىء الذى، كما نعلم جميعًا، يعد طريقة أخرى، أكثر حداثة، لكينونة الرئيس. أما ما قاله أعضاء اللجنة وممثلو الأحزاب، باستثناء ممثل حزب اليسار، الذى كان ينقصه المعلومات، لأنه كان بعيدًا فلم يسمع شيئًا، هو أن عائلة الرئيس لا ترغب فى أن تبلّ جسدها وأنها تنتظر حتى تتوقف السماء عن المطر لتدلى بصوتها فى هذه الانتخابات القومية، أو أنها، مثل زوجة السكرتير، كانت تفكر فى الإدلاء بصوتها بعد الظهر. كان عضو الباب هو الوحيد الذى يبدو عليه الرضا، وكان يعلو وجهه الانطباع الراضى لمن لديه من الأسباب ما يجعله فخورًا بأفعاله، وهذا الشعور عندما ترجمه فى كلمات قال : «لم يرد أحد فى بيتى، وهذا يعنى أنهم فى طريقهم للتصويت. عاد الرئيس ليجلس فى مكانه وبدأ الانتظار من جديد».

بعد حوالى ساعة دخل الناخب الأول . وعلى عكس التوقّع العام وليسبب قنوط نائب الباب، كان

رجلاً مجهولاً. ترك المظلة المتساقط منها قطرات المطر عند مدخل الصالة، وتقدم نحو اللجنة بعد أن خلع الكوتشى المطاطى الذى كان ينتعله، وكان معطفه المشمّع يبرق بفعل الماء. نهض الرئيس من مكانه بابتسامة فوق شفتيه. كان ظهورهذا الناخب، وهو رجل طاعن فى السن لكنه مازال عفيّا، يعلن العودة للحالة الطبيعية، عودة المواطنين الموفين بالعهود لصف الانتخاب الذى سيمتلىء رويدًا رويدًا، بلا ضيق صدر، فهم واعون، كما قال ممثل حزب اليمين، للأهمية القصوى التى تمثلها هذه الانتخابات المحلية. سلّم الرجل بطاقة هويته و بطاقته الانتخابية للرئيس، ونطق الرجل بصوت مشروخ، شبه سعيد، رقم بطاقته واسم صاحبها، بينما قام الأعضاء المكلّفون بالتسجيل بتقليب قوائم الأسماء، و أعادوا الكَرّة، وعندما وجدوا الاسم و الرقم علّموا عليه بعلامة تعنى أن هذا الرجل قد صوّت، بعدها، متصببًا الماء، توجه الرجل لكابينة التصويت بالورقة، وعاد فى الحال بالورقة مثنية أربع ثنيات، سلّمها للرئيس، الذى وضعها بعلياء فى الصندوق الانتخابى، وسلمه مستنداته وانصرف حاملا مظلته. تأخر الناخب الثانى فى الظهور عشر دقائق، لكن، بداية منه، وبالرغم من أن الناخبين جاءوا بالقطّارة، وبلا حماس، إلا أنها كما الأوراق الخريفية التى تتساقط ببطء من الغصون، كانت الأوراق تتساقط فى الصناديق الانتخابية. ومع أن الرئيس والأعضاء أجّلوا عملية التحقيق، لم يصل الصف أبدًا

للاكتمال، وكان يوجد، على الأكثر، ثلاثة أو أربعة أشخاص فى انتظار دورهم، وبثلاثة أو أربعة أشخاص لا يتكوّن أبدًا صف جدير بهذا الاسم . مهما بُذل من جهد. «كم كنتُ محقا» ـ علّق ممثل حزب الوسط ـ «عندما توقعت الامتناع الفظيع والجماعى عن الانتخاب، الحل الوحيد هو إعادة الانتخابات». «ربما يهدأ الجو» ـ قال الرئيس ـ وظل يهمهم كما لو كان يصلى وهو ينظر للساعة. «مازلنا فى منتصف النهار» . نهض ريسولوتو، هذا العضو الذى أسميناه حتى الآن بعضو الباب. «لو سمح لى سيدى، سأرى كيف حال الطقس، فى تلك اللحظة التى لا يوجد فيها أحد للتصويت» . لم يتأخر سوى لحظة، خرج طائرًا وعاد سعيدًا، معلنا الخبر السعيد ـ «هائل، إنها تمطر أقل بكثير من ذى قبل، كما لو كانت لا تمطر، وبدأت السماء فى الصفاء». كان أعضاء اللجنة وممثلو الأحزاب على وشك أن يتعانقوا، لكن عمر السرور كان قصيرًا. فالتقطير الرتيب للناخبين لم ينقطع، وصل ناخب، وصل آخر، جاءت زوجة نائب الباب و أمه وخالته، جاء الأخ الأكبر لممثل حزب اليمين، جاءت حماة الرئيس التى هشمت الوقار الواجب توافره فى لجنة انتخابية، وأخبرت زوج ابنتها المكتئب أن ابنتها ستأتى فقط بعد الظهر. قالت إنها تفكر فى الذهاب للسينما ـ أضافت بقسوة ـ جاء أبو نائب الرئيس وأمه، جاء آخرون لا ينتمون لتلك العائلات، كانوا يدخلون غير مبالين، ويخرجون غير مبالين، ولم تحدث حركة

حقيقية فى المكان إلا عندما جاء سياسيان من حزب اليمين، بعدها بدقائق جاء سياسى من حزب الوسط، وبصورة سحرية ظهرت كاميرا تليفزيونية خرجت من العدم، صوّرت وعادت مرة أخرى إلى العدم، طلب صحفى الإذن ليسأل سؤالا : «كيف تسير العملية الانتخابية اليوم». فأجاب الرئيس : «ربما تتحسن، فالجو بدأ فى الصفاء، ونحن على يقين أن عدد الناخبين سيزداد». «إن الانطباع الذى أخذناه عن لجان أخرى بالمدينة يظهر أن الامتناع عن التصويت سيكون مرتفعًا هذه المرة»، علق الصحفى. «أفضّل أن أرى الأمور بتفاؤل، أن تكون لى رؤية إيجابية فى تأثير حالة الطقس على حركة العملية الانتخابية، سيكفى أن يكف المطر آخر النهار لنستعيد ما حاول سرقته منا الطقس السيئ هذا الصباح». خرج الصحفى راضيًا، كانت العبارة جميلة، قد تصلح عنوانًا جانبيًا لريبورتاج صحفى. ولأن ساعة إرضاء المعدة قد حلّت، فقد نظم أنفسهم أعضاء اللجنة وممثلو الأحزاب بالتناوب ليتناولوا غداءهم فى نفس المكان، عين فى القوائم الانتخابية و العين الأخرى فى السندوتش.

كان المطر قد كفّ، لكن لم يكن هناك ما ينبىء بأن آمال الرئيس الوطنية ستصل لتكون بكل رضى متوجة بمضمون صندوق انتخابى يُغطى قاعه بالأصوات الانتخابية. كان كل الحضور يعتقدون نفس الشىء، لاقت الانتخابات فشلاً سياسياً ذريعًا. كان الوقت يمر. كانت ساعة الحائط تشير للثالثة والنصف

مساءً عندما دخلت زوجة السكرتير لتدلى بصوتها. تبادل الرجل و زوجته الابتسام بتحفظ، لكن أيضًا بلمسة رقيقة دالة على المشاركة غير المعروفة، تلك الابتسامة التى سببت لرئيس اللجنة توترًا داخليًا غير محبب، ربما هو ألم الغيرة عندما تيقن أنه لن يكون أبدا طرفًا فى ابتسامة مماثلة. كان الألم مستمرًا فى ركن ما فى جسده، فى إحدى ثنيات روحه، عندما، بعد ثلاثين دقيقة، ناظرًا فى الساعة، سأل نفسه إن كانت زوجته قد وصلت للسينما. «إنها ستأتى، إنها ستأتى، ولو فى الساعة الأخيرة، فى الدقيقة الأخيرة»، هكذا فكّر. إن طرق درء القدر كثيرة ولكن أغلبها لا فائدة منه، وهذه، الاضطرار للتفكير فى الأسوأ على ثقة أن ما يحدث هو الأفضل، ولو كانت أكثرهم سوقية، إلا أنها وسواس جدير بالاعتبار، لكنه لن يؤدى لنتيجة فى الحالة الراهنة لأنه من مصدر موثوق فيه ثقة عمياء نعلم أن زوجة رئيس اللجنة قد ذهبت للسينما وأنها، حتى هذه اللحظة على الأقل، لم تقرّر المجىء للتصويت. ولحسن الحظ، فإن المرات التى دُعيت فيها الحاجة لتوازن الكون فى دروبه و الكواكب فى مجراتها، تحدد لنا أنه عندما ينقص شىء فى جانب يحل محله شىء أخر يلائمه تقريبًا، وقد يكون فى نفس الجودة و بنفس النسبة، بهدف ألا تتراكم الشكاوى لاختلاف المعاملة. بشكل آخر لا يمكن أن ندرك السبب، ففى الرابعة مساءً، وبالتحديد فى نفس الساعة لا قبل و لا بعد، بدأ الناخبون الذين

كانوا حتى هذه اللحظة فى سكينة بيوتهم متجاهلين بشجاعة الالتزام الانتخابى، فى الخروج للشارع، أغلبهم بوسائله الخاصة، وآخرون بالمساعدة المشكورة لسيارات المطافى والسيارات التطوعية، حيث إن الأماكن التى كانوا يعيشون فيها كانت مازالت غارقة وغير صالحة للمرور، وكان الجميع، نعم الجميع، الأصحاء والمرضى، هؤلاء الذين يسيرون على أقدامهم، والجالسون على كراسيهم المتحركة، هؤلاء الراقدون على النقالات و فى عربات الإسعاف، كانوا جميعهم يصبوا فى اللجنة الانتخابية الخاصة بهم كأنهار لا تعرف لها مصب غير هذا البحر. أما الأشخاص المرتابون، أو ببساطة قليلو الثقة، هؤلاء الذين يميلون فقط للاعتقاد فى المعجزات التى ينتظرون أن تأتى بفائدة ما، لابد أنهم فكّروا أن الاحتياج السابق ذكره عن توازن الكون ما هو إلا تزوير وقح فى الظروف الحالية، وأن الشك المصطنع حول مجىء زوجة رئيس اللجنة أم لا لتدلى بصوتها هو أمر بكل وضوح لا معنى له من وجهة النظر الكونية حتى يكون ضروريًا تعويضه، فى مدينة بين مدن كثيرة من العالم الأرضى، بتعبئة غير متوقعة من آلاف و آلاف الأشخاص من كل الأعمار والطبقات الاجتماعية التى، بدون أن يتفقوا مسبقًا على اختلافاتهم السياسية والأيديولوجية ، قد قرروا، فى النهاية، الخروج من البيت للتصويت. من يقيم الحجة بهذه الطريقة ينسى أن للكون قوانينه، وكلها قوانين غريبة عن أحلام

البشرية و رغباتها المتضادة، والتى فى صياغتها لا نملك من الأمر سوى كلمات نجرى ذكرها بخشونة، ويأتى كل شىء ليقنعنا أنها تطبق لمصلحة الأهداف التى تشيع والتى دائما ستشيع قدرتنا على الفهم، وإذا وجد، فى هذه الحالة الخاصة، نوع من عدم التناسب المخجل بين شىء ربما، سنقول الآن فقط ربما، ينتهى سارقا الصندوق الانتخابى، أقصد، صوت السيدة المفترضة وهى زوجة الرئيس، ومد الرجال و النساء القادمين فى الطريق، يبدو لنا من الصعب قبول على ضوء أكثر أسس العدالة التوزيعية، طلب الحيطة التى أوقفنا خلال فترة زمنية معينة الحكم عليها ورافقنا بانتباه واثق تطور بعض الأحداث التى بدأت فى رسم خطوطها الأولية. إن ما يفعله بالتحديد محررو الراديو و الصحف و التليفزيون، يملؤهم الحماس المهنى والشغف الإعلامى الذى لا ينضب، هو وضع المسجلات و الميكروفونات أمام وجوه الأشخاص، سائلين إياهم ما الذى جعلهم يخرجون من بيوتهم فى الساعة الرابعة ليصوّتوا، ألا يبدو لهم غريبا أن يهبط الجميع للشارع فى نفس الوقت. وقد سمعوا ردودًا جافة أو عدوانية مثل : «خرجنا فى هذه الساعة لأننا قررنا الخروج فى هذه الساعة» ؛ «كمواطنين أحرار، ندخل ونخرج فى الساعة التى تحلو لنا» ؛ «ليس علينا أن نعطى تبريرات عن أسباب تصرفاتنا» ؛ «كم يدفعون لكم لتسألوا أسئلة حمقاء» ؛ «من يهمه الساعة التى نخرج أو لا نخرج فيها من البيت» ؛ «فى

أى قانون أجد نفسى مضطرا للاجابة على سؤالك» : «أنا فقط أتحدث فى وجود محام» . أيضًا كان يوجد بعض الأشخاص المهذبين الذين أجابوا بلا جفاء توبيخى شبيه بالأمثلة التى انتهينا من ذكرها، لكن حتى هؤلاء كانوا غير قادرين على إشباع فضول المحررين الشره، واقتصروا فقط على رفع أكتافهم قائلين : «أنا أحترم كل الاحترام عملكم و لا أحب شيئًا بقدر ما أحب التعاون معكم على نشر خبر سعيد، ولسوء الحظ أستطيع فقط أن أقول لكم إننى نظرت فى الساعة، ورأيت أنها كانت الرابعة وقلت لأسرتى هيا، الآن وإلا فلا، الآن وإلا فلا، لماذا، هنا يكمن مربط الفرس، هكذا خرجت الجملة من فمى، فكر فى الأمر جيدًا، ابذل جهدًا، الأمر لا يستحق، اسال شخصا آخر، ربما يعرف، «لقد سألت خمسين شخصًا»، «وماذا»، «لم يعرف أحد أن يعطينى اجابة شافية»، «إذًا فالأمر كما أخبرك به»، «لكن ألا يبدو لك أن هذا التوافق غريب بحيث يخرج آلاف الأشخاص من بيوتهم وفى نفس الساعة ليدلوا بأصواتهم»، «توافق!، بالطبع، لكنه ليس غريبًا»، «لماذا»، «آه، هذا ما لا أعرفه». استيقظ فجأة من المخدر المذيعون فى القنوات التليفزيونية المختلفة الذين يتابعون سير العملية الانتخابية، مقدمون اختلاجاتهم أمام نقص البيانات الصائبة الجديرة بالتقدير، مستدلون بطير وشدو الطيور على إرادة

الآلهة، متحسرون على عدم السماح بالتضحية بالحيوانات ليفكوا بأمعائها مراسيم القضاء و القدر، هذا المخدر الكامن فى الأراء الأكثر قتامة للتصويت والذى جعلهم يغتمون، بالتحديد لأنه بدا لهم غير جدير بمهمتهم التعليمية إسراف الوقت فى النقاش حول التوافق، انطلقوا مثل الذئاب حول مثال الوطنية الغريب الذى كان يقدمه سكان العاصمة للبلد بأكملها فى تلك اللحظة، حاضرين فى تكتلات إلى الصناديق الانتخابية عندما كان شبح الامتناع عن الانتخاب الذى لا مثيل له فى تاريخ ديمقراطيتنا يهدد بخطورة الاستقرار، ليس فقط استقرار نظام الحكم، وإنما أيضًا، بخطورة أكبر، نظام الدولة. لم تذهب بعيدا فى مخاوفها الملاحظة شبه الرسمية الصادرة عن وزارة الداخلية، لكن تنهيدة الحكومة كانت ظاهرة فى كل سطر. بالنسبة للثلاثة أحزاب الموجودة فى حلبة المصارعة، حزب اليمين و اليسار و الوسط، هؤلاء، بعد أن أعدوا حساباتهم سريعًا و عرفوا أرباحهم وخسائرهم جراء حركة المواطنين غير المتوقعة، نشروا على الملأ تصريحاتهم بالتهانى التى فيها، من بين جماليات أسلوبية أخرى من نفس الثوب، كانوا يؤكدون أن الديمقراطية فى ساعة ذروتها. كل حزب منهم عبّرعن نفسه بنفس الكلمات، نقطة تزيد هنا، فاصلة تنقص هناك، بينما العلم القومى مرفرف فى الخلف، أولاً، رئيس الدولة فى قصره، ثانيا ، رئيس الحكومة فى قصره . عند باب اللجنة، كانت صفوف الناخبين، التى تصل لثلاثة، تدور حول الصندوق حتى تختفى.

مثل كل رؤساء اللجان بالمدينة، كان رئيس اللجنة الانتخابية رقم ١٤ لديه الإدراك التام أنه يعيش لحظة تاريخية منفردة. وعندما كان الليل يحل، بعد أن مدت وزارة الداخلية وقت التصويت ساعتين، وهى المدة التى كان ضروريًا إضافة نصف ساعة لها حتى يتمكن الناخبون المتراصون داخل المبنى من ممارسة حق التصويت، عندما فى النهاية وجد أعضاء اللجنة وممثلو الأحزاب، المنهكون و الجائعون، أنفسهم أمام جبل من الأوراق التى تم استخراجها من صندوقين، الثانى منهما طلبته وزارة الداخلية على وجه السرعة، جعلتهم عظمة المهمة القابعة أمامهم يرتجفون من العاطفة التى لن نحتار فى تسميتها عملاً أسطوريًا، أو عملاً بطوليًا، كما لو كانت يد الوطن، المبعوثة للحياة، تجسدت بشكل ساحر فى تلك الوريقات. كانت إحدى هذه الأوراق صوت زوجة رئيس اللجنة. جاءت مدفوعة بقوة أجبرتها على الخروج من السينما، قضت ساعات فى صف كان يتقدم ببطء السلحفاة، وعندما وجدت نفسها فى النهاية أمام زوجها، عندما سمعها تنطق اسمها، شعر فى قلبه بشىء ربما كان ظل سعادة قديمة، لا شىء سوى الظل، لكن، بالرغم من كونه ظلا، فكّر أنه من أجل ذلك فقط كان وجوده هنا له قيمة. كان الوقت قد وصل منتصف الليل عندما انتهت عملية فرز الأصوات. كانت الأصوات الصالحة لم تصل إلى ٢٥٪ موزعة بين حزب اليمين، ١٣٪، حزب الوسط ٩٪، حزب اليسار، ٢,٥٪، كانت

الأصوات الملغية قليلة جدا، وقليلة جدا أيضا نسبة الامتناع عن التصويت. بينما كل الأصوات المتبقية، أكثر من ٧٠٪ من الإجمالى، أصوات أدت الانتخابات ولم تنتخب أحدًا، وهو ما يسمى بالأصوات البيضاء .

** معرفتي **

شطت الحيرة والدهشة، بجانب الاستهزاء والسخرية اللاذعة، البلد بأسره من أقصاه لأدناه. تستطيع الأن المجالس المحلية النائية، حيث جرت الانتخابات بلا حوادث و لا فزع، باستثناء تأخر بسيط ناجم عن سوء الأحوال الجوية، لم يؤثر فى تغيير نتيجتها عن المرات السابقة، فعدد المصوتين محدد، كذلك عدد الممتنعين شديدى المراس، أما الأصوات الملغية والأصوات البيضاء فلم تكن حالة استثنائية، أقول إن هذه المجالس المحلية، التى أذلها الانتصار المركزى عندما كانت العاصمة تتباهى بنفسها أمام الدولة كنموذج للقومية الانتخابية الصرف، تستطيع أن ترد الصفعة إلى من صفعها أولا وتستهزئ من الغرور الأحمق لهؤلاء السادة الذين يعتقدون أنهم يضعون الملك فى بطونهم فقط لمجرد أن الصدفة جعلتهم يعيشون فى العاصمة. إن كلمة " هؤلاء السادة " التى نطقت بحركة من الشفاه التى تضغط على كل مقطع، حتى لا أقول كل حرف، لم تكن موجهة ضد الأشخاص الذين مكثوا فى بيوتهم حتى الرابعة عصرًا، وفجأة خرجوا للتصويت كما لو تلقوا أمرًا لا يمكنهم مقاومته، وإنما ضد الحكومة التى تغنت بالنصر قبل تحقيقه، ضد الأحزاب التى بدأت فى

التحكم فى الأصوات البيضاء كما لو كانت عناقيد عنب قد أينعت وحان قطافها وهم قاطفوها، ضد الجرائد ووسائل الإعلام الأخرى للسهولة التى يتحولون فيها من التصفيق أمام القلعة إلى السقوط من صخرة عالية، كما لو كانوا هم أنفسهم لا يشكلون جزءًا فعالا فى التجهيز للمصائب .

كان لمازحى الأقاليم بعض الحق، لكن ليس كما كانوا يعتقدون. تحت الاضطراب السياسى الذى يسود العاصمة بأسرها مثل خيط البارود الذى يبحث عن هدفه، يُلاحظ نوع من الاضطراب الذى يتفادى الظهور بصوت مرتفع، باستثناء بين الأزواج وبين الشخص وصداقاته وبين الحزب وجهازه، وبين الحكومة فيما بينها. ماذا سيحدث لو تم إعادة الانتخابات؟ هذا هو السؤال الذى يتردد بصوت خفيض، مكبوح، سرى، حتى لا يوقظ التنين النائم. هناك من يرى أنه من الأفضل عدم ضرب الحيوان بهراوة على ظهره، ويؤثِرون ترك الحال على ماهو عليه، حزب اليمين فى الحكومة، حزب اليمين فى المجالس المحلية، التصنّع بأن شيئًا لم يحدث، بل وتخيّل، مثلا، إعلان حالة الطوارئ فى العاصمة، وبالتالى، إيجاد الضمانات الدستورية فى حالة استرخاء، وبعد فترة بعينها، بعد أن يستقر التراب فى مكانه، وبعد أن يدخل الحدث المشئوم فى سجل الماضى المنطوى، حينها، نعم، يتم التجهيز للانتخابات الجديدة، التى تبدأ بحملة انتخابية مدروسة جيدا، بل

وثرية فى قسمها ووعودها، فى الوقت الذى فيه يتقون بكل الوسائل، وبدون حساسية مفرطة أمام عدم الشرعية الصغيرة والمتوسطة، إمكانية أن تتكرر الظاهرة التى استحقت من جانب متخصص مشهور فى هذه المسائل اسم " المسوخ السياسى الاجتماعى " .هناك أيضًا من عبّروا عن رأى مخالف، وبرهنوا على أن القوانين مقدّسة، وأن ما هو مكتوب يجب تنفيذه، وليعان من الأمر من يعانى، وأننا لو دخلنا فى درب الذرائع وطرق الشطارة التى تجرى أسفل المائدة، سنذهب مباشرة نحو الفوضى وفساد الضمائر، وفى النهاية، إذا نص القانون أنه فى حالة الكوارث الطبيعية يتم اعادة الانتخابات بعدها بثمانية أيام، فلتعاد الانتخابات بعدها بثمانية أيام، أى يوم الأحد القادم، وليفعل الله ما يريد، فمن أجل هذا تنفع إرادته . لاحظ، مع ذلك، أن الاحزاب عند التعبير عن وجهة نظرها تفضّل ألا تغامر لدرجة الموت، فتصيب برأى وتموه برأى آخر، فيقولون نعم التى تحمل معنى نعم ولا معا. أما قادة حزب اليمين، حزب الحكومة والمجالس المحلية، فيرتكنون على عقيدة تقول إن النصر لا نقاش فيه، ويجب أن يُقدّم لهم على أعدائهم فوق صينية من فضة، وبالتالى فقد تبنوا تقنية تتمتع بالهدوء المصبوغ بالحيطة الدبلوماسية، وهم على ثقة فى رأى الحكومة السديد، التى تضطر دائمًا لتطبيق القانون، كما هو منطقى وطبيعى فى الديمقراطية المدعمة، مثل ديمقراطيتنا . يتممون

العبارة. أما أعضاء حزب الوسط فهم كذلك يطمحون لاحترام القانون، لكنهم يطالبون الحكومة بشىء يعلمون مقدما أنه من المستحيل تحقيقه، وهو تأسيس وتطبيق الإجراءات الصارمة التى تؤكد الشفافية المطلقة للانتخابات، لكن، قبل أى شىء، تخيّلوا، يطالبون بتطبيق تلك الإجراءات فيما يخص النتائج على وجه الخصوص، لكيلا تتكرّر فى هذه المدينة المهزلة التى حدثت أمام أعين الوطن والعالم. أما حزب اليسار، فبعد أن اجتمع أعضاؤه أصحاب الكلمة العليا، وبعد جدل طويل، أعدوا وألقوا بيانهم الذى عبّروا فيه عن أملهم الراسخ فى أن يكون ما قد حدث فى العملية الانتخابية الفائتة ميلادًا لوقائع سياسية رئيسية تتأسس عليها، بكل موضوعية، مرحلة جديدة من التطور و التقدم الاجتماعى الواسع. لم يُقسم قادة اليسار أنهم كانوا ينتظرون الفوز فى الانتخابات وحكم المجلس المحلى، لكن ذلك كان مقروءا بالطبع. ليلا، توجه رئيس الوزراء إلى التليفزيون ليعلن للشعب أنه، طبقا للقوانين السارية، سيتم إعادة الانتخابات يوم الأحد القادم، وصرح ببدء الحملة الانتخابية من اليوم و لمدة أربعة أيام تنتهى الساعة الثانية عشرة مساء يوم الجمعة. إن الحكومة - أضاف بوجه يعلوه الحدة، مشددًا على المقاطع القوية - تثق فى سكان العاصمة وتدعوهم من جديد للتصويت، فهى تثق أنهم سيمارسون جيدا حقهم الوطنى بكرامة وتوقير، كما فعلوا دائما فى المرات

السابقة، ليمحوا بذلك آثار الحادث المؤسف الذى فيه، لأسباب مازالت غير مكتملة الوضوح، لكنها تحت الفحص والدراسة، وجد السكان أنفسهم وبشكل غير متوقع مرتبكين وفاقدين لطبيعتهم . ولم يتبق بذلك سوى كلمة رئيس الدولة يوم الجمعة لإغلاق الحملة الانتخابية . عزيزى الناخب، سيكون الأحد يومًا مشرقا.

وحقًا كان الأحد يومًا مشرقًا. فى الصباح المبكّر، عندما كانت السماء التى تعلونا وتحمينا فى قمة تألقها، وترسل شمسها الذهبية الساطعة لتخترق الزجاج الأزرق، كما قال المراسل التليفزيونى فى كلماته الملهمة، بدأ الناخبون فى الخروج من بيوتهم صوب لجانهم الانتخابية، لكنهم لم يخرجوا فى تكتلات عمياء كما قالوا إنه حدث الأسبوع الماضى، مع ذلك، ومع أن كلا منهم ذهب بمفرده، إلا أنهم ذهبوا بسرعة و نشاط لدرجة أن الأبواب لم تكن قد فُتحت بعد، فاصطفوا أمامها فى صفوف طويلة منتظرين دورهم . لم يتمتعوا جميعًا، لسوء الحظ، بالنزاهة و الشفافية فى حكاويهم الهادئة. لم يكن هناك ولا صف واحد، صف واحد فقط من بين الأربعين صفا المنتشرين فى أنحاء المدينة، خاليًا من الجواسيس الذين جاءوا لمهمة التصنت وتسجيل التعليقات الصادرة من الناخبين، فقد كانت المباحث مقتنعة أن الانتظار الطويل ، كما يحدث فى العيادات الطبية، يؤدى إلى إطلاق اللسان عاجلاً أم آجلا،

وستظهر على السطح، حتى ولو بنصف كلمة، النوايا السرّية التى تحرّك روح الناخبين. أغلب الجواسيس كانوا متمرّسين، ينتمون إلى جهاز المخابرات، لكن أيضًا منهم من ينتمى للخدمة التطوعية، وهم مواطنون يهوون التجسس ويقدمون أنفسهم بميلهم الطبيعى لتقديم خدمة، بلا مقابل مادى، كل ما يفعلونه هو الكلام، ويكمن عملهم فى تأدية اليمين على ما وقعّوه، أو، وليس فى أحوال قليلة، يوجد منهم من يشعر بالمتعة المرضية عندما يشى بالآخرين. إن الشفرة الجينية لهؤلاء، بدون تعمق فى التفكير، نكتفى بتسميتها : طبيعة بشرية، وهى طبيعة تسرى فى اللولب العضوى لما يسمى دى ان ايه، لدينا الكثير لنقوله عنها، ولديها الكثير لتحكيه لنا، لكن التجسس هواية، إذا تحدثنا بشكل مجازى، فهى الخط الحلزونى المكمّل الذى إلى الآن لم نستطع أن نخرجه من رحمه، بالرغم من أن حشدا من الأطباء النفسيين والمحللين المهمين من المدارس المختلفة قد درسوا الأمر وانتهوا معترفين بوضع أصابعهم العشرة فى شق. هذه الاعتبارات العلمية، بالرغم من قيمتها الفعلية وانتشارها الذى سيتحقق فى المستقبل، لا يجب أن تنسينا حقائق اليوم المثيرة للقلق، مثل التى أشرنا إليها فى التوّ، فالأمر لا يكمن فقط فى وجود الجواسيس هنا، بوجوه شاردة، بآذان مرهفة السمع لتسجل بموارية ما يقال حولهم، فهناك أيضًا سيارات تنزلق بنعومة على طول الصف، يقودها شخص

يتظاهربالبحث عن مكان يركن فيه، ويحمل بداخلها، مخفية عن العيون، كاميرات فيديو عالية الجودة وميكروفونات من آخر جيل قادرة ، من خلال مربع الشاشة، على نقل الانطباعات التى فى الظاهر تختفى فى الهمهمات المتنوعة لمجموعة من الناس يعتقدون، كل منهم على حدة، أنه يفكر فى شئ آخر مختلف. لقد تم تصوير الكلمة، لكن أيضًا تصميم الانفعال. حتى اللحظة التى فيها فتحوا أبواب اللجان الانتخابية وبدأت الصفوف فى الحركة، لم تكن الكاميرات قد استطاعت أن تلقط شيئًا سوى عبارات لا فائدة منها، وتعليقات تافهة حول جمال الصباح والجو الممتع أو عن الإفطار الذى تناولوه على عجل، وحوارات مختصرة حول المسألة المهمة المتعلقة بكيفية ترك الأمهات لأبنائهن فى أمان والحضور من أجل التصويت الانتخابى. «لقد تركت أباهم يرعاهم»، «الحل الوحيد هو أن نأتى بالدور» «أنا أصوّت الآن، ثم يأتى هو بعد ذلك» . «بالطبع كنا نود أن نصوّت معا، لكن ذلك لم يكن ممكنا، ومن لا وسيلة أمامه فليرض بالواقع، كما يقال». «ابننا الصغير بقى مع أخته الكبرى التى لم تصل لسن الانتخاب بعد»، «نعم، هذا زوجى». «سعيد بمعرفتك»، «أنا أسعد». «ياله من صباح جميل». «إن الصباح صار كذلك ليكون ملائمًا». «فى يوم ما كان يجب أن يحدث». وبالرغم من الحدة السمعية للميكروفونات التى تعبُر و تعاود العبور، سيارة بيضاء، سيارة زرقاء، سيارة خضراء، سيارة

حمـراء، سـيارة سـوداء، تـعـلـو كل مـنـهـا إريـال هـوائـى يتأرجح مع نـسيم الـصبـاح، لم يكن هنـاك شـىء يثير الـشبـهـة بشـكل واضـح مع إطـلالـة رأس تحت جـلـد من الـتعبيـرات الـبـريـئـة والـعـامـيـة مثل هـذه، على الأقل فى ظاهـرهـا. ومع كل، لم يـكن ضـروريًا أن تـكـون حـاصـلا على الـدكـتـوراة فـى سـوء الـظن أو حـاصـلاً عـلى دبـلـومـة فى الـريـبـة حتى تـشم رائـحـة شـىء خـاص فى الجـمـلـتـين الأخـيـرتـين، جـمـلـة: إن الـصـبـاح صـار كـذلك لـيـكـون ملائمًا، وخـاصـة الجـمـلـة الـثـانـيـة : فى يوم ما كان يجب أن يـحـدث . غـمـوض قـد يـكـون غـيـر مـقـصـود، غـيـر مدرك، لكن، لهذا السبب نفسه، بالقوة سيصيران أكثر خطورة، وسيتفق تعارضهما مع التحليل الدقيق للنبرة التى فيهـا سـتـكـون الـكـلـمـات المقـالـة منـطـوقـة، لـكن مع نغمة الصـدى الذى صدرت به، نقصد ما داخل النبرة، والـتى بـدون اعـتـبـارهـا، والإيمـان بـنـظـريـاتـهـا الحـديـثـة، سـيكـون درجـة فـهـم أى خـطـاب شـفـهـى منطـوق، دائـمًـا غير كاف، نـاقـصًـا، مـقـصـورًا. لـقـد أعـطـوا تـعـلـيـمـاتـهـم الاحتـيـاطـيـة لـلـجـاسـوس الـواقـف بـالـصـدفـة هـنـاك، كـمـا أعطوا لـبقـيـة زمـلائـه، تلك الـتـعلـيـمـات الـدقـيـقـة عن كيف يتصرفون فى أحوال مثل هـذه . يجب ألا يبتعدوا عن المشتبه فيهم، يجب أن يفصلهم عنهم ثلاثة او أربعة أشـخـاص فـى صـف الـنـاخـبـين، يـجـب، كـزيـادة فـى الـضـمـان، بـالـرغـم من حـسـاسـيـة جـهـاز الـتـسـجـيـل الـذى يـحـمـلـونـه مـخـتـبـئًـا، أن يـحـفـظـوا فـى الـذاكـرة اسـم ورقـم الـنـاخـب عـنـدمـا يـنـطـقـه رئـيـس الـلـجـنـة بـصـوت مـرتـفـع،

يجب تصنّع أنهم قد نسوا شيئًا و الانسحاب فى تحفظ من الصف، والخروج للشارع و تبليغ ما حدث لمركز المعلومات عبر الهاتف، وأخيرًا، العودة لأرض الصيد، واقفًا من جديد فى صف الناخبين. وبالمعنى الدقيق للكلمة، لا يمكن أن يقارن هذا الفعل بالتدريب على الرماية، إن ما ننتظره هنا هو أن تضع الصدفة، التوافق، الحظ، أو أيا كان اسم هذا الشىء الملعون، الهدف أمام الطلقة .

كانت الأخبار تمطر على مركز المعلومات كلما مر الوقت، مع ذلك، لم يكشفوا نية الناخب المصطاد فى التصويت بشكل واضح فى أية حالة، ولا بالتالى بشكل مدحض فى المستقبل ، فالذى كان يملأ القائمة عبارات من النوع السابق ذكره عاليه، حتى هذه الجملة التى تُقدم على أنها أكثر الجمل إثارة للشبهة، " فى يوم ما كان يجب أن يحدث "، قد تفقد خطورتها الظاهرة لو أرجعناها للنص الذى قيلت فيه، وهو ليس إلا محادثة بين رجلين حول طلاق أحدهما لزوجته الواقع حديثا، وهو الموضوع الذى كانا يتحدثان فيه بإنصاف كلمات لكيلا يثيرا فضول الأشخاص القريبين منهما فى الصف، وقد أنهى الحوار بهذه الطريقة، كثير الضغينة، كثير الاستسلام، بالرغم من أن التنهيدة المرتجفة الخارجة من صدر الرجل حديث الطلاق، لو كانت الحساسية هى أهم سمات عمل الجاسوس، لوضعها بشكل واضح فى خانة الاستسلام. إن ما لم يعتبره الجاسوس جديرًا

بالتدوين، وما لم يلقطه جهاز التسجيل، لهى أخطاء بشرية وتكنولوجيّة سيقدّرها قاض عادل، عالم بأحوال البشر وغير جاهل بالماكينات، وسيلتزم بوضع ذلك فى اعتباره، حتى عندما لا توجد فى مادة القضية أقل إشارة لذنب ارتكبه المتهم، وهذا هو العدل بصورته العظمى، بالرغم من أنه يبدو بالنظرة المجرّدة أمرًا فظيعًا. إننا نرتجف عندما نفكّر فيما يمكن أن يحدث غدًا لهذا الرجل البرئ عندما يستجوبونه : اعترف إنك قولت للشخص الذى كان معك إنه " يوم ما كان يجب أن يحدث ". نعم، أعترف . فكّر جيدًا، قبل أن تجيب، فى معنى هذا الكلام. كنا نتحدث عن انفصالى . انفصال أم طلاق ؟. طلاق . وما هو شعورك اتجاه هذا الطلاق ؟. أعتقد أننى أشعر بقليل من الغضب، وقليل من الاستسلام . أتشعر بغضب أكثر أم باستسلام أكثر؟ .أظن باستسلام أكثر . ألا يبدو لك، فى هذه الحالة، أنه من الطبيعى إطلاق تنهيدة، خاصة لو كنت تتحدث مع صديق ؟ . لا أستطيع أن أقسم أننى لم أتنهد، لا أتذكّر . لكننا على يقين أنك لم تتنهد. كيف عرفتم ذلك إن لم تكونوا هناك. ومن أخبرك أننا لم نكن هناك. ربما صديقى يتذكّر إن كان قد سمعنى أتنهد، تستطيعون سؤاله. على ما نرى فإن صداقتك معه ليست حميمة. ماذا تقصد بقولك هذا. إن دعوة صديقك هنا معناه إثارة المشاكل له. آه، ليس الأمر كذلك. اتفقنا . أستطيع الرحيل الآن ؟. ما تلك الأفكار يارجل، لا تتعجل

أمرك، عليك أن تجيب أولا على السؤال الذى طرحناه عليك. أى سؤال . فيما كنت تفكر عندما قولت لصديقك هذه الكلمات. لقد أجبت . إعطنا إجابة أخرى، فهذه لا تنفع . لكنها الإجابة الوحيدة التى أستطيع أن أعطيها لأنها الحقيقة . هذا ما تعتقده. بالطبع أستطيع أن أكذب. إذًا فلتكذب، فنحن لا يهمنا أن تخترع إجابات شريطة أن تقنعنا، ومع الوقت والصبر، بالإضافة لممارسات ملائمة لبعض التقنيات، ستصل فى النهاية إلى حيث نطمح أن نسمع. أخبرونى ما تودوا سماعه و لينته الأمر .أه، هذا أمر ثقيل الظل، أية صورة ستأخذها عنا، سيدى العزيز، نحن لدينا كرامة علمية يجب أن تحترم، لدينا ضمير مهنى علينا أن ندافع عنه، إنه لمن المهم بالنسبة لنا أن نكون قادرين على أن نبرهن لرؤسائنا أننا نستحق المال الذى يدفعوه لنا و الخبز الذى نأكله . أنا تائه . لا تتعجل .

كان الانطباع الهادئ الذى يتسم به الناخبون فى الشوارع وداخل اللجان الانتخابية لا يتناسب مع الحالة النفسية داخل غرف الوزراء ومقار الأحزاب. كان الأمر الذى يشغل البعض و البعض الآخر إلى أى مدى سيكون الامتناع عن الانتخاب هذه المرة، كما لو كان فى هذا الأمر يكمن باب النجاة للوضع الاجتماعى المحرج وللسياسة التى تجد فيها الدولة نفسها غارقة منذ أسبوع. إن نسبة الامتناع العالية بشكل معقول، شريطة أن تكون أقل من الانتخابات

الماضية، سيعنى أننا عدنا للحالة الطبيعية، فهناك ناخبون يسيرون على الروتين المعروف، لا يعتقدون أبدًا فى فائدة الصوت الانتخابى و يصرّون بإلحاح على التغيّب، وهناك بعض آخر يفضلون استغلال الطقس الجيد لقضاء اليوم على الشاطئ أو فى الحقل مع عائلتهم، وهناك من يبقى فى البيت، بلا سبب سوى الكسل الذى لا يُقهر. إذا كان امتلاء الصناديق الانتخابية، كاملة كما حدث فى الانتخابات السابقة، يظهر، بدون أن يدع مجالا للشك، أن نسبة الامتناع عن التصويت سيكون منخفضًا جدًا، أو حتى مختفيًا بشكل فعلى، فإن أكثر ما كان يؤرّق الجهات الرسمية، وما كان يجعلهم على وشك الجنون، هو ما فعله الناخبون، باستثناء قلة قليلة، حيث أجابوا بصمت لا يمكن اختراقه على أسئلة المكلفين بجس النبض حول أهمية صوتهم الانتخابى. «إنه فقط من أجل الاحصائيات، لا يجب أن تكشف عن هويتك، لا يجب أن تذكر اسمك». هكذا كان يلّح المكلفون، لكن ولاحتى بهذه الطريقة استطاعوا أن يقنعوا المصوّتين المرتابين. قبل الانتخابات بثمانية أيام استطاع الصحفيون أن يحصلوا منهم على إجابات، والحق أنهم أجابوهم بنبرة ضيقة الصدر أحيانا، وبنبرة ساخرة أحيانا أخرى، وبنبرة مزدرية أحيانا ثالثة، لكن كانت الإجابات فى حقيقتها إحدى أساليب الصمت أكثر منها إجابات، لكنهم على الأقل تبادلوا معهم بعض الكلمات، جانب يسأل، جانب يتصنع كما لو كان يجيب، لا شىء يشبه

هذا الجدار الكثيف من الصمت، كما لو كان لغزًا خاصًا بهم جميعًا وقد أقسموا أن يدافعوا عن سرّيته. لقد بدا لأناس كثيرين أمرًا فريدًا، مدهشًا، حتى لا نقول إنه مستحيل الحدوث، هذا الاتفاق فى الأسلوب بين آلاف وآلاف من الأشخاص الذين لا يعرف أحدهم الآخر، ولا يفكّرون بنفس الطريقة، ولا ينتمون لنفس الطبقات الاجتماعية، ولا حتى ينتمون سياسيًا لحزب واحد، فمنهم اليمينى واليسارى و الوسطى، ويقرّرون، فى جميع الجهات، كل واحد منهم من تلقاء نفسه، أن يحتفظ بفمه مغلقا حتى عد الأصوات الانتخابية، وإفشاء السر نفسه ومن تلقاء نفسه. هذا بالتحديد، بكل أمل فى أن يصيب، ما أراد وزير الداخلية أن يخبر به مسبقًا رئيس الوزراء، وهذا بالتحديد ما تعجّل رئيس الوزراء فى نقله لرئيس الدولة، الذى، بعمر أكبر، وخبرة أكثر وصمت أعمق، ومشاهدة أرحب للعالم والحياة، اقتصر فى رده بنبرة متمهلة: «إذا لم يكونوا على استعداد للكلام الآن، إعطنى سببًا منطقيًا لرغبتهم فى الكلام بعد ذلك». لكن جردل الماء البارد الذى كبّه رئيس الدولة فوق رأس رئيس الوزراء ووزير الداخلية لم يجعلهما يفقدان حماسهما، فلم يلق بهما لمخالب اليأس لأنهما، حقيقة، لم يكن لديهما شىء يتشبثان به، ولو وقت قليل. لم يرغب وزير الداخلية أن يخبر بأنه قد أمر عميلين من المدينة ينتميان لهيئات مختلفة بالعمل بعينين مفتوحتين فى كل اللجان الانتخابية، مخافة إمكانية حدوث شىء

طارئ أثناء العملية الانتخابية ،وهو التنبؤ الذى تكفلت أفعاله الخاصة، من بين أشياء أخرى، بدحضه. كلا العميلين لديه سلطة التفتيش على عمليات عد الأصوات، لكنهما أيضًا مكلفان، كل منهما على حدة، بمراقبة زميله، لتفادى أن يخفى أى منهما هناك أى تواطؤ نزيه مع عضو فى حزب، أو ببساطة أية صفقة من سلالة الخيانات الصغيرة. وبهذه الطريقة، بين الجواسيس و المراقبين، بين أجهزة التسجيل وكاميرات الفيديو، كل شىء يبدو آمنا، شديد الأمن، وفى مأمن من التداخل اللعين الذى يفسد نقاء العملية الانتخابية، والآن، بعد نهاية اللعبة، لم يتبق شىء سوى عقد الذراعين وانتظار الحكم النهائى للصناديق الانتخابية. سادت فى المدينة ضجة قوية كالتيار الجارف، عندما فى الدائرة الانتخابية رقم ١٤ التى أسعدنا بشدة أن نخصص لعملها، تكريمًا لأعضائها الأفاضل، فصلاً كاملاً، بدون أن نغفل بعض المشاكل الحميمية المتعلقة بحياة بعض منهم، عندما فى كل الدوائر المتبقية من الدائرة رقم إلى الدائرة رقم ١٣ ومن رقم ١٥ إلى رقم ٤٤ كان رؤساء اللجان يقلّبون الأصوات الانتخابية فوق ألواح خشبية طويلة استعملوها كترابيزات. كانت الإشاعة مقدمة لبركان سياسى على وشك الانفجار. فى البيوت والمقاهى، فى البارات و المطاعم، فى كل الأماكن العامة والخاصة حيث يوجد جهاز تليفزيون أو راديو، كان سكان العاصمة ينتظرون، بعضهم بهدوء والبعض الآخر

بتوتر، نتيجة الانتخابات النهائية. لم يكن أحد يثق فى جاره ليحدّثه حول صوته الانتخابى، حتى الأصدقاء الأكثر حميمية كانوا يلتزمون الصمت، والأشخاص الأكثر بلاغة يبدو الآن أنهم قد نسوا الكلمات. فى الساعة العاشرة مساءً، أخيرًا، ظهر رئيس الوزراء. جاء بوجه متغير لونه، بهالات عميقة حول عينيه، من جراء أسبوع كامل قضى لياليه فى سهاد، كان شاحب الوجه بالرغم من المكياج الذى بغى إظهاره فى صورة رجل صحيح . أحضر ورقة فى يده، لكنه لم يقرأ منها تقريبًا، بالكاد كان يلقى نظرة من حين لآخر حتى لا يفقد خيط الخطاب. «أعزائى المواطنون»، قال: «نتيجة الانتخابات التى أجريت اليوم فى العاصمة كما يلى: حزب اليمين ٨٪ ؟ حزب الوسط ٨٪؟ حزب اليسار ٢٪ . الامتناع عن الانتخابات٠٪ . أصوات غير صالحة ٠٪ .أصوات بيضاء لم تنتخب أحد ٨٣٪ وقف وقفة ليدنى كوب الماء القريب منه من شفتيه وواصل : الحكومة، معترفة أن تصويت اليوم يؤكد، بشكل فادح، الاتجاه الذى تحققنا منه الأحد الماضى، ومتفقة بالإجماع على ضرورة التحرى الجاد فى الأسباب الأولى والأخيرة لهذه النتائج المشوشة، تعتبر، بعد التداول مع سيادة رئيس الدولة، أن شرعية الانتخابات ليسير معمولاً بها قد توقفت، لأن الدعوة التى انتهت الان كانت فقط محلية ، لأنها بالإضافة لذلك تطالب وتتحمل كالتزام قاهر و طارئ تقصى حتى العواقب الأخيرة للأحداث الشاذة التى فيها كنا

نلعب دور الممثل المتهور خلال الأسبوع الأخير، بالإضافة لكوننا شهودا منذهلين، وإذا كنت، بحزن عميق يخالجنى، أنطق هذه الكلمة، فهو لأن الأصوات البيضاء، التى قد صوّبت ضربة فى مقتل للطبيعة الديمقراطية التى فيها تجرى حياتنا الشخصية والجماعية، لم تهبط علينا من أعالى السماء ولم تخرج لنا من بطن الأرض، وإنما كانت فى جيب ٨٣ من كل مئة ناخب من هذه المدينة، هؤلاء الذين وضعوا أصواتهم البيضاء بأيديهم غير الوطنية فى الصناديق الانتخابية». شرب رشفة ماء، كان فى حاجة إليها هذه المرة أكثر من المرة السابقة، حيث قد جف ريقه فجأة . «مازال أمامنا الوقت لنصلّح خطأنا، ليس من خلال انتخابات جديدة، ربما تكون فى الوضع الحالى غير نافعة، بل ومؤدية لنتيجة عكسية، وإنما من خلال الامتحان الصارم للضمير الذى أخاطبه فى سكان العاصمة من هذه المنصة العامة، كل السكان، أخاطب بعضهم ليتمكنوا من حماية أنفسهم أفضل من التهديد الفظيع الذى يطفو فوق رءوسهم، وأخاطب بعضهم الآخر، سواء كانوا مذنبين أم أبرياء النية، ليصححوا أنفسهم من شرورهم التى انساقوا وراءها والله أعلم من ساقهم، ويملؤنى الأسى تحولكم لأصوات بيضاء مباشرة مما يترتب عليه عقوبات متوقعة حيث ستسود حالة الطوارئ التى سيتم إعلانها غدًا، بعد استشارة البرلمان الذى سيجتمع فى جلسة طارئة لهذا الأمر، وقد تم الحصول على موافقة جماعية، كما هو منتظر،

وستطالب الحكومة بموافقة سعادة رئيس الدولة» . تتغير نبرته . يبسط ذراعيه لدرجة معينة، يرفع يديه حتى محاذاة كتفه. «إن حكومة البلد على يقين من ترجمة الإرادة الأخوية لاتحاد بقية الدولة، تلك الترجمة القومية الجديرة بكل الثناء لأنها أدت واجبها الانتخابى بشكل طبيعى، والآن، كأب محب، أذكّر ناخبى العاصمة، الذين أضلوا الطريق المستقيم، الدرس الرفيع فى قصة الابن السفيه وأقول لهم إن القلب البشرى لا ينقصه شيء لكى يغفر كل الأخطاء، شريطة أن تكون التوبة نصوحًا، وأن يكون الندم قد بلغ مداه». ظلت جملة رئيس الوزراء الأخيرة : كونوا شرفاء مع وطنكم، فالوطن يتأمّلكم، بصحبة دقات الطبول والأبواق الرنينية، جملة ظاهرة التصنع تقع فى ادنى درجات البلاغة الموروثة، وقد أفقدها رونقها كذلك عبارة : فلتصبحوا على خير، التى كانت مزيفة الإحساس ، وهذه هى ميزة الكلمات البسيطة، أنها لا تعرف الخداع .

فى كل الأماكن، فى البيوت والحانات والمطاعم والمقاهى، فى الجمعيات و المقار السياسية حيث يوجد ناخبون من حزب اليمين و الوسط وحتى حزب اليسار، علّق الجميع بشكل واسع على بيان رئيس الوزراء، وبالطبع، كما هو منطقى، كان تعليق كل منهم له طريقته المختلفة وصبغته المميزة . كان أكثر الناس سرورًا بالأداء، وهم من ينسب إليهم هذا التعبير الهمجى، لا إلى من جاءت هذه الرواية لتُروى عنهم،

كانوا أعضاء حزب اليمين، هؤلاء الذين، بإحساس بالعلو، وبين غمزات أعينهم، كانوا يتبادلون التهانى بمناسبة التقنية الممتازة التى استخدمها رئيس الوزراء، تلك التقنية التى يمكن تعريفها باسم سياسة العصا والجزرة، وهى السياسة التى كانت تطبّق وبقوة على الدببة والبغال فى الأزمنة القديمة، لكن فى العصور الحديثة، وبنتائج جديرة بالتقدير، يعاد استخدامها، لكن مع الجنس البشرى . بعضهم، من النوع العفاريتى والمتصلّف، اعتبروا أن رئيس الوزراء كان عليه أن ينهى خطابه عند النقطة التى أعلن فيها قرب إعلان حالة الطوارئ، فكل ما جاء بعد ذلك يعد حشوا، «فمع الرعآع تكفى العصا»، «فلو أعطيتهم ثوبًا مخططًا سيرتدون الثوب المخطط» . «حتى الماء يحرّم على العدو»، وعبارات أخرى قوية شبيهة الشكل. كان زملاؤهم يبرهنون أن الأمر ليس كذلك، فللرئيس أسبابه، لكن هؤلاء الداعون للسلام ، الساذجون دائما كعادتهم، كانوا يجهلون أن رد الفعل الجاف من قبل المتشددين ما هو إلا مناورة تكتيكية هدفها البقاء على العرق الحربى للأعضاء مستيقظًا. وما كان ذلك إلا كلمة سر لإشعال المعركة. أما أعضاء حزب الوسط، بما أنهم من المعارضة، بالرغم من أنهم يتفقون فى الأمر الأساسى مع اليمين، أقصد الحاجة العاجلة ليتحمل كل مسئوليته ومعاقبة الرءوس المدبرة، أو المتآمرين، كانوا يجدون من غير المناسب إعادة حالة الطوارئ خاصة لعدم معرفة مدة استمرارها، وأيضا،

فى التحليل الأخير، لا يجدون مغذى من وراء إسقاط حقوق من لم يرتكبوا ذنبًا غير ممارسة أحد حقوقهم الشرعية . كيف سينتهى كل ذلك ـ كانوا يتساءلون فيما بينهم ـ لو قرر أحد المواطنين اللجوء إلى المحكمة الدستورية. أضافوا : سيكون أكثر ذكاء ووطنية تشكيل حكومة إنقاذ قومى بممثلين من جميع الأحزاب، لأنه، عند وجود حالة طوارئ عامة بالفعل، وليس حالة استثنائية مثل هذه التى يمكن أن تحل، سيفقد حزب اليمين زمام الأمور، وعاجلاً يسقط من أعلى الحصان. أيضا كان أعضاء حزب اليسار يبتسمون أمام إمكانية أن يكون حزبهم جزءًا من حكومة ائتلافية، لكن، أثناء ذلك، أكثر ما كان يشغل بالهم هو اكتشاف تفسير للنتيجة الانتخابية التى قد تستطيع إخفاء السقوط المروع للأصوات الانتخابية التى عانى منها الحزب، حيث إنهم، عند الحصول على خمسة فى المئة فى الانتخابات العامة الأخيرة التى أجريت والتحول إلى اثنين ونصف فى المئة فى الدورة الأولى من تلك الانتخابات، يجدون أنفسهم الآن أمام النتيجة المؤسفة وهى واحد فى المئة ومستقبل اسود يقف أمامهم . بلغت نتيجة التحليل الذروة مع إعداد البيان الذى فيه كان يلمّح لعدم وجود أسباب موضوعية تضطر للاعتقاد بأن الأصوات البيضاء كانت تطمح فى الاعتداء على أمن الدولة أو ضد استقرار النظام، وبالتالى فإن الصواب هو افتراض تلاقى فكرى جاء بالصدفة بين إرادة التغيير

التى أعلنت عن نفسها هكذا وبين اقتراحات التقدّم التى يحتويها برنامج حزب اليسار. لا شىء غير ذلك، فهذا هو الأمر برمته .

هناك أيضًا أشخاص اقتصروا على إغلاق جهاز التليفزيون عندما أنهى رئيس الوزراء بيانه وبعد ذلك، قبل أن يخلدوا للنوم، سلوا أنفسهم بالحديث عن الحياة، وهناك أيضًا من قضى بقية السهرة فى تقطيع وحرق الأوراق. لم يكونوا متآمرين، لكن الخوف ببساطة كان يتملّكهم .

كان وزير الدفاع، وهو رجل مدنى لم يؤد الخدمة العسكرية، قليل الاقتناع بإعلان حالة الطوارئ، فما كان يطمح إليه حقا هو حالة الحصار، حصار حقيقى بكل ما تعنيه الكلمة، حصار صارم بلا أى أخطاء من أى نوع، هذا الحصار الذى يشبه جدارًا متحركًا قادرًا على كبح الفتنة وهزيمتها فيما بعد بهجمة مضادة شديدة القوة، «قبل أن يتأصل الوباء» - حذّر الوزير - «وتصل الغرغرينا إلى الأعضاء التى مازالت سليمة فى جسد البلد». اعترف رئيس الوزراء أن خطورة الموقف قد وصلت مداها، وأن الوطن صار فريسة لاعتداء آثم يستهدف أسسه الثابتة لديمقراطيته القائمة. «أنا أصف هذا الوضع بالحجر الملقى فى ماء النظام الراكدة» وسمح لنفسه بذلك بأن يختلف مع وزير الدفاع - «فأنا أعتقد، ورئيس الدولة يتفق معى فى وجهة نظرى، أننا لو وضعنا فى الاعتبار مخاطر المؤامرة الحالية، سنتمكن من مواجهة وسائلها وأهدافها فى اللحظة المناسبة، لذا فمن الأفضل أن نبدأ بتزويد أنفسنا بوسائل سرية، أقل تباهيا، وأكثر فاعلية، تكمن فى إرسال الجيش ليحتل الشارع ويغلق المطار ويضع الحواجز عند مخارج المدينة» . «وما هى

هذه الوسائل؟» ـ سأل وزير الدفاع بدون أن يبذل أدنى مجهود لمداراة معارضته ـ . «هى وسائل أنت على دراية بها، ولأذكّرك أن للقوات المسلحة أجهزة تجسس خاصة بها» . «جهاز تجسسنا ـ رد وزير الدفاع ـ يسمى جهاز التجسس المضاد». «أيا كان الاسم، لا فرق». «أفهم إلى أين تريد أن تصل» . «كنت أعلم أنك ستفهمنى» ـ قال رئيس الوزراء فى نفس الوقت الذى كان فيه يقوم بتوجيه إيماءة لوزير الداخلية الذى صارت الكلمة معه . «بدون الدخول فى تفاصيل بعينها فى العملية، تلك التفاصيل التى تشكل سريتها والتى نسميها معلومات top secret فالخطة التى أعدتها وزارتى بشكل عام تكمن فى إحداث تسلل واسع ومنظّم للمواطنين، سيقوم به عملاؤنا المدربون الذين سيطلعوننا على أسباب ما حدث ومدنا بالمعلومات الكافية لاتخاذ الإجراءات اللازمة حتى نتمكن من استئصال الشر من جذوره». «لا يصح أن تتحدث عن جذور الشر بينما هو الآن أمامنا ناهضًا» ـ علّق وزير العدل ـ «إنه مجرد تعبير دارج» ـ أجابه وزير الداخلية بنبرة غضب طفيفة ـ وواصل قائلا: «هذه هى اللحظة المناسبة لأخبر المجلس، بكل مصداقية مطلقة، ومعذرة على الإطناب، أن جهاز المخابرات الواقع تحت سلطتى، أو بمعنى آخر التابع للوزارة التى أديرها، لا يستبعد إمكانية أن يكون لما حدث جذور حقيقية فى الخارج، وأن ما نشاهده الآن ما هو إلا قمة الجبل الثلجى للمؤامرة الدولية الكبرى التى تستهدف إثارة

البلبلة، وقد تكون هذه المؤامرة مؤامرة من قبل الاتجاه الفوضوى، ولأسباب لا نعرفها اختاروا بلدنا فقط كنقطة بداية». «يالها من فكرة غريبة» - قال وزير الثقافة - «فعلى قدر معرفتى، فالفوضويون لم يقترحوا أبدًا، ولا حتى على المستوى النظرى، ارتكاب افعال بهذه الصفات وهذا الانتشار». «ربما - رد وزير الدفاع بسخرية لاذعة - لأن معرفة زميلنا العزيز لم تتجاوز بعد عالم أجدادنا المثالى وبالتالى، مع أن ذلك يبدو له غريبًا، إلا أن الأمور قد تغيرت كثيرًا، فلم نعد فى الزمن الذى فيه كانت مرحلة العدمية تتراوح بين الشعرية والدموية، فما نراه أمام أعيننا، ما هو إلا إرهاب صرف وصارم، له وجوه مختلفة وتعبيرات متعددة، لكن جوهره واحد». «كن حذرًا فى كلامك ولا داعى للمبالغات و الشطحات الرخيصة» - تدخل وزير العدل - «يبدو لى خطيرًا، حتى لا أقول متعسفًا، وصف ظهور عدة أصوات بيضاء فى الانتخابات بالإرهاب الصرف والصارم». عدة أصوات، عدة أصوات - تلعثم وزير الدفاع وبدا شبه مشلول من الدهشة - «كيف يمكن قول عدة أصوات على ثلاثة وثمانين صوتًا من كل مئة، أخبرونى كيف، متى يجب أن ندرك، أن نعى، أن كل واحد من هذه الأصوات مثل الطوربيد تحت خط الماء». «ربما تكون معارفى حول الفوضوية قد جار عليها الزمن - تحدّث وزير الثقافة - لا أنكر ذلك، لكن، على قدر معرفتى، بالرغم من تأكيدى أننى غير متخصص فى الحروب البحرية، فإن

الطوربيدات توجد دائمًا تحت خط الماء، كما أنها حسب ظنى يجب أن تكون تحت خط الماء، فقد صنعت من أجل ذلك» . نهض وزير الداخلية من مكانه فجأة مثل السوستة ليدافع عن زميله وزير الدفاع من العبارة الساخرة التى وجهت له، وليندد ربما بعدم الانسجام السياسى الواضح فى هذا المجلس، لكن رئيس الحكومة سدد بيد مفتوحة ضربة جافة على المائدة معلننا الصمت. «يستطيع وزير الدفاع و الثقافة مواصلة جدلهما الأكاديمى حول الطوربيدات خارج هذه القاعة، واسمحوا لى أن أذكّركم أن سبب اجتماعنا هنا، فى هذه الصالة التى تمثل البرلمان، قلب السلطة وقوة الديمقراطية، هو اتخاذ القرارات التى يجب أن تنقذ الدولة من الأزمة الخطيرة التى تحيق بها، والتى يجب أن نواجهها بقوة فهى أشد أزماتها على طول التاريخ، وهذه هى مهمتنا، وبالتالى فأنا أعتقد أننا أمام تحد كبير، وعلينا أن نتجنب، نظرًا لمراكزنا، الهراء اللفظى والامور التافهة القابلة للتأويل». توقّف عن الحديث، ولم يتجرأ أحد على مقاطعة صمته. ثم واصل : «أريد أن أوضّح لوزير الدفاع أن ميل رئيس الحكومة، فى هذه المرحلة الأولية من علاج الأزمة، ناحية تطبيق الخطة التى رسمتها مخابرات وزارة الداخلية الماهرة لا يعنى و لا يمكن أن يعنى أن اللجوء لإعلان حالة الحصار قد تم تأجيله بشكل نهائى، فكل شىء سيتوقف على الطريق الذى ستسلكه الأحداث، وعلى ردود فعل سكان العاصمة،

معرفتي

وعلى جس نبض باقى المواطنين فى البلد، وعلى سلوك المعارضة الذى لا يمكن توقعه دائما، خاصة، فى هذه الحالة، رد فعل حزب اليسار، الذى لديه القليل ليخسره وهذا القليل لن يراهن عليه فيما تبقى من اللعبة ذات المغامرة العالية» «لا أعتقد» ـ علّق وزير الداخلية رافعا كتفيه فى إيماءة ازدراء ـ «أننا يجب أن نشغل بالنا كثيرًا بحزب لم يحصل إلا على واحد فى المئة من الأصوات». «هل قرأت بيانهم» ؟ ـ سأله رئيس الوزراء ـ . «بالطبع، فقراءة البيانات السياسية جزء من عملى، ويقع فى تخصصى، حقًا هناك من يدفع لمساعديه ليضعوا له فى طبقه الطعام ممضوغًا، لكننى لست ذاك الرجل فأنا أنتمى للمدرسة الكلاسيكية، فلا أثق سوى فى رأسى بالرغم من أنها قابلة لارتكاب الخطأ». «لقد نسيت أن الوزراء فى التحليل الأخير هم مستشارو رئيس الحكومة». «وهذا أمر يشرفنا، سيادة رئيس الوزراء، لكن الفرق، الفرق الكبير، يكمن فى أننا نحضر الطعام مهضوما». «حسنًا، فلنترك مسألة التغذية وكيمياء العمليات الهضمية ولنعد إلى بيان حزب اليسار، أخبرونى برأيكم، ماذا يبدو لكم». «إن الحل يكمن فى رؤية بدائية، ساذجة، للمبدأ القديم الذى يقول إن اليد التى لا تستطيع عضها عليك أن تقبّلها». «وإن طبّقنا هذا المبدأ على الوضع الحالى» ؟. «لو طبّقناه على الوضع الحالى، سيادة رئيس الوزراء، فإن كانت الأصوات ضدك فلتخترع الطريقة لتبدو فى صالحك ». «حتى

لو فعلنا ذلك، فمن الضرورى أن نظل يقظين، فهذه الخدعة قد يكون لها صداها فى الأماكن التى فيها يميل السكان أكثر لحزب اليسار» . «وفى هذه اللحظة تظهر مشكلة أننا لا ندرى ماهى هذه الأماكن» ـ قال وزير العدل ـ يبدو أننا نرفض الإعتراف، بصوت عالٍ ونحن نتبادل النظرات، أن السواد الأعظم من الثلاثة وثمانين فى المئة هى أصواتنا وأصوات حزب الوسط، وعلينا أن نسأل انفسنا لماذا أدلوا بأصواتهم بيضاء، هنا تكمن خطورة الموقف، وليس فى براهين حزب اليسار الساذجة أو الحكيمة» . «حقيقة، إن تأملنا الوضع جيدًا ـ رد رئيس الوزراء ـ لا يختلف تكتيكنا كثيرًا عن التكتيك الذى يستخدمه حزب اليسار، بمعنى، حيث إن أغلبية هذه الأصوات ليست أصواتكم، تعاملوا على أنها ليست أيضا أصواتًا لمنافسيكم» . «بمعنى آخر ـ تحدث من طرف المائدة وزير النقل و الاتصالات ـ كلنا نسير فى نفس الطريق». «إنها طريقة خالية من البت فى الوضع الحالى، لاحظوا أننى أتحدث من وجهة نظر سياسية باحتة، لكن لا ينقصها الإحساس بشكل تام» ـ قال رئيس الوزراء وأغلق النقاش.

لقد استطاعت إعادة حالة الطوارئ، كنوع من الحكم السليمانى المحاط بالعناية الإلهية، حل المشكلة العويصة التى حاولت وسائل الإعلام، وخاصة الجرائد، حلها بكل نعومة ومهارة، لكن أيضا بكل حذر لكيلا تلفت الانتباه لنواياها، وكان ذلك منذ النتيجة

المشئومة للانتخابات الأولى، وزادت، بشكل درامى، مع الانتخابات الثانية. من جانب، كان واجب تلك الوسائل، هذا الواجب الواضح و الأساسى، هو إدانة سلوك الناخبين غير المسئول وغير المتوقع، وبقوة مصبوغة باستفزاز قومى سواء فى مقالات رؤساء التحرير أومقالات الرأى المكلّفة بذلك عمدا، هؤلاء الناخبون، الذين أصابهم العمى حتى عن رؤية مصالح وطنهم العليا بانحراف غريب ومحزن، قد أوقعوا الحياة السياسية فى شرك وبشكل لم يحدث قبل ذلك قط، بل ودفعوها ناحية بئر مظلم لا أحد منا يرى مخرجًا له. ومن جانب آخر، كان من الواجب وزن كل كلمة تكتب بحذر، وقياس مدى التأثر بها، والتقدم خطوتين للأمام وخطوة للخلف، ليكون الأمر أكثر وضوحًا، وألا تحدث عداوة بين القراء والجريدة حيث تتعامل معهم على أنهم حمقاء وخائنين بعد سنوات طوال من الانسجام التام والقراءة المواظبة. لقد جاء إعلان حالة الطوارئ، الذى كان يسمح للحكومة بممارسة سلطاتها ووقف الضمانات الدستورية بجرّة قلم، ليخفف الحمل الثقيل والشبح المهدد عن عاتق المديرين و الإداريين. لقد وجدوا أفضل الأعذار وأكمل التبريرات فى حرية التعبير و الاتصال المناسب، كما وجدوها أيضًا فى الرقابة من خلال الوقوف على رأس رؤساء التحرير. كانوا يقولون إن أفضل ما نتمناه هو أن نمنح لقرائنا الموقرين إمكانية الدخول على معلومة أو قراءة رأى خال من التدخل المتعسف

والتقيّد المتعصب، خاصة فى اللحظات العصيبة التى تشبه اللحظة التى نعيشها الآن، لكن هذا هو الوضع وليس وضع آخر، ومن عاش من مهنة الصحافة النزيهة يعلم مدى الألم الذى يشعر به الصحفى عندما يعمل وهو مراقب بالفعل خلال الأربع وعشرين ساعة، وبالإضافة لذلك، وهذا أمر بيننا، فإن أغلب المسئولية، للأسف، تقع على عاتق قراء العاصمة، وليس القراء الآخرين، قرى الأقاليم، وهو ما زاد الطين بلّة، وبالرغم من كل توسلاتنا، فالحكومة لا تسمح لنا أن نطبع طبعة مراقبة هنا وطبعة حرة لباقى البلد، فبالأمس القريب قال لنا أحد كبار الموظفين بوزارة الداخلية إن أفضل رقابة يمكن أن تفهم هى الرقابة التى تشبه الشمس، عندما تسطع تسطع على الجميع، وما يحدث هنا ليس أمرًا جديدًا، فنحن نعلم أنها أشياء تحدث فى كل العالم، فدائمًا هناك أبرياء يدفعون ثمن ما ارتكبه مذنبون آخرون . وبالرغم من كل هذه الاحتياطات، سواء فى الشكل أو المضمون، سريعًا ما أصبح جليًا أن الاهتمام بقراءة الجرائد قد انحدر كثيرًا . مدفوعون بالشوق لتحقيق انطلاقة والصيد فى جهات مختلفة، ظهرت جرائد اعتقدت إنها تستطيع مواجهةتغيب مشترى الجرائد بتلطيخ صفحاتها بأجساد عارية داخل حدائق متعة جديدة، سواء كانت أجساد ذكور أم إناث، فى مجموعات أم منفردين، أفرادا أم أزواجًا، فى حالة سكون أم فى وضع ممارسة، لكن القراء، الذين نفد صبرهم من

الصور الملونة والمفصّلة، بالإضافة لدناءتها وقلة تأثيرها وإثارتها،حيث كانت تعتبر منذ القدم أماكن مشتركة مبتذلة لاكتشاف الغريزة، ظلوا ببلادة، وبلا مبالاة، بل وبغثيان، لا يشترون الجرائد، فيؤثر ذلك على مبيعاتها. كما لم يصل تأثيرها الإيجابى حتى لإيفاء المتطلبات اليومية والاقتصادية، فاهتمامها ينصب فى البحث عن وعرض العلاقات الحميمة شديدة الدناسة، كذلك الفضائح والعرى من كل نوع ، وعجلة الفضائل العامة التى لا تكل لإخفاء العيوب الخاصة، وحفلات العيوب الخاصة ليرفعوها لدرجة الفضائل العامة، تلك النقائص التى لم يكن ينقصها منذ فترة قريبة المشاهدون، والمنتخبون ليلفوا ويدوروا . حقيقة كان يبدو أن أغلب سكان المدينة قد قرروا تغيير حياتهم، تغيير ذوقهم وأسلوبهم. وكانت غلطتهم الكبرى، التى ستدرك بداية من تلك اللحظة بشكل أفضل، أن أصواتهم الانتخابية كانت بيضاء. وحيث إنهم يعشقون النظافة، فستكون أصواتهم كذلك .

كان هذا هو أيضًا رأى الحكومة، وعلى وجه الخصوص رأى وزير الداخلية. كان اختيار العملاء سريعًا وفعالاً، هؤلاء العملاء القادم بعضهم من المخابرات و البعض الآخر من الهيئات العامة، الذين يتسللون خفية صفوف الجماهير. بعد أن يعلنوا، بعد القسم، كبرهان على وطنيتهم المثالية، اسم الحزب الذى صوّتوا من أجله وطبيعة الصوت المدلى به، وبعد توقيع، أيضًا مصحوب بالقسم، مستند ينددون فيه

بحماس بالوباء الأخلاقي الذى لوث السواد الأعظم من السكان، أول ما يقوم به العملاء، من كلا الجنسين، لاحظ ذلك، حتى لا يقال كالعادة أن كل الشر يأتى من الرجال، هؤلاء العملاء المنظمين فى مجموعات من أربعين فردًا كالتلاميذ فى الفصل الدراسى، والموجهين بأجهزة مزودة بمزايا إليكترونية مصوّرة تستطيع تأويل وتمييز و التعرف على الأصوات و الصور، كنا نقول إن المهمة الأولى تكمن فى غربلة الكم الهائل من المعلومات الذى جمعه الجواسيس خلال الانتخابات الثانية، سواء المعلومات التى جمعها من تسلل الصفوف للتصنت أو من كان يتجول على طول هذه الصفوف بكاميرات الفيديو والميكروفونات . وبدءًا بعملية البحث هذه فى الأحشاء المعلوماتية، كانوا يعطون للعملاء، قبل أن يشرعوا بحماس وبحاسة الشم الكلبية فى العمل الميدانى، دروسًا فى أسس التقصى فى اجتماعات مغلقة، تلك الدروس التى تحدثنا عن مضمونها بشكل موجز وبعبارات بسيطة وواضحة عندما أتيحت لنا الفرصة فى صفحات سابقة، عبارات مثل : أنا عادة لا أدلى بصوتى، لكننى اليوم جئت كما ترى، سنرى إن كان التصويت سينفع فى شىء، كلما ذهبت بالدورق إلى النافورة كسرت يده، المرة الفائتة صوّتُ أيضا لكننى لم أستطع الخروج من البيت قبل الساعة الرابعة، الانتخابات كاليانصيب، دائمًا تخرج بيضاء، بالرغم من كل شىء يجب أن أواظب على الحضور، الأمل كالملح، لا يغذى لكنه

يعطى للخبز طعمًا. وخلال ساعات وساعات تم تفصيص وتفتيت وإعادة تركيب هذه العبارات وآلاف من العبارات الأخرى المساوية لها فى أنها غير مؤذية، بل محايدة وبريئة من كل ذنب، كما تم هرسها فى مهراس الأسئلة. اشرح لى ماهو هذا الدورق ؟ ولماذا كسرت يده عند النافورة ؟ ولم تكسر فى الطريق أو فى البيت ؟ إذا لم تعتد التصويت، فلماذا أدليت بصوتك هذه المرة ؟، إذا كان الأمل كالملح فماذا يجب أن نفعل حتى يصير الملح كالأمل فى اعتقادك ؟، وكيف نحل مشكلة اختلاف اللون بين الأمل بلونه الأخضر و الملح بلونه الأبيض ؟، هل تعتقد حقًا أن ورقة الانتخابات مثل ورقة اليانصيب ؟، ماذا تقصد بكلمة أبيض التى تفوهت بها ؟، مرة أخرى أخبرنى ماهذا الدورق ؟ وهل ذهبت للنافورة بسبب العطش أم لتلتقى بأحد ؟ وماهو الرمز الذى يشير إليه يد الدورق ؟ هل تعتقد أنك تضع الأمل فى الطعام عندما تضع الملح ؟ لماذا ترتدى قميصًا أبيض ؟ وأخيرًا ماهذا الدورق ؟ هل هو دورق حقيقى أم مجازى؟ والنافورة، ما لونها ؟ أحمراء أم سوداء ؟ سادة أم مزينة ؟ هل كانت مطعمة بالكوارتز؟ هل تعلم ماهو الكوارتز ؟ هل فزت بأى جائزة فى اليانصيب ؟ لماذا لم تخرج من بيتك فى الانتخابات الأولى قبل الساعة الرابعة بالرغم من أن المطر لم يستمر أكثر من ساعتين ؟ من هى تلك المرأة التى ترافقك فى هذه الصورة ؟ مما تضحكا بكل هذا السرور ؟ ألا ترى أن

تواجدك لأداء التصويت يعد أمرا مهمًا يتطلب من كل ناخب يشعر بالمسئولية أن يكون جادًا، صارمًا، شديد التركيز، أم تعتبر الديمقراطية شيئًا مثيرًا للضحك؟ أم هى شيء مثير للبكاء؟ مارأيك، ضحك أم بكاء؟ حدّثنى مجددًا عن الدورق، أخبرنى لماذا لم تعد لإصلاح اليد المكسورة، فهناك الكثير من الصمغ الجيد. أتعنى هذه الحيرة أنك أيضًا تنقصك يد أخرى؟ يد ماذا ؟ هل أنت سعيد بالزمن الذى تعيش فيه، أم تفضل الحياة فى زمن آخر ؟، فلنعد للملح والأمل، ما الكمية المناسبة من كل منهما لنستطيع أكل ما ننتظره ؟ هل تشعر بالتعب ؟ أتريد العودة للبيت ؟ لا تتعجل أمرك، فالعجلة من الشيطان، فهى تدفعك لعدم التفكير المتأنى فى الإجابة، ثم تأتى بعد ذلك العواقب الوخيمة . لا لست تائها، يالها من فكرة، أرى أنك لم تدرك بعد أن الأفراد هنا لا يتوهون وإنما يجدون أنفسهم. كن هادئا، فهذا ليس تهديدًا، نحن فقط نحذّرك من مخاطر العجلة، فقط. عند الوصول لهذه النقطة، وعندما تصبح الفريسة مستسلمة ومحتمية بركن، يطرح عليه السؤال العسير. الآن ستخبرنى كيف أدليت بصوتك ولصالح مَنْ، أقصد لأى حزب . حسنا، فعند استدعاء خمسمائة شخص مشتبه فيهم لاستجوابهم، وهم من تم صيدهم من صفوف الناخبين.وهو الموقف الذى قد يتعرض له أى منا مع عدم وجود تهمة واضحة سوى العبارات الفقيرة التى قدمنا منها نموذجًا، والتى تم التقاطها

عن طريق الميكروفونات الموجهة والمسجلات، فمن المنطقى، لو وضعنا فى اعتبارنا الرحابة النسبية للمكان المستقصى فيه، أن تتوزع الإجابات بنفس نسبة الأصوات التى تم الإدلاء بها، حتى ولو بهامش خطأ صغير وطبيعى، بمعنى أن أربعين شخصًا يعلنون بفخر أنهم صوّتوا لصالح حزب اليمين، الحزب الحاكم، وعدد مساوٍ يتبّل الإجابة بقليل من التحدى ليؤكد أنه صوّت للمعارضة الوحيدة الجديرة بهذا الاسم، أى حزب الوسط، وخمسة أفراد، فقط خمسة أفراد، يختبئون فى أركان الحائط، بفرائص مرتعشة، ويعلنون أنهم صوّتوا لحزب اليسار، يقولون ذلك برسوخ، لكن فى الوقت نفسه بنبرة صوت من يعتذر عن تصميمه الذى لا يستطيع التخلى عنه. أما الباقون، هذا العدد الهائل المكوّن من أربعمائة وخمس عشرة إجابة، فلابد أن يقول : لقد أدليت بصوت أبيض، متفقًا بذلك مع المنطق. لكن هذه الإجابة المباشرة، الخالية من غموض الافتراضات و الحيطة، قد يقوم بها جهاز كمبيوتر أو آلة حاسبة، ذلك لأن طبيعة كليهما النزيهة وغير المرنة لا تسمح بإجابة أخرى، أما هنا فنحن أمام بشر، والبشر معروفون على المستوى العالمى أنهم الوحيدون القادرون على الكذب، والحقيقة أنهم كما يكذبون أحيانًا بسبب الخوف، وأحيانا أخرى بسبب حبهم فى الكذب، يكذبون أيضا أحيانا ثالثة لأنهم يدركون فى الوقت المناسب أن الكذب هو الطريقة الوحيدة التى فى استطاعتهم ليدافعوا عن الحقيقة. فإذا حكمنا

بالظاهر، فإن خطة وزير الداخلية، بالتالى، قد باءت بالفشل، وبالفعل، فى تلك اللحظات الأولى، كانت الحيرة بين مستشاريه أمرًا مخجلاً ومطلقًا، وكان يبدو مستحيلاً إيجاد حل لتزييل العقبة المفاجئة، إلا بإصدار أوامر بخضع كل هؤلاء الناس لمعاملة سيئة، وهو أمر مرفوض، كما يعرف الجميع، فى البلدان الديمقراطية التى تتمتع بقانون يسمح فيها باستخدام كل الوسائل الصالحة لتحقيق الغرض بدون اللجوء لوسائل بدائية، من العصور الوسطى . فى هذا الموقف العسير كانوا غارقين عندما أبرز وزير الداخلية رؤيته السياسية ومرونته التكتيكية والاستراتيجية النادرة، ومن يدرى ربما تكون رؤيته ذات تكهُن على أعلى مستوى . وقد اتخذ قرارين، كلاهما ذات اهمية. القرار الأول، الذى سيتم توصيفه بعد ذلك ظلما بأنه مكيافيلى، كان يكمن فى توزيع مكتوب رسمى من الوزارة على وسائل الإعلام من خلال وكالة حكومية مجتهدة، يتضمن المكتوب بنبرة مؤثرة رسالة شكر موجهة باسم الحكومة كاملة إلى خمسمائة مواطن مثالى قدّموا للسلطات من تلقاء انفسهم مساعدة مخلصة وتعاونا تاما كانت السلطات فى احتياج إليه فى التحقيقات الجارية حول العناصر غير الطبيعية التى تم التحقق منها خلال عمليتى الانتخابات الأخيرتين . وخلال تقديم هذا الشكر الواجب المعبّر عن امتنانها، تقوم الوزارة بتحذير العائلات من الدهشة أو القلق بسبب نقص الأخبار عن الغائبين

الأعزاء، ففى هذا الصمت المطبق بالتحديد يوجد المفتاح الذى يضمن الأمن الشخصى لكل واحد منهم، وهو ما يتطلب أعلى درجات السرية، التى تعد خطًا أحمر، تلك السرية التى خصصت لهذه العملية الدقيقة . أما القرار الثانى، وهو فقط للمعرفة والاستخدام الداخلى، فيترجم بالاستغلال الأمثل للخطة المطبّقة مسبقا، والتى، كما سنتذكرها بالتحديد، كانت تتوقع وصول التسلل العام للمستقصيين إلى قلب المجتمع ليفكوا بذلك اللغز، الغموض، الأحجية، الفزورة، أو كما يحلوا لكم تسميتها بالصوت الأبيض. وبداية من الآن سيتم تقسيم العملاء إلى مجموعتين بأعداد مختلفة، المجموعة الصغيرة للعمل الميدانى، والحق أنهم لا ينتظرون منها نتائج مبهرة . أما المجموعة الكبيرة فتواصل استجواب الخمسمائة المحبوسين، لا المسجونين، حتى لا يلتبس عليكم الأمر، وسيتم زيادة عددها كلما وكيفما وحينما كانت الضرورة ملّحة للضغط الفسيولوجى و السيكولوجى، على المحبوسين. فكما يقول المثل القديم منذ مئات السنين : عصفور فى اليد خير من خمسمائة وواحد على الشجرة . وقد جاء التأكيد سريعا. فعندما كان العميل الذى يقوم بعمله فى الميدان أو المدينة، بعد كثير من المهارة الدبلوماسية، وكثير من اللف و الدوران، يطرح السؤال الأول: هلا أخبرتنى حضرتك لصالح من أدليت بصوتك. كانت الإجابة المسموعة دائما كعبارات

محفورة فى القلب هى، كلمة كلمة، تلك العبارات المذكورة فى القانون: ليس من حق أية سلطة، تحت أى عذر، أن تجبر أحدًا على الإفصاح عن الصوت الذى أدلى به أو تسأله عنه . وعندما يأتى السؤال الثانى، المطروح بنبرة من لا يعنيه الأمر فى شىء، «معذرة على فضولى، ألا تكون قد أدليت بصوت أبيض من قبيل الخطأ». كانت الإجابة التى تُسمع تقصر محيط القضية على الافتراض الأكاديمى الصرف: «لا يا سيدى، لم أدل بصوت أبيض، لكننى لو كنت قد فعلت ذلك فأنا قد مارست حقى القانونى المساوى لمن أدلى بصوته للأسماء الواردة فى القائمة أو لمن ألغى صوته برسم صورة كاريكاتورية للرئيس، فالإدلاء بالصوت الأبيض، يا سيد الأسئلة، حق لا حدود له، اضطر القانون للاعتراف به كحق للناخبين، وكتب بحروف واضحة أنه لا يحق لأحد أن يطارد أحدا لأنه أدلى بصوت أبيض، وعلى أى حال، حتى تهدأ، أكرّر لك أننى لم أكن ممن أدلوا بأصوات بيضاء، فالأمر ما هو إلا افتراض أكاديمى». فى الأحوال العادية، سماع هذا الرد مرتين أو ثلاث مرات يعد أمرًا لا أهمية خاصة له، فهو يبرهن بالكاد أن هناك عددًا من الأشخاص فى هذا المكان يطلّعون على القانون الذى يعيشون به ويلحون فى معرفته، لكن أن تضطر أن تسمع نفس الرد بثبات وبدون أن يرمش لك جفن مئات المرات المتتالية، بل آلاف المرات، كسلسلة ابتهالات محفورة فى الذاكرة، فهذا هو ما يفوق طاقة البشر، فحتى لو

كانوا مدرّبين جيدًا على هذا العمل الشاق، سيعجزون عن الوفاء به. وليس أمرا غريبًا أن ينجح التعويق المنظّم الذى قام به الناخبون فى استفزاز بعض الجواسيس لدرجة يفقدون عندها أعصابهم ويتجاوزون حدودهم بالسب و العنف، تلك السوكيات، بالإضافة لذلك، لم تكن تنتهى نهاية محمودة، حيث إن الجواسيس كانوا فرادى حتى لا يلفتوا نظر الناس إليهم، وكان من الطبيعى وجود مواطنين آخرين، خاصة فى الأماكن التى تسمى بالمناطق الخطيرة، وهناك كانت تقع العواقب الوخيمة التى يمكن تخيّلها، حيث يتعاون الجميع لنجدة المواطن المُهان. وجاءت تقارير الجواسيس لمركز العمليات هزيلة المضمون بشكل فاتر، فلم يعترف ولا حتى شخص واحد، شخص واحد فقط، بأنه أدلى بصوت أبيض. كان البعض يتظاهر بلا مبالاته، كانوا يقولون «يومًا آخر»، سيتحدثون عندما يجدوا متسعًا من الوقت، الآن هم متعجلون، كانوا يغلقون محلاتهم، لكن أسوأ الناس كانوا العجائز، لعنة الله عليهم، كان يبدو أن وباء الصمم قد أصابهم جميعا وحبسهم داخل كبسولات شديدة الغلق لا يصلها صوت، وعندما كان العميل، بسذاجة الحائر، يكتب لهم ورقة تتضمن تساؤلاته، كان الوقحون يقولون إن نظاراتهم مكسورة أو إنهم لا يفهمون الخط المكتوب، أو بكل بساطة لا يجيدون القراءة . بينما كان هناك جواسيس آخرون، أكثر مهارة، يتبنون تكتيك التسلل بحذافيره، بمعناه

الحرفى، حيث يتواجدون فى البارات، يلعبون الميسر، يقرضون لاعبى البوكر المفلسين، يتجهون للمباريات الرياضية، خاصة كرة القدم و السلة، حيث تمتلىء المدرجات بالمشجعين، ويجرون حوارات مع جيرانهم فى المقاعد، وفى حالة كرة القدم، عندما تنتهى المباراة صفرين، كانوا يقولون، بمكر فائق، شديد الوضوح فى نبرة الصوت، «نتيجة بيضاء»، ليروا وقع كلمة بيضاء على مستمعيهم. لكن المحصّلة فى النهاية كانت لا شىء . وعاجلا أم آجلا كانت تأتى لحظة طرح السؤال: «هلا أخبرتنى من فضلك لصالح من أدليت بصوتك، معذرة على فضولى، ألا تكون قد أدليت بصوت أبيض من قبيل الخطأ»، وحينذاك كانت الإجابات المعروفة تتكرّر، وبصوت واحد على بعد كل فرد عن الآخر، «أنا، يالها من فكرة»، «نحن، ياللوهم»، بعدها كانوا يقيمون الحجج القانونية، يجرون ذكر مواد القانون بنصوص كاملة، وبطلاقة فى الكلام يبدو من خلالها أن سكان المدينة الذين وصلوا لسن التصويت، كلهم بلا استثناء، قد أخذوا دورة مكثفة فى القوانين الانتخابية، سواء المحلية أم الدولية .

مع مرور الوقت، وبطريقة يصعب إدراكها بالعقل فى البداية، بدأ يلاحظ أن كلمة " أبيض " قد كفوا عن استخدامها، كما لو كانت قد تحوّلت فجأة لكلمة داعرة، كريهة المسمع، وأصبح الأشخاص يستخدمون اللف والدوران ليستبدلوها بكلمة أخرى. فالورقة البيضاء، مثلا، أصبحوا يسمونها الورقة عديمة اللون،

والمفرش الأبيض أصبح مفرشًا بلون اللبن، أما الجليد فلم يعد يقارن برف المستوقد الأبيض ليعبر عن شدة البياض فى العشرين سنة الأخيرة، والتلميذ البليد الذى كان يسمى تلميذًا أبيض أصبحوا يقولون عنه ببساطة أنه لا يعرف شيئًا فى هذه المادة، على أن أكثر الأمور إثارة للفضول هو الاختفاء المفاجىء للفزورة التى كانت تنتقل من جيل لجيل، من الآباء والأجداد، من الجيران والأعمام و الأخوال، هذه الفزورة التى كانوا يختبرون بها ذكاء الطفل و روح الاستنباط لديه: ما الشىء الأبيض الذى تضعه الدجاجة ؟ ولأنهم رفضوا نطق الكلمة، فقد انتبهوا إلى أن الفزورة فى طريقها للزوال بشكل مطلق، حيث إن الدجاجة، أية دجاجة، لن تستطيع أن تضع، مهما بذلت من جهد، شيئا آخر غير البيض. كان يبدو بالتالى أن الرءوس الكبيرة بوزارة الداخلية بدأت تتضاءل، فبعد أن كانوا يلمسون الشمس، هاهم الآن على وشك الغرق بهيستيريا فى بحر الدردانيل، لولا أن جاءتهم فكرة مباغتة، كبصيص الضوء الذى ينير الليل، جعلتهم يرفعون رءوسهم من جديد. لم يخسروا كل شىء بعد. أمر أن يتخذ كل الجواسيس المنتدبين أماكنهم فى العمل الميدانى، وودّع العملاء المؤقتين بلا نظر، ووبخ البوليس السرى المتبجح وبدأ العمل .

أصبح واضحًا أن المدينة صارت أرضًا تعج بالكذّابين، حتى الخمسمائة فردا المحبوسين كانوا يكذبون أيضًا بكل ما فى فمهم من أسنان، لكن بين

هؤلاء وأولئك كان هناك فرق كبير، فبينما كان البعض حرًا فى الخروج و الدخول لبيته، بجفاء، مسرعًا مثل من ينزلق فوق مزلقة، يظهر ويختفى ثم يعاود الظهور ثم الاختفاء، حرا فى أن يناضل ضد الآخرين وهو أسهل شيء فى الحياة، كان هناك بعض آخر محبوس فى بدرومات وزارة الداخلية، تلك البدرومات التى كانت لا تسع خمسمائة فردا، فتم بالتالى توزيع أغلبهم فى وحدات تحريات أخرى، فصاروا، لوقوعهم تحت المراقبة، خير برهان على الكذب. ومع أن الخبراء المنتمين لمدرسة الشك بالإضافة لبعض المحاكم قد ارتابوا فى جودة الجهاز مرات كثيرة ورفضوا قبول نتائجه كدليل إدانة يؤخذ به، إلا أن وزير الداخلية كان يثق فى أن استخدام الجهاز من الممكن أن يحقق على الأقل الشرارة الأولى التى تساعده فى الخروج من النفق المظلم الذى أدت إليه التحريات. كان الجهاز، كما قد يفهم، عبارة عن جهاز كشف الكذب، أما اسمه العلمى فهو جهاز يستخدم فى تسجيل بعض ردود الأفعال السيكولوجية والفسيولوجية بشكل فورى، أو بتفاصيل أكثر، أداة لتسجيل الظواهر الفسيولوجية عن طريق رسم خطوط بشكل إليكترونى فى ورقة مبللة مشبعة بيودور البوتاسيوم والأميد. وتتم العملية بتوصيل الجهاز بعدة أسلاك تطوّق و تحجّم جسد الرجل المسكين الذى لا يشعر بألم وإنما فقط يجب أن يقول الحقيقة، كل الحقيقة ولا شيئا سوى الحقيقة. وهكذا نرى أن اليقين المتفق عليه عالميا منذ

بداية الخليقة والذى يملأ آذاننا بالخرافة قائلاً إن الإرادة الإنسانية تستطيع أن تفعل أى شىء، هنا نرى، حتى لا نذهب بعيدًا، مثالا حيًا لرفض هذا اليقين، فإرادتك الهائلة، مهما وثقت فيها ومهما برهنت على قوتها حتى الآن، فإنك لن تستطيع أن تسيطر على تشنجات عضلاتك ولن تمنع عرقك المتصبب ولن تتحكم فى رجفة جفونك ولن تضبط زفيرك وشهيقك. وفى النهاية يخبرونك بأكاذيبك، وأنت ستنكر، ستقسم بأغلظ الأيمان أنك قولت الحقيقة، كل الحقيقة ولا شيئًا سوى الحقيقة، وربما تكون صادقا، ربما لم تكذب، لكنك متوتر، نعم لك إرادة فولاذية، لكنها تصير كما الآسل المرتعش الذى تأتى أقل نسمة لتهزه، فيعيدون الكرّة عليك ويربطونك فى الجهاز وحينها سيكون موقفك أشد سوءًا، سيسألونك إن كنت حيًا، وأنت، بالطبع، سترد بالإيجاب، لكن جسدك يعترض، يكذّبك، ستقول رجفة ذقنك لا، أنت ميت، ربما يكون جسدك محقًا، ربما، فهو يعلم قبل أن تعلم أنت أنهم سيقتلونك. لم يكن طبيعيًا أن يحدث هذا الفعل فى بدرومات وزارة الداخلية، فالجريمة الوحيدة التى ارتكبها هؤلاء البشر هى فقط الإدلاء بصوت أبيض، وهو أمر لا أهمية له حتى ولو كانوا يدلون عادة بأصوات بيضاء، إنما القضية تكمن فى أنهم هذه المرة كانوا كثيرين، عددهم زائد عن اللازم، تقريبا أغلبية الناخبين، لكن ما فائدة الحق إن كان لا يمكن ممارسته إلا فى جرعات زهيدة، نقطة نقطة، فلا يصح أن تسير بدورق ممتلىء يفيض بأصوات

بيضاء، لهذا انكسرت يد الدورق، لذا بدا لنا أن هناك أمرًا مثيرًا للشبهة فى هذه اليد المكسورة، فإذا كان الدورق الذى يستطيع أن يحمل الكثير سعيدًا بحمل القليل فهو تواضع يشكر عليه، أما أنت فما ضاع منك هو الطموح، ظننت أنك ستصعد عنان السماء وهأنت تسقط على فمك فى بحر الدردانيل، تذكّر أيضًا أننا قد قلنا ذلك لوزير الداخلية، لكنه رجل ينتمى لسلالة أخرى من الرجال، سلالة أكثر ذكورة وفحولة، سلالة أصحاب الوجوه الصارمة، هؤلاء الذين لا يحنون رءوسهم، والآن أرنا كيف ستفلت من يدى صائد الأكاذيب، أرنا مخاوفك الصغيرة و الكبيرة فى شكل خطوط مرسومة فوق الورق المشبع بيودور البوتاسيوم والأميد، انظر، يا من كنت تؤمن بشىء آخر، كيف تتضاءل الكرامة الإنسانية العليا فتصير كورقة مبللة .

غير أن جهاز كشف الكذب ليس جهازًا مزودًا بأسطوانة تستطيع أن تمضى للأمام أو تتراجع للخلف وتقول لنا، حسب كل حالة، الهدف يكذب، الهدف لا يكذب. فلو كان الجهاز يقوم بهذه الوظيفة، فما أسهل أن يكون قاضيًا ليدين فلانًا أو يبرّئ علانا، وسيحل محل أقسام الشرطة مستشارون فى علم النفس الميكانيكى التطبيقى،، أما المحامون، فبعد أن يفقدوا وكلاءهم، سيغلقون مكاتبهم، والمحاكم تبقى لتهش وتنش حتى تجد عملاً آخر . كنا نقول إن الجهاز لا يستطيع أن يفعل شيئًا بلا مساعدة، فهو بحاجة لأن يقف بجانبه فنى مدرّب يترجم لنا الخطوط المرسومة على الورقة، لكن هذا لا يعنى أن هذا الفنى مطلّع على

الحقيقة، بل هو يعرف فقط هذا الشىء الكامن أمام عينيه، وهو أن السؤال الموجه للمسكين الواقع تحت المراقبة ينتج ما يمكن تسميته، بشكل جديد، رد فعل حسّاس، أو، بكلمات أكثر أدبية لكنها ليست أقل تخيّلا، رسم الكذبة . ومع كل، مكسبا ما قد يحققونه. على الأقل قد يمكنهم فصل القمح عن التبن، إزالة الاحتقان من المنشآت، إعادة الحرية والحياة العائلية لهؤلاء الأهداف الذين أجابوا ب " لا " على سؤال هل أدليت بصوت أبيض، بدون أن يكذّبهم الجهاز. أما الباقون، الذين يتحمّلون ذنب الانتهاكات الانتخابية، فلن ينفعهم فى شىء ما يحفظونه ذهنيًا من ابتهالات باطنية روحانية أو يسوعية من نوع زن، فالجهاز لا يرحم، جامد الحس، وسيعلن فى الحال تزييفهم، سواء أنكروا الإدلاء بصوت أبيض أو أكدوا التصويت لأحد الأحزاب. ربما فى الأحوال الطبيعية يمكن التعايش مع أكذوبة واحدة، لكن لا يمكن التعايش مع إكذوبتين. وعلى سبيل الاحتياط أمر الوزير بعدم إطلاق سراح أحد مهما كانت نتائج الاختبارات. «دعوهم كما كانوا فى أماكنهم، فلا أحد يدرى أبدًا إلى أى مدى قد يصل شر البشر» قال - . وكان الرجل المدان محقا. فبعد استهلاك عشرات من المترات من الورق الملفوف الذى سجل عليه ارتجافات أرواح الأهداف المراقبة، وبعد أسئلة وأجوبة مكررة مئات المرات، نفس الأسئلة، هى هى، وقع ضابط بالمخابرات، وهو شاب صغير قليل الخبرة فى مسألة

الوساوس، كما الحمل الوديع حديث الولادة، في شرك نصبته له امرأة شابة وجميلة، كانت قد مرت باختبار الجهاز وتم وصفها بالكاذبة المزيّفة . قالت غاوية الرجال : «الجهاز لا يعرف ما يفعل، لا يعرف ما يفعل». سأل الضابط «لماذا»، ناسيًا أن الحوار مع الخاضعين للاختبار لا يشكّل جزءًا من عمله المكلّف به . «لأن في هذا الموقف، عندما يكون الجميع مشتبهًا فيه، قد يكفي أن ينطق الفني كلمة أبيض، فقط، بدون حتى أن يحاول أن يعرف هل أدلى بصوته أم لا، لأنه بذلك ليثير ردود الفعل السلبية، الرعب والمضايقة، في نفس الخاضع للاختبار، حتى ولو كان التجسيد الكامل والنقي للبراءة» . «لا، لا أعتقد ذلك، لا يمكن أن أوافقك الرأي» - اعترض الضابط، واثقًا من نفسه - «إن الإنسان الذي يعيش في سلام مع ضميره لن يقول سوى الحقيقة وبالتالي سيتخطى الاختبار بلا مشاكل». «لسنا إنسانًا آليًا ولا أحجارًا متكلمة، سيدي الضابط - قالت السيدة - ففي التركيبة البشرية دائمًا ما يوجد جزء خاص بالكرب والغم، أنا لا أحدثك عن الحياة بهشاشتها، بل أقصد أننا لهب صغير ومرتجف مهدد في كل لحظة بالخمود، ونحن نعرف الخوف، وقبل أي شيء يسكننا الخوف» . «أنتِ مخطئة، فأنا لا أخاف، لقد درّبوني على أن أسيطر على خوفي في كل الظروف، وبالإضافة لذلك فأنا بطبيعتي لا أعرف الخوف، ولا حتى عرفته وأنا صغير» - أكّد الضابط، واثقا من نفسه - «إذا كنت بهذه الثقة، فلمَ لا نقوم

بتجربة - اقترحت السيدة - أترك نفسك لنوصلك بالجهاز وسأوجه لك الأسئلة» . «أنت مجنونة، أنا ضابط بالسلطة، المشتبه فيها هى أنتِ، لا أنا». «إذًا، فلنوصلك بالجهاز وأثبت لنا ماهى الرجولة حقا وكينونتها». نظر الرجل للمرأة، التى كانت تبتسم، ونظر للفنى، الذى كان يبذل جهدا كى يدارى ابتسامته، وقال: «أمر جيد، مرة واحدة لن يحدث شىء، أوافق أن أخضع للتجربة». قام الفنى بتوصيل الأسلاك، ضغط على الأسلاك التى تطوق الضابط وضبط الأسلاك الأخرى التى تحجّمه. «أنا الآن جاهز للبدء عندما تريدان» . تنفست المرأة ملء رئتيها وحبست الهواء داخلهما عدة ثوان، فأطلقت فجأة كلمة أبيض. لم تكن الكلمة سؤالاً، ولا جملة تعجبية، مع ذلك بدأت الإبرة فى الحركة، وتركت خطوطًا فوق الورقة. خلال الوقفة التالية لم تتمكن الإبرة من التوقف كلية، وظلت تهتز، محدثة خطوطًا صغيرة، كما لو كانت تموجات ناتجة عن إلقاء حجر فى الماء. كانت المرأة تنظر للخطوط، لا للرجل المربوط، بعدها وجّهت نظرها صوب عينى الرجل، نعم، وسألت بنبرة صوت ناعمة رقيقة، «قل لى من فضلك هل أدليت بصوت أبيض». «لا، لم أدل بصوت أبيض، لم أدل ولن أدلى أبدًا فى حياتى بصوت أبيض» ، أجاب الرجل بصرامة . كانت حركات الإبرة سريعة، متلاحقة، عنيفة . وقفة أخرى. حينها سأل الضابط، تأخر الفنى فى الرد، أصرّ الضابط: أخبرنى ماذا قال الجهاز. أجاب الفنى مرتبكًا: «الجهاز يقول إنك تكذب» . «مستحيل» . صرخ

الضابط ـ «لقد قلت الحقيقة، لم أدل بصوت أبيض، فأنا موظف بالمخابرات، رجل وطنى، أدافع عن مصالح الأمة، لابد أن الجهاز معطّل» . «لا ترهق نفسك ولا تقدم مبررات ـ قالت المرأة ـ فأنا أصدق أنك قد قولت الحقيقة، وأنك لم تدلِ بصوت أبيض ولن تفعل ذلك. لكننى أذكّرك أن هذا لم يكن موضوعنا، بل موضوعنا هو أن أبرهن لك أن علينا ألا نثق كثيرًا فى أجسادنا، ولقد برهنت لك ذلك على ما أعتقد» . «الذنب ذنبكِ، لأنك وترتنِى». «معك حق، الذنب ذنبى، فالذنب دائما ذنب حواء الموسوسة، لكننا لا أحد يسألنا أبدا إن كنا نشعر بالتوتر أم لا عندما نجلس مربوطين نحن المشتبه فينا فى هذا الجهاز». «إن ما يوتركم هو الذنب». «ربما تكون محقًا، لكن حينئذ أذهب وأخبر رئيسك لماذا وأنت البرئ من ذنوبنا تصرّفت وأنت فوق الجهاز كما لو كنت مذنبا مثلنا». «لا يجب أن اقول شيئا لرئيسى، فما حدث هنا يجب أن نعتبره كما لولم يحدث» ـ أجابها الضابط. بعدها توجه للفنى، «إعطنى هذه الورقة، أنت تعرف، التزم الصمت المطبق إن كنت تريد ألا تندم على يوم مولدك». «أمرك سيدى، لا تشغل بال حضرتك، لن أفتح فمى». «ولا أنا سأنبس بكلمة ـ أضافت المرأة ـ لكن على الأقل بلّغ رئيسك أن الأفعال الماكرة لن تنفعه فى شىء، لأننا ببساطة سنظل نكذب عندما نقول الحقائق، وسنظل نقول الحقائق عندما نكذب، تخيّل إن كنت قد سألتك إن كنت ترغب أن تضاجعنى، فماذا سيكون ردك، وماذا سيقول الجهاز» .

حجر ألقى فى ماء النظام الراكد. هذه هى العبارة المفضّلة لدى وزير الدفاع، وهى جملة مستوحاة جزئيًا من تجربة لا تُنسى لنزهة غوص تاريخية استمرت نصف ساعة فى المياه الهادئة. بدأ وزير الدفاع يحرّك كتفيه ويجذب الانتباه له عندما بدت خطط وزير الداخلية عاجزة عن الوصول لمربط الفرس، بمعنى إقناع سكان المدينة، أو بلفظ أدق، الفاسدين،المجرمين، المخرّبين، الذين أدلوا بأصوات بيضاء، بالاعتراف بخطئهم الجسيم وطلب الرحمة والتكفير عن الذنب بإعادة الانتخابات التى سيذهبون إليها ليدلوا بأصواتهم فى الوقت الملائم وفى حشود ليطهرّوا أنفسهم من ذنب الهذيان، وليقسموا بأغلظ الأيمان بألا يعودوا إليه مرة أخرى. مع أن وزير الداخلية، والحق يقال، قد حقّق نوعًا من النجاح، وإن كان نجاحًا لا يُناسب هذا الموقف العصيب . لقد بات واضحا أمام مجلس الوزراء بأكمله، باستثناء وزيرى العدل والثقافة، حيث ظل كل منهما بشكوكه، أن الصمولة فى حاجة ملحة لربطها من جديد، واضعين فى الاعتبار أن إعلان حالة الطوارئ، التى كانوا فى انتظارها على أشد من الجمر، لم تؤد لأية نتيجة

ملحوظة بالمعنى المرغوب فيه، وبالتالى، فعندما يكون مواطنو هذه الدولة غير معتادين على العادة الصحية التى هى المطالبة بتطبيق الحقوق التى كفلها لهم الدستور، فمن المنطقى بل والطبيعى ألا ينتبهوا عند سقوط هذه الحقوق عنهم . وبالتالى يجب فرض حالة الحصار بشكل جاد، وليس مجرد مظاهر، فيتم فرض حظر التجول عليهم، إغلاق صالات السينما و المسرح، وضع دوريات مكثفة من القوات المسلحة فى الشوارع، تحريم اجتماع أكثر من خمسة أفراد، تحريم الخروج والدخول من المدينة، ويتم ذلك فور الاستعداد له، وليكن الأمر فى العاصمة أكثر من الأماكن الأخرى بالبلد، حتى يكون الفرق واضحًا بشكل يبرز إذلال ووقوع الضرر على أهل العاصمة. إن ما نقصده - أعلن وزير الدفاع - وأتمنى أن تفهمونى من المرة الأولى، هو أن أهل العاصمة غير جديرين بالثقة وأنهم بصفاتهم هذه يجب أن يتعاملوا بهذه الطريقة . بدا رائعًا لوزير الداخلية، المضطرلإخفاء فشل جهاز مخابراته، الإعلان الفورى لحالة الحصار، وليُبرهن على أن مازال بيده بعض الأوراق وأنه لم ينسحب بعد من اللعبة، أخبر المجلس، بعد تقصى مستفيض بالتعاون التام مع الإنتربول، أنه توصل فى النهاية إلى أن الحركة الفوضوية الدولية : " إن كانت قد أنشئت من أجل شىء فهو كتابة عبارات فكاهية على الحوائط" - توقف لحظات فى انتظار ضحكة مجاملة من قبل زملائه، بعدها، راضيًا عن نفسه وعنهم، ختم الجملة -

" وأنهم لم يشتركوا فى عملية الامتناع عن الانتخابات التى وقعنا ضحية لها، وأن الأمر برمته مسألة داخلية صرف ". «معذرة على الاعتراض» - تدخل وزير الخارجية - «فكلمة "صرف " ليست هى الكلمة الدقيقة، ويجب أن أذكّر المجلس أن الأمور التى أثارت قلقنا لكثيرة، فما يحدث هنا قد يتخطى الحدود ويتسع كوباء أسود جديد» . «وباء أبيض، فما نعانيه وباء أبيض» - صحّح له رئيس الحكومة بابتسامة منطفئة .. «وحينها - واصل وزير الخارجية - حينها يمكننا أن نتكلم، بخصوصية أكبر، عن الأحجار التى ألقيت فى مياه النظام السياسى الديمقراطى المستقر، فليست مسألة داخلية صرفًا ولا ببساطة فى بلد ما، ولا فى هذا البلد، وفى العالم أجمع» . شعر وزير الداخلية أن السجادة تُسحب من تحت قدميه، تلك السجادة التى اعتاد على شغلها خلال الأحداث الأخيرة، وحتى ينقذ ما يمكن إنقاذه، بدأ بتوجيه الشكر لوزير الخارجية وبروح رياضية اعترف بعقلانية تعليقاته، بعدها أراد أن يظهر أنه أيضا قادر على استخدام التفسير السيميولوجى. «من المهم ملاحظة - قال - كيف أن معانى الكلمات تتعدّل بدون أن نشعر بذلك، كيف نستخدمها مرات كثيرة لنقول بالتحديد عكس ما نرغب التعبير عنه، وأنها بشكل ما تظل كصدا كلمة قد نطقت وانتهت ولكن صداها مازال موجودًا». «هذا أحد تأثيرات التطور الدلالى» - أجابه وزير الثقافة من آخر المائدة - . «وما علاقة هذا

بالأصوات البيضاء» ـ سأل وزير الخارجية. «لا علاقة له بالأصوات البيضاء، لكنه له علاقة وثيقة بفرض حالة الحصار» ـ صحّح وزير الداخلية منتصرًا ـ «لا أفهم» ـ قال وزير الدفاع ـ . «إنه أمر غاية فى البساطة». «قد يكون كذلك كما تريد، لكننى لا أفهم» . «فلننظر، ما معنى كلمة حصار، أعلم أنه سؤال بلاغى، ليس عليكم أن تجيبونى، فكلنا نعلم أن الحصار يعنى التطويق، شد الخناق، هذا ليس صحيحًا». «بل صحيح، فاثنان زائد اثنان يساوى أربعة». «إذا، فإعلان حالة الحصار يعنى أن عاصمة الدولة محاصرة، مطوقة، مشدود عليها الخناق بيد عدو، بينما الحقيقة أن العدو بداخلها، اسمحوا لى أن أسميه عدوًا، وليس بخارجها» . تبادل الوزراء النظر بعضهم بعضًا، تظاهر رئيس الوزراء عدم الفهم،، وحرّك بعض الأوراق بيده. لكن وزير الدفاع مضى لينتصر فى المعركة الدلالية، «هناك طريقة أخرى لفهم الأشياء». «ماهى». «هى أن سكان العاصمة قد أشعلوا ثورة، أظن أننى لا أبالغ إن أسميت ما يحدث ثورة، ومن أجل هذا بالتحديد كانوا محاصرين أو مطوقين أو مخنوقين، وليختر كل منكم الكلمة التى تروق له أكثر، فأنا لا أبالى». «أطلب الإذن لأذكّر زميلى العزيز وبقية المجلس ـ قال وزير العدل ـ أن المواطنين الذين قرروا إدلاء صوت أبيض لم يفعلوا شيئًا سوى ممارسة حق كفله لهم القانون بكل وضوح، والحديث بعد ذلك عن ثورة فى حالة كهذه، ليس فقط خطئًا دلاليًا، وأتمنى أن تعذرونى على تدخلى فى أمر

أنا لست خبيرًا فيه، وإنما أيضًا، من وجهة النظر القانونية، يعد هراء تامًا» . «الحقوق ليست أشياءً مبهمة ـ أجاب وزير الدفاع بجفاء ـ فالحقوق إما أن تُستحق أو لا تُستحق، وهم لا يستحقوا هذه الحقوق، أما باقى الأمر فهو مجرد كلام فى كلام» . «معك كل الحق ـ رد وزير الثقافة ـ فالحقيقة أن الحقوق ليست أشياء مبهمة، بل هى ملموسة بالفعل حتى عندما لا نحترمها». «هذا ما كان ينقصنا، فلسفات». «وهل وزير الدفاع ضد الفلسفة» . «إن الفلسفة الوحيدة التى أقبل بها هى التى تؤدى للنصر، فأنا، يا سادتى الأعزاء، رجل أؤمن بقانون الكتيبة، و لغتى التى أتحدث بها هى الجد جد واللعب لعب، أعجبكم ذلك أم لا، لكننى مع ذلك وحتى لا تنظروا لى باعتبارى أقل منكم ذكاءً، أقدّر أن تشرحوا لى كيف يكون هناك حق ملموس وغير محترم، لكن بدون محاولة أن تبرهنوا لى أن الدائرة قد تصير مربعًا متساوى الأضلاع». «الأمر غاية فى البساطة سيدى الوزير، إن هذا الحق يقع فى يد قوة كان عليها أن تحترمه وتطبّقه». «بهذه الخطب الوطنية والديماجوجية، أقول ذلك بدون قصد إهانة أحد، لن نصل إلى أى حل، فلنطبّق حالة الحصار وسنرى إن كانوا سيعانون من الأمرأم لا». «أتمنى ألا يأتى ذلك بعكس المطلوب» ـ قال وزير العدل ـ «لا أعرف كيف ستصير الأمور». «ولا أنا حتى الآن، ستكون فقط مسألة وقت، فلم يتجرأ أحد أن يتخيّل أن يحدث فى أى مكان فى العالم ما حدث فى

بلدنا، وها نحن نعانيه هنا، كما لو كانت عقدة لا ثقب فيها فلا يمكن فكها». «لقد اجتمعنا هنا لنتخذ قرارات لم نتخذها بعد، بالرغم من الاقتراحات المقدمة كعلاج للأزمة، أتمنى ألا نتأخر فى معرفة رد فعل المواطنين عند فرض حالة الحصار». «لا أستطيع أن ألتزم الصمت بعد سماع ذلك» ـ انفجر وزير الداخلية ـ «إن الإجراءات التى اتخذناها نجحت بإجماع هذا المجلس، وأنا على الأقل أتذكر أن أحدًا من الحاضرين لم يقدّم رأيًا مختلفًا ولا اقتراحًا أفضل، أما عبء النكبة، نعم سأسميها كذلك، مع أن البعض يرانى مبالغًا ويبرهنون على ذلك بكثير من السخرية، إن عبء النكبة، أقول مجددًا، كانت ملقاة على كاهلنا نحن، سيادة رئيس الدولة والسيد رئيس الوزراء، بعدهما جاء دورى أنا ووزير الدفاع، كل منا فى مكانه وبمسئولياته الخاصة، أما الآخرون، وأشير على وجه الخصوص لوزيرى العدل والثقافة، فإن كانا قد تعطفا علينا وأضاءا لنا بأنوارهما فى لحظات معينة، فأنا لم أشعر أنهما قد اقترحا علينا فكرة ذات قيمة خلال الفترة التى اجتمعنا فيها للمناقشة». «إن الأنوار، كما تقول، التى أضأت بها هذا المجلس بعطف منى لم تكن أنوارى، بل هى أنوار القانون ولا شىء سوى القانون» ـ أجاب وزير العدل ـ . «أما ما يتعلق بشخصى المتواضع، وقرصة الأذن التى أصابتنى فى هذه القسمة الكريمة ـ قال وزير الثقافة ـ فمع الميزانية البائسة التى تهبونها لى لا يجب أن تطالبونى بأكثر

من ذلك». «الآن أُدرك جيدًا سبب ميلك للفوضويين». انفجر وزير الداخلية، الذى عاجلاً أم آجلاً يبرز سلاحه..

وصل رئيس الوزراء لآخر أوراقه. ضرب كوب الماء بقلمه بنعومة، طالبًا الانتباه والصمت، وقال : «لم أرد أن أقاطعكم فى جدلكم المهم، والذى منه، رغم اللهو الظاهر الذى قد يلاحظ، أظننى تعلّمت منه الكثير، فليس هناك أفضل من المناقشة لتفريغ الضغوط المتراكمة، كما علّمتنا التجربة، خاصة فى موقف له نفس خصائص الموقف الحالى مما لا يمكن إخفاؤه، واعين بحالنا وبأنه من الضرورى فعل شىء لكننا لا ندرى ما هو هذا الشىء». توقّف عن الحديث عدة لحظات، تصنّع قراءة بعض الملحوظات، وواصل، «وبالتالى، بما أنكم قد هدأتم وارتخت أعصابكم وانتهت ثورتكم، نستطيع فى النهاية أن نقبل اقتراح وزير الدفاع، بمعنى، إعلان حالة الحصار خلال أجل غير مسمى وبأقصى سرعة بداية من اللحظة التى يتم فيها إعلان فرضها». وصل لمسمعه همس بالموافقة من أغلب الحضور، بنبرة صوت تختلف من واحد لآخر، لكنه لم يستطع أن يميز أصل النبرات، أما وزير الدفاع فبنظرة واحدة قام بغارة بانورامية بهدف مباغتة أى صوت مخالف أو فاتر الحماس. واصل رئيس الوزراء حديثه، «من سوء الحظ أيضًا أن التجربة علّمتنا أن أكثر الأفكار كمالاً وتمامًا قد تفشل عند ساعة التنفيذ، سواء بسبب اضطرابات الساعة

الأخيرة أو بسبب عدم التوافق بين ماهو متوقّع وما يتم الحصول عليه بالفعل، أو ربما بسبب فلت زمام الأمر من الأيدى المسيطرة فى لحظة عصيبة، أو بسبب قائمة من آلاف الأسباب الأخرى الممكنة التى لا يسع المجال هنا لسردها ولا الوقت لاختبارها، لكل هذا من الضرورى وضع خطة ثانية جاهزة وسريعة ليتم تطبيقها كخطة بديلة فى حالة فشل الخطة الأولى، أو تكون الخطة البديلة مجرد مكمّلة للخطة الأصلية، تلك الخطة التى تمنع، كما قد يحدث فى موقف كهذا، ظهور فراغ فى السلطة، أو ما هو أسوأ من ذلك، ظهور سلطة الشارع، تلك السلطة التى تثمر العواقب المدمرة». معتادون على بلاغة رئيس الوزراء، الذى يسير خطوتين للأمام وخطوة للخلف، أو كما يقال بالعامية يسير فوق قشر البيض، كان الوزراء ينتظرون بفارغ الصبر الكلمة الأخيرة، الفاصلة، الخاتمة، تلك الكلمة التى تعطى تفسيرًا لكل شىء. لم يحدث ذلك هذه المرة. بلّ رئيس الوزراء شفتيه بالماء من جديد، مسح فمه بمنديل أبيض قد أخرجه من جيب سترته الداخلى، كان يبدو أنه سيقرأ ملحوظاته، لكنه أبعد الورق فى اللحظة الأخيرة، وقال: «إذا جاءت نتائج حالة الحصار دون التوقّعات، بمعنى أنها كانت عاجزة عن قيادة المواطنين إلى الحياة الديمقراطية الطبيعية، إلى الاستخدام المتوازن والرصين للقانون الانتخابى الذى، بسبب اللامبالاة غير المحتاطة من قبل المشرعين، ترك الأبواب مفتوحة على مصراعيها

أمام ما يصح تصنيفه، بدون خشية التناقض، بما يسمى سوء استخدام القانون، حينما يحدث ذلك، سيعرف هذا المجلس أن رئيس الوزراء قد أعد خطة بديلة ستدعم على المستوى النفسى القرار الذى انتهينا من اتخاذه الآن، وهو تطبيق حالة الحصار، وتستطيع هذه الخطة البديلة أيضا، وأنا على يقين من ذلك، إعادة التوازن للميزان السياسى المختل لبلدنا والقضاء للأبد على الكابوس الذى يطاردنا». وقفة جديدة، بلّ شفتيه مرة أخرى بالماء، مسح فمه بمنديله، وواصل، «قد تسألوننى لماذا لا نُطبّق هذه الخطة البديلة الآن بدلاً» من تضييع الوقت فى حالة الحصار التى نعرف مقدما أنها ستعقّد بالفعل حياة ساكنى العاصمة فى كل مظاهرها، سواء حياة المذنبين أم الأبرياء؟ المسألة بلا شك أكبر من ذلك، فهناك عناصر مهمة لا يمكن أن نسقطها من الاعتبار، بعض هذه العناصر ذات طبيعة فنية صرف، البعض الآخر لا، وقد يؤدى الأثر الرئيسى للبدء المفاجىء بالخطة البديلة لجراح لا يصعب تخيلها، من أجل ذلك أعتقد أننا يجب أن نختار الخطة التدريجية، بادئين بحالة الحصار أولا». حرّك رئيس الحكومة الأوراق مجددًا، لكنه لم يلمس كوب الماء ، «ومع أننى أُدرك الفضول المثار بداخلكم ـ قال ـ لا أستطيع أن أخبركم بشىء آخر عن الأمر، سوى أن سعادة رئيس الجمهورية قد استقبلنى صباح اليوم وقدّمت له فى المقابلة الخطة البديلة و لاقت استحسانه التام وتأييده غير المشروط.

ستعرفون كل شىء فى الوقت المناسب. والآن، وقبل أن أختم هذا الاجتماع المثمر، أرجو من السادة الوزراء، خاصة وزيرى الدفاع و الداخلية، اللذين سيقع على عاتقهما حمل فرض و تنفيذ حالة الحصار، أن تبذلا أقصى جهودكما وأقصى طاقتكما لتحقيق هذا المطلب الأمنى . على قوات الشرطة والجيش، سواء اشتركوا معًا فى العمل أو عمل كل منهم منفردًا، أن يتبادلوا الاحترام الصارم دائمًا، متجنبين التنازع التنافسى الذى سيلحق الضرر فى نهاية الأمر بما نبغى تحقيقه، عليكم جميعًا أن تنفّذوا المهمة الوطنية التى تهدف إعادة القطيع الضال إلى حظيرته، إن سمحتم لى باستخدام هذا التعبير المحبب لأجدادنا والراسخ فى تقاليدنا. وتذكّروا أنه يجب عليكم تنفيذ ذلك حتى لا يصير منافسونا اليوم، أعداء الوطن غدًا. وليعنكم الله على مهمتكم المقدسة وليضئ طريقكم حتى تضىء شمس الوئام ضمائركم من جديد وحتى تعم السكينة حياة مواطنينا بالانسجام المفقود» .

فى نفس الساعة التى ظهر فيها رئيس الوزراء فى التليفزيون ليعلن عن فرض حالة الحصار، مستحضرًا أسباب الأمن القومى المرتبطة بعدم الاستقرار السياسى والاجتماعى الطارىء والذى يعد، فى الوقت نفسه، إحدى عواقب الحدث الذى قامت به مجموعات ثورية منظمة قد أعاقت بشكل متكرّر التعبير عن الرأى الانتخابى العام، أقول فى أثناء ذلك، كانت وحدات المشاه و الشرطة العسكرية، المزودة

بالدبابات والعربات الحربية، تتخذ مواقعها عند كل مخارج ومداخل المدينة وتشغل كذلك محطات القطارات . أما المطار الرئيسى، الواقع على بعد ٢٥ كيلومترًا شمال العاصمة، فقد ظل خارج المنطقة الواقعة تحت سيطرة الجيش، وبالتالى ظل يعمل بلا قيود جديدة سوى القيود المعروفة عند إطلاق الإنذار الأصفر، وهو ما يعنى أن السياح قد استطاعوا السفر و الترانزيت، لكن سفر غير المحاصرين، بالرغم من أنه لم يمنع كلية، إلا أنه بات منصوحًا به العدول عنه بالتأكيد، إلا فى ظروف خاصة، حيث يخضعون للتفتيش حالة وراء أخرى . كانت صور العمليات العسكرية، ذات القوة التى لا يمكن تحديها، كما علّق المذيع، تغزو بيوت سكان العاصمة المرتجفين . هنا كان الضباط يصدرون أوامرهم، هنا كان الصولات يصرخون لتنفذ تلك الأوامر، وهنا كان جنود سلاح المهندسين ينشئون الموانع. هنا كانت توجد سيارات الإسعاف، وحدات الإرسال، كشافات تضىء الطرق حتى بداية التقاطع، وموجات من الجنود الذين يقفزون من السيارات النقل فيتخذون مواقعهم وهم مدججون بالسلاح ومقسّمون لفرق كما لو كانوا على وشك الدخول حالا فى معركة قاسية أو فى حرب طويلة مضنية . لم يكن أمام العائلات التى تعمل أو تدرس بالعاصمة سوى أن يهزوا رءوسهم ويهمسون : إنهم مجانين. أما العائلات الأخرى التى يعمل أحد أفرادها، أبا كان أم ابنًا، فى مصنع واقع فى إحدى

المربعات الصناعية التى تحيط بالعاصمة، تلك العائلات التى كانت تنتظر كل مساء عودة ذويهم، فقد كانوا يتساءلون فيما بينهم كيف ومما سيعيشون بداية من الآن، إذ لم يعد مسموحًا الخروج والدخول. ربما يمنحون جواز مرور لمن يعمل بضواحى المدينة ـ قال رجل قد أحيل على المعاش منذ سنوات واشتعل رأسه شيبًا ومازال يستخدم ألفاظًا كانت تستخدم فى الحروب الفرانكوبروسية أو حروب أخرى مرت بنفس التجربة .. مع ذلك، لم يكن العجوز النذير شديد الضلال، والبرهان على ذلك أن قامت الجمعيات العمالية مسرعة فى اليوم التالى لتتوجه للحكومة وتعبّر لها عن قلقها الشديد. قالوا: «مع أننا نؤيد بلا تحفظات، وبقلب وطنى لا يساوره الشك، الإجراءات المشددة التى اتخذتها الحكومة كالتزام لإنقاذ الوطن الذى واجه مؤخرًا أحداثًا قاتلة لثورة خفية، إلا أننا نسمح لأنفسنا، وبأقصى درجات التقدير، أن نطلب من الجهات المعنية منح جوازات مرور فورية لعمالنا وموظفينا، وأننا نخشى، فى حالة عدم القيام بهذا الإجراء وبالشكل المطلوب، من الأضرار الخطيرة التى ستلحق بالأنشطة الصناعية والتجارية التى نعمل على تطورها، وما لهذا من عواقب وخيمة و أضرار لا يمكن تلافيها على الاقتصاد القومى عامة». فى ظهيرة نفس هذا اليوم، جاء البيان المشترك لوزارات الدفاع والداخلية و الاقتصاد ليحدد، بالرغم من تعبيره عن تفاهم وتعاطف الحكومة مع قلق الجمعيات المشروع،

عدم إمكانية توزيع الجوازات المروية المطلوبة أبدًا بالنسبة التى ترغبها المصانع، وذلك لأن هذا السخاء من جانب الحكومة سيشكل خطرًا لا يمكن تلافيه على صرامة وفاعلية الأجهزة العسكرية المكلفة بمراقبة الحدود الجديدة التى تحيط بالعاصمة. ومع ذلك، وكنموذج لتفتُّحها واستعدادها لتلافى العواقب الوخيمة، وافقت الحكومة على إمكانية منح جوازات المرور للمديرين والفنيين البارزين التى تعلن المصانع عدم الاستغناء عنهم فى سير العمل، على أن تتحمل المصانع المسئولية الكاملة، حتى الجنائية منها، عن أفعال هؤلاء الأفراد المنتفعين بهذا الامتياز، سواء كانت تلك الأفعال داخل أو خارج المدينة. على أى حال، عند التوصل للموافقة على هذه الخطة، سيجب على هؤلاء الأفراد أن يتجمّعوا صباح كل يوم عمل فى أماكن محددة للتعرف عليهم، ومن هناك يتم انتقالهم فى أوتوبيسات برفقة رجال الشرطة المسلّحين حتى مخارج المدينة المختلفة، حيث توجد هناك بدورها أوتوبيسات أخرى تسوقهم حتى مصانعهم أو مواقع خدمتهم، ومن نفس المكان، فى نهاية اليوم، تتم عودتهم. أما عن النفقات الناتجة عن هذه العملية، بداية من أجرة الأتوبيس حتى أتعاب رجال الشرطة مقابل خدمة المرافقة، فستقع كاملة على كاهل المصانع، مع أن هناك احتمالاً آخر هو اقتطاع تلك النفقات من الضرائب، وهو القرار الذى سيتم اتخاذه فى الوقت المناسب، بعد دراسة تطبيقية تعدّها وزارة

المالية. من السهل تخييل أن الشكاوى لم تتوقف هنا. فهناك معلومة أساسية يعرفها الجميع تقول إن الأفراد لا يمكنهم الحياة بلا طعام ولا شراب، لكن، لو وضعنا فى الاعتبار أن اللحم يأتى من الخارج، والسمك يأتى من الخارج، ومن الخارج تأتى الخضراوات، وكل شىء فى نهاية الأمر يأتى من الخارج، وما تنتجه هذه المدينة بمفردها أو ما يمكنها تخزينه لا يكفى أسبوعًا لمعيشتهم، سيكون من الضرورى حينئذ وضع أنظمة تموين تشبه تقريبًا النظام الموضوع لفنيى و مديرى المصانع، بالرغم من أنه قد يكون أكثر تعقيدًا، بسبب مدة صلاحية بعض المنتجات . وعلينا ألا ننسى المستشفيات والصيدليات، كيلوات الشاش وجبال القطن، أطنان الأقراص ولترات الحقن وعلب العوازل الطبية . علينا أن نفكّر أيضًا فى البنزين والسولار، نقلها إلى محطات الخدمة، إلا إذا خطر على بال أحد من الحكومة الفكرة المكيافيلية بعقاب سكان العاصمة مرتين، وإجبارهم على الانتقال سيرًا على الأقدام . بعد انقضاء أيام قليلة أدركت الحكومة أن حالة الحصار مشاكلها كثيرة وتتكاثر، خاصة أنها ليس لديها حقيقة أية نية لقتل المحاصرين جوعًا، كما كانت العادة الفعلية فى الأزمنة السحيقة، وأدركت أن الحصار ليس أمرًا يُرتجل هكذا هكذا، وأنه من الضرورى الإحاطة علمًا إلى أين تطمح الوصول وكيفية ذلك، وقياس العواقب، وتقييم ردود الأفعال، ووزن العوائق، وحساب الأرباح و الخسائر، حتى ولو

كان فقط من قبيل توفير الجهد، هذا الجهد الذى وجدته الوزارات يومًا وراء يوم يزداد ويتراكم جراء فيضانات الاعتراضات والشكاوى وطلبات الاستيضاح التى لا يمكن احتواؤها، والتى تقف أمامها فى أغلب الأحيان بدون أن تعرف ماهى الإجابة الأفضل لكل حالة، ذلك لأن التعليمات التى تأتى من أعلى تنظر فقط فى المبادئ العامة لحالة الحصار، بينما تتعامل بازدراء تام مع التفاصيل الصغيرة المرتبطة بالتنفيذ، مع أن تلك التفاصيل هى المدخل الدائم للفوضى. هناك مظهر مهم لهذا الوضع، لم يتركه سكان العاصمة بخفة دمهم الهجائى ومزاجهم الساخر بدون أن يهزءوا به، وهو أن الحكومة بعد أن زرعت الحصار حصدته أيضا، فصارت هى المُحاصَرة و المُحاصِرة ، ليس فقط لأن صالاتها وقاعات الانتظار بها، ومكاتبها ودهاليزها، ومؤسساتها وسجلاتها، ودواليبها وأختامها، كانت تقع داخل قلب العاصمة وبشكل ما تشكلها عضويًا، وإنما أيضًا لأن بعض أعضاء الحكومة، ثلاثة وزراء على أقل تقدير، وبعض السكرتارية ووكلاء الوزارات، وعدد من المديرين العموم، كانوا يقيمون فى ضواحى العاصمة، هذا بدون أن نتحدث عن الموظفين الذين يركبون كل صباح ومساء، بشكل أو بآخر، القطار أوالمترو أوالأوتوبيس، إن لم يكونوا ممن يمتلكون سيارات ملاكى أو لا يريدون أن يخضعوا أنفسهم للاختناق المرورى الحضرى. كانت النكات، التى لم تكن دائمًا تروى سرًا،

تسبر غور القصة الشهيرة للصياد الذى تم صيده، لكنهم لم يكتفوا بهذه البراءة الصبيانية ولا بفكاهة جنة الطفولة لتلك الفترة الجميلة، وإنما ابتدعوا أشكالاً وألوانًا مختلفة، بعضها كان فاحشًا بشكل جذرى، بل ومدان بالدعر فى رأى الذوق الرفيع. لكن لسوء الحظ، كان كل يوم يأتى يبرهن على قلة حيلة وضعف السخرية اللاذعة، والمزاح، والاستهزاء، والتهريج، والنكات، والمزح، وكل ما كانوا يريدون به جرح مشاعر الحكومة، ذلك لأنه لم يتم رفع الحصار و لم تُحل مشاكل التموين .

ومرت الأيام، ومازالت المشاكل تزداد وتتكاثر بلا توقف، وخطورتها أيضًا تزداد، وباتت تنبت تحت الأقدام كما الفطرة تنبت بعد المطر، لكن كان يبدو أن صلابة السكان الأخلاقية غير قابلة للانحناء أو التنازل عن هذا الذى اعتبروه حقا ولذا عبّروا عنه بصوتهم الانتخابى، إنه الحق البسيط فى عدم اتباع أى رأى من الأراء المطروحة. بعض الملاحظين، وهم بشكل عام مراسلون من وسائل إعلام أجنبية تم بعثهم بسرعة لتغطية الحدث، هكذا تقال فى لغة المهنة، علّقوا، لقلة معرفتهم بالمزاج المحلى، على الغياب المطلق للنزاع بين الأفراد، بالرغم من أنه قد حدثت، وتحققوا من الأمر بعد ذلك، بعض السلوكيات المستفّزة من قبل الضباط الذين حاولوا خلق حالة من عدم الاستقرار التى بررت، أمام أعين ما تسمى بالمنظمة الدولية، القفزة التى لم تطبق حتى الآن،

أقصد، التحول من حالة الحصار إلى حالة الحرب. وبدفعة من الحماس للجديد، فسّر أحد المعلقين هذا الوضع بأنه حالة فريدة من الإجماع الفكرى التى لم يشهدها التاريخ من قبل، وهو الأمر الذى سيجعل بالفعل من سكان هذه المدينة حالة شديدة الأهمية تُعبّر عن مدى المسخ السياسى الجدير بالدراسة. والحق أن هذه الفكرة ماهى إلا هذيان تام ولا علاقة له بالواقع، فبعض الناس هنا يختلف عن البعض الأخر مثل الناس فى أى مكان على وجه الأرض، لكل منهم تفكيره، كما أن منهم الغنى ومنهم دون ذلك، ومنهم من لديه وسائل ترفيه أكثر و من لديه أقل. فالأمر الوحيد الذى اتفقوا عليه نعرفه جيدًا، بلا جدال، وبلا تكرار. ولوكان الأمر كذلك، فمن المنطقى أن يتحرّك الفضول ليطرح السؤال الذى كرّره الصحفيون المحليون منهم والأجانب مرات عديدة، ما الأسباب الوجيهة التى منعت وجود حوادث وصراعات وأعمال شغب وهرج ومرج ومشاجرات، وماهو أسوأ، بين الذين أدلوا بأصوات بيضاء وبين الآخرين ؟. هذا السؤال يبرز بما فيه الكفاية مدى أهمية المعارف الأساسية لعلم الحساب قبل الممارسة الكاملة لمهنة الصحافة، فقد كان يكفى أن يضعوا فى اعتبارهم أن الأفراد الذين أدلوا بأصوات بيضاء يمثلون ثلاثة وثمانين فى المئة من إجمالى عدد السكان وأن الباقى، لو جمعنا جيدًا، لن يكون أكثر من سبعة عشرة فى المئة، وهذا بدون أن نتجاهل الرأى القابل للنقاش

الذى تبناه حزب اليسار، والذى يدّعى أن الأصوات البيضاء ماهى فى حقيقتها سوى أصوات لحزب اليسار نفسه، قائلين مجازًا أنهما مثل الظفر واللحم، وأن ناخبى حزب اليسار، هذه النتيجة من فحصنا الأمر، لم يدلوا كلهم بأصوات بيضاء لأنهم ببساطة كان ينقصهم المعرفة، بالرغم من أن كثيرًا منهم قد فعلها فى انتخابات الإعادة. قد لا يصدّقنا أحد إن قلنا إن سبعة عشرة يحاربون ثلاثة وثمانين، فقد انقضى زمن المعارك التى يتحقق فيها النصر بمساعدة الإله . هناك سؤال آخر منطقى يتعلق بإيضاح ماذا حدث للخمسمائة فرد الذين تم صيدهم من الصفوف الانتخابية من قبل جواسيس وزارة الداخلية، هؤلاء الخمسمائة الذين عانوا الأمرّين من الاستجوابات ورؤية أسرارهم الأكثر خصوصية تنتهك بواسطة جهاز كشف الكذب، وهناك أيضًا سؤال ثانى ماذا يفعل الآن ضباط المخابرات ومساعدوهم من الدرجات الأقل . أما ما يتعلق بالسؤال الأول فليس لدينا سوى شكوك ولا أمل فى التيقن منها. هناك من يقول إن الخمسمائة المحتجزين مازالوا يتعاونون مع السلطات لكشف النقاب عن الأحداث، متفقين فى ذلك مع عبارات الشرطة الملطّفة. وهناك آخرون يؤكدون أنهم يطلقون سراحهم، لكن واحدًا تلو الآخر حتى لا يلفتوا الانتباه بشكل كبير، على أن أكثر الناس ريبة يدافعون عن الرواية التى تحكى أنهم ساقوهم جميعًا خارج المدينة، وأنهم الآن يسكنون أماكن

مجهولة، وأن الاستجوابات مازالت مستمرة بالرغم من النتائج التافهة التى توصلت إليها حتى الآن. من المستحيل أن تعرف أين الحقيقة. وبالنسبة للسؤال الثانى، عما يفعل الآن ضباط المخابرات، فلدينا من اليقين ما يفيض. فهم كالعمال الشرفاء و المحترمين، يخرجون من بيوتهم كل صباح، يتجولون فى المدينة من أقصاها لأدناها، بحثًا عن قرائن، وعندما يبدو لهم أن السمكة على وشك أن تأكل، يتبعون تكتيكا» جديدًا، يكمن فى الكف عن اللف و الدوران وتوجيه الأسئلة بغتة لمن يستمع إليهم. «فلنتحدث بصراحة، كأصدقاء، أنا أدليت بصوت أبيض، وأنت»؟. كان المستجوبون فى البداية يقتصرون على تقديم الإجابات الاعتيادية، إنه ليس من حق أحد أن يجبر أحدًا على إظهار صوته الانتخابى، إنه لا يمكن لأية سلطة أن تسأل أحدًا فى هذه النقطة، وإذا خطر على بال أحدهم ذات مرة فكرة مطالبة الشخص الوقح الغريب أن يبرز هويته، أن يعلن باسم أية سلطة يطرح سؤاله، حينها يمكن مشاهدة منظر ممتع لضابط المخابرات يحنى رأسه ويسير جارا أذيال الخيبة، لأنه، بالطبع، لن يخطر ببال أحد أن الضابط سيتجرأ ليفتح محفظته ليبرز البطاقة التى تعتمد هويته كضابط مخابرات، بالصورة و الختم ورسمة العلم. لكن ذلك، كما قلنا، كان فى البداية . فبداية من لحظة معينة، بدأ ينتشر بين السكان، كما النار فى الهشيم، أن أفضل طريقة للتعامل فى مواقف من هذا النوع هى تجاهل

المتسائلين، وإعطاؤهم ظهورهم ببساطة، أو، فى حالات الإلحاح الشديد، الصراخ فى وجوههم بوضوح وبصوت مرتفع: لا تضايقنى، ومن لم يفضّل هذه الطريقة، فهناك طريقة أخرى، ذات فعالية ثابتة، وهى صب اللعنة عليهم . كانت التقارير التى يسلمها رجال المخابرات لرؤسائهم، كما كان متوقعًا، تخفى هذه السماجة، توارى هذا التأخر، وتكتفى بالإلحاح على الغياب العنيد والمنظّم لروح التعاون الذى مازال قطاع السكان المشتبه فيه يبرهن عليه. قد يعتقد أن سير الأمور بهذا الشكل قد وصل لنقطة يشبه فيها حلبة مصارعة يصارع فيها اثنان بنفس القوة، أحدهما يسدد لكمة، فيرد عليه الآخر بلكمة مماثلة، بدون أن يتحرك أى منهما بالفعل من مكانه، كما لا يستطيع أحدهما التقدّم على الآخر، بحيث ينتصر فى النهاية صاحب النفس الطويل . يرى المسئول المباشر والرئيسى بجهاز المخابرات أن حالة التعادل هذه ستنتهى لو تدخل مصارع آخر لمساعدة أحد المصارعَين، وهو ما قد يمكن تحقيقه، فى هذا الموقف بالتحديد، عند التخلى عن عمليات الإقناع غير المجدية، التى مازالوا يستخدمونها، وتبنّى مناهج رادعة بلا أية تحفظات، تلك المناهج التى لا تخلو من استعمال القوة الهمجية. إذا وجدت العاصمة نفسها، بسبب أخطائها المتكررة، خاضعة لحالة الحصار، إذا اعتنت القوات العسكرية بفرض الضبط والربط وقطع ذيل العواقب إن حدث خلل شديد فى النظام

الاجتماعى، إذا تحمل كل مسئول كبير، بكلمة شرف، مسئولية عدم الارتباك عندما تأتى ساعة اتخاذ القرار، حينها سيتكفل جهاز المخابرات بإنشاء بؤر ملائمة تحدث هرجًا ومرجًا تبرّر مسبقًا صرامة حالة القمع التى ترغبها الحكومة بكرمها وبكل الوسائل السلمية، وتجنب عملية الإقناع، كرّر الكلمة، تجنب الإقناع . أما الثوار فلن يستطيعوا الشكوى، فهذا ما أرادوه، وهذا ما كُتب عليهم . عندما طرح وزير الداخلية هذه الفكرة على مجلس الوزراء المحاصر، أو المأزوم، الذى كان قد تشكل أثناء ذلك، ذكّره رئيس الوزراء أنه مازال لديه سلاح لحل النزاع وأنه فقط فى حالة الفشل غير الواردة سيضع فى اعتباره الخطة الجديدة بل وخططًا أخرى ربما تراوده. إذا كان وزير الداخلية قد عبّر عن رأيه باقتضاب، فى أربع كلمات، «ها نحن نضيع الوقت»، فقد استخدم وزير الدفاع كلمات كثيرة ليبرهن على أن القوات العسكرية تعرف الوفاء بواجباتها، كما فعلت دائما على مدار تاريخنا، بدون النظر للتضحيات. وهنا ظلت القضية المرهفة، حيث لم تنضج الثمرة بعد. حينئذ غامر المصارع الآخر، الذى قد ملّ من الانتظار، وتقدم خطوة للأمام . فذات صباح اقتحم الناس شوارع العاصمة، لاصقين على صدورهم لاصقات مكتوبًا عليها، بالأحمر و الأسود: «أنا أدليت بصوت أبيض»، وعلّقوا على النوافذ لافتات كبيرة تعلن، بالأسود والأحمر : «نحن أدلينا بصوت أبيض»، على أن أكثر ما

كان يلفت الانتباه، ما كان يرفرف ويتقدم فوق رءوس المتظاهرين، كان نهرا لا نهاية له من الأعلام البيضاء التى جعلت أحد المراسلين الصحفيين التائه يلتبس عليه الأمر حتى أنه هاتف جريدته ليخبرها أن المدينة قد استسلمت. كانت مكبرات الصوت بسيارات الشرطة تصرخ جائرة أنه لا يُسمح باجتماع أكثر من خمسة أفراد، لكن الحقيقة أنهم كانوا خمسين، خمسمائة، خمسة آلاف، خمسين ألفا، فمَنْ فى موقف كهذا سيشرع فى عد الناس خمسة خمسة. كان رائد الشرطة يريد أن يعرف هل يستطيع استخدام القنابل المسيّلة للدموع وتعبئة الدبابات بالماء، بينما جنرال فرقة الشمال يسأل هل يسمحون له بتقدم الدبابات، أما جنرال فرقة الجنوب، التى جاءت جوا، فيسأل هل الظروف ملائمة للهبوط بالبراشوتات، أم ينصحونه بالعكس، خشية أن يسقطوا فوق أسطح المنازل . لقد كانت الحرب على وشك الانفجار .

فى تلك اللحظة بالتحديد، أمام الحكومة المُجتَمعة بكاملها ورئيس الدولة يرأسها، أعلن رئيس الوزراء خطته. لقد حانت الساعة لمواجهة المقاومة - قال - فلندع الأفعال السيكولوجية، مناورات التجسس، أجهزة كشف الكذب والأجهزة التكنولوجية الأخرى، لأننا، بالرغم من مجهودات وزارة الداخلية المستحقة للتقدير، بقى مبرهنا أمامنا عجز هذه الوسائل عن حل المشكلة، أضيف أننى أيضا لا أراه ملائمًا استخدام القوات العسكرية حتى نتجنب حصاد

الأرواح الذى علينا تجنبه أيا كانت الظروف، بناء على ذلك، ما أقدمه لكم هنا ليس الا اقتراح بالانسحاب الكلى من العاصمة، وهو مجموعة من العمليات التى قد يراها البعض سخيفة لكننى على يقين أنها ستقودنا إلى النصر الكلى والعودة للطبيعة الديمقراطية، والله أعلم، وبترتيب الأولوية نبدأ بسحب الحكومة فورًا إلى مدينة أخرى، تلك المدينة التى ستصير العاصمة الجديدة، بعدها سحب قوات الجيش المستقرة هنا، بعدها سحب قوات الشرطة، بهذه العملية الراديكالية ستبقى المدينة الثائرة لتهلك نفسها، سيكون أمامهم متسع من الوقت ليدركوا الخسائر الناتجة عن عزلتهم عن الوحدة القومية المقدسة، وعندما لا يستطيعون تحمل العزلة أكثر من ذلك، ولا الذل و لا الاحتقار، وعندما تتحول حياتهم إلى فوضى، حينئذ سيأتى إلينا سكانها المذنبون مطرقين ليتسولوا عفونا. نظر رئيس الوزراء حوله، هذه هى خطتى - قال - أخضعها للاختبار والمناقشة، وأحسب الجميع موافقا عليها، ومعذرة على قول ذلك، فكلما عظم الشر، عظمت وسائل مواجهته، وإذا كان حقًا أن الوسيلة التى اقترحتها شديدة الإيلام، فالشر الذى يهاجمنا ببساطة شرًا مميتًا .

إن ما اقترحه رئيس الوزراء، بكلمات يدركها ذكاء الطبقات متوسطة الاستنارة، لكن ليس الإدراك الكامل لأخطار وتنوع الشر بكل أشكاله والذى يهدد الحياة المؤقتة للجنس البشرى، هو ما يعتبر فى كل الأحوال هروبا من الفيروس الذى أثّر على السواد الأعظم من سكان العاصمة، وربما تنتشر عدواه لتصيب الباقين وتصل حتى، من يدرى، للبلد بأكمله، فأشد الشر هو الشر المستتر. القضية ليست قضية أن رئيس الحكومة نفسه أو الحكومة بكامل هيئتها يرتعدون من أن يكونوا قد تلوثوا من لدغة الحشرة الثائرة، بالرغم من أننا قد رأينا باستفاضة بعض الصدامات الشخصية والاختلافات الطفيفة فى الرأى، وإنما القضية تكمن فى أن غاياتهم تبرّر وسائلهم . لقد استطاعوا حتى الآن الاحتفاظ بالتماسك المؤسسى الذى لا يمكن كسره بين الساسة المسئولين عن إدارة بلد، الذين وقعت على رءوسهم فجأة مصيبة لم يشهدها قط ومنذ بدايته التاريخ الشاق و الطويل للشعوب المعروفة. وعلى عكس ما قد يعتقده بالتحديد وما يروّج له أصحاب النوايا السيئة، لا يعد هذا الانسحاب هروبًا جبانًا، وإنما هو خدعة

إستراتيجية من الدرجة الأولى، جسارة لا تُضاهى، قد تجنى ثمارها المنشودة باليد، كثمرة قد نضجت على شجرتها. إن ما ينقص الآن، لتمام تتويج العمل، هو أن تكون القوة المستخدمة فى تنفيذ الخطة على مستوى رسوخ الأهداف. فى المقام الأول، يجب أن يقرّروا من سيخرج من المدينة ومن سيبقى. سيخرج، بالطبع، سعادة رئيس الدولة وأفراد الحكومة بكامل هيئتها حتى وكلاء الوزارات، برفقة مستشاريهم الأقربين، سيخرج أيضا نواب الأمة حتى لايتوقف الإنتاج التشريعى، سيخرج كذلك قوات الجيش و الشرطة بما فيهم المرور، بينما سيبقى المجلس المحلى مجمّدًا برئيسه، كذلك جهاز المطافىء، فربما تُحرق المدينة بسبب الإهمال أو أعمال التخريب، أيضا هيئة النظافة الحضرية لتجنب الأوبئة، كما سيضمنون لهم بشكل جلىّ احتياجاتهم من الماء والكهرباء، وهما ما لا غنى عنهما فى الحياة. أما بالنسبة للطعام، فقد تكفّل فريق من المتخصصين فى الأغذية، يسمون أيضا بعلماء أغذية، بإعداد قائمة من قوائم الأكل القليلة التى قد تجعل سكان المدينة يشعرون، بدون إخضاعهم لنظام غذائى من الجوع، أن حالة الحصار حتى عواقبه الأخيرة ليست مثل قضاء عدة أيام أجازة على الشاطىء. وبالإضافة لذلك، كانت الحكومة مقتنعة أن الأمور لن تتفاقم أكثر من ذلك. وقبل مرور أيام كثيرة عرض التجار المعتادون فى كل مكان الخروج من العاصمة رافعين العلم الأبيض، علم الاستسلام غير

المشروط، وليس علم الثورة، وكون كل من العلمين له نفس اللون يعد توافقا جديرًا بأن نرويه، لكننا الآن لن نتوقف لنتأمله، لكن بعد ذلك لو وجدنا أسبابا كافية سنعود لهذه النقطة.

بعد اجتماع الحكومة بكامل هيئتها، التى أظن أننا قد تحدثنا عنها فى الصفحات الأخيرة من الفصل السابق، تلك الهيئة الوزارية المُحاصِرة، أو المأزومة، نوقشت واتخذت باقة من القرارات، سترى النور فى الوقت المناسب، إذا لم يتحول تطور الأحداث، أثناء ذلك، إلى عبث، أو يُضطر إلى استبدالها بقرارات أخرى، كما نعتقد أننا قد ذكرنا قبل ذلك، فالحق أن علينا أن نضع فى الاعتبار أن العبد فى التفكير و الرب فى التدبير، وأن هناك مرات قليلة، أغلبها مشئومة، اتفق فيها تفكير العبد مع تدبير الرب. إحدى القضايا التى تمت مناقشتها بحماس كانت طريقة انسحاب الحكومة، متى وكيف سيتم تنفيذه، بتكتم الأمر أم إعلانه، بصور تليفزيونية أم بدونها، بفرقة موسيقية أم لا، بأكاليل زهور فوق السيارات أم بغيرها، أيضعون العلم القومى ليرفرف فوق رفارف السيارات، وتفاصيل لا نهاية لها لمن كان ضروريًا لهم اللجوء المرّة والثانية والثالثة لبروتوكولات الدولة، التى لم تتعرض قط، منذ تأسيسها، لأزمات شبيهة. لقد كانت خطة الانسحاب التى تم قبولها أخيرًا عملاً تكتيكيًا رائعًا، يكمن أساسًا فى دراسة هائلة لنثر المسارات لتشتيت تركيز المتظاهرين بأعلى

درجة، هؤلاء المتظاهرون الذين تعبئوا بالكاد ليعبّروا عن الضيق وعدم الرضا واستفزاز العاصمة بسبب العزلة التى حُكم عليهم بها. كان هناك مسار خاص لرئيس الدولة، وآخر لرئيس الحكومة ولكل واحد من الهيئة الوزارية، سبعة وعشرون طريقًا مختلفًا إجمالى الطرق، كل طريق يؤمنه الجيش و الشرطة، بعربات لمناهضة الشغب فى مفترق الطرق وسيارات إسعاف فى آخر القافلة، حيطة لما يمكن أن يحدث. كانت خريطة المدينة، كلوح هائل مضىء اشتغلوا فيه باجتهاد خلال ثمانى وأربعين ساعة، بمشاركة قيادات عسكرية وبوليسية متخصصين فى الطرق، تبدو كنجمة حمراء لها سبعة وعشرون ذراعًا، أربعة عشر تنظر للنصف الشمالى، وثلاثة عشر تنظر للنصف الجنوبى، بخط الاستواء يقسمها إلى نصفين. بهذه الأذرع السبعة والعشَرين يجب أن تسير السيارات السوداء ذات الهوية الرسمية، محاطة بالحرس الخاص و walki talkis وهى أجهزة عريقة فى القدم مازالت تستخدم فى هذا البلد، لكن بميزانية مقبولة من أجل تحديثها. كل الأفراد الذين اشتركوا فى المراحل المختلفة لعملية الانسحاب، أيا كانت درجة مساهمته، فُرِض عليه أن يؤدى اليمين على الصمت المطبق، أولا بيده اليمنى فوق الإنجيل، ثانيا فوق الدستور المغلّف بجلد أزرق، متممًا العهد بقسم الأقوياء، مستعيدًا بذلك التقليد الشعبى : فلينصب العقاب على رأسى ورأس نسلى من بعدى حتى الجيل الرابع إن أنا حنثت اليمين. وبعد

ختمَ الختم، تحدد تاريخ الانسحاب بعد يومين. أما ساعة الخروج فهى متزامنة، أقصد، نفس الساعة للجميع، وستكون الساعة الثالثة صباحًا، عندما لا يكون مستيقظًا سوى الساهرين الخطيرين الذين يتقلّبون فى أسرّتهم مقدمين النذورلإله النوم، ابن الليل والأخ التوءم لتاناتوس، أن ينجدهم من محنتهم، مسقطًا فوق جفونهم الثقيلة البلسم المنوّم الناعم. وخلال الساعات التى مازالت باقية، كان الجواسيس، بعودتهم المحشودة لميدان العمليات، يتجولون بكل معانى الكلمة ميادين و شوارع و حوارى وأزقة المدينة، سامعين فى الخفاء نبض السكان، جاسين مقاصد شبه مخفية، جامعين كلمة سمعوها هنا مع كلمة سمعوها هناك فى محاولة لمعرفة إن كان قد انتشر خبر القرارات التى اتخذها مجلس الوزراء، خاصة فيما يتعلق بإنسحاب الحكومة الوشيك، لأن الضابط حقًا الجدير بهذا الاسم عليه أن يحقق كواجب مقدس، كقاعدة لا تُخلف، كمرسوم قانون، عدم الثقة فى أى يمين إطلاقًا، أيا كان من أقسم اليمين، حتى لو كانت أمه التى ولدته، وعليه أن يفقد الثقة أكثر لو كان اليمين يمينين، وأكثر لو كان بدل اليمينين ثلاثة. فى هذه الحالة، مع ذلك، لم يجدوا أمامهم بدا من الاعتراف، بالرغم من شعورهم بالفشل المهنى، بأن السر الرسمى قد احتُفظ فى بئر، وهو اليقين التجريبى الذى اتفق مع جهاز المخابرات الرئيسى بوزارة الداخلية، الذى، بعد الاختبار والتنقية والجمع

والخلط وإعادة خلط آلاف الأجزاء من الحوارات الملتقطة، لم يجدوا ولا حتى إيماءة واحدة ولو سيئة الفهم، ولا علامة واحدة مشتبه فيها، ولا طرف خيط ضئيل قادرعلى إحضار أية مفاجأة مشئومة عند إلقائه فى الطرف الآخر. كانت الرسائل التى بعث بها جهاز المخابرات بوزارة الداخلية، بطريقة رفيعة، رسائل مهدّئة، لكن ليس فقط هذه الرسائل، وإنما أيضًا ما أرسله ضباط المخابرات العسكرية الأكفاء، الذين كانوا يتقصوا بمفردهم من وراء منافسيهم المدنيين، إلى العقداء بالمخابرات وإخصائيى علم النفس المجتمعين فى وزارة الدفاع، كان يتفق مع الرسائل الأولى فى كونها مهدّئة، وهو التعبير الذى صار فى الأدب تعبيرًا كلاسيكيًا. لا شىء جديد فى الجبهة الغربية، باستثناء، بالطبع، الجندى الذى قضى نحبه فى التوّ. من رئيس الدولة إلى أصغر مستشار انطلقت تنهيدة راحة من داخل الصدر. وشكرًا لله، كان الانسحاب على وشك التحقيق بكل هدوء، بدون إحداث جراح مبالغ فيها لسكان قاموا بالصدفة، وندموا بعد ذلك، جزئيًا، بتصرف مثير للفتنة لا تفسير له بجلاء، لكنه، بالرغم من هذا، يعد بادرة للوطنية الجديرة بكل إطراء يتكهن بمجىء أيام أفضل. لكن لم يكن يبدو أن السكان لديهم أية نية، سواء بالأفعال أم بالكلمات، لإزعاج الحكام الشرعيين وممثليهم فى لحظة الفراق المؤلمة هذه والتى لا غنى عنها. بهذه العبارة تم ختم كل التقارير وهكذا سارت الأمور.

فى الساعة الثانية و النصف صباحًا كان الكل على استعداد لفتح المتاريس التى تحيط بقصر الرئيس وقصر رئيس الحكومة و المبانى الوزارية الأخرى. كانت مصطفة السيارات السوداء الفارهة، سيارات نقل الأرشيفات التى يحميها حرس الأمن المدججون بالسلاح، والذين قد يبصقون سمومًا من بشاعة منظرهم، كما اصطف رجال الشرطة فى أماكنهم، عربات الإسعاف بإنذارها المضىء، وبالداخل، بالمكاتب، مازالت الفترينات الأخيرة والأدراج تُفتح وتُغلق، وكان الحكام الهاربون، أو المتهرّبون، الذين لابد أن نسميهم بأسلوب راق بالطريدين، يلملمون حزنًا ذكرياتهم الأخيرة ، صورة للمجموعة، صورة أخرى عليها الإهداء، مخمّلا، تمثالاً لإلهة السعادة، مقلمة من فترة الدراسة، شيكا مردودا، خطاباً مجهولاً، طرحة مطرّزة، مفتاحاً غامضًا، قلماً غير مستخدم بالاسم منقوشًا عليه، ورقة تعرّضه للمساءلة، وورقة أخرى تعرض للمساءلة زميلاً له فى القسم المجاور. عدد من هؤلاء الأشخاص بالدموع فى عيونهم، رجالاً ونساءً، لم يتمكنوا من السيطرة على عواطفهم، كانوا يتساءلون فيما بينهم إن كانوا ذات يوم سيعودون إلى أماكنهم المحبوبة التى كانت شاهداً على تدرّجهم فى الدرج الوظيفى، وآخرون، لم يساعدهم القدر كثيرًا، كانوا يحلمون، بالرغم من خيبة أملهم والظلم الواقع عليهم، بعوالم مختلفة وفرص جديدة تضعهم، فى نهاية الأمر، فى المكان الذى يستحقونه.

فى الساعة الثالثة إلا الربع، عندما تم توزيع قوات الجيش والشرطة بشكل إستراتيجى على طول السبعة والعشرين طريقًا، بدون نسيان العربات المضادة للشغب التى تسيطر على مفترقات الطرق الرئيسية، تم إصدار الأمر بتقليل كثافة الإضاءة العامة فى العاصمة بأسرها كوسيلة لتغطية الانسحاب، وهو تعبير يصدمنا كثيرًا. فى الشوارع التى يجب أن تمر بها السيارات وعربات النقل لم نجد ولا روحًا واحدة ترتدى الملابس المدنية، ولا روحًا واحدة. أما بالنسبة لبقية المدينة فلم تتغيّر المعلومات التى تلقوها باستمرار، ولا مجموعة، ولا حركة مثيرة للشبهة، الطائفون بالليل الذين فى طريق العودة لبيوتهم أو الخارجين منها لم يبدو مثيرين للخوف، فلم يكونوا يحملون أعلاماً على أكتافهم ولا يدارون زجاجات بنزين تخرج من عنقها طرف خرقة، ولا يلعبون لعبة الطاحونة بالنبابيت أو بسلسلة درّاجات، وإذا كانوا قد وجدوا أحدًا وأقسموا على أنه لم يسلك طريقه الصحيح عن قصد، فلا يجب أن ننسب ذلك إلى انحراف ذى طابع سياسى، وإنما إلى الإفراط فى تناول الكحول. فى الساعة الثالثة إلا ثلاث دقائق كانت مواتير السيارات التى سترافق القافلة قد اشتغلت. وفى الساعة الثالثة بالضبط، طبقا للاتفاق، بدأ الانسحاب.

حينئذ، ياللمفاجأة، ياللدهشة، ياللعجيبة التى لم تشاهد من قبل، أولا ساد الارتباك و الحيرة، بعدهما ساد القلق، ثم الخوف، وغرزت تلك المشاعر مخالبها

فى رقبة رئيس الدولة ورئيس الحكومة، فى رقبة الوزراء والسكرتارية ووكلاء الوزارة، فى رقبة النواب، وحرس الأمن المرافق لسيارات النقل، ورجال الشرطة، حتى فى رقبة فريق العمل بالإسعاف، ولو بدرجة أقل، هؤلاء الذين تعودوا على المصائب بطبيعة عملهم. فى الوقت الذى كانت فيه السيارات تمضى متقدمة فى الشوارع، كانت تضاء فى واجهات البيوت، واحدًا تلو الآخر، من أعلى لأسفل، لمبات، مصابيح، كوانين، كشافات، شمعدانات إن وجدت، وربما قنديلا قديمًا من النحاس له ثلاث عيون من هذه القناديل التى تُملأ بالزيت، كل النوافذ مفتوحة وتفيض، بوفرة، بنهر من النور كما الفيضان، تكاثر من الزجاج المصنوع من القبس الأبيض، علامات على الطريق، تشير للهاربين على اتجاه الهرب كيلا يضلوا، كيلا ينحرفوا فى الطرق المختصرة. كان رد الفعل الأول لمسئولى الأمن بالقوافل هو ترك الحيطة جانبًا، إصدار أمر بالضغط على دواسات البنزين بشدة، مضاعفة السرعة، وهكذا بدأ سائقو الموتوسيكلات الرسميين فى الإسراع بسعادة لا يمكن كبحها، هؤلاء، كما هو معروف عالميًا، يكرهون السير بخطوة الثور عندما يمتلكون موتور بقوة مائتى حصان. القرار المفاجىء والسريع، مثل كل القرارات الناتجة عن الخوف، أدّى، فى كل الطرق بالفعل، إلى الارتباك فى التقديم والتأخير، مما أدى لتصادمات طفيفة، فكانت السيارات الخلفية تصدم بشكل عام السيارات التى تسبقها، ولحسن الحظ لم

تكن العواقب على الركاب شديدة الخطورة، مجرد ذعر أو يزيد قليلاً، كدمات فى الرأس، خدش فى الوجه، لوى فى الرقبة، مجرد أشياء لا تبرر غدًا إعطاء ميدالية على الجروح، أو صليب الحرب، أو قلب أرجوانى أو أى مسخ شبيه. تقدمت عربات الإسعاف، كان طاقم الأطباء و التمريض على استعداد لعلاج الجرحى، وكان الارتباك هائلاً، يُرثى له بكل الأشكال، توقفت القوافل، بدأت المكالمات التليفونية تطلب أخبارًا عما يحدث فى المسارات الأخرى، شخص كان يطالب بذراعين مرفوعين أن يخبروه بسير الأمور تحديدًا، وما زاد الطين بلّة تلك الصفوف من البنايات المضاءة كأشجار عيد الميلاد، كان ينقص فقط النيران الاصطناعية ومراجيح الخيل، والحمد لله أن أحدًا لم يكن يطل من النوافذ ليستمتع بالفرجة المجانية المعروضة بالشارع، ضاحكًا، ساخرًا، مشيرًا بأصابعه على السيارات المبعججة. قد يخطر ذلك ببال الموظف الصغير قريب النظر، هذا الذى لا يهتم سوى باللحظة، مثل الأغلبية، وربما يفكّر ذلك أيضًا وكلاء الوزارة و المستشارون الذين لا مستقبل متسع أمامهم، لكن لن يفكر فى الأمر بهذه الطريقة رئيس وزراء، خاصة لو كان رجلاً متبصّرًا كما أثبت هذا الرجل. بينما كان الطبيب ينظّف له ذقنه بمطهر ويتساءل داخل نفسه ألا يتجاوز الحدود المعقولة لو أعطى له حقنة ضد التيتانوس؟ كان رئيس الحكومة يلف ويدور حول القلق الذى رجرج روحه منذ رأى المبانى الأولى

مضاءة. كانت الحالة بلا شك تبث الاضطراب فى أكثر الساسة رباطة جأش، كانت بلا شك حالة مقلقة، محيّرة، لكن الأسوأ من ذلك، الأسوأ بحق، عدم رؤية أحد فى النوافذ، كما لو كانت القوافل الرسمية تهرب بشكل مثير للضحك من لا شىء، كما لو كان العدو يزدرى قوات الجيش و الشرطة والعربات المضادة للشغب، بما فيها عربات الماء. والآن ليس أمامهم من يحاربونه. مازال فاقداً الوعى بعض الشىء بسبب الاصطدام، لكنه بلزقة ملصوقة على ذقنه و بعد أن رفض بنفاد صبر حقنة التيتانوس، تذكّر رئيس الحكومة أن أول ما يجب عليه فعله أن يهاتف رئيس الدولة، ليسأله عن حاله، والاهتمام بصحة سعادته، وعليه أن يفعل ذلك فى التوّ، قبل ضياع لحظة أخرى، بدلاً من أن يسبقه هو، وبمكر سياسى شرير، يهاتفه، و يخرج لى ذكره، همس بهذه العبارة دون ان يفكّر فى معناها الحرفى. طلب من سكرتيره أن يجرى المكالمة، سكرتير آخر رد عليه، السكرتيرالأول أخبره أن السيد رئيس الحكومة يريد أن يتحدث مع السيد الرئيس، السكرتير الآخر قال له ثانية من فضلك، السكرتير الأول أعطى التليفون لرئيس الحكومة، الذى انتظر كالعادة. «كيف تسير الأمور عندك»، سأل الرئيس، «مجرد زوبعة فى فنجان»، أجاب رئيس الوزراء. «هنا لم يحدث شىء إطلاقًا». «ألم تحدث اصطدامات». «لا، بل فقط دفعات صغيرة». «أتمنى بلا خطورة». «نعم، فهذه السيارات المصفحة صامدة للقنابل».

«آسف أن أضطر أن أذكر سيادتك، سيدى الرئيس، أن ولا عربة من العربات صامدة للقنابل». «لست فى حاجة أن تخبرنى بذلك، فدائمًا هناك رمح لكل درع، وقنبلة لكل عربة مصفحة». «أأنت مجروح.» «ولا خدش». خرجت رأس شرطى من شباك السيارة مشيرًا أن القافلة تستطيع المواصلة. «ها نحن نعاود السير من جديد». أخبره رئيس الحكومة. «هنا لم نتوقف تقريبا»، أجابه رئيس الدولة. «سيدى الرئيس، كلمة واحدة». «قُلْ». «لا أستطيع أن أخفى عليك أننى أشعر بالقلق، بل أشعر الآن بقلق يفوق قلق يوم الانتخابات الأولى». «مما» ؟. «من هذه الأنوار التى تضىء طريقنا والتى أغلب الظن ستواصل فى الإضاءة حتى نهاية الطريق، حتى نخرج من المدينة، كل ذلك مع الغياب المطلق للأفراد، انظر سيادتك لن تجد روحًا واحدة فى النوافذ أو فى الشوارع، إنه لأمر غريب، شديد الغرابة، لقد بدأت أفكّر أننى يجب أن أقبل ما كنت حتى هذه اللحظة أرفضه، أن هناك نية تكمن وراء كل هذا، هناك فكرة، هناك هدف قد خُطّط له، فالأمور تسير كما لو كان السكان يخضعون لخطة ما، كما لو كان هناك تنسيق مركزى». «لا، لا أعتقد ذلك، فأنت يا صديقى العزيز تعلم أكثر منى أن نظرية المؤامرة الفوضوية ليس لها سند، وأن النظرية الأخرى، نظرية البلد الأجنبى اللئيم المتورّط فى أفعال تهز استقرار بلدنا، لا تساوى أكثر من النظرية الأولى». «لقد كنا نعتقد أننا نسيطر كلية على

الموقف، أننا أصحابه وسادته، وفى النهاية ها هم يخرجون علينا فى الطريق بمفاجأة لا يستطيع أمهر الناس أن يتخيلها، إنها ضربة معلم، ويجب أن أعترف بذلك». «فيما تفكر أن تفعل». «حتى الآن سنواصل الخطة التى أعددناها، وإذا الظروف المستقبلية نصحتنا بإدخال خطط بديلة سنقوم بذلك، فقط بعد عمل دراسة مستفيضة للمعلومات الجديدة، وأيا كانت المعلومات، لا أتكهن بإحداث تغيير فيما هو أساسى». «وبرأيك ما هو الشىء الأساسى». «سنناقش الأمر حتى نتوصل لاتفاق، فالأمر الأساسى هو عزل السكان، تركهم يستوون على نار هادئة، وعاجلاً أم أجلاً لا يمكن تلافى أن تبدأ النزاعات فى الظهور، ستحدث صدامات المصالح، ستصير الحياة بمرور الأيام أشد عسرًا، فى وقت قليل ستقتحم القمامة الشوارع، سيدى الرئيس، و ستصير الأمور كما لو عادت الأمطار، وأنا على يقين من ظهور مشاكل خطيرة فى التموين وتوزيع الغذاء، كما أنا على يقين من أننى رئيس الحكومة، وسنتكفل نحن بخلق تلك المشاكل لو وجدنا ذلك مناسبًا». «أتعتقد إذًا أن المواطنين لن يطيقوا صبرًا وقتًا طويلاً». «نعم سيدى، وبالإضافة لذلك، هناك عنصر آخر شديد الأهمية، ربما أشد العناصر أهمية». «ماهو»؟ «أنهم مهما حاولوا ومهما واصلوا فى محاولاتهم، فلن يتمكنوا أبدًا من جعل كل الناس يفكرون بنفس الطريقة». «هذه المرة أتفق معك». «إنه شىء رائع ليكون حقيقة، سيدى

الرئيس. وإذا وجدت حقيقةً، كما قد قبلت أنت من عدة ثوان، منظمة سرية، مافيا، شىء ولد بيننا، سى أى إيه أو كيه جى بى». «السى اى إيه ليست منظمة سرية، سيدى الرئيس، والكيه جى بى لا وجود لها». «الفرق ليس كبيرًا جدًا، لكن فلنتخيل شيئًا شبيهًا، أو أسوأ، إذا كان ممكنًا، شيئًا مكيافيلى، يتم اختراعه الآن ليكوّن شبه أغلبية حول، إذا أردت أن أخبرك، لا أعرف جيدًا حول ماذا». «حول الصوت الأبيض، سيدى الرئيس، حول الصوت الأبيض». «إلى هذه النقطة أستطيع أن أصل بمفردى، لكن ما يهمنى هو ما لا أعرفه». «ليس لدى أى شك، سيدى الرئيس». «واصل من فضلك». بالرغم من أننى مضطر أن أقبل، نظريا، دائمًا نظريًا، إمكانية وجود منظمة سرية ضد أمن الدولة، وضد شرعية النظام الديمقراطى، فهذا الأمر لا يتم بلا اتصالات، بلا اجتماعات، بلا قرارات، بلا كسب أنصار، بلا أوراق، نعم، بلا أوراق، فسيادتك تعلم أن فى هذا العالم من المستحيل كلية أن يعمل شىء بلا أوراق، ونحن بالإضافة لعدم وصولنا لأية معلومة عن نشاطات كالتى نتحدث عنها، لم نجد أيضًا ولا ورقة أجندة بسيطة تقول على الأقل : هيا تقدموا يا أصحاب le jour de gloire est arrive «لا أفهم لماذا يجب أن تقال بالفرنسية». بسبب التقليد الثورى، سيادة الرئيس. «يا لبلدنا من بلد شاذ حيث تحدث فيه أشياء لم تحدث فى أية بقعة أخرى على كوكب الأرض» . «لستُ فى حاجة أن أذكّر سيادتك،

سيدى الرئيس، إنها ليست المرة الأولى». «هذا بالتحديد ما أشير إليه، عزيزى رئيس الوزراء. من الواضح أنه لا يوجد أدنى احتمال للربط بين الحدثين». «من الواضح لا، فالشىء الوحيد المشترك بينهما هو اللون». «لم نجد للحدث الأول تفسيرًا حتى الآن» . «ولم نجد للحدث الثانى أيضًا» . «سنرى سيادة الرئيس، سنرى الأمر». «وإن لم يكن سنضرب رأسنا بالحائط». «علينا أن نتمتع بالثقة، سيدى الرئيس، فالثقة أمر أساسى». «فى ماذا ؟، فى مَنْ ؟، أخبرنى». «فى المؤسسة الديمقراطية» . «صديقى العزيز، احتفظ بهذا الخطاب للتليفزيون، فهنا لا يسمعنا سوى السكرتارية، ونستطيع التحدث بوضوح». غيّر رئيس الوزراء موضوع المحادثة. «ها نحن نخرج من المدينة، سيدى الرئيس». «ونحن أيضًا فى طريقنا للخروج» . «انظر سيادتك للخلف، سيدى الرئيس، من فضلك». «لماذا»؟. «للأضواء». «ماذا فى الأضواء»؟. «مازالت مضاءة، لم يطفئها أحد». «وما النتيجة التى استخلصتها من هذه المصابيح». «لا أدرى جيدًا، سيدى الرئيس، فالمنطق يقول إن عليهم أن يطفئوا الأنوار فى كل مكان تركناه، لكن ذلك لم يحدث، وها هى أمامنا، أتخيل أن المصابيح من أعلى تشكل صورة نجمة لها سبعة وعشرون ذراعًا». «أرى رئيس وزرائى شاعرًا». «لست شاعرًا، لكن النجمة دائمًا نجمة ولا يمكن أن تكون سوى نجمة، لا أحد ينكر هذا الأمر، سيدى الرئيس». «والآن ماذا سنفعل» «لن تعبر

الحكومة من أذرع النجمة، فعرين السبع لا يخلو، فمازال لدينا سهام فى جعبتنا. «أتمنى ألا تخطئوا فى الرمى». «سأحتاج فقط أن أبلغ العدو بيدى». «لكن هذه بالتحديد هى المعضلة، أننا لا نعرف أين العدو، ولا حتى نعرف من هو». «سيظهر، سيادة الرئيس، إنها مسألة وقت، فهو لا يستطيع الاستمرار فى الخفاء للأبد». «ونحن لا ينقصنا وقت» . «سنجد حلاً». «ها نحن على الحدود، سنواصل حوارنا فى مكتبى، فلتأتنى على الساعة السادسة مساء». «أمرك، سيدى الرئيس، سأكون فى موعدى».

كانت الحدود متشابهة فى كل مخارج المدينة: موانع معقّدة متحركة، دبابتان، إحداهما على يمين الطريق والأخرى على يساره، عدة عنابر وجنود مسلحون يرتدون الزى الموحد للسلاح بوجوههم المرسومة. إضاءة كثيفة تضىء البلاتوه. خرج الرئيس من سيارته، كافأ التحية المعصومة لرئيس الحرس بإيماءة مدنية وشبه جافة، وسأل، «كيف تسير الأمور هنا». «بلا جديد، هدوء مطلق، سعادة الرئيس». «هل حاول أحد الخروج». «أبدًا، سعادة الرئيس». «أظن أنك تتحدث عن سيارات بمحركات، دراجات، عربات، دراجات رجل». «نعم أقصد سيارات بمحركات، سيدى الرئيس». «وأفراد سائرون على أقدامهم». «كذلك ولا فرد واحد». «أنت بالطبع قد فكرت أن الهاربين لن يمروا بطريق السيارات» «نعم سيدى الرئيس، بكل الوسائل لن يستطيعوا العبور، فبالإضافة

للدوريات التقليدية التى تراقب منتصف المسافة التى تبعدنا عن المخرجين الأكثر قربًا منا، نحن مزودون، فى الجانب و الجانب الآخر، بأجهزة إليكترونية حساسة قادرة على إطلاق الإنذار إن مر فأر، إن ضبطناها لكشف الأجسام الصغيرة». «رائع، أنت تعرف بالتأكيد ما يُقال فى هذه المناسبات، الوطن يتأملنا». «نعم سيدى الرئيس»، ندرك أهمية مهمتنا» «أظن أنكم قد تلقيتم تعليمات فى حالة وجود محاولات للخروج الجماعى» «نعم سيدى الرئيس». «ماهى». «أولا، نستوقفهم». «هذا معروف». «نعم سيدى الرئيس». «وإن لم يبالوا». «إن لم يبالوا أطلقنا النار فى الهواء». «وإن تقدموا بالرغم من ذلك». «حينئذ سيتدخل من الشرطة فرقة فض الشغب المعينة لنا». «وكيف ستتصرف». «هذا حسب الوضع، إما بإلقاء القنابل المسيلة للدموع، أو الهجوم بعربات الماء، وهذان الفعلان ليسا من اختصاص الجيش».

«ألاحظ فى كلامك نبرة نقد ما». «الحق أن رأيى أنها ليست طرفًا للاشتباك، سيدى الرئيس». «ملحوظة مهمة، وإن لم يتقهقر الأفراد». «من المستحيل ألا يتقهقروا، سيدى الرئيس، لا أحد يستطيع أن يقاوم الغازات المسيلة للدموع والمياه الغزيرة». «لكن تخيّل أن هذا حدث، ماهى الأوامر المتبعة فى احتمال كهذا». «إطلاق النار على الأقدام». «ولماذا الأقدام». «لأننا لا نريد أن نقتل مواطنينا». «لكن دائما قد يحدث». «نعم سيدى الرئيس، دائمًا قد

يحدث». «ألك عائلة فى المدينة». «نعم سيدى الرئيس». «تخيّل أنك ترى زوجتك وأولادك على رأس حشد يتقدم». «عائلة الرجل العسكرى تعرف ما يجب عليه أن يفعله فى كل المواقف». «أظن ذلك، لكن تخيّل، ابذل جهدا لتتخيل ذلك». «الأوامر يجب أن تُنفذ، سيدى الرئيس». «كل الأوامر». «حتى اليوم يشرفنى أننى نفذت كل ما أومرت به». «وغدا». «أود ألا أجيب، سيدى الرئيس». «ليتك لا تفعل». تقدم الرئيس خطوتين صوب السيارة، وسأل فجأة، «أأنت على يقين أن زوجتك لم تدل بصوت أبيض». «أبصم على ذلك بالعشرة، سيدى الرئيس». «أتبصم حقا». «إنه تعبير يقال، أقصد أننى لست على يقين من أنها أدت واجبها الانتخابى». «هل أدلت بصوتها». «نعم». «لكن ذلك ليس إجابة لسؤالى». «لا سيدى الرئيس». «إذا فلتجب». «لا أستطيع، سيدى الرئيس». لماذا. «لأن القانون لا يسمح لى بذلك». «آه». نظر الرئيس محملقا للضابط، بعدها قال، «إلى اللقاء أيها الرائد، ألست رائدا». «نعم سيدى الرئيس». «تصبح على خير، يا رائد، ربما نتقابل من جديد». «تصبح على خير سيدى الرئيس». «انتبه إننى لم أسألك إن كنت قد أدليت بصوت أبيض». «لقد انتبهت لذلك سيدى الرئيس». «سارت السيارة بأقصى سرعة. وضع الرائد يديه على وجهه. وكانت قطرات العرق تجرى على جبهته» .

انطفأت الأنوار عندما خرجت من المدينة آخر عربة نقل تحمل القوات وآخر سيارة شرطة. واحدًا وراء الآخر، كمن فى حالة وداع، راحت تنطفئ أذرع النجمة السبعة والعشرين، وبقى فقط الرسم غير الدقيق للشوارع الصحراوية والإضاءة العمومية الخافتة التى لم يفكّر أحد فى إعادتها إلى حالتها الطبيعية كالليالى الفائتة. سنعرف إلى أى مدى تدب الحياة فى المدينة عندما يذوب الليل الحالك فى زرقة السماء العميقة والتى يستطيع نظر حاد تمييزها عندما تصعد من الأفق، حينها سنرى إن كان الرجال والنساء الذين يسكنون فى شقق هذه البنايات سيخرجون إلى عملهم، إن كانت الأوتوبيسات ستأخذ الركاب الأوائل، إن كانت عربات المترو سترجف الأنفاق بسرعة، إن كانت المحلات ستفتح أبوابها وترفع مظلات نوافذها، إن كانت الجرائد ستصل للأكشاك. فى هذه الساعة الصباحية، بينما يغتسلون، يرتدون ملابسهم، يتناولون ككل صباح القهوة باللبن، يسمع الأفراد الراديو يذيع، بكل حماس، أن الرئيس والحكومة و البرلمان تركوا المدينة فى ساعة الفجر، وأن المدينة أصبحت بلا شرطة وأن الجيش قد

انسحب منها، حينذاك يشعلون التليفزيون الذى يقدم لهم بنفس النبرة نفس الخبر، وكلاهما، الراديو والتليفزيون، بفاصل صغير بينهما، يخبر أنه، فى الساعة السابعة بالضبط، سيتم إذاعة بيان مهم لرئيس الدولة موجه إلى الشعب بأكمله وبالأخص، كما هو معروف، إلى سكان العاصمة العُنّد. حتى هذه اللحظة لم تُفتح الأكشاك، وبالتالى فلا جدوى من النزول للشارع لشراء الجرائد، كما أن الأمر لا يستحق العناء، حتى وإن حاول البعض ذلك، بحثاً فى شبكة الإنترنت عن الرقابة الرئاسية المتوقعة. لقد بات جهاز المخابرات الرسمى، الذى يصيبه أحيانًا وباء تفشى السر أحيانًا، كما قد تم البرهنة على ذلك منذ ساعات قليلة بإضاءة أنوار البيوت المتناغمة، كثير الشكوك لأقصى درجة كلما كان الأمر يؤثّر على السلطات العليا، التى، كما هو معروف، تصنع من الحبة قبة، فلا تكتفى بطلب التفسيرات السريعة والكاملة من المخالفين، وإنما من حين لآخر تقطع رقابهم. باقى على الساعة السابعة عشر دقائق، وكثير من الأفراد الذين يرقدون الآن كان يجب أن يكونوا فى الشارع فى طريقهم لعملهم، لكن من يوم واحد لن يحدث شىء، فالأمركما لو كان الموظفون الحكوميون قد أعلنوا الإعفاء من الدّقة فى المواعيد، أما ما يتعلق بالمؤسسات الخاصة، فأغلب الظن أن أغلبها سيظل مغلقًا طوال اليوم، حتى يروا أين سينتهى الأمر. فالحيطة وشوربة الدجاج لا يضران أبدًا سليم البدن.

لقد برهن لنا التاريخ العالمى للشغب، سواء كان اضطرابات واضحة فى النظام العام أو تهديدًا بسيطًا من الذى قد يحدث، أن أفضل نماذج الحيطة هى النماذج التى قدمتها لنا التجارة والصناعة التى تطل على الشارع، وهو السلوك المتخوّف الذى من واجبنا احترامه، حيث إن هذه الفروع من النشاط المهنى هى الأكثر تعرضًا للخسائر، وهى التى تخسر باستمرار، بدءا من كسر الفترينات ومرورًا بالاقتحامات والسلب وانتهاء بالأعمال التخريبية. فى السابعة إلا دقيقتين، بتعبير وصوت فاجع تفرضه الظروف، أعلن أخيرًا مذيعو الراديو والتليفزيون أن رئيس الدولة سيتوجه للأمة. أظهرت الصورة التالية، التى ملأت المنظر الاستهلالى، العلم القومى يرفرف منهكًا، فاتر الهمة، كسلانًا، كما لو كان، فى كل لحظة، على وشك التزحلق من السارية خذلانًا. «كان مرتخيا يوم صوّروه». ـ علّق شخص فى أحد هذه البيوت .. بدا أن الشعار الرمزى قد دبت فيه الروح مع النشيد الوطنى، لقد تولّد من النسيم العليل فجأة ريح قوية ربما قد جاءت فقط من المحيط الرحب ومن المعارك الظافرة، لو كانت النفخة أكثر قليلاً، بقوة أكثر قليلا، كنا سنرى بالتأكيد ساقية الأبطال بجنة الجرمانيين القدامى تمتطى بأبطالها الريح. بعدها، تحوّلت الكاميرا عما هو بعيد، ومن مسافة، ذهب النشيد مع العلم، أو العلم مع النشيد، فترتيب العناصر أمر لا جدوى منه، وحينئذ ظهر رئيس الدولة أمام الشعب جالسًا خلف

ترابيزة، بعينين صارمتين مركّزتين فى التليبرينتر. على يمينه، فى الصورة، كان العلم، لكنه ليس العلم السابق، فهذا علم داخلى، بثناياه موضوعة بتحفظ . شبك الرئيس أصابعه ليدارى انقباضًا خارجًا عن إرادته. «إنه مضطرب»، قال الرجل صاحب تعليق نقصان الريح السابق، سنرى الآن بأى وجه سيفسر اللعبة الدنيئة التى طعننا بها. لم يستطع الأشخاص الذين ينتظرون العرض الخطابى الوشيك لرئيس الدولة، ولا من بعيد، أن يتخيّلوا الجهد الذى بذله المستشارون الأدبيون بالرئاسة لإعداد هذا الخطاب، ليس من حيث الحجج المقدّمة، التى ستكون مجرد ضغط على عدة أوتار من العود الأسلوبى، وإنما فى العثورعلى صيغة المنادى التى، كالعادة، يجب أن تلائمها، و أسماء الأماكن التى، فى أغلب الأحيان، تمهد الطريق للخطب من هذا النوع. حقيقة ، إذا وضعنا فى اعتبارنا جوهر الهيئة المتصنّع، سيكون أقل إهانة قول" أيها المواطنون الأعزاء" " أو " أيها المواطنون المحترمون"، أو ربما، بطريقة أبسط وأنبل، لو كان الوقت وقت عزف أغانى حب للوطن بالرعشة المناسبة، أيتها البرتغالياااات، أيها البرتغاليووووون، تلك الكلمات التى، أتعجل فى توضيح ذلك، لا تظهر سوى بفضل افتراض لا مبرر له إطلاقًا، وليس له أساس موضوعى لمسرح الأحداث الخطيرة التى، كما هو طابعنا، أعلمنا عنه بخبر مفصّل، أحيانًا يكون، أو أحيانا كان، بلد البرتغاليين المذكورين والبرتغاليات المذكورات. إنه فقط مجرد

مثال توضيحى، وبالتالى، بالرغم من نوايانا الحسنة، أتعجل بطلب المعذرة، خاصة لأن البرتغال شعب معروف عالميًا بأنه يمارس دائما وبانضباط وطنى وورع دينى جدير بالتقدير واجباته الانتخابية.

حسنًا، عائدين إلى المكان الذى صنعنا منه برج مراقبة، من المناسب أن نقول، على عكس ما يمكن توقعه منطقيا، إنه ولا مستمع، سواء للراديو أو للتليفزيون، لاحظ أن من فم الرئيس لم تخرج صيغ النداء الاعتيادية، لا هذه ولا تلك، ربما لأن الجدية اللاذعة للكلمات الأولى التى ألقاها عبر الأثير: "أتحدث إليكم بقلبى فى يدى"، جعلت المستشارين الأدبيين للرئيس يعدلون عن إدخال أية لزمة معتادة، حيث ستبدو سطحية وغير ملائمة. وبالفعل، يجب أن نعترف أنه من التنافر البدء قائلاً برقة: أيها المواطنون المحترمون أو أيها المواطنون الأعزاء، كمن يستعد ليعلن أنه إبتداء من الغد سيتم خفض سعرالبنزين خمسين بالمئة، ليعرض بعدها أمام أعين المجلس الميت من الرعب أحشاء دامية، منزلقة ومازالت نابضة. إن ما جاء رئيس الجمهورية ليقوله، وداعًا، وداعًا، إلى اللقاء، فالجميع يعلم ما سيقال، لكنه الفضول الذى يتملك الأشخاص ليروا كيف سيخلع حذاءه. لدينا هنا بالتالى نص الخطاب كاملاً، ينقصه فقط، لتعذر نقله فنيا، رجفة الصوت، الإيماءة الحزينة، اللمعان الطارئ للدموع التى بالكاد يكبحها: "أتحدث إليكم بقلبى فى يدى، أتحدث إليكم بعد أن كسرنى الألم الناتج عن

البعد غير المفهوم، كأب هجره أولاده الذين يحبهم حبًا جمًا، فيصير الأب و الأولاد تائهين، حيارى، أمام وقوع أحداث غريبة أدت لتدمير الانسجام العائلى السامى. ولا تقولوا إننا نحن، إننى أنا نفسى، إن حكومة الأمة، بنوابها المنتخبين، من فارق الشعب. حقًا أننا قد انسحبنا هذا الفجر إلى مدينة أخرى، التى إبتداء من الأن ستكون عاصمة البلاد، حقا أننا أصدرنا أمرًا بالعاصمة التى كانت، ولم تستمر، عاصمة، بفرض حالة الحصار الصارمة، التى بطبيعة الأمر، ستعوق بشدة الحركة المتزنة للعدد السكانى المزدحم الذى يشكل أهمية كبرى ومع هذه الأبعاد الفسيولوجية والاجتماعية، حقا أنكم تجدون أنفسكم محاصرين، محاطين، مجبرين على الإقامة داخل محيط المدينة، وأنكم لن تستطيعوا الخروج، وأنكم لو حاولتم ستتعرضون للرد المسلح الفورى، لكن ما لا تستطيعون قوله أبدًا إن الذنب ذنب هؤلاء الذين وثقت فيهم الإرادة الشعبية وحمّلتهم مصائر الأمة ليدافعوا عنها من كل الأخطار الداخلية والخارجية، تلك الإرادة الشعبية التى عبّرت عن نفسها بحرية من خلال حوار ديمقراطى متوال، سلمى ومخلص. أنتم، بالطبع، أنتم المذنبون، أنتم، نعم، أنتم من تخليتم عن النظام القومى وفضّلتم السير فى طريق الثورة الملتوى، طريق الفوضى، طريق التحدى المنحرف والشيطانى ضد السلطة الشرعية للبلد الذى له ذاكرة فى كل تاريخ الأمم. لا تلومونا ولوموا أنفسكم، ولا تلقوا الذنب على

من أتحدث باسمهم، أفراد الحكومة، هؤلاء الذين طلبوا منكم مرات عديدة، أو بمعنى أدق، ترجوكم وتوسلوا إليكم أن تتراجعوا عن عنادكم الآثم، الذى ظل إلى اليوم، بالرغم من كل الجهود المضنية المبذولة من قبل سلطات الدولة لتطور التحريات، لا يمكن اختراقه لسوء الحظ. لقد كنتم خلال قرون وقرون رأس الدولة وفخر الأمة، لقد كنتم خلال قرون وقرون، فى أوقات الأزمات القومية، والمحن الجماعية، شعبنا الذى اعتاد أن يرد النظر صوب هذا الحصن، صوب هذه التلال، متيقنا أنه من هنا سيأتيه الدواء، الكلمة البلسمية، الطريق المستقيم الذى يؤدى للمستقبل. لقد خُنتم ذكرى أجدادكم، هذه هى الحقيقة المرّة التى ستظل توخز ضمائركم للأبد، هم شيدوا مجد الأمة، حجرًا حجرًا، وأنتم قررتم هدم هذا المجد، حجرًا حجرًا، فليصبكم الخزى. أتمنى من كل قلبى أن يكون جنونكم هذا وقتيًا، ألا يستمر، أريد أن أفكّر أن غدًا، هذا الغد الذى أصلى للسماء لكيلا يتأخر كثيرًا، سيدخل الندم فى قلوبكم برقة وستعودون للتحبب للاتحاد القومى، جذر الجذور، وللشرعية، عائدين بذلك، كالابن الضال، إلى بيت الأب. الآن أصبحت مدينتكم بلا قانون. لن تكون لديكم حكومة لتفرض عليكم ما يجب وما لا يجب أن تفعلوه، ما يجب وما لا يجب أن تكون عليه تصرفاتكم، ستكون الشوارع شوارعكم، ملككم، استخدموها كما يحلو لكم،، فلن تجدوا أية سلطة أمامكم تقطع عليكم

طريقكم أو تسدى إليكم النصيحة، لكن أيضًا، وانصتوا جيدًا لما أقوله لكم، لن يكون لديكم سلطة تحميكم من اللصوص والمغتصبين والمغتالين، فهذه هى الحرية التى اخترتموها، فهنيئًا لكم. ربما تعتقدون، فى ضلال الوهم، إنكم، باستسلامكم لأهوائكم ولنزواتكم الحرّة، ستكونون قادرين على تنظيم أنفسكم بشكل أفضل وبشكل أفضل ستدافعون عن حياتكم مما وضعته الوسائل القديمة والقوانين القديمة من أجل صالحكم. ياله من خطأ فادح !. عن قريب ستجدون أنفسكم مجبرين على تعيين رؤساء يحكمونكم، إن لم يكونوا هم من أقاموا بفظاعة الفوضى التى لا مناص منها والتى سقطتم فيها، وسيفرضون عليكم قانونهم. حينها ستنتبهون للبعد التراجيدى لخداعكم. ربما ستثورون مثلما حدث فى زمن القهر التسلطى، مثلما حدث فى زمن الديكتاتوريات المشئوم، لكن، لا تعيشوا فى الأوهام، سيكبحونكم بنفس العنف، ولن يدعوكم للتصويت لأنه لن تكون هناك انتخابات، وإن وجدت فلن تكون عادلة ولا نظيفة ولا نزيهة مثلما كانت الانتخابات التى ازدريتموها، وسيظل الحال هكذا حتى اليوم الذى فيه يجب أن تعود القوات المسلحة، بصحبتى وصحبة حكومة الأمة الذين قرروا اليوم ترككم للمصير الذى اخترتموه لأنفسكم، ليحرروكم من الحيوانات الخرافية التى أنجبتموها. سيذهب هبًاء كل العقاب الذى لاقيتموه، ولا جدوى من عنادكم، وحينها

معرفتي

ستدركون، لكن بعد فوات الأوان، أن الحقوق كاملة تكمن فقط فى الكلمات التى أعلنتها وفى قطعة الورق التى تضمنتها، أيا كان اسم ذلك، دستورا كان أم قانونا أم أى تشريع آخر، ستدركون، وأتمنى باقتناع، أن تطبيقه المبالغ فيه والمتهوّر قد يسبب تشنجًا فى الأعمدة الأكثر صلابة للمجتمع المستقر، وستدركون، فى النهاية، أن الحس المشترك البسيط يأمر أن نتخذه كرمز صرف لما يمكن أن يكون، إذا وجد، ولا يمكن اتخاذه أبدا كحقيقة ممكنة وفعّالة. إن الإدلاء بصوت أبيض لحق لا يمكن التنازل عنه، لا أحد ينكره عليكم، لكن، كما نحرّم على الأطفال أن يلعبوا بالنار، نحذر أيضًا الشعوب التلاعب بالديناميت. سأنهى خطابى. أدركوا جيدًا صرامة تحذيراتى، ليس كتهديد، وإنما كدواء كاوٍ للتقيّح السياسى المتعفن الذى قد أحدثتموه فى جوفكم والذى مازلتم تتقلّبون فيه. ستعودوا لرؤيتى وسماع صوتى فى اليوم الذى تستحقون فيه العفو الذى، بالرغم من كل شىء، نميل لمنحه لكم، أنا، رئيسكم، والحكومة التى انتخبتموها فى أفضل أوقاتكم، والجزء السليم و النقى من شعبنا، هذا الجزء الذى فى هذه الأوقات لا تستحقون أن تكونوا مثله. إلى اللقاء حتى هذا اليوم، الوداع، فى رعاية الله. "

اختفت صورة الرئيس الرصينة والحزينة وحلّ محلها من جديد العلم المرفرف. كان الهواء يحرّكه من هنا لهناك، ومن هناك لهنا، كما لو كان أحمقًا، فى نفس الوقت كان النشيد يكرّر النغمات الحربية

والنبرات العسكرية التى قد تشكلت فى الأزمنة الماضية من أمجاد الوطن، بينما تبدو الآن نبرات فارغة. «نعم أيها السادة، لقد تحدث الرجل جيدا»، قال كبير أسرة ما، وعلينا أن نعترف أنه محق فيما قاله، فلا يجب أن يلعب الأطفال بالنار لأنه من الصواب أنهم يتبوّلون على أنفسهم فى السرير وهو أمر معروف! .

فى دقائق قليلة امتلأت الشوارع بالناس، تلك الشوارع التى كانت حتى هذه اللحظة صحراء بالفعل، حيث كل المحلات مغلقة والأوتوبيسات التى تمر كانت شبه خالية. أما الذين بقوا فى بيوتهم فكانوا يطلون من النوافذ ليشاهدوا التلاقى، وهى كلمة لا تقصد أن كل الأفراد كانوا يسيرون فى نفس الاتجاه، بل فى اتجاهين مختلفين كنهرين، أحدهما يصعد والآخر يهبط، وكانوا يتبادلون التحية من جانب لآخر كما لو كانت المدينة فى عيد، كما لو كان عيدها القومى، ولم يشهدوا هنا لصوصًا ولا مغتصبين ولا مغتالين، على عكس التنبؤ سيئ النية للرئيس الهارب. فى بعض الشقق بالبيوت، هنا وهناك، كانت النوافذ مغلقة، بالشيش، إن وجد، نازلا بشكل هيستيرى ، كما لو كان ساكنو الشقة يتعذبون بحداد مؤلم. فى تلك الشقق لم تشتعل أنوار الفجر المنبّهة، وأقصى ما فعلوه هو أنهم كانوا يتجسسون من وراء الستائر بقلب مقبوض، فبالداخل يعيش أفراد لهم أفكار سياسية شديدة الرسوخ، أشخاص قد أدلوا بأصواتهم، سواء فى

الانتخابات الأولى أم الثانية، للحزب الذى انتموا إليه دوما، سواء حزب اليمين أم الوسط، ولم يكن لديهم أسباب ليحتفلوا، بل، وعلى العكس تمامًا، كانوا يخافون شطط الجماهير غير المطلّعة التى كانت تغنى وتصرخ فى الشوارع، أن تكسر عليهم أبواب بيوتهم المقدسة لأقصى حد، أن يهينوا ذكرى عائلتهم، أن ينهبوا منهم ما يملكون. فلتغنوا، فلتغنوا، غدا ستبكون، كانوا يتبادلون فيما بينهم تلك العبارة ليدخلوا فى نفوسهم الشجاعة. أمّا مصوتو حزب اليسار فلم يصفقوا من النوافذ، حيث كانوا قد نزلوا الشارع الذى كنا نحن فيه، ومن السهل البرهنة على ذلك، حيث رأينا من حين لآخر علمًا يطل من فوق أنهار الرءوس الفيّاضة، كما لو كان يحرّضهم. لم يذهب أحد للعمل. نفدت الجرائد من الأكشاك، كانت الصفحات الأولى منها تحتوى على خطاب الرئيس، مصحوبا بصورة له التُقطت أثناء قراءته الخطاب، ربما التُقطت بالتحديد، لو حكمنا من خلال تعبير الألم المرسوم على وجهه، فى اللحظة التى كان يقول فيها إنه يتحدث بقلبه فى يده. قليلون هم من أضاعوا وقتهم فى قراءة ما يعرفونه، فالأغلبية كان يهمهم فقط معرفة أراء رؤساء التحرير ومديريه والمحللين السياسيين، وإن كانوا قد عقدوا لقاء فى آخر ساعة. كانت العناوين الافتتاحية تلفت انتباه الفضوليين، حيث كانت كبيرة، هائلة، بينما كانت عناوين أخرى، فى صفحات سابقة، ذات حجم طبيعى، مع أنها

جميعها كانت تبدو نتاج تفكير نفس العبقرى المتخصص فى تركيبة العناوين، وهو العمل الذى يعفى بلا تأنيب ضمير بعض القراء من قراءة الخبر الذى يأتى بعد ذلك. هكذا ظهرت عناوين عاطفية مثل: لقد أصبحت العاصمة يتيمة، وأخرى ساخرة مثل : لقد انفجرت القنبلة فى وجه صانعيها، أو لقد خرج الصوت الأبيض أسود، وثالثة تربوية : الدولة تعطى درسًا للعاصمة المتمردة، ورابعة انتقامية : لقد جاءت ساعة تصفية الحسابات، وخامسة تنبؤية: كل شىء سيختلف بداية من الآن أو لن تسير الأمور كما كانت بداية من الآن، وسادسة تحذيرية: الفوضوية بالمرصاد واقفة، أو حركات مثيرة للشبهة على الحدود، وسابعة بلاغية: خطاب تاريخى فى لحظة تاريخية، وثامنة متملقة: كرامة الرئيس تتحدى لا مبالاة العاصمة، وتاسعة حربية: الجيش يحاصر المدينة، وعاشرة موضوعية: انسحاب أعضاء السلطة تم بلا حوادث، وحادية عشر رجعية: المجلس المحلى يجب أن يقوم بالسلطة، وثانية عشر تكتيكية: الحل هو اتباع تقليد المجلس المحلى. أما ما يتعلق بالنجمة السحرية، تلك النجمة ذات السبعة وعشرين ذراعا، فقد جاءت الإشارة إليها قليلة وداخلة اعتباطًا وسط الأخبار، بدون أن تحظى بأن تكون عنوانًا ظريفًا، حتى ولو كان عنوانا ساخرًا، حتى ولو كانت سخريته لاذعة، من نوع: ولايزالون يشتكون من ارتفاع سعر الكهرباء. بعض الافتتاحيات، إن كانت قد قبلت موقف الحكومة،"لن

تألمهم أيديهم أبدًا". قالت إحداها تحض، إلا إنها تجرأت على التعبير عن بعض شكوكها حول المشروعية المنطقية لفرض الحصار على سكان المدينة، " فالأمر هو أنه "، مرة أخرى، كيلا تتغير الآراء، "سيعاقب الأبرياء بذنب المذنبين، الشرفاء بذنب المفسدين"، وها نحن نجد أمامنا مثالاً للمواطنات الشريفات والمواطنين الشرفاء الذين، بعد أن أدوا بدقة واجبهم الانتخابى مدلين بأصواتهم لأى من الأحزاب المؤسسة قانونيًا والتى تضع إطارًا للانتخابات الأيديولوجية التى يعترف بها المجتمع بشكل راض، نجد حرية حركتهم الآن مقسورة بذنب أغلبية غريبة من المتمردين الذين يتميزون فقط كما يقول البعض بأنهم لا يعرفون ماذا يريدون، أو إنهم، وهذا هو مانراه، يعرفون جيدًا مرادهم ويعدون أنفسهم للقفزة الأخيرة على السلطة. هناك مقالات أخرى ذهبت أبعد من ذلك، حيث كانت تطالب بالإلغاء الخالص والمحض لسرية الصوت الانتخابى، وكانت تقترح للمستقبل، عندما تعود المياه لمجاريها، وهو الأمر الذى سيحدث فى أحسن الأحوال أو أسوأها، تطبيق ورقة مرافقة للورقة الانتخابية للناخب، التى فيها سيقوم رئيس اللجنة الانتخابية، بعد أن يتحقق من الصوت المدلى به، وقبل أن يدخلها فى الصندوق الانتخابى، يدوّن، لكل الأوراق القانونية، الرسمية منها والخاصة، أن الناخب قد أدلى بصوته لصالح الحزب الفلانى أو العلانى، " ولأن هذا الأمر قد حدث وقد

تحققت من ذلك، أوقّع على ذلك بكلمة شرف ". فلو كان نظام الورقة المرافقة للورقة الانتخابية موجودا، لو كان قد تجرأ مشرع واع لاحتمالات الاستخدام السيئ للصوت الانتخابى على إعطاء هذه الخطوة، واضعًا شكلا ومضمونًا مادة ديمقراطية غاية فى الشفافية، لكان كل الأفراد الذين أدلوا بأصواتهم لحزبى اليمين والوسط يعدون الآن حقائبهم ليهاجروا إلى وطنهم الحقيقى، هذا الوطن الذى يفتح لهم ذراعيه دائمًا مرحبا بهؤلاء الذين يمكن الضغط عليهم بأقصى يسر. قوافل من السيارات والأوتوبيسات، من الميكروباصات وسيارات النقل، رافعين أعلام الأحزاب وضاغطين على آلات التنبيه على نغمة واحدة، حزب اليمين، حزب الوسط، سريعًا ما سيحذون حذو الحكومة، ويتجهون صوب المناطق العسكرية على الحدود، الأولاد والبنات فى السيارات بمؤخراتهم تطل من النوافذ ، صارخين فى المشاة المتمردين غبّروا فى ذقونكم وشيلوا شيلتكم، أيها الخونة البائسون، كم هى علقة مبرحة تلك التى سنعطيها لكم عند عودتنا، أيها اللصوص القذرون"، " يا أبناء العاهرة الكبيرة التى أنجبتكم "، كما يستخدموا أيضًا أقصى السب المستخدم فى لغة الديمقراطية، وبصوت صارخ، " يامن لا تحملون بطاقات هوية، يامن لا تحملون بطاقات هوية، يامن لا تحملون بطاقات هوية"، بالرغم من أن ذلك ليس حقيقة، لأن كل هؤلاء الذين يصرخون فى وجوههم لديهم فى بيوتهم أو فى جيوبهم

بطاقتهم الانتخابية، حيث، بشكل مخزى، كما لو كان مبروزًا بالحديد، كان مكتوبًا ومختومًا: أدليت بصوت أبيض. وأنهى كاتب الافتتاحية مقاله بشكل ملائكى قائلاً " العلاج العظيم وحده قادر على مداواة الأمراض المزمنة ".

لم تستمر الحفلة طويلاً. حقًا لم يقرّر أحد الذهاب للعمل، لكن عاقبة خطورة الموقف لم تتأخر فى خفض نبرة السرور التى علت المظاهرات، بالإضافة لوجود من تساءل: هل نحن سعداء، لماذا ؟، إذا كانوا قد عزلونا هنا كما لو كنا مصابين بالطاعون وفى حجر صحى، محاطين بجيش مسلح رافع زناد بندقيته، جاهزين لإطلاق النار على من يحاول الخروج من المدينة، قل لى من فضلك ماهى أسباب السعادة إذًا. بينما كان آخرون يرددون : "علينا أن ننظم أنفسنا"، لكنهم لم يكونوا يعرفون السبيل لذلك، ولا مع مَنْ ولا لأجل ماذا. بعضهم اقترح أن تذهب مجموعة منهم للحديث مع العمدة، مقدّمين له تعاونهم المخلص وشارحين له أن نوايا هؤلاء الذين أدلوا بأصوات بيضاء لم تكن هدم النظام واعتلاء السطة، فهم حتى لا يعرفون كيف يتصرفون مع السلطة لو جاءتهم، وأنهم إن كانوا قد صوّتوا كما صوّتوا فلأنهم كانوا خائبى الأمل ولم يجدوا طريقة أخرى ليعبّروا مرة واحدة عن خيبة أملهم هذه، قد كان فى استطاعتهم القيام بثورة، لكن نتيجة الثورة دماء أناس كثيرين، وهو ما لا يرغبونه، فطيلة حياتهم، وبصدر

رحب، كانوا يودعون أصواتهم فى الصناديق الانتخابية وكانت النتائج على مرئى من الجميع، "وهذا ليس ديمقراطية ولا شىء، سيدى العمدة ". وهناك من دافع عن الرأى الذى يقترح وزن الأفعال بشكل أفضل، وهو أنه من المفضّل ترك المجلس المحلى يتحمل مسئولية المبادرة، فإن ظهرنا الآن مقدمين كل تلك التفسيرات والأفكار سيظنون أن هناك منظمة سياسية تقف خلفنا، وهو الأمر الذى نعرف وحدنا أنه ليس حقيقة، وعلينا أن نضع فى الاعتبار أن الأمر ليس سهلاً على المجلس المحلى، فلو كانت الحكومة تركت فى يدها جمرة من نار، فلا يلائمنا أن ننفخ فى تلك الجمرة، لقد قالت إحدى الصحف إنه يجب على المجلس المحلى أن ينوط بكل السلطة، أية سلطة ؟، وما هى وسائلها؟، لقد رحلت الشرطة، ولا يتبق حتى من ينظّم المرور، فلا يمكن أن نأمل أن يخرج نواب المجلس المحلى للقيام بعمل مرءوسيهم، فهناك تعليقات حول دخول عمال النظافة بالمجلس فى إضراب، فلو كان هذا حقًا، وعلينا ألا نندهش من حدوث ذلك، فليبق واضحًا أن الأمر ماهو إلا استفزاز، إما من جانب المجلس المحلى، أو، أغلب الظن، من جانب أعضاء الحكومة، فى محاولة منهم لرش المرارة على حياتنا بألف طريقة، وعلينا أن نستعد لكل شىء، بما فى ذلك ما يبدو لنا الآن مستحيلاً، فأوراق اللعب فى أيديهم وفى أكمامهم أيضًا. وبعض آخر، من النوع المتشائم، المتوجّس، كانوا يعتقدون أن الموقف كما الحارة السد لا

مخرج منها، وأنهم محكوم عليهم بالفشل، "فهذا الأمر مثل الأمور التى اعتدناها، ينقذ نفسه من يستطيع والباقون يلبسون الخوازيق، إنه النقص الأخلاقى للجنس البشرى، كم مرة علينا أن نكرّر ذلك، وهو ليس وليد اليوم أو الأمس، إنه نقص تاريخى، منذ الأزمنة القديمة، الآن نبدو متضامنين فيما بيننا، لكن غدًا سنبدأ فى الاشتباك، والخطوة التالية ستكون الحرب المفتوحة والخلاف والمجابهة، بينما الآخرون يستمتعون من الحدود ويراهنون على الزمن الذى نستطيع فيه المقاومة، وسيكون وقتا جميلاً ساعات المقاومة، نعم سيدى، لكن الهزيمة واقعة ومضمونة لا مفر، فلنكن منطقيين، مَنْ منا قد عبر برأسه أن عملا من تلك الأعمال يمكن أن يتقدم للأمام، أفراد يدلون بشكل جماعى بصوت أبيض بدون أن يأمرهم أحد بذلك، فعلة مجانين، إلى الآن لم تخرج الحكومة من حيرتها وتحاول استعادة زمام الأمور، مع ذلك قد انتصرت فى الجولة الأولى، أعطتنا ظهرها وتركتنا نشرب من البحر، وهو ما نستحقه، فى رأيها، وعلينا أن نفكر أيضا فى الضغوط الدولية، خاصة أن فى هذه الساعة حكومات وأحزاب العالم أجمع لا يفكرون فى شىء آخر، فهم ليسوا أغبياء، يعرفون أن ماحدث هنا من الممكن أن يكون مثل البارود، يشتعل هنا وينفجر هناك، على أى حال، وبما أنهم يعتقدون أننا ملاعين، فسنكون كذلك حتى النهاية، كتفا بكتف، وبما أننا ملاعين فجزء من لعنتنا ستنصب عليهم.

فى اليوم التالى تم تأكيد الشائعة، لم تخرج عربات جمع القمامة إلى الشارع، وأعلن الزبّالون الإضراب التام، كما أعلنوا مطالبهم المتعلقة برواتبهم والتى رد عليها المتحدث باسم المجلس المحلى فورًا بعدم قبولها وخاصة فى الظروف الحالية، قال، «حيث المدينة تواجه أزمة ليس لها سابقة وخاتمة مشكوك فيها بنسبة كبيرة». وبنفس الطريقة التنبيهية، نشرت صحيفة، تخصصت منذ تأسيسها فى فن عرض الاستراتيجيات والتكتيكات الحكومية، أيا كان ألوان المناصرين، من حزب الوسط أو اليمين أو من اللون الرمادى، فى مقالها الافتتاحى الموقع عليه اسم رئيس التحرير قبول فكرة أن ينتهى تمرد سكان العاصمة إلى بحر من الدم إن لم يتوقف هؤلاء عن عنادهم، كما تدل كل المؤشرات. ردد :لا أحد سيتجرأ أن ينكر أن صبر الحكومة قد وصل مداه، لكن لن يمكن أن يطلب منها، إلا إن أريد الخسارة، وربما للأبد، هذا السلاح ذو الحدين المنسجمين : السلطة ـ الطاعة، الذى تحت ضوئه ازدهرت أسعد المجتمعات البشرية وبدونه، كما برهن التاريخ على ذلك برحابة، لا يستطيع أى مجتمع أن يتحقق. تم قراءة المقالة الافتتاحية، وكرر الراديو القطع الأساسية، والتقى التليفزيون برئيس التحرير، كان ذلك عندما، وقت الظهيرة بالتحديد، خرجت النساء من كل بيوت المدينة مسلحات بالمقاش والجرادل والمجارف، وبدون أن ينبسن بكلمة، بدأن فى الكنس أمام بيوتهن، من المدخل حتى منتصف الشارع،

حيث تقابلنّ مع نساء أخريات بدأن من الجانب الآخر، حيث كنّ قد هبطن من بيوتهنّ لنفس الهدف وبنفس الأسلحة. تؤكد المعاجم أن مدخل البيت هو الجزء من الشارع الذى يحاذى واجهة المبنى، لا شىء آخر، لكنهم أيضا يقولون، على الأقل يقوله بعضهم، إن كنس المدخل يعنى التخلى عن مسئولية ما، ياله من خطأ، أيها السادة الضالين المتخصصين فى فقه اللغة والمعاجم، فكنس مدخل البيت هو بالتحديد أول ما فعلته نساء العاصمة تلك، كما فعلته فى الماضى فى القرى أمهاتكم وجداتكم ولم يفعلن ذلك، كما فعلته أولئك، للتخلى عن المسئولية، وإنما ليتحملنها. ربما لهذا السبب خرج فى اليوم الثالث عمال النظافة للشارع. لم يأتوا فى زيهم الرسمى، بل ارتدوا ملابس مدنية. قائلين إن من يرتدى الزى الرسمى هم من فى إضــراب، أمــا هم فلا.

لم يقع موقعًا حسناً من وزير الداخلية، صاحب فكرة الإضراب، عودة عمال خدمة جمع القمامة بتلقائية إلى عملهم، وهو التصرف الذى فى رأيه كوزير، يعد مسألة كرامة أكثر منها علامة تضامن مع نساء جديرات بالإعجاب قمن بنظافة شوارعهن، وهو الفعل الذى لا يجد أى ملاحظ محايد أية صعوبة فى الاعتراف به، فلقد كانت تفوح منه رائحة التواطؤ فى الجريمة. وبمجرد أن جاءه الخبر المشئوم، أمر العمدة هاتفيًا بأن يهدد سريعا مخالفى الأوامر بالخضوع، وهو ما يعنى بكلمات واضحة العودة إلى الإضراب، وفى حالة استمرار تمرّدهم، للأسف سيواجهون عمليات انضباطية صارمة بكل نصوص العقاب الموجودة فى القوانين واللوائح، بداية من وقف الرواتب والعمل ونهاية بالطرد الخالص والقاسى. رد عليه العمدة قائلا: «إن السباحة تبدو دائمًا سهلة لمن يقف على البر، لكن من بالبحر، من عليهم أن يسبحوا، يجب الاستماع إليهم بإنصات قبل اتخاذ أى قرار. فعلى سبيل المثال، سيدى الوزير، افترض أننى أعطيت أوامرى للرجال». «أنا لا أفترض شيئًا، أنا آمرك أن تفعل». «أمرك سيدى الوزير، اتفقنا، لكن اسمح لى أن

أظن أنا، فلنظن أننى أنا الذى أعطيت الأمر ليعودوا للإضراب فقاموا هم بالمخالفة، فماذا سيفعل الوزير فى هذه الحالة، كيف ستجبرهم على التنفيذ إن كنت فى مكانى». «فى المقام الأول، أنا لا يخالف أوامرى أحد، فى المقام الثانى، أنا لست فى مكانك ولن أكون فى مكانك أبدًا، فأنا وزير ولست عمدة، وأننى، بما أن يدى فى النار، ألفت انتباهك أننى قد أنتظر من هذا العمدة ليس فقط التعاون الرسمى والمؤسسى الذى يفرضه عليك القانون والذى هو بطبيعة الحال إحدى مهامك، وإنما أيضًا أنتظر روح الحزب الذى لا يبدو لامعا لغيابه فى هذه الحالة». «أستطيع القيام دائما بتعاونى الرسمى و المؤسسى، فأنا أعرف واجباتى، لكن، فيما يتعلق بروح الحزب، فمن الأفضل عدم الكلام، وسنرى ماذا سيتبقى منه عندما تتكشف هذه الأزمة عن نهايتها». «أنت تتهرب من المشكلة، سيدى العمدة». «لا، أنا لا أتهرب منها، سيدى الوزير، ما أحتاجه فقط هو أن تقول لى ماذا يجب أن أفعل لأجبر العمال على العودة للإضراب». «إنها مشكلتك، وليست مشكلتى». «الآن زميلى العزيز فى الحزب هو من يرغب أن يتهرب من المشكلة». «فى كل حياتى السياسية لم أتهرب من مشكلة». «لكنك تتهرب من هذه المشكلة، وتتجنب الاعتراف بأننى بوضوح غير مزود بأية وسيلة أستطيع من خلالها تنفيذ أمرك، إلا إذا طلبت منى ان أتصل بالشرطة، وإذا كان الأمر كذلك فيجب أن أذكرك أن الشرطة قد رحلت عن هنا،

لقد تركت المدينة مع الجيش، حدث ذلك بأمر الحكومة، وبالإضافة لذلك فأننا نرى إنه من غير الطبيعى استخدام الشرطة، فى أحسن الظروف وأسوأها، وخاصة أسوأها، لرد العمال الذين أعلنوا الإضراب، حيث كانت الشرطة منذ الأبد تستخدم للقضاء عليها، بناء على التسللات وعمليات أخرى أقل نعومة». «أنا مندهش، أحد أعضاء حزب اليمين لا يتحدث مثلك». «سيدى الوزير، بعد بضع ساعات سيحل الليل، وسأكون غبيًا أو أعمى إن أكدت لك أننا مازلنا فى وضح النهار». «وما علاقة هذا بقضية الإضراب» ؟. «أردنا ذلك أم رفضنا، فالليل قد حلّ، صار قاتمًا، نشعر أن هناك أمرًا يحدث أبعد بكثير عن إدراكنا، أمر يتجاوز خبرتنا الفقيرة، لكننا نتصرف كما لو كان الأمر خبزًا ناضجًا، خبزًا بنفس الدقيق المعتاد، وفى نفس الفرن المعتاد، لكن الأمر ليس كذلك». «يجب أن أفكر بكل جدية قبل أن أطلب منك تقديم استقالتك». «لو فعلت ذلك، لأنزلت عن عاتقى حملاً، اعتبرنى مسرورًا قمة السرور». لم يرد وزير الداخلية فى الحال، انتظر عدة ثوان حتى يستعيد هدوءه، بعدها سأل: «مارأيك فيما يجب أن نفعله». «لا شىء». «من فضلك، عزيزى العمدة، لا يمكن أن تطلب من حكومة ألا تفعل شيئًا فى موقف كهذا». «اسمح لى أن أقول لك إنه فى موقف كهذا، الحكومة لا تحكم، وإنما تبدو فقط أنها تحكم». «لا أستطيع أن اتفق معك، فلقد فعلنا شيئًا منذ بدأ كل هذا». «نعم، نحن

كما السمكة المشبوكة فى الشص، نهتز، نحاول أن ننفصل عنه، ننهش الخيط، لكننا لا نستطيع أن نفهم كيف أن قطعة بسيطة من السلك المقوس كانت قادرة على شبكنا والاحتفاظ بنا مسجونين، ربما نطلق سراحنا، لا أقول لا، لكننا نخاطر لأن الشص قد يترك مرارة فى حلقنا». «أشعر حقا بأننى فى دوامة». «أمامك فقط حل واحد». «ماهو، إن كنت قد قولت فى التو إننا لن نتقدم خطوة مهما فعلنا». «أن نصلى من أجل أن تؤتى ثمرة التكتيك الذى وضعه رئيس الوزراء». «أى تكتيك» ؟. «أن نتركهم يستوون على نار هادئة، قال هو، لكن هذا التكتيك نفسه من الممكن أن ينقلب علينا». «لماذا» ؟. «لأنهم هم من سيراقبون السوى». «إذًا فلنعبر الطريق بأياد متشابكة». «فلنتحدث بجدية سيدى الوزير، فبوسع الحكومة أن تقضى على المسرحية الهزلية المسماة حالة الحصار، وإصدار أوامر للجيش و الطيران أن يتقدموا، ولتحكم المدينة بالنار والحديد، جارحين وقاتلين عشرة أو عشرين ألفًا من الأفراد ليعطوا للباقين عبرة، بعدها يتم إلقاء ثلاثة أو أربعة ألف فرد فى السجن، متهمين إياهم بأية جريمة، عندما لا تكون هناك بالفعل أية جريمة». «لسنا فى حرب أهلية، إن ما نريده، ببساطة، هو محاولة أن نجعل الناس يفكرون بالعقل، أن نجعلهم يرون الخطأ الذى وقعوا فيه أو أوقعهم أحد فيه، وليتحققوا من الأمر بأنفسهم، وليدركوا أن سوء استخدامهم بلا ضابط لصوتهم الانتخابى الأبيض

قد يؤدى لتقويض النظام الديمقراطى». «ألا يبدو أن النتائج، حتى تلك اللحظة، صارت واضحة وضوح الشمس». «نحن فى حاجة إلى وقت، وسيرى الناس فى النهاية النور». «لم أكن أعرف فيك هذه الميول الصوفية، سيدى الوزير». «صديقى العزيز، عندما تتعقد الأمور، ويصير ميئوسًا منها، نتمسك بكل شىء، حتى أننى على يقين من أن بعض زملائى فى الحكومة، لو فادهم ذلك فى شىء، ليس لديهم أى مانع لأداء الحج، بالشمع فى أيديهم، مقدّمين القرابين للهيكل». «بما أنك تتحدث هكذا، فأنا لدىّ هنا بعض هياكل من نوع آخر وأتمنى أن تقدم لها واحدة من شموعك». «وضّح كلامك». «قل من فضلك للصحف وللعاملين بالتليفزيون و الراديو ألا يلقوا مزيدًا من الحطب على النار المتأججة، فإن كان ينقصهم الذكاء والرصانة، فنحن نغامر بترك كل شىء يطير فى الهواء، فلابد أنك قد قرأت ما كتبه رئيس تحرير بجريدة حكومية ارتكب حماقة عندما قبل إمكانية أن تنتهى الأمور ببحر من الدم». «الجريدة ليست حكومية». «لو سمحت لى، سيدى الوزير، كنت أفضل سماع تعليق آخر من جانبك». «تخطى الرجل حدوده المعقولة، وهذا يحدث عادة عندما يراد أن يقدم خدمات أكثر من المكلف بها». «سيدى الوزير». «نعم». «ماذا أفعل فى نهاية الأمر مع عمال خدمة النظافة بالمجلس المحلى». «دعهم يعملون، وبهذه الطريقة سيظل المجلس المحلى يحتفظ بصورته الأنيقة أمام

أعين المواطنين وهذا قد ينفعنا فى المستقبل، وبالإضافة لذلك يجب أن نعترف أن الإضراب كان فقط إحدى العناصر الإستراتيجية، والحق أنه ليس أهم هذه العناصر». «ليس من صالح المدينة، لا الآن ولا فى المستقبل، أن يستخدم المجلس المحلى كسلاح فى الحرب ضد مواطنيه». «لا يمكن أن يبقى المجلس المحلى على هامش موقف كهذا، فهو جزء من هذا البلد وليس فى بلد آخر». «أنا لا أطلب أن نكون على هامش الموقف، ما أطلبه هو ألا تضع الحكومة العقبات أمام ممارستى لتحدياتى الخاصة، ما أطلبه هو ألا أعطى للجمهور فى أية لحظة انطباعًا بأن المجلس المحلى ماهو إلا أداة لسياسة الحكومة القمعية، معذرة على هذه الكلمة، أولا لأن المجلس ليس كذلك، ثانيا لأنه لن يكون كذلك أبدا». «أخاف ألا أفهم ما تقوله، أو أفهمه زيادة عن اللازم». «سيدى الوزير، فى يوم ما، لا أدرى متى، ستعود المدينة عاصمة للبلاد». «من الجائز، لست متأكدًا، هذا أمر يتوقف على مدى التمرد». «أيًا كان الأمر، فمن الضرورى ، تحت إمرتى او إمرة عمدة آخر، أن يكون هذا المجلس جميل المنظر فلا ينظر إليه على انه مجلس متواطىء أو شريك، ولو بشكل غير مباشر، فى قمع دموى، فعندما تصدر الحكومة اوامرها ليس أمامها غير أن تتحمل عواقب تلك الأوامر، أما المجلس المحلى فهو من أجل المدينة، لا المدينة من أجل المجلس المحلى، أتمنى أن أكون واضحًا بما فيه الكفاية، سيدى

الـوزيـر». «بمـا أنك واضـح لـهـذه الـدرجـة سـأوجه لك سـؤالا». «أمـرك سـيـدى الـوزيـر». «هل أدليت بـصـوت أبيض». «كرّر سؤالك من فضلك فلم أسمعك جيدًا». «أسـألك إن كنت قد أدليت بصـوت أبيض، أسـألك إن كان الصوت الذى أودعته فى الصندوق الانتخابى كان أبيض». «لا أحد يدرى، سيدى الوزير، ومن المستحيل أن يُعرف ذلك». «بعد انتهاء كل هذه الظروف، أتمنى أن أجـرى مـعك حوارًا مطولاً». «تحت أمـرك، سيدى الـوزيـر». «نـهـارك سـعـيـد». «نـهـارك سـعـيـد». «سـآتـيك حيث تكون وسـأشـد أذنك جيدًا». «لسـت فـى سـن شـد الأذن، سـيـدى الـوزيـر». «إن أصـبـحـت يـومًـا وزيـرًا للداخلية، ستعرف أن شد الأذن والتصويبات الأخرى ليس لها عمر بعينه». «أتمنى ألا تسمعك الحوائط». «للحوائط سمع جيد لدرجة لا تحتاج معها الحديث بصوت عال». «إذًا ربنا يستر». «الأمر لا يستحق، فهو أصم منذ مولده».

هكذا انتهت المحادثة الطويلة والمشتعلة بين وزير الداخلية و العمدة، بعد أن عبّر كل منهما عن وجهة نظره وقدم البراهين والآراء التى، فى أغلب الظن، قد أضلت القارئ، الذى شعر بالحيرة فى أن المتحدثين ينتميان بالفعل، كما كان يعتقد من قبل، إلى حزب اليمين، هذا الحزب نفسه، كسلطة، يمضى ممارسًا سياسة القمع القذرة، سواء على المستوى الجماعى، كإخضاع العاصمة لنكاية حالة الحصار التى أمرت بها حكومة الدولة نفسها، أو على المستوى الفردى،

كالاستجوابات الصارمة، وأجهزة كشف الكذب، والتهديدات، ومن يدرى ربما أشد ألوان التعذيبات، بالرغم من أن الحقيقة تملى علينا أن نقول إنها، إن وجدت، فنحن لم نشهدها، لم نكن حضور، وهذا لا يعنى شيئًا بالطبع، لأننا أيضا لم نشهد جسر البحر الأحمر الذى عبر فوقه موسى، وهاهى الناس تقسم أنه قد حدث. أما ما يتعلق بوزير الداخلية، فقد يلاحظ فى درع المحارب غير المروّض الذى يبذل قصارى جهده ليظهر، خاصة فى منافسته الصماء مع وزير الدفاع، وجود صدع رقيق، أو، لو تحدثنا بصيغة شعبية، وجود شق يسع أصبعًا. لو لم يكن الأمر كذلك ما وجب علينا مشاهدة فشل خططه المتتابع، مشاهدة السرعة و السهولة التى بها قد كسرطرف سيفه، كما أكد لنا ذلك حواره الأخير، حيث دخل كالأسد، وخرج كالخروف، حتى لا نقول كلمة أشد، أنظر على سبيل المثال قلة الأدب المبرهن عليها عندما أكد بالحصر أن الرب أصم منذ مولده. أما ما يتعلق بالعمدة، فيسعدنا أن نؤكد، مستخدمين نفس كلمات وزير الداخلية، أنه قد رأى النور، لكنه ليس النور الذى يريد هذا الوزير أن يراه ناخبو العاصمة، وإنما هو النور الذى يريد هؤلاء الناخبون أن يراه الجميع. إن أكثر الأشياء تلقائية فى الدنيا، فى هذه الأوقات التى نمضى فيها عميانا بأياد متشابكة، هو أن نصطدم عند عودتنا للناصية الأقرب برجال ونساء بلغوا نضوج السن ونضوج الرخاء فنجدهم الآن، بعد أن كانوا فى الثامنة

عشرة، يتمتعون ليس فقط بالربيع الباسم كالعادة، وإنما أيضًا، وربما على وجه الخصوص، بالنشاط الثورى بقرارهم تقويض نظام الدولة وتشييد فردوس الإخوة أخيرا مكانه، نقول إننا نجدهم الآن، برسوخ يشبه الرسوخ القديم، كسالى فى إيمانهم وممارساتهم التى، بعد مرورهم بواحدة من الروايات الكثيرة للمذهب المحافظ المعتدل، لتسخين وتليين عضلاتهم، ينتهون بها فى مصب الأنانية الأكثر رجعية وبذاءة. بكلمات خالية من التكلّف، هؤلاء الرجال وتلك النسوة، أمام مرآة حياتهم، يبصقون كل يوم على هذا الوجه الذى كان محلاً للبصاق. إن أحد ساسة حزب اليمين، رجل بين الأربعين والخمسين سنة، بعد أن قضى كل عمره تحت مظلة تقليد ينعشه الهواء المكيّف للأوراق المالية ذات القيم والمتذرع بالنسيم العليل للأسواق، جاءه الوحى، أو استنارت بصيرته، فتجلى أمامه المعنى العميق للتمرد السلمى الذى قامت به المدينة التى يقوم بإدارتها، وهو شىء جدير بالتسجيل ويستحق كل الشكر والامتنان، فنحن لم نعتد على ظواهر بهذا الانفراد.

من المؤكد أن هناك أمرًا لا يمكن أن يمر بدون أن يلاحظه القراء والمستمعون بكل انتباه، هذا الأمر هو أن راوى هذه الأسطورة يمشى الهوين عند وصف الأجواء التى تجرى فيها الأحداث. باستثناء الفصل الأول، حيث يمكن ملاحظة بعض الخطوط الموزعة عمدًا حول الدائرة الانتخابية، كذلك عدة أبواب

محددة، نوافذ وترابيزات، كذلك لو استثنينا وجود جهاز كشف الكذب، فالباقى، وهو ليس بقليل، مر كما لو كان كومبارسات القصة يعيشون فى عالم غير واقعى، دخيلون على راحة أو عدم راحة الأماكن التى وجدوا أنفسهم بها، وكل ما يشغلهم هو الحكى. تتميز الصالة، التى اجتمعت فيها حكومة البلد أكثر من مرة بحضور ومشاركة رئيس الدولة لمناقشة الوضع الحالى واتخاذ الإجراءات اللازمة لحقن الدماء وعودة السكينة للشارع، بأنها تحتوى على مائدة كبيرة حولها يجلس الوزراء فوق كراس مريحة من الجلد، وفوق هذه المائدة من المستحيل ألا نجد زجاجات مياه معدنية وما يناسبها من أكواب، وأقلام لها ألوان مختلفة، وأقلام أخرى ملونة، وتقارير، وكتب قانون، وكراسات لكتابة الملاحظات، وميكروفونات، وتليفونات، وأشياء خاصة تناسب أهمية الاجتماع. قد نجد مصابيح فى السقف وتابلوهات فى الحوائط، أبوابًا مبطّنة ونوافذ بمجموعة ستائر، سجاجيد فى الأرضية، لوحات فى الجدران وفرشًا مطرزًا قديمًا أو حديثًا، ويقينا صورة رئيس الدولة، تمثالاً نصفيًا للجمهورية، علم الوطن. لكننا لم نتحدث عن شىء من هذا، ولا عن شىء من هذا سنتحدث مستقبلا. ولا حتى الآن، داخل المكتب المتواضع الرحب للعمدة، الذى يتمتع بشرفة تطل على الميدان ومنظر رحب وهمى على المدينة من حائطه الأكبر، سنتحدث لنملأ بالوصف صفحة أو اثنتين، مستغلين فى الوقت نفسه

فترة الهدنة هذه لنأخذ نفسنا بعمق قبل مواجهة المصائب التى تقف فى انتظارنا. يبدو لنا أكثر أهمية ملاحظة تجاعيد التوجس التى تشق طريقها فى جبهة العمدة، فربما يفكر أنه قد تحدث أكثر من اللازم، وأنه قد أعطى لوزير الداخلية انطباعًا، إن لم يكن يقينا، بأنه بات فى معسكر العدو وأنه، بعدم تبصّره، قد خاطر، بلا حل بديل، بمسيرته السياسية، داخل الحزب وخارجه. أما الاحتمال الآخر، وهو بعيد لدرجة لا يمكن تخيلها، فهو أن الأسباب التى أبداها قد قادت وزير الداخلية فى الطريق الصواب وجعلته يعيد النظر من أعلى لأسفل فى الإستراتيجيات والتكتيكات التى تفكر فيها الحكومة للقضاء على الفتنة. نراه يهز رأسه، وهى إيماءة تؤكد، بعد أن تأمل هذا الاحتمال سريعًا، عدم اقتناعه به لسذاجته الحمقاء وعدم واقعيته الخطيرة. بعدها، نهض من كرسيه الذى مازال يجلس عليه بعد محادثته مع الوزير واقترب من النافذة. لم يفتحها، اكتفى بإزاحة الستارة قليلاً وأطل على الشارع. كان شكل الميدان كالعادة، شاهد من يسير، و ثلاثة أفراد جالسين على مقعد فى ظل شجرة، وواجهات المقاهى المكتظة بزبائنها، وبائعات الزهور، وامرأة تسير خلفها كلب، وأكشاك الجرائد، والأوتوبيسات، والسيارات، نفس الأشياء المعتادة. سأخرج، قرر العمدة. عاد إلى مكتبه وهاتف رئيس مكتبه، «أبلغ نواب البلدية الموجودين بالمبنى عندما يسألون عنى فقط، أما الباقى فسأتركه

فى يديك». «سأبلغ السائق ليحضر السيارة أمام الباب». «اصنع لى هذا المعروف، لكن أبلغه أننى لن أحتاج إليه، فسأقود السيارة بنفسى». «وهل ستعود اليوم للمجلس».«أتمنى ذلك، وسأبلغك إن قررت عدم العودة». «اتفقنا.» «كيف حال المدينة». «لا شىء مهم يذكر، لم يصل للبلدية أخبار أسوأ من الأخبار المعتادة، حوادث مرورية، تعطل وازدحام الشوارع، حريق بسيط لم ينجم عنه شىء، محاولة اقتحام فاشلة على بنك». «وكيف احتووا الأمر مع غياب الشرطة». «كان المقتحم شيطانًا مسكينًا، مجرد هاوٍ، وبالرغم من وجود مسدس معه، إلا أنه كان فارغًا». و«إلى أين حملوه». «قام الذين أمسكوا به بتجريده من السلاح وتسليمه لمقر رجال المطافىء». «ولماذا حملوه لهذا المكان إن لم يكن هناك سجون». «لأن عليهم أن يتركوه فى أى مكان». «وماذا حدث بعد ذلك». «حكوا لى أن رجال المطافىء ظلوا يسدون إليه النصائح لمدة ساعة وبعدها أطلقوا سراحه». «ألم يستطيعوا أن يفعلوا شيئًا آخر». «لا يا سيدى العمدة، لم يستطيعوا حقيقة فعل شىء آخر». «أخبر سكرتيرتى أن تخبرنى عندما تأتى السيارة أمام الباب». «أمرك سيدى». اتكأ العمدة على كرسيه منتظرًا، بالتجاعيد مرة أخرى تشق جبهته. وعلى عكس ما تنبأ به المتطيّرون، لم ترتكب خلال هذه الأيام جرائم سرقة، ولا حالات اغتصاب، ولا حوادث قتل، أكثر من الأيام العادية. يبدو أن جهاز الشرطة، فى نهاية الأمر، لم يكن لازمًا لتحقيق أمن

المدينة، وأن السكان أنفسهم، بشكل تلقائى أو بشكل شبه منظم، قرروا القيام بمهام الرقابة بأنفسهم. والدليل على ذلك حادثة سرقة البنك. حادثة سرقة البنك، فكّر، لا تعنى شيئًا، كان الرجل متوترًا، قليل الثقة بنفسه، كان المجرم مستجدًا، وأدرك الموظفون أنه لا يسبب خطرًا عليهم، لكن لن يسلم الأمر فى كل مرة، ماذا أقول، غدًا، اليوم، الأن، لقد وجدت خلال هذه الأيام الأخيرة جرائم فى المدينة سيظل مرتكبوها بدون شك بلا عقاب، فعند غياب الشرطة وعدم سجن المجرمين وعدم وجود التحريات والدعاوى ووجود القضاة فى بيوتهم وإغلاق المحاكم، ستزداد الجرائم بشكل لا يمكن تجنبه، ويبدو أن الجميع ينتظر أن يقوم المجلس المحلى برقابة المدينة، ويطلبون منّا ذلك، ويطالبوننا به، يقولون إنه بلا أمن لن تستتب الطمأنينة، وأنا أسأل نفسى كيف، أأطلب متطوعين، أأنشىء ميليشيات حضرية، لا تقولوا لى إننا سنخرج إلى الشارع بملابس دركيى الأوبريت، بزى تم تأجيره من محل لوأزم المسرح، والسلاح، أين السلاح، ومعرفة استخدامه، ليس فقط معرفة استخدامه وإنما أيضًا القدرة على ذلك، الإمساك بمسدس وإطلاق النار، من يرانى أنا ونواب المجلس وموظفيه نطارد فوق أسطح البيوت قاتلاً بالليل أو مغتصبًا فى أيام الثلاثاء، أو داخل صالونات الطبقة العليا نطارد اللص المرتدى قفازات بيضاء. دق التليفون، كانت السكرتيرة، سيدى العمدة، السيارة فى انتظارك. شكرا، قال، سأخرج فى الحال، لا أعرف إن كنت سأعود مرة أخرى أم لا، لو

ظهرت أى مشكلة هاتفينى على تليفونى المحمول. أتمنى أن تسير أمورك على مايرام،سيدى العمدة. لماذا تقولين ذلك. فى هذه الأيام، هذا أقل ما يجب أن يتمناه كل منا للآخر. هل أستطيع أن أوجه لك سؤالا. بالطبع سيدى، ودائما ستجد إجابة. لو أردت ألا تجيبى فلا تجيبى. أنا فى انتظار السؤال. لصالح من أدليت بصوتك. ليس لصالح أحد، سيدى العمدة. أتريدين أن تقولى إنك امتنعت عن التصويت. لا، أريد أن أقول إننى أدليت بصوت أبيض. وتقوليها هكذا بلا لف ولا دوران. لقد سألتنى أيضًا بلا لف ولا دوران. وهل سؤالى بهذه الطريقة أعطاك الثقة لتجيبى هكذا. تقريبا، سيدى العمدة، تقريبًا. أعتقد أنك فكرت أن هذا قد يشكل خطرًا عليك. أتمنى ألا يكون هناك أى خطر. كما ترين، تمنيك فى محله. أتقصد أننى لن أضطر لتقديم استقالتى. لا تشغلى بالك ونامى فى سلام. سيكون من الأفضل ألا نحتاج للنوم لنكون فى سلام، سيدى العمدة. قول حسن. أراه قولا عاديا، سيدى العمدة، فلن أفوز بجائزة الأكاديمية بقولى هذا. إذًا كما تعرفين، يجب أن تسعدى بتصفيقى. هذه هى جائزتى. فلنتوقف عند هذه النقطة، لو حدث شىء هاتفينى على تليفونى المحمول. أمرك سيدى. ألقاك غدًا، إن لم يكن اليوم.ألقاك غدا، ألقاك اليوم، ردت السكرتيرة..

رتّب العمدة سريعًا الأوراق المبعثرة فوق مكتب العمل، كانت تبدو منتسبة لبلد آخر وقرن آخر، لا لهذه

العاصمة الواقعة تحت الحصار، التى هجرتها حكومتها وحاصرها جيشها. لو مزقها، لو حرقها، لو ألقى بها فى سلة المهملات، لن يحاسبه أحد على فعلته، فالأفراد الآن لديهم أشياء أهم يفكرون فيها، فالمدينة، لو تأملنا الأمر جيدًا، لا تشكل جزءًا من العالم المعروف، لقد أصبحت حلّة مليئة بالطعام الفاسد والدود، أصبحت جزيرة مدفوعة صوب بحر ليس بحرها، أصبحت مكانًا تم تصنيفه على أنه بؤرة عدوى خطيرة وعلى سبيل الحيطة تم وضعها تحت حالة الحصار، حتى يفقد الوباء قوته أو، حتى لا يقتل فردًا آخر، ينتهى ملتهمًا نفسه. طلب من الفرّاش أن يحضر له المعطف، وحمل هو حقيبة تحتوى على الموضوعات التى يجب أن يراجعها فى البيت، ونزل. فتح له باب السيارة السائق الذى كان فى انتظاره. لقد أخبرونى أنك لست فى حاجة إلىّ، سيدى العمدة. نعم، تستطيع أن تذهب لبيتك. إلى اللقاء غدًا، سيدى العمدة. إلى اللقاء غدًا. شىء ملفت للانتباه أن نقضى كل أيام حياتنا نسمع و نقول «إلى اللقاء غدًا»، وفى يوم من هذه الأيام حتمًا، وهو اليوم الأخير لأحدنا، لن نجد من نقول له ذلك أو لن نوجد نحن أنفسنا لنقول ذلك. سنرى إن كانت عبارة " إلى اللقاء غدًا " التى قيلت اليوم، والتى تعنى اليوم التالى، وعندما يلتقى العمدة بسائقه الخاص مرة أخرى، سيكونا قادرين على إدراك مدى غرابتها، مدى المعجزة التى وقعت عندما قالاها وتحققت كيقين لم يكن سوى احتمال

مثير للجدل. ركب العمدة السيارة. كان على وشك أن يتجول بالمدينة، ليرى الناس التى تعبر، بلا عجلة، راكنًا سيارته من آن لآخر وخارجًا منها ليسير على قدميه قليلاً، بينما يستمع لما يقولونه، فى النهاية، ليجس نبض المدينة، ليقيس قوة الحمى التى تصيبها. من قراءاته القديمة كان يتذكر أن ملكًا من الشرق، ليس على يقين إن كان ملكًا أم إمبراطورًا، وأغلب الظن أنه كان خليفة عصره، كان يخرج من قصره متخفيا من آن لأخر ليذوب بين عامة الشعب، بين الناس العادية، ليسمع ما يقولونه عنه حقيقة فى الشوارع و الميادين. ربما لم يكن يسمع الحقيقة لأن فى هذه الفترة، كما يحدث دائما، كان يوجد جواسيس يسجلون الاستحسان و الشكاوى والنقد كما يسجلون بداية أية خطة للتآمر. إنها قاعدة ثابتة عند كل سلطة معطياتها قطع الرءوس قبل أن تبدأ فى التفكير، لأن القطع لو تم بعد ذلك لفات الأوان. العمدة ليس ملك هذه المدينة المحاصرة،أما بالنسبة لوزير الداخلية، هذا المنفى فى الجانب الآخر من الحدود، فلابد أنه، فى هذه الساعة، يحضر مؤتمر عمل مع مستشاريه، سنعرف لاحقًا مع من ومن أجل ماذا. لهذا لا يحتاج العمدة إلى التخفى بلحية وشارب، فالوجه المرسوم على وجهه هو وجهه دائمًا، ربما يبدو مهمومًا أكثر من العادة، كما يمكن ملاحظة ذلك من تجاعيد الجبهة. هناك أفراد يعرفونه، لكن من يلقى عليه التحية قليلون. لا تعتقد، مع ذلك، أن من يتجاهلونه أو

يكرهونه هم فقط هؤلاء الذين أدلوا بأصوات بيضاء، باعتباره عدوًا لهم، فهناك أيضا من أنصار حزبه ومن انصار حزب الوسط من ينظرون له بريبة، حتى لا نقول بعدم ارتياح. ماذا يفعل هنا هذا الرجل، سيفكّرون، لماذا يختلط بالرعاع الأبيّضيين، عندما يكون واجبه التواجد فى عمله الذى يأكل منه العيش، ربما، بما أن الأغلبية قد تبدلت، جاء ليصطاد أصواتًا انتخابية، لو كان الأمر كذلك، سيعانى الأمرّين، فالانتخابات ليست بقريبة، لو كنت أنا الحكومة لحللت هذا المجلس المحلى وعينت مكانه لجنة إدارية نزيهة، ذات ثقة سياسية مطلقة. قبل أن نسترسل فى هذه الحكاية،أود شرح استخدام كلمة أبيّضيين، التى ذكرتها منذ عدة سطور، فهى لم تذكر صدفة أو عرضا ولا هى نتاج خطأ فى الكتابة على الكمبيوتر، ولا هى كلمة جديدة اخترعها الراوى ليدارى خطأ ما. فالكلمة توجد، توجد بالفعل، توجد فى أى معجم، المشكلة، إن وجدت مشكلة، تكمن فى أن الأشخاص مقتنعون أنهم يعرفون معنى كلمة أبيض ومشتقاتها، وبالتالى لا يضيعون الوقت ليتحققوا من مصدرها، أو أنهم يعانون من عرض المثقف الكسول ويبقون فى مكانهم بدون محاولة الذهاب أبعد من ذلك، صوب اللقاء الجميل. لا أحد يدرى من فى المدينة كان الباحث الدءوب و المكتشف العرضى للكلمة، لكن الشىء المؤكد هو أن الكلمة انتشرت سريعًا وفى الحال بالمعنى المحقّر الذى يبدو أن القراءة البسيطة تثيره.

وبالرغم من أننا لم نشر إلى الأمر من قبل، وهو أمر محزن بكل مظاهره، إلا أن كل وسائل الإعلام، وخاصة تليفزيون الدولة، يستخدمون هذه الكلمة كما لو كانت واحدة من أردأ الفواحش. عندما تظهر الكلمة مكتوبة لا ننتبه لها كثيرًا، لكن عندما تسمعها تقال، باعوجاج الفم هذا ونبرة الاحتقار تلك، فمن الضرورى التزود بالدرع الأخلاقى لفارس اللوح المستدير حتى لا تهرول، بوشاح الراهب على الرقبة ورداء التائب على الجسد، مسددا لنا لكمات فى الصدر وكافرًا بكل المبادئ القديمة والقيم، قائلاً : كنت أبيّضيا، لكننى لن أكونه، فليغفر لى الوطن، فليغفر لى الملك. لقد كفّ العمدة، الذى لا يلزم بمغفرة شىء، حيث لم يكن ملكًا ولن يكونه، ولا حتى سيكون مرشحًا فى الانتخابات القادمة، عن ملاحظة المشاه، والآن يبحث عن قرائن التراخى، قرائن الهجر، قرائن التدهور، تلك القرائن التى لا يجدها على الأقل بالنظرة المجردة. هاهى المحلات والمخازن الكبيرة مفتوحة على مصراعيها، مع أنه لا يبدو أنها تعمل كثيرًا، وهاهى السيارات تسير بلا معوقات تخلق أزمة مرورية. وأمام أبواب البنوك لاتوجد صفوف طويلة يقف بها عملاء قد أصابهم الملل، تلك الصفوف التى تتشكل كلما حدثت أزمة، كل شىء يبدو طبيعيًا، فلا توجد حالة سرقة واحدة بطريقة الخطف السريع، ولا مشاجرة واحدة بالرصاص والسلاح الأبيض، لا شىء يعكر صفو هذه الظهيرة المضيئة، معتدلة الجو، هذه الظهيرة التى

تبدو قادمة إلى الدنيا لتشبع كل الرغبات وتروى جميع الأشواق. لكنها لا تقضى على انشغال العمدة، أو بعبارة أكثر أدبية، اضطرابه الداخلى. إن ما يشعر به، وربما يكون الوحيد الذى يشعر بهذا الشعور من بين كل هؤلاء المارّة، هو نوع من التهديد الذى يطفو على سطح الهواء، هذا التهديد الذى تحس به القلوب المرهفة عندما تقوم كتلة سحاب تغطى السماء بانتفاشها فى انتظار الرعد الذى يفتكها، عندما يصر الباب صريرًا فى الظلام الحالك، وتيار من الهواء البارد يضربنا فى وجوهنا، عندما يفتح لنا نذير شؤم أبواب اليأس، عندما تفتق قهقهة شيطانية غشاء روحنا الرقيق. لا شىء بالتحديد، لا شىء مما يمكن الحديث عنه بموضوعية أو بمعرفة الأسباب، لكن المؤكد أن على العمدة أن يبذل جهدًا كبيرًا حتى لا يستوقف أول من يقابله فى الطريق ويقول له: خذ حذرك، ولا تسالنى من ماذا ولماذا، فقط أطلب منك أن تأخذ حذرك، فأنا أشعر أن شيئًا خطيرًا على وشك الوقوع. إذا كنت حضرتك، وأنت عمدة، وتحمل مسئوليات، لا تعرف، كيف أستطيع أن أعرف أنا ـ قد يرد عليه سائلاً .. لا يهم، كل ما أطلبه منك هو أن تأخذ حذرك. أهو نوع من الوباء؟ لا أعتقد. أهو زلزال؟ لسنا فى منطقة زلازل، ولم يحدث هنا أبدًا أى زلزال. أهو فيضان، طوفان؟ منذ سنوات طوال لم يبلغ نهرنا حوافه. إذًا. لا أعرف بماذا أجيبك. أتغفر لى سؤالى الذى سأوجهه إليك. سأغفره لك حتى قبل أن

تسأله. ألا تكون قد شربت كأسًا زيادة بالصدفة، ولا اقصد توجيه أية إهانة لحضرتك، فيجب إنك تعرف أن الكأس الأخيرة هى أشدها ضررًا. أنا أشرب فقط أثناء الغداء، وعادة اعتدل فى شرابى، فأنا لست من عشاق الكحول. إذا كان الأمر كذلك، فأنا لا أفهم شيئًا. عندما يقع البلاء، ستفهم كل شىء. أى بلاء؟ البلاء الذى على وشك الوقوع. بحيرة، نظر المخاطب حوله. إن كنت تبحث عن رجل شرطة ليقبض علىّ، قال العمدة، فوفر جهدك، فلقد ذهبوا جميعًا. لا أبحث عن رجل شرطة، كذب الآخر، لقد تواعدت هنا مع صديق، هاهو قادم، إلى اللقاء، سيدى العمدة، فلتقض وقتًا سعيدًا، فأنا، بصراحة، لو كنت مكانك، لذهبت إلى البيت، عندما ننام ننسى كل شىء. أنا لم أنم فى هذه الساعة قط. النوم مفيد فى أية ساعة، هكذا يرى قطى. أيمكن أن أوجه لك سؤالاً. بكل سرور سيدى العمدة، اسأل كما تحب. هل أدليت بصوت أبيض. هل أنت تقوم بعملية تحريات. لا، إنه مجرد سؤال، وإن لم ترغب فى الإجابة فلا تجب. احتار الرجل عدة ثوان، بعدها بكل جدية أجاب : نعم سيدى، أدليت بصوت أبيض، فأنا أعرف أن ذلك ليس محرمًا. نعم إنه ليس محرمًا، لكن أترى النتيجة. كان يبدو أن الرجل قد نسى صديقه الوهمى . سيدى العمدة، أنا شخصيا لست ضدك فى شىء، حتى أننى أعترف أنك قد قمت بأعمال جيدة فى المجلس المحلى، لكن الذنب الذى تسمونه نتيجة ليس ذنبى،

فأنا أدليت بالصوت الذى راق لى، وطبقًا لنص القانون، والأن عليكم أن تنظموا أموركم، فإذا وجدتم البطاطا تحرق من يقبض عليها، فعليكم أن تنفخوا فيها أولا. لا تغضب، أنا فقط كنت أريد أن أحذرك. وأنا مازلت أريد معرفة مما تحذرنى. حتى لو أردت، فأنا لا أعرف كيف أشرح لك الأمر. إذًا لقد كان حديثنا مضيعة للوقت. معذرة، إن صديقك فى انتظارك. ليس لى أى صديق فى انتظارى، كنت أريد فقط أن أذهب عنك. إذن فأنا أشكرك لبقائك معى. سيدى العمدة. نعم، قل بلا أى شكليات. إن كنت قادرًا على فهم شىء مما يدور فى خلد الناس، فما يحدث بداخلك هو تأنيب ضمير. تأنيب ضمير على شىء لم أفعله. هناك من يرى أن أشد تأنيب للضمير هو تأنيب من لم يفعل مكروهًا، لكنه سمح بوقوعه. ربما تكون محقًا، سأتأمل الأمر جيدًا، على أية حال، خذ حذرك. سآخذ سيدى العمدة، وأشكرك على تحذيرك إياى، بالرغم من أننى لا أعرف من ماذا، فهناك أشخاص يستحقون ثقتنا. أنت ثانى من يقول لى هذه العبارة اليوم. إذًا، تستطيع أن تقول إنك قد فزت بيومك. شكرا. إلى اللقاء سيدى العمدة. إلى اللقاء.

عاد العمدة إلى الوراء، إلى المكان الذى ركن فيه سيارته، كان يمضى راضيًا عن نفسه، فهو على الأقل قد حذّر شخصًا واحدًا، لو نقل هذا الشخص هذا التحذير، ففى خلال ساعات قليلة ستتوخى المدينة بأسرها الحذر، وستستعد لما هو آت. لا يجب أن

أتوقف عند رأيى هذا، فكّر، فمن الواضح أن الرجل لن يقول شيئًا، فهو أحمق مثلى، حسنًا، المسألة ليست مسألة حماقة، فأنا قد شعرت بتهديد لا أعرف كيف أصفه، فهو أمر خاص بى، وليس به، وأفضل ما أفعل هو أن أتبع النصيحة التى أسداها لى، أن أذهب للبيت، فأبدا لن يذهب هدرًا اليوم الذى استحققنا فيه، على الأقل، لنصيحة مفيدة. ركب سيارته ومنها هاتف رئيس المجلس المحلى ليخبره أنه لن يعود للمجلس اليوم. كان يسكن فى شارع بوسط البلد، ليس ببعيد عن محطة مترو تمر بسطح الأرض وتخدم قطاعًا كبيرًا من سكان المدينة. لم تكن زوجته، الطبيبة الجراحة، فى البيت، فلديها اليوم وردية ليلية بالمستشفى، أما الأولاد، فالولد فى الخدمة العسكرية، وربما يكون أحد الذين يحملون الرشاشات الثقيلة ليدافعوا عن الحدود، ومعلقًا على رقبته القناع المضاد للغاز، أما البنت، فهى فى الخارج، تعمل كسكرتيرة ومترجمة فورية فى منظمة دولية، واحدة من تلك المنظمات التى تقيم فى مقار هائلة وفخمة بالمدن شديدة الأهمية، أقصد أهمية سياسية بالطبع. ولقد ساعدها فى شىء كونها ابنة رجل له شأن فى النظام الرسمى للمجاملات التى تدفع وتحصّل، التى تقدم وتكافىء من يقدّمها. حتى أرفع النصائح وأكملها يتبع فقط نصفها، لذا ذهب العمدة للبيت ولم ينم. درس الأوراق التى أحضرها معه، اتخذ عدة قرارات حول بعضها، وأجّل البعض الآخر لجلسة أخرى. وعندما

حانت ساعة العشاء، توجّه للمطبخ، فتح الثلاجة، لكنه لم يجد شيئًا يفتح شهيته. لقد فكّرت فيه المرأة، وعلمت أنه سيشعر بالجوع، لكن أن يبذل جهدًا فى فرش المائدة، تسخين الطعام، غسيل الأطباق بعدها، يبدو له هذا اليوم عملاً فوق طاقة البشر. خرج وتوجّه صوب مطعم. جلس على المائدة، وبينما كان ينتظر إحضار الطعام، هاتف زوجته. «كيف حال العمل؟» ـ سأل ـ. «يسير بلا مشاكل كثيرة، وأنت كيف حالك؟». «بخير، قلق بعض الشىء». «لن أسألك عن السبب فى موقف كهذا». «إنه أكثر من هذا الموقف، إنه نوع من الارتجاف الداخلى، ظل، شعور بنذير شؤم». «لم أعرفك مؤمنا بالخرافات». «عادة ما تأتى ساعة نكون فيها كل شىء» «أسمع ضجيج أصوات، أين أنت؟». «فى المطعم، بعدها سأعود للبيت، وربما آتى لرؤيتك، فكونى عمدة يفتح لى الأبواب المغلقة». «قد تأتى وأنا أجرى عملية، وقد أتأخر». «حسنًا، سأفكر فى الأمر، أرسل لك قبلة». «أرسل لك أخرى كبيرة، هائلة». أحضر الجرسون الطبق. الأكل، سيدى العمدة، بالهناء والشفاء. كان على وشك إدخال الشوكة فى فمه عندما سمع صوت انفجار هز المبنى من أعلاه لأسفله، وفى الوقت نفسه انفجر الزجاج الداخلى والخارجى وصار حطامًا، وسقطت الكراسى والموائد، وكان هناك شخصان يصرخان أو يعويان، وبعض الجرحى، وبعض آخر أصابته الصاعقة جراء الصدمة، وبعض ثالث مرتجف من الرعب. أما العمدة فكان ينزف منه جرح

فى الوجه ناجم عن قطعة زجاج متناثرة. كان من الواضح أن موجة الانفجار الواسعة قد بلغتهم. لابد أن مصدر الانفجار كان محطة المترو ـ قالت امرأة تأن من البكاء وتحاول النهوض. بعد أن ربط فوطة على الجرح، هرول العمدة إلى الشارع. كان الزجاج يتكسر تحت قدميه، بعدها ارتفع عمود كثيف من الدخان الأسود، حتى أنه اعتقد أنه يرى لهيب النيران. لقد وقعت الحادثة فى المترو، فكّر. رمى الفوطة عندما انتبه أن يده التى تضغط عليها تعوقه عن الحركة، الآن ينزل الدم حارًا فوق خده ورقبته ويمتصه قميصه. كان يسأل نفسه إن كانت هناك شبكة تليفونية، فتوقف ثوان ليضغط على رقم الطوارئ، رد عليه صوت غاية فى الاضطراب ليعلمه أن الخبر معروف. العمدة يتحدث، لقد انفجرت قنبلة فى محطة المترو الرئيسية فوق سطح الأرض، القطاع الشرقى، أرسلوا كل ما تستطيعون، رجال المطافىء، الحرس المدنى، المتطوعين، إن كانوا مازالوا هناك، أرسلوا مواد تستخدم فى الإسعافات الأولية،، ممرضين، عربات إسعاف، كل ما بوسعكم، آه، شىء اخر، إن كانت هناك طريقة لمعرفة أماكن ضباط الشرطة المحالين على المعاش، هاتفوهم أيضا، فليأتوا لمساعدتنا. رجال المطافىء فى الطريق، سيدى العمدة، نحن نفعل كل ما بوسعنا من أجل. انقطع الاتصال، وواصل هو طريقه من جديد. هناك أشخاص أخرون يسيرون بجانبه، أكثر منه رشاقة، فساقاه ثقيلتان، كما

لو كانتا من الرصاص، وكان يبدو أن منافيخ رئتيه كانت ترفض تنفّس الهواء الكثيف وكريه الرائحة ، كان يشعر بألم، ألم ينغرز فى أعلى قصبة الرئة، وكان يزداد مع كل لحظة. أصبحت المحطة على بعد خمسين مترا، وكان الدخان الغامق، الرمادى، المضاء باللهب، يتصاعد فى خليط حانق. كم إنسان فقد حياته بالداخل، ومن الذى وضع هذه القنبلة، سأل العمدة نفسه. وبالقرب منه كانت تُسمَع سارينات سيارات المطافىء، والصرخات المؤلمة، صرخات من يطلب المساعدة أكثر من صرخات من جاء ليعطيها، وكل مرة كانوا أكثر فطنة، ومن لحظة لأخرى كان الإنقاذ يقتحم أحد النواصى. وصلت العربة الأولى عندما كان العمدة يفتح طريقًا بين الأفراد الذين تجمعوا لرؤية المصيبة. أنا العمدة، كان يقول، دعونى أمّر، من فضلكم، وكان يشعر بكل ألم أنه أراجوزعندما يكرّر تلك العبارة مرة وأخرى، موقنا أن كونه عمدة لا يفتح له كل الأبواب المغلقة، فبالداخل، بدون أن نذهب بعيدا، هناك أشخاص أغلقت فى وجوههم مرة واحدة أبواب الحياة. فى دقائق قليلة فيضانات من المياه توجهت للفتحات التى كانت من قبل أبوابًا ونوافذ، كانت ترفع فى الهواء وتنصب على البنايات الفوقية لتواجه خطر النيران المنتشرة. توجه العمدة صوب رئيس رجال المطافىء. «ما رأيك فى هذا الحريق، يارئيس». «من أسوأ الحرائق التى رأيتها فى حياتى، حتى أننى أشعر أنها تبعث رائحة فوسفور». «لا تقل

هذا، فهذا غير ممكن» . «ربما شعور شخصى، أتمنى أن أكون مخطئًا». فى هذه اللحظة ظهرت وحدة تليفزيون متنقلة، وظهرت خلفها عربات صحافة أخرى، وعربات الإذاعة، والآن نشاهد العمدة محاطًا بالميكروفونات، يجيب على الأسئلة. كم تتوقع عدد الضحايا الناجمة عن الانفجار. ما المعلومات التى تزود بها. كم عدد الجرحى. كم عدد المحروقين. متى تتوقع أن تعود المحطة لعملها. هل هناك شبوهات حول من يكون قد ارتكب الاعتداء. هل تلقيتم مسبقًا أى تهديد بانفجار قنبلة. فى حالة الإيجاب، من تلقى بالتحديد هذا التهديد وماهى الإجراءات التى اتخذتموها لإخلاء المحطة فى الوقت المناسب. هل يبدو لك أنه عمل إرهابى قامت به مجموعة ذات صلة بالثورة الحضرية الحالية. هل تتوقع وقوع اعتداءات أخرى من هذا النوع. بما أنك عمدة، وتعتبر السلطة الوحيدة بالمدينة، ما الوسائل التى تزود بها لبدء التحريات اللازمة. عندما توقف ضجيج الأسئلة، أجاب العمدة إجابة واحدة ممكنة فى مثل تلك الظروف. هناك بعض المسائل تفوق قدراتى، وبالتالى لا أستطيع الرد عليها، أظن، مع ذلك، أن الحكومة لن تتأخر كثيرًا فى النطق ببيان رسمى، أما باقى المسائل،، فقط أستطيع أن أقول إننا نفعل كل ما فى وسع البشر لإنقاذ الضحايا، وأتمنى الوصول فى الوقت المناسب. لكن كم عدد الضحايا، ألح أحد الصحفيين. سنعرف ذلك عندما ندخل هذا الجحيم، وحتى يحدث ذلك، من

فضلكم، وفروا أسئلتكم الحمقاء. اعترض الصحفيون مستدللين على أن هذه ليست الطريقة اللائقة للتعامل مع وسائل الإعلام، الذين جاءوا ليؤدوا عملهم فى الاستعلام وبالتالى من حقهم أن يُعاملوا باحترام، لكن العمدة قطع خطابهم النقابى من جذوره. لقد تجرأت صحيفة اليوم على المطالبة ببحر من الدم، لكن لم يتحقق مطلبهم حتى الآن، ذلك لأن المحروقين لا ينزفون، وإنما يتحولون إلى لحم مشوى، والآن أفسحوا لى الطريق، من فضلكم، فليس لدىّ ما أقوله، سندعوكم عندما يكون لدينا معلومات محددة. سُمِع همس عام من الرفض، ومن الخلف سمع كلمة ازدراء: من يظن نفسه، لكن العمدة لم يحاول أن يتحقق من مصدر قلة الأدب. هو نفسه لم يفعل شيئًا سوى توجيه نفس السؤال لذاته خلال الساعات الأخيرة : من أظن أننى أكون.

بعد مرور ساعتين كان يمكن اعتبار الحريق خامدًا، لقد استمر الجمر ساعتين، لكن لم يكن ممكنا معرفة عدد الضحايا. لقد استطاع ثلاثون أو أربعون فردًا، بجراح مختلفة الخطورة، الهروب من التأثيرات الخطيرة للانفجار ليجدوا أنفسهم فى منطقة رحبة بعيدة عن مكان الحادث، فتم نقلهم للمستشفى. وظل العمدة هناك حتى فقدت النيران شدتها، ووافق على الانسحاب فقط بعد أن نصحه بذلك رئيس المطافئ. اذهب لتستريح، سيدى العمدة، أترك الباقى لنا، وداو هذا الجرح بوجهك، لا أفهم كيف لم ينتبه له أحد.

هذا شيء لا أهمية له، لقد كنا مشغولين بأشياء أكثر أهمية. بعدها سأل، والآن ؟. الآن، البحث عن الجثث وإخراجها، بعضها ممزق، والأغلبية محروق. لا أدرى إن كنت سأستطيع تحمل هذا الأمر. أرى إنك لن تحتمل رؤية باقى المهمة. أنا رجل جبان. الجبن لا علاقة له بهذا، سيدى العمدة، فأنا قد أغمى علىّ فى المرة الأولى. شكرًا، أيها الرئيس، افعل كل ما فى وسعك. إن إطفاء الحذوة الأخيرة مثل عدم إطفائها. على الأقل أكون معكم. بدأ الرجل الملطخ وجهه المسوّد بالدم المتجلط بالسير فى طريقه لبيته. كان جسده بأكمله يؤلمه، بسبب الجرى، بسبب الضغط العصبى، بسبب الوقوف فترة طويلة على قدميه. لم يكن الأمر يستحق مهاتفة زوجته، فالشخص الذى سيرد سيقول بالتأكيد : معذرة سيدى العمدة، فالطبيبة لا تستطيع الرد، فهى تقوم بإجراء عملية. كان يوجد أفراد يقفون فى النوافذ من جانب والجانب الآخر، لكن لم يتعرف عليه أحد. العمدة الحقيقى يتحرك بسيارة رسمية، مصحوبًا بسكرتير يحمل حقيبة المدير، ومحاطًا بثلاثة من الحرس الخاص الذين يفسحون له الطريق، أما هذا الذى يسير هناك فهو رجل متسكع قذر تفوح منه رائحة كريهة، رجل حزين ترافقه دموعه، شبح لا أحد يعيره طشت ماء ليغسل ملاءته. عرضت له مرآة المصعد وجهه المفحم كما لو كان فى تلك اللحظة فى فناء محطة المترو عندما انفجرت القنبلة. ياللرعب، ياللرعب، همس. فتح الباب بيد مرتعشة وتوجه صوب

الحمام. أخرج من الدولاب الصغير مواد الإسعافات الأولية، كيس القطن، ماء الأوكسيجين، مطهر سائل اليود، ضمادات لاصقة كبيرة الحجم. فكّر، من المؤكد أننى فى حاجة لبعض النقط. كان القميص ملطخًا بالدم حتى وسط البنطلون. لقد نزفت أكثر ما اعتقدت. خلع معطفه، فك بجهد عقدة ربطة عنقه، فتح القميص. كانت الفانلة الداخلية أيضا ملطخة بالدم. يجب أن أغتسل، أن أدخل تحت الدش، لا، لا، هذا مستحيل، ياللهذيان، ستنتزع المياه القشرة التى تكونت فوق الجرح وسينزف من جديد، قال بصوت خفيض، إن ما يجب أن أفعله، ما يجب أن أفعله، ما يجب أن أفعله. كانت الكلمة مثل الجسد الميت الذى يعبر فى الطريق، وعليه أن يكتشف ماذا يريد، نهوض الجثة. دخل رجال المطافئ والمساعدون بالدفاع المدنى محطة المترو. يحملون النقالات، يغطون أيديهم بالقفازات، أغلبهم لم يلمس فى حياته جسدًا محروقًا، والآن سيعرفون قدر هذا العناء. كان يجب أن أفعل. خرج من الحمام، ذهب لمكتبه، جلس أمام الترابيزة. أخذ التليفون وطلب رقمًا محفوظًا. كانت الساعة الثالثة صباحًا تقريبًا. رد صوت، «مكتب وزير الداخلية»؟، «من يتحدث». «عمدة العاصمة، إعطنى الوزير، أمر طارئ، لو كان فى البيت، وصّلنى به». «لحظة من فضلك». اللحظة طالت وصارت دقيقتين. «نعم، سيدى الوزير، منذ عدة ساعات انفجرت قنبلة فى محطة مترو فوق الأرض، فى القطاع الشرقى،

وإلى الآن لم يعرف عدد الضحايا،، لكن المؤشرات تشير لعدد هائل، عدد الجرحى قد يكون ثلاثين أو أربعين فردًا». «اعلم كل شىء». «إن كنت قد هاتفتك الآن فلأننى كنت فى الموقع طول الوقت». «خير ما فعلت». أخذ العمدة نفسًا عميقًا، وسأل : «أليس لديك شىء تخبرنى به، سيدى الوزير». «إلى ما تشير». «أسأل إن كان لديك أية فكرة عن من وضع القنبلة». «يبدو لى أمرًا جليًا، إنهم أصدقاؤك الذين أدلوا بأصوات بيضاء قد قرروا استخدام العنف». «لا اعتقد ذلك». سواء اعتقدت أم لا، هذه هى الحقيقة». «أهذه هى الحقيقة» أم ستكون هذه هى الحقيقة. «افهم الأمر كما تريد». «سيدى الوزير، إن ما حدث هنا جريمة مزعجة». «أظن أنك محق، فهكذا اعتادوا أن يسمونها». «من وضع القنبلة، سيدى الوزير؟» «يبدو أنك مضطرب، أنصحك أن تستريح، هاتفنى عندما يطلع النهار، وليس قبل العاشرة صباحًا». «من وضع القنبلة، سيدى الوزير؟». «إلى ما تلمّح». «السؤال ليس تلميحًا، التلميح هو أن أقول لك ما يفكر فيه كلانا الآن». «أفكارى ليست لها علاقة» «بما يدور فى خلد عمدة». «لكنها هذه المرة لها علاقة». «خذ حذرك، ولا تشرد بعيدًا». «أنا لا أشرد بعيدًا، بل أقترب». «ماذا تقصد». «أقصد أننى أتحدث مع المسئول المباشر عن الحادث». «أنت مجنون». «أفضّل أن أكون مجنونًا». «إن التجرؤ على رمى أحد أفراد الحكومة بالتهم، أمر لم يسمع به من قبل». «سيدى الوزير، بداية من هذه

اللحظة أترك عملى كعمدة لهذه المدينة المحاصرة». «غدًا سنتحدث، وعلى أى حال سجّل أننى أرفض استقالتك». «يجب أن تقبل تركى منصبى، تعامل كما لو كنت قد فارقت الحياة». «فى هذه الحالة احذرك، باسم الحكومة، أنك ستندم أشد الندم ، أو حتى لن يكون لديك الوقت لتندم، إن لم تحط هذا الموضوع بالصمت التام، وأظن أن الأمر ليس من الصعوبة بمكان لأنك تقول إنك ميت». «لم أتخيل أبدًا أن الأمر سيصل لهذا الحد». انقطع الاتصال من الجانب الآخر. نهض الرجل الذى كان عمدة ودخل الحمام. خلع عنه ملابسه ودخل تحت الدش. نزع الماء البارد سريعًا القشرة التى تكونت حول الجرح، وبدأ الجرح فى النزيف. وجد رجال المطافئ فى التو أول جسد محروق.

تم عدّ ثلاثة وعشرين قتيلاً، ولا ندرى كم عدد من يزالون تحت الأنقاض. «ثلاثة وعشرون قتيلاً على الأقل، سيدى وزير الداخلية»، ردد رئيس الوزراء مسددًا ضربة بكف يده اليمنى للجرائد المفتوحة فوق المائدة. «ووسائل الإعلام أجمعت عمليًا على نسب هذا الاعتداء لمجموعة إرهابية مرتبطة بثورة الأبيضيين، سيدى رئيس الوزراء». «فى المقام الأول، أطلب منك، كمعروف كبير، ألا تكرّر فى حضورى نطق كلمة الأبيضيين، لأنها سيئة المذاق، ليس لشىء آخر، وفى المقام الثانى، اشرح لى معنى عبارة "أجمعت عمليا». «تعنى أن هناك فقط جريدتين صغيرتين لم تقبل الرواية التى انتشرت عن المجموعة الإرهابية، وتطالب بعمق التحريات». «شىء رائع». «انظر يا سيادة الرئيس السؤال الذى يطرحه هذا». يقرأ رئيس الوزراء بصوت مرتفع: نريد أن نعرف من أين صدر الأمر. وانظر للآخر، الأقل مباشرة، لكنه يسير فى نفس الاتجاه: نريد معرفة الحقيقة حتى لو آلمت من كان. واصل وزير الداخلية: «إنه أمر لا يثير القلق، فلا أعتقد أن علينا أن نشغل بالنا، حتى أننى أظن أن ظهور هذه الشكوك مفيد لنا حتى لا يقال أنهم لا يسمعون سوى صوت الحكومة». «أتقصد أن ثلاثة

وعشرين قتيلاً أو أكثر لا يثير قلقنا». «إنها كانت مغامرة محسوبة، سيدى رئيس الوزراء». «عند النظر لما وقع، نرى أنها مغامرة محسوبة بشكل سيئ». «أعترف إنها أيضًا يمكن أن تفسر هكذا». «لقد فكّرنا فى قنبلة أقل قوة، لا تسبب سوى درجة أعلى بقليل من الرعب». «لسوء الحظ حدث خطأ فى نقل الأمر». «أتمنى أن أقتنع أن هذا هو السبب الوحيد». «اسمع لى سيدى رئيس الوزراء، أستطيع أن أؤكد لك أن الأمر صدر بشكل صحيح.» «أسمع لك، سيدى وزير الداخلية». «أؤكد لك بكل ما فى كلمتى من قيمة». «نعم، بكل ما فى كلمتك من قيمة». «أيا كان الأمر، لقد كنا نعلم أن الحادثة سينجم عنها ضحايا». «لكننا لم نعلم أنهم سيصلون لثلاثة وعشرين». «حتى لو مات ثلاثة، فلن تكون المسألة أهون، فالقضية ليست قضية عدد». «بل هى أيضا قضية عدد». «من يحب الأهداف عليه أيضا أن يحب الوسائل، اسمح لى أن أذكرك بهذه العبارة». «لقد سمعتها مرات كثيرة قبل ذلك». «وهذه لن تكون المرة الأخيرة، بالرغم من أنك قد لا تسمعها من فمى فى المرة القادمة». «سيدى وزير الداخلية، شكّل فورا لجنة لتقصى الحقائق». «وما النتيجة التى تبغى الوصول إليها هذه اللجنة». «شكّل هذه اللجنة، وستعرف الباقى بعد ذلك». «اتفقنا». «إعط كل المساعدة الممكنة لأسر الضحايا، سواء القتلى منهم أو الجرحى، وأعط تعليمات للمجلس المحلى ليتكفل بالدفن». «فى وسط كل هذا التوتر

نسيت أن أخبرك أن العمدة قد قدّم إستقالته». «قدّم استقالته، «لماذا». «هو بالتحديد ترك منصبه». «قدّم استقالته أو ترك منصبه، لا تهمنى اللفظة فى هذه اللحظة، أنا أسأل عن السبب». «وصل إلى محطة المترو بعد الانفجار بقليل، وتدمرت أعصابه، لم يحتمل ما رآه». لا «أحد يحتمل هذا، فأنا لا أحتمل، وأتخيل أنك أيضًا لا تحتمل، لكن لابد أن هناك سببًا آخر لتركه منصبه غير هذا». «إنه يفكر أن الحكومة هى من دبرت الحادثة، ولم يقتصر على التلميح بذلك، بل قالها بكل وضوح». «أتعتقد أنه من اقترح على الجرائد هذه الفكرة». «بكل صراحة، سيدى الرئيس، لا أعتقد ذلك، مع أننى، كما ترى، أود أن ألقى عليه الذنب». «ماذا سيفعل الأن هذا الرجل». «إن زوجته طبيبة فى المستشفى». «نعم ، أعرف ذلك». «إذا فلديه مصدر رزق حتى يجد عملا آخر». «وأثناء ذلك.» «أثناء ذلك، سيدى الرئيس، إن كنت تقصد ذلك، يجب أن نضعه تحت المراقبة الصارمة». «يا لهذه الشياطين التى تلعب فى عقل هذا الرجل، لقد كان محل ثقة، عضوًا مخلصًا للحزب، له مسيرة سياسية رائعة، مستقبل باهر» . «عقول البشر لا تتفق دائمًا وكلية مع العالم الذى يعيشون فيه فهناك من البشر من يجد صعوبة فى تكييف أنفسهم مع حقيقة الأشياء، فيتحولون لنفوس ضعيفة ومضطربة من داخلهم ويستخدمون الكلمات بكل مهارة ليبررون جبنهم». «أراك تعلم كثيرًا عن الأمر، وهذه المعرفة قد اكتسبتها

من تجربة خاصة بك». «لو كنت قد مررت أنا بهذه التجربة، ما وصلت للوظيفة التى أشغلها فى الحكومة، وهى وظيفة وزير الداخلية». «أظن أن الأمر ليس كذلك، فكل شيء ممكن فى هذه الدنيا، أتخيل أن أفضل المتخصصين فى التعذيب يقبّلون أيضا أطفالهم عندما يعودون إلى البيت، بل وقد يبكون داخل صالات السينما» . «ووزير الداخلية ليس استثناء، فأنا رجل عاطفى». «يجب أن أحتفل بمعرفة ذلك». تصفّح رئيس الوزراء الجرائد ببطء، ناظرًا إلى صورة وأخرى، بنظرة مزيج من الريبة و النفور، وقال : «أتريد أن تعرف لماذا لا أعزلك». «نعم، سيدى الرئيس، فلدىّ فضول لمعرفة أسبابك». «لأننى لو فعلت ذلك، ستعتقد الناس بشيء من اثنين، أولا، بعيدًا عن طبيعة ودرجة الذنب، أننى أعتبرك المسئول المباشر عما حدث، ثانيا، أو أننى أعاقبك ببساطة لعدم مقدرتك على توقع حادث طارئ أدى لعنف من هذا النوع» .«كنت أظن أن هذه ستكون الأسباب، فأنا أعرف قواعد اللعبة». «وهناك بشكل جلىّ سبب ثالث، ممكن، ككل الأشياء، لكنه غير وارد، فهو خارج الحسابات». «ما هو»؟. «هو أن تفشى سر الاعتداء». «حضرتك تعرف جيدًا أنه لا يوجد وزير داخلية، فى أى زمن ولا فى أى بلد، سيفتح فمه إطلاقًا ليتحدث عن البؤس و الخيانة والدمار والجرائم التى تقع تحت إمرته، وبالتالى يمكنك أن تطمئن، ففى هذه الحالة أيضًا لن أكون استثناءً». «إن عرفوا أننا من وضعنا القنبلة، سنعطى الحق لمن أدلوا

بأصوات بيضاء، وهو الحق الأخير الذى كان ينقصهم». «إنها وجهة نظر، معذرة، تهين المنطق، سيدى الرئيس». «لماذا»؟. «كما أنها، وأسمح لنفسى أن أقول ذلك، لا تناسب فطنة حضرتك». «اشرح لى وجهة نظرك». «إن عرفوا الحقيقة أم لم يعرفوها، إن استطاعوا أن يمتلكوا الحق، فالسبب فى ذلك أنهم يمتلكوه من البداية». أقصى رئيس الوزراء الجرائد من أمامه وقال: «كل ذلك يذكرنى بقصة "صبى الساحر" القديمة، هذا الصبى الذى أحضر العفريت ولم يعرف كيف يصرفه». «ومن هو، فى هذه الحالة وبرأيك، صبى الساحر، هم أم نحن؟». «أظن كلانا، هم دخلوا فى طريق مسدود بدون أن يفكروا فى العواقب». «ونحن تابعناهم فى سيرهم». «هذا هو ما حدث، والآن علينا أن نتوقع الخطوة القادمة». «فيما يخص الحكومة، ليس علينا سوى مواصلة الضغط، فمن الواضح أنه بعد حدوث ما حدث ليس من المناسب أن نتراجع». «ورد فعلهم». «إن كانت المعلومات التى جاءتنى فى الساعة الأخيرة قبل مجيئى هنا صحيحة، فهم ينظمون مظاهرة». و«ماذا يريدون، فالمظاهرات لم تؤد قط إلى شىء، وبشكل آخر لن نمنح لهم الإذن أبدًا». «أظن أنهم يريدون فقط الاعتراض على الحادثة، أما ما يتعلق بإذن وزارة الداخلية، فلن يلتزموا هذه المرة بتضييع وقتهم فى طلبه». «هل سنخرج فى يوم ما من هذه الشبكة»؟. «المسألة ليست مسألة سحرة، سيدى الرئيس، فسواء كانوا هم

الأساتذة أم الصبية، سيفوز فى النهاية صاحب القوة». «سيفوز من يمتلك القوة فى اللحظة الأخيرة، ولم تحن بعد اللحظة الأخيرة، والقوة التى نتمتع بها الآن ربما لا تكون كافية فى تلك اللحظة». «أنا لدىّ ثقة، سيدى الرئيس، فالدولة المنظمة لا تخسر أبدًا واحدة من هذه المعارك، وإلا ستكون هذه نهاية العالم». «أو بداية الآخر». «لا أعرف ماذا أفهم من كلامك هذا سيدى الرئيس». «على سبيل المثال، لا تفكر فى المضى متحدثًا هنا وهناك أن لرئيس الوزراء أفكارًا انهزامية». «لم تمر بخيالى أبدا فكرة كهذه». «الحمد لله». «من المؤكد أنك تتحدث نظريًا». «بالطبع». «إن لم تكن فى حاجة إلىّ، أعود إلى عملى». «قال لى رئيس الدولة إن لديه فكرة». «ماهى؟». «لم يرغب أن يعرضها علىّ، فلتنتظر الأحداث». «أتمنى أن تفيده فى شىء». «إنه رئيس الدولة». «هذا ما كنت أقصده». «أخبرنى بكل جديد». «أمرك سيدى رئيس الوزراء». «إلى اللقاء». «إلى اللقاء، سيدى الرئيس».

كانت المعلومات التى وصلت لوزير الداخلية صحيحة، لقد كانت المدينة تعد نفسها لعمل مظاهرة. أما عدد الضحايا النهائى فقد بلغ أربعة وثلاثين قتيلاً. لا أحد يعرف كيف نشأت الفكرة، التى وافق عليها الجميع فى الحال، التى كانت ترى أن جثث الضحايا لا يجب أن تدفن فى مقابر الموتى العاديين، وأن أضرحتهم يجب أن تكون نصبًا فى أرض محاطة بالزهور على حدود محطة المترو. مع كل، بعض

العائلات القليلة، المعروفة بميولها السياسية اليمينية التى لا يمكن أن تستبعد فكرة أن الحادث فعلة مجموعة إرهابية مرتبطة مباشرة، كما أكدت وسائل الإعلام، بالمؤامرة ضد الدولة اليمينية، قد رفضت تسليم جثث موتاها للجمهور. تلك العائلات، نعم، البراء من كل ذنب، كانت تصرخ، لأن أفرادها كانوا طوال حياتهم مواطنين محترمين لكل ماهو خاص بهم أو بعيد عنهم، لأنهم أدلوا بأصواتهم مثلما فعل أباؤهم وأجدادهم، لأنهم كانوا من أتباع النظام والآن يقعون ضحايا شهداء للعنف المقتال. وكانوا يتحججون أيضا، بنبرة أخرى، ربما حتى لا يبدون غير متضامنين وطنيا، بأن لهم مقابرهم التاريخية الخاصة التى جرى التقليد أن تجتمع فيها سلالة العائلة بعد موتهم، تلك العائلة التى كانت دائمًا مجتمعة فى حياتها. وهى أيضا مقابر ذات أنصبة تذكارية. وبالتالى، لن يكون الدفن الجماعى لأربعة وثلاثين جثة، وإنما لسبعة وعشرين فقط. حتى ولو كان هذا العدد فقط، يجب أن نعترف أنه عدد كبير. لا نعرف من بعث بها، لكن المؤكد أن المجلس المحلى لم يقُم بذلك، حيث، كما نعلم، قد بقى المجلس بلا عمدة حتى يصدر وزير الداخلية قرارًا بتعيين عمدة بديل، كنا نقول لا نعرف من بعث بها، وهى ماكينة ضخمة مليئة بالأذرع، من تلك المسماة متعددة الكفاءة وسريعة الحركة، فظهرت فى الحديقة لتنتزع الأشجار فى لمح البصر، وكانت تستطيع فتح سبعة وعشرين مقبرة قبل

أن يرد إليك طرفك، لو سمح اللحادون لها، لكنهم فضّلوا اتباع التقليد فى حفر القبور بطريقة يدوية، بمعنى، المجرفة والفأس . إن ما قامت به الماكينة بالتحديد هو انتزاع ست أشجار كانت تعوق العمل، لتتسع بذلك الأرض، التى بعد تنظيفها وتسويتها، تصبح كمقابر كاثوليكية صالحة للراحة الأبدية، بعدها ذهبت، نقصد الماكينة، لزرع الأشجار وظلالها فى مكان آخر.

بعد الحادث الإرهابى بثلاثة أيام، فى الصباح الباكر، بدأ الأفراد يخرجون للشارع. خرجوا فى صمت، وقورين، كثير منهم يحمل أعلامًا بيضاء، وجميعهم يلفون ذراعهم الأيسر بشريط أبيض، ولا يقول لنا المدققون فى الجنازات إن علامة الحداد لا يمكن أن تكون بيضاء، عندما نعلم أن الإشارة البيضاء كانت علامة حداد فى هذا البلد، وعندما نعلم أن الإشارة البيضاء عند الصينيين كانت للحداد، ولهذا لن نتحدث عن اليابانيين، الذين يسيرون الآن جميعًا بالزى الأزرق فى حدادهم. فى الساعة الحادية عشرة كان الميدان يعج بالبشر، لكن لم يسمع هناك سوى أنفاس الجمهور المحتشد، والهمس الأصم للهواء الداخل و الخارج من الرئتين، الشهيق والزفير، الذى يغذى دماء هؤلاء العائشين بالأوكسيجين، الشهيق والزفير، الشهيق والزفير، وفجأة، لن نكمل الجملة، فهذه اللحظة بالنسبة لهؤلاء الذين جاءوا هنا، الناجون من الموت، مازالت فى الطريق. كانت تشاهد أزهار

بيضاء، كريسنتيمات عديدة، ورود، زنابق، وزنابق بيضاء، وزهرة الصبرة ذات البياض شبه الشفاف، وآلاف من زهرة اللؤلؤية التى نفخر لها دائرتها الملونة فى الوسط. مصطفين على بعد عشرين خطوة، كانت التوابيت مرفوعة على أكتاف أقارب وأصدقاء المتوفين، هؤلاء الذين سيحملون الموتى على خطوة جنائزية حتى قبورهم، وبعدها، تحت توجيه اللحادين الخبراء فى المهنة، سيتم إنزالهم بتمهل وبأحبال حتى يلمسون بصوت الحفرة الواقعة فى عمق الأرض. كان حطام المحطة يبدو أنه مازال يبعث رائحة لحم محروق. ربما بدا غير مفهوم لعدد غير قليل أن يكون طقسًا مؤثرًا للغاية، وحدادًا جماعيًا شديد الحزن، ولم يحظ بأى ملمح للعزاء الذى يجب أن تقوم به كممارسة طقسية المؤسسات الدينية المختلفة المقامة فى الدولة، حارمين بهذه الطريقة أرواح الموتى من قربان الموت اليقينى، وحارمين جماعة الأحياء من المرض الفعلى لاتزانهم الذى ربما يدفع الجماعة الضالة إلى الحظيرة. أما عن سبب الغياب الذى يرثى له فيمكن تفسيره بخشية الكنائس المختلفة الحضور فى بؤرة الشبهات، على الأقل الشبهات التكتيكية، بمصاحبة الفتنة البيضاء. ولم تكن المكالمات التليفونية لرئيس الوزراء شخصيًا بعيدة عن هذا الغياب، مع تغيرات طفيفة حول الموضوع نفسه. حكومة الأمة قد تأسف أن حضور كنيستكم الطائش فى هذه الجنازة، بالرغم من أنه مبرر روحيا، قد يمكن اعتباره وبالتالى

استغلاله كمساندة سياسية، إن لم تكن مساندة أيديولوجية، لعدم الاحترام العنيد والمنظم الذى يواجه به قطاع كبير من سكان العاصمة السلطة الديمقراطية الشرعية والدستورية. وبالتالى كان الدفن ببساطة علمانيًا، لكن هذا لا يعنى خلو الدفن من صلوات خاصة وصامتة، هنا وهناك، قد صعدت إلى السماوات المختلفة، وهناك تم الترحيب بها بود متسامح. وقبل أن تغلق المقابر، ظهر واحد، بالطبع بنية حسنة، تقدّم ليلقى خطبة، لكن هدفه كان مرفوضًا فورًا من قبل المحاطين به. لن تلقى خطب، فكل منا هنا يعانى ما يعانيه من أحزان وكلنا نشعر بالأسى. وكان محقًا من تحدث هكذا بكل وضوح. بالإضافة لذلك، إذا كانت هذه هى فكرة الخطيب الخافق، فمن المستحيل أن يؤدى بطلاقة الثناء الجنائزى لسبعة وعشرين شخصا، بينهم الرجال والنساء، بالإضافة لطفل لم تبدأ قصته بعد. إن الجنود المجهولين لا يحتاجون للأسماء التى استخدموها فى حياتهم، فكل أسماء الشرف، التى يستحقونها والملائمة لهم، تستعار لهم، هذا رائع، وهذا مناسب، أما هؤلاء الموتى، الذين لم يتعرف على أغلبهم، واثنان أو ثلاثة منهم بلا بطاقة هوية، إن أرادوا شيئًا فهو ببساطة أن يتركوهم فى سلام. ولهؤلاء القرّاء المدققين، الذين يهمهم الترتيب الجيد للقصة، والذين يرغبون فى معرفة لماذا لم يعملوا للموتى تحاليل دى إن إيه وهى تجارب عادية ولا غنى

عنهـا، لا نسـتطيـع سوى أن نجيـبهم الإجـابة النـزيهة بـعدم مـعرفـتنـا، بـالـرغم من أننـا نسـمح لأنفسـنـا أن نتخيل أن هـذا التعبيـر المعـروف والمستهلك : "موتـانـا " وهو تعبيـر مشتـرك، ذات استهلاك روتيني في الخطب الـوطـنيـة، قـد تم أخـذه هـنـا حـرفيًا، بمـعنى، بمـا أنهم موتـانـا، فـهـم ينـتسبـون لنـا، ولا يمكن تمييـز أحد على الآخـر، وأن نتيجـة الـدى إن إيه الـذى يحتوى على كل العناصر بما فيها العناصر غير البيولوجية، لن يضيف شيئًا سوى تـأكيـد الملكيـة الجمـاعيـة التى لم تكن فى حاجة لهذا التحليل لتأكيدهـا. وهـو سبب قـوى جعل هـذا الـرجل، وربمـا كان سيدة، يقـول كمـا ذكرنـا " كل منـا هنـا يعانى ما يعانيه من أحزان وكلنا نشعر بالأسى ". وأثنـاء ذلك، وبيـنمـا كـانـت التوابيت تنـزل فـى المقـابـر، كـانت الـزهور تتوزع برصـانـة، ومن كان لـديهم أسبـابهم للبكـاء كان الآخـرون يعـانقـونهم ويسلـونـهم، ولم يكن أحدًا يعرف أين مقبرة حبيبه بالتحديد، ربما فى تلك المقـبـرة، ربمـا فـى الأخـرى، وربمـا يـكون من الأفضل البكاء على كل المقـابر، وصدق راعى الغنم الذى قال : ليس هناك حب أكبر من البكاء على شخص لم تعرفه. ولن تعرف أبدًا كيف تعلم هذا الراعى تلك الحكمة.

إن عيب هـذا الاستـطـراد القـصصى، الملىء كمـا رأينـا بـالـدخـول فى مـوضـوعـات فـرعيـة مـهمـة، هـو محـاولة فهم أن الأحداث لا تنتظرنـا، فبمجـرد أن نبدأ فى فهم ما يحدث، نجـد أن الأحـداث تسيـر مهرولة، ونحن، بدلاً من أن نسـردهـا، كمـا هـو مفـروض على

حكائى القصص الذين يعرفون تفاصيل مهنتهم، نجد أنفسنا نغوص فى الوصف، منسحقين القلب، لما قد وقع بالفعل، وعلى عكس ظننا، لم تتفرّق الجموع، وواصلت المظاهرة، والآن أتقدم فى حشود، بعرض الشوارع، فى طريقها لقصر الرئاسة، كما تقول صيحاتها، لم يبق أمامهم، لا أكثر ولا أقل، سوى محل الإقامة الرسمى لرئيس الوزراء، ومحررو الجرائد والراديو و التليفزيون يسيرون على رأس المظاهرة ويكتبون ملاحظات مضطربة، ويصفون ما يجرى عبر التليفون للمؤسسات التى يعملون من أجلها، ويفرّغون هكذا، بإثارة، إنشغالهم المهنى وقلقهم كمواطنين. لا أحد يدرى ما يمكن أن يحدث هنا،، لكن لدينا مبررات لنخاف من أن تكون الحشود تعد نفسها للهجوم على قصر الرئاسة، ولا يمكن أن نستبعد، بل علينا أن نستحضر كاحتمال وارد، أن ينهبوا المقر الرسمى لإقامة رئيس الوزراء وكل الوزارات التى يجدونها فى طريقهم، وهذا ليس توقُعًا مرعبًا ناتجًا عن ذعرنا، فقط يكفى النظر فى الوجوه المتجاسرة لكل هؤلاء البشر لتروا أننا لا نبالغ عند قولنا إن كل وجه من تلك الوجوه يحمل فى ملامحه الدم و الدمار، وهكذا نصل إلى النهاية التعيسة، مع أن من الصعب علينا بمكان أن نقولها بصوت عال ولكل البلد، تلك النهاية التى تقول إن الحكومة، التى قد برهنت فعاليتها فى نواح أخرى، ولهذا استحقت التصفيق من المواطنين الشرفاء، قد تصرّفت بطيش مكروه عندما قرّرت ترك العاصمة

مهجورة لغرائز الحشود الغاضبة، بدون رعايتها الأبوية وبغياب عناصر الردع التابعة للسلطة عن الشارع، بغياب الشرطة المضادة للانقلاب و الغازات المسيلة للدموع و دبابات المياه والكلاب، بغياب القمع، حتى نلخص مانقصده فى كلمة واحدة. لقد بلغت رسالة الكارثة المعلنة مداها الهيستيرى عند رؤية محل إقامة رئيس الوزراء، وهو قصر بورجوازى مشيد على طراز قصور القرن التاسع عشر، وهنا تحولت صرخات المحررين إلى صيحات حرب. لقد آن الأوان، لقد آن الأوان، بداية من هذه اللحظة قد يحدث كل شىء، فليسترها الله على الجميع، ولتعرف الأسماء المجيدة للوطن، المستقرة فى جنة الخلد، حيث صعدت، ترقيق القلوب الغاضبة لهؤلاء البشر. قد كان من الممكن أن يحدث كل شىء، حقيقة، لكن، فى النهاية، لم يحدث شىء، فقد توقّفت المظاهرة، ظل عدد قليل نراه فى التقاطع الذى يشغل أحد نواصيه هذا القصر، المحاط به بستان صغير، و تفرّق الجمع فى الشارع الأمامى، عابرين الشوارع و الميادين المجاورة. إذا كان هناك فى هذا الوقت علماء حساب فى الشرطة، كانوا سيقولون، على الأكثر، إن المتظاهرين لم يتخطوا خمسين ألف شخصًا، عندما كان العدد المضبوط، العدد الحقيقى، لأننا قد عددناهم فردًا فردًا، كان ضعف الخمسين ألفا عشر مرات.

فى هذا المكان، عندما توقّفت المظاهرة ووقعت فى صمت عميق، اكتشف محرر ماكر بالتليفزيون، فى

وسط هذا البحر من الرءوس، هذا الرجل الذى تعرّف عليه بالرغم من أنه كان يغطى نصف وجهه بضمادة، ولقد سهّل له الأمر أنه من النظرة الأولى ساعده الحظ لالتقاط صورة خاطفة للجزء السليم الذى، بدون صعوبة فى إدراكه، أكّد له ظنه بجانب الجزء الجريح. ساحبًا وراءه المصور الذى التقط الصورة، بدأ المحرر فى إفساح الطريق لنفسه بين الحشود، قائلاً فى جانب و الجانب الآخر: معذرة، معذرة، دعونى أمر، أفسحوا الطريق للكاميرا، إنه أمر مهم. وفى الحال، عندما كان قد اقترب: «سيدى العمدة، سيدى العمدة، من فضلك». لكن ما كان يفكر فيه كان أقل تهذيبا : أى شىء يهببه هذا الرجل هنا. المحررون بشكل عام يتمتعون بذاكرة قوية، وهذا المحرر لم ينس الإهانة العلنية التى وجهها العمدة للمؤسسة الإعلامية ليلة انفجار القنبلة. الآن سيعرف كيف يؤلم الخزى. وضع الميكروفون أمام وجهه ووجه للمصور إيماءة سرية يفهم منها " صوّر " أو "إسحقه"، وفى موقف كهذا يصح فهم المعنى الأول والثانى. «سيدى العمدة، اسمح لى أن أعبر عن ذهولى لتواجدك هنا». «ذهولك، لماذا؟». «لقد قلتها لك فى التو، لرؤيتك فى مظاهرة من تلك المظاهرات». «أنا مواطن مثل أى مواطن آخر، أظهر عندما أريد وكيفما أريد، وخاصة الآن، حيث لا نحتاج لإذن من الداخلية». «لكنك لست مواطنًا مثل أى مواطن، أنت عمدة». «أنت مخطىء، فقد تركت منصبى منذ ثلاثة أيام ، لقد اعتقدت أن

الخبر قد انتشر». «وكيف أعرف أنا، إننا لم نتلق أى بيان رسمى، لا من الحكومة ولا من المجلس المحلى». «أظن أنهم ليسوا فى انتظار أن أدعو أنا لعقد مؤتمر صحفى». «هل قدّمت استقالتك». «تركت منصبى». «لماذا؟» «الإجابة الوحيدة التى أستطيع أن أقدمها لك أننى يجب أن أغلق فمى». «إن سكان العاصمة يريدون معرفة الأسباب التى من أجلها ترك عمدتهم» ... «أكرر أننى لست عمدة أحد». «وما الأسباب التى جعلت عمدتهم يشترك فى مظاهرة ضد الحكومة». «هذه المظاهرة ليست ضد الحكومة، إنها تعبير عن الحزن، فالناس قد جاءت لتدفن موتاها». و«الموتى قد تم دفنهم، ومع ذلك، مازالت المظاهرة متواصلة، ما تفسيرك لهذا». «اسأل الناس». «ما يهمنى فى هذه اللحظة هو رأيك». «أنا أقول ما يقوله الجميع، لا شىء أكثر». «أنت متعاطف مع منْ أدلوا بأصوات بيضاء، مع الأبيضيين». «لقد صوّتوا بقدر فهمهم، تعاطفى معهم أو وقوفى ضدهم ليس له علاقة بالموضوع». «وماذا عن حزبك، ماذا سيقول حزبك عندما يعلم أنك قد إشتركت فى هذه المظاهرة». «فلتسأله هو». «ألا تخاف أن يفرضوا عليك عقوبات». «لا». «لماذا كل هذه الثقة». «لأننى بكل بساطة ليس لى حزب». «هل طردوك». «لقد تركته، بنفس الطريقة التى تركت بها عمودية العاصمة». «وماهو رد فعل وزير الداخلية». «فلتسأله هو». «من خلفك فى منصبك». «فلتتقص الأمر». «هل سنراك فى مظاهرات أخرى». «إن ظهرت أنت،

سنري». «هل تركت حزب اليمين بعد مسيرتك السياسية الطويلة به وانتقلت لحزب اليسار». «فى يوم من هذه الأيام أتمنى معرفة فى أي اتجاه سرت». «سيدى العمدة». «لا تنادنى بالعمدة». «معذرة، إنها العادة، أعترف أننى أشعر بالارتباك». «خذ حذرك، إنه الارتباك الأخلاقى، أظن أن ارتباكك أخلاقى، إنها الخطوة الأولى التى تؤدى للقلق ، فمن الآن فصاعدًا، كما اعتدتم أن تقولوا، كل شيء ممكن أن يحدث». «أنا مشوّش، لا أعرف فيما أفكر، سيدى العمدة». «أوقف التصوير، لن يعجب رؤساؤك الكلمات الأخيرة التى تفوهت بها، ولا تنادنى مرة أخرى بالعمدة، من فضلك». «لقد أغلقنا الكاميرا». «هذا خير لك، فهكذا تتجنب المشكلات». «يقال إن المظاهرة ستخرج من هنا لقصر الرئاسة». «فلتسأل المنظّمين». «أين هم، من هم». «أظن لا أحد منهم وكلهم فى نفس الوقت». «لابد أن لهم زعيمًا، فهذه الحركات لا تنظم من تلقاء نفسها، فالنسل التلقائى لا يوجد وخاصة فى الأحداث الجماعية ذات الانتشار الواسع». «لم يكن قد حدث حتى اليوم». «أتقصد أنك لا تعتقد أن حركة الأصوات البيضاء كانت تلقائية». «من العبث خلط الأوراق ببعضها». «تعطينى انطباعًا بأنك تعرف أكثر بكثير مما تظهر أنك تعرفه». «دائما تأتى اللحظة التى نكتشف فيها أننا كنا نعرف أكثر بكثير مما كنا نعتقد، والآن دعنى وشأني، وعد إلى عملك، انظر إلى بحر الرءوس لقد بدأوا فى الحركة». «إن ما يدهشنى حقًا

أننا لا نسمع أية صرخة، أى هتاف، أية صيحة، أى شعار يقول ما تطمح إليه الجماهير، لا نسمع سوى هذا الصمت المتوعّد الذى يسبب الرجفة فى الضلوع». «عدّل لغتك التى تتميز بلغة أفلام الرعب، ربما، فى آخر المطاف، قد تعبت الناس من الكلام ببساطة». «لو تعبت الناس من الكلام سأبقى بلا عمل». «لن تقول فى بقية يومك جملة أبلغ من هذه». «الوداع، سيدى العمدة». «أقول لك للمرة الأخيرة، أنا لست عمدة». مقدمة المظاهرة دارت ربع دائرة حول نفسها، والآن تصعد طريق صاعد صوب شارع طويل وعريض فى آخره يتخذون الطريق الأيمن، ليتلقوا فى وجوههم، بداية من هذا المكان، نسمة هواء رطبة قادمة من النهر. كان قصر الرئاسة على بعد اثنين كيلومترا، وكان الطريق ممهدا. تلقّى المحررون أوامر بترك المظاهرة والجرى واتخاذ موضعهم أمام القصر، لكن الفكرة العامة، سواء فى صالات التحرير الرئيسية، أو بين المهنيين بالشارع ، من وجهة نظر الاهتمام الإعلامى، كانت تغطية المظاهرة الآن مضيعة للوقت وللمال، أو، مستخدمين تعبيرا أشد قوة، ضربة شديدة فى خصيتى الإعلام ، أو، بتعبير آخر لكنه أرق وأنعم، عدم احترام غير جدير بالتعب. هؤلاء البشر لا يصلحون حتى للمظاهرات - كان يقال - فأقصي ما يفعلون أن يلقوا حجرًا، أن يحرقوا صورة الرئيس، أن يكسروا زجاج النوافذ، أن ينشدوا نشيدًا ثوريًا من تلك الأناشيد التى كانت تنشد قديمًا، أن يفعلوا أى شىء

يظهر للعالم أنهم ليسوا أمواتًا مثل هؤلاء الذين قد دفنوهم فى التو. لم تمنحهم المظاهرة الآمال. وصل الأفراد إلى الميدان وشغلوه، وظلوا نصف ساعة يتأملون فى صمت القصر المغلق، بعدها تفرّقوا، بعضهم سار مشيا على قدميه، البعض الآخر فى الأوتوبيسات، والبعض الثالث تقاسم السيارات مع متضامنين لا يعرفونهم، وذهبوا جميعا لبيوتهم.

ما لم تستطع القنبلة أن تفعله فعلته المظاهرة السلمية. خائفون، قلقون، اجتمع الناخبون الدائمون لحزبى اليمين والوسط فى مجالس العائلة التى تخصهم وقرروا، كل منهم فى حصنه، لكنهم أجمعوا على المداولة، ترك المدينة. كانوا يعتبرون أن الوضع الجديد الذى فرض، والذى قد يؤدى غدا لتفجير قنبلة جديدة ضدهم،والذى كانت نتيجته أن استولى الرعاع على الشارع بلا عقاب، لابد أنه سيسوق الحكومة بالقوة لمراجعة موقفها الصارم فى فرض حالة الحصار، ومراجعة الظلم خاصة الذى يعنى التعميم فى نفس العقاب، بدون تمييز، بين عشاق السلام الراسخين ومشعلى شرارة الفتنة المعلنين. وحتى لا يلقوا بأنفسهم فى التهلكة ببصر مغمض، قام بعضهم، وهم من لهم علاقات بمحيط السلطة، بمحاولة جس النبض عن طريق التليفون لمعرفة استعدادات الحكومة فيما يتعلق بإمكانيات إعطاء التصريح، الصريح و الضمنى، الذى يسمح بالدخول للأرض الخالية من قبل هؤلاء الذين، بأسباب رحبة،

يبدأون فى تسمية أنفسهم بالمحبوسين فى بلدهم. كانت الإجابة التى تلقوها، فى أعمّها، غامضة وفى بعض الأحوال متناقضة، بالرغم من أنها كانت لا تسمح بالوصول لنتائج مؤكدة حول حماس الحكومة حول القضية، لكنها كانت كافية لاعتبار إمكانية نجاح الحيلة كافتراض صالح، حيث كانت تتأمل ظروف ما وتتعهد بتعويضات مادية، بالرغم من أن هذا النجاح نسبىّ، إلا أنه على الأقل معقول، حتى ولو لم يستوعب جميع المطالبين، وهذا يعنى أنه كان يستطيع أن يغذى بعض الأمل. وخلال أسبوع، فى سرية تامة، قامت اللجنة المنظمة للقوافل المستقبلية بالسيارات، المشكّلة بنفس العدد من الأعضاء من مختلف الدرجات لكلا الحزبين وبحضور مستشارين ملحقين من المعاهد الأخلاقية و الدينية المختلفة بالمدينة، بمناقشة والموافقة على خطة جسورة للعمل، فى ذكرى نزوح العشرة آلاف الشهير، وأطلقوا عليها، بناء على اقتراح تقدم به عالم بالدراسات اليونانية ينتسب لحزب الوسط، إسم جينوفونتى. وبعد ثلاثة أيام، لا أكثر، أعطوا للعائلات المختارة للنزوح ، ليقرروا، قلمًا فى اليد ودمعة فى العين، ليكتبوا ما يجب عليهم أن يحملوه معهم وما يجب أن يتركوه. ولأن الكائن البشرى كما نعرفه دائمًا لا يتغير، لم تنقصهم رغباتهم الأنانية، شرودهم المتصنع، الاستدعاء الماكر للمشاعر السهلة، المناورات السحرية الخدّاعة، لكننا رأينا أيضًا حالات التفانى المثيرة للإعجاب، حالات مازالت تسمح

لنا أن نفكر أننا لو واظبنا على هذا السلوك وإيماءات التفانى تلك، سنؤدى بزيادة جزئنا فى المشروع الهائل للخلق. كان النزوح المحدد وقت فجر اليوم الرابع، وحدث فى ليلة ممطرة، لكن ذلك لم يكن معوقًا، بل على العكس تمامًا، لقد أعطى للنزوح الجماعى لمسة بطولية ليذكروها وينقشوها فى الحوليات العائلية، كبرهان واضح على أنه لن تضيع كل فضائل السلالة. فلا يتساوى شخص يسافر فى سيارة، بطمأنينة، فى حالة طقسية معتدلة، بمن يسير حاملاً ماسحات حاجز الريح عاملا كالمجانين ليتجنب ستائر المياه الهائلة التى تتساقط عليه من السماء. هناك مسألة عويصة، قد تكون اللجنة قد درستها بدقة، وهى التى وضعت على المائدة مشكلة كيف سيكون رد فعل المدافعين عن اللون الأبيض من الهروب الجماعى، رد فعل هؤلاء الذين يسمونهم بسوقية الأبيضيين. من المهم أن نضع فى اعتبارنا أن كثيرًا من تلك العائلات القلقة يعيشون فى مبان يعيش فيها أيضًا سكان من الاتجاه السياسى الآخر، الذين يستطيعون بشكل محزن القيام بعمل انتقامى، أقول ذلك حتى أستخدم تعبيرًا رقيقًا، يؤدى هذا العمل لصعوبة خروج النازحين، أو بتعبير أشد، يمنعونهم من الخروج كلية. سيثقبون إطارات السيارات، قال أحدهم. سيرفعون المتاريس فى بساط السلم، قال آخر. سيوقفون المصاعد، قال ثالث. سيدخلون السيليكون فى كوالين السيارات، شدد الأول. سيحطمون زجاج السيارات،

تخييل الثانى. سيعتدون علينا عندما تطأ قدمنا أرض الشارع، حذر الثانى. سيحتجزون جدنا كرهينة، تنهد أخر كما لو كان يتمنى ذلك بلا وعى. استمر النقاش، ومع الوقت كان يشتعل، حتى ذكر أحدهم أن سلوك آلاف الأفراد خلال الوقت الطويل للمظاهرة، من وجهة نظر الجميع، كان سلوكًا سلميًا. أنا أعتقد أنه كان مثاليًا، وبالتالى لا يبدو لى أن هناك أسبابًا لنرتاب الأن فى أنهم سيغيّرون سلوكهم. فى النهاية أنا مقتنع أنهم سيرتاحون عندما يتحررون منا. كل هذا جميل - تدخل رجل شكّاك - الناس رائعون، ممتازون فى رصانتهم ووطنيتهم، لكن هناك شيئًا ننساه للأسف. ماهو. موضوع القنبلة. كما ذكرنا فى الصفحة السابقة، هذه اللجنة، لجنة الإنقاذ العام، كما خطر ببال أحد تسميتها هكذا، اسم مدحض فى الحال لأسباب أيديولوجية مبررة، كانت ممثَلة بشكل واسع، وهو ما يعنى أنها فى هذه المناسبة كان يوجد أربعة وعشرون شخصًا جالسًا حول مائدة. وكانت حيرتهم جديرة بالمشاهدة. كل الحضور الآخرين كانوا مطرقين، وبعد نظرة زاجرة خضع للصمت، خلال بقية الاجتماع، هذا المتهور الذى لم يكن يعرف مبدئا أساسيًا فى سلوك المجتمع، هذا المبدأ الذى يقول إنه لا يصح الحديث عن الحبل فى بيت رجل حكم عليه بالإعدام. كان للحادث المحرج فضيلة، جعل كل الناس تتفق على أن الفرضية التفاؤلية قد تمت صياغتها. والأحداث التالية تؤكد ذلك. فى الساعة الثالثة من

فجر اليوم المحدد، كما فعلت الحكومة من قبل، بدأت العائلات فى الخروج من بيوتها بحقائبها الكبيرة والصغيرة، بأكياسها وحزمها، بقططها وكلابها، ببعض السلاحف شبه النائمة، وبعض الأسماك اليابانية بحوضها، ببعض أقفاص الببغاء، وبعض آخر فى مشجبه. لكن أبواب الجيران الآخرين لم تفتح، لم يطل أحد منهم على السلم ليستمتع بمنظر الهروب، لم يطلق أحد النكات، ولا السباب. وإن لم يكن أحد قد أطل من النوافذ ليشاهد القوافل المتفرّقة، فلم يكن ذلك بسبب المطر. بشكل طبيعى، لو تخيلتم الضجيج بهذه الصورة : الخروج للسلم ساحبين كل هذه الحبال، أزيز المصاعد صعودًا وهبوطًا، التوصيات، الإنذارات المفاجئة، خذ بالك من البيانو، خذ بالك من براد الشاى، خذ بالك من أوانى المائدة الفضية، انتبه للصورة، خذ بيد جدك، لابد أننا، بشكل طبيعى، سنقول إن الجيران قد أفاقوا من نومهم، مع ذلك لم ينهض أحد من سريره ليسترق البصر من العين السحرية ، فقط كان بعضهم يقول إلى بعض وهم فى أسرّتهم يغطيهم الدفء: إنهم راحلون.

رجع أغلبهم. وكما حدث عندما قال منذ أيام وزير الداخلية لرئيس الحكومة عندما وجد نفسه مضطرًا لشرح أسباب اختلاف القوة بين القنبلة التى أمر بوضعها والقنبلة التى بشكل فعّال قد انفجرت، فقد تحقق أيضًا فى حالة النزوح هذه وجود خطأ جسيم فى سلسلة نقل الأوامر. وكما أثبتت لنا التجربة التى لا تكّل من تقديم البرهان بعد إجراء اختبار معتدل للأحوال وما يتعلق بها من ظروف، فمن المعتاد أن لكل ضحية نصيبها من المسئولية عن المصائب التى تقع فوق رأسها. وصار المكلفون البارزون باللجنة مشغولين بالمفاوضات السياسية، التى لم تعقد أى منها، كما سيبرهن على ذلك سريعًا، على المستوى المناسب لتحقيق خطة جينوفونتى، فنتج عن ذلك أن نسوا، أو لم يخطر ببالهم، التحقق من أن الجبهة العسكرية على الحدود على دراية بالنزوح، والأهم من ذلك أنهم لم يتحققوا من التسويات الضرورية. بعض العائلات، لم يبلغ عددهم نصف دستة، استطاعوا العبور من إحدى الخطوط الحدودية، وقد حدث ذلك فقط لأن الضابط الشاب الذى قابلهم وسمح لهم بالعبور ترك نفسه يقتنع ليس فقط بإعلانهم المتكرّر

لإخلاصهم للنظام ونقائهم الأيديولوجى، وإنما أيضًا بسبب تأكيدهم الملّح فى أن الحكومة على دراية بالانسحاب وموافقة عليه. ومع ذلك، وليخرج من الحيرة التى هاجمته فجأة، هاتف اثنين من المركزين القريبين، وتحدث مع زميلين أسديا إليه معروفًا عندما ذكّراه أن الأوامر التى تلقاها الجيش، منذ بداية الحصار، كانت تقول بعدم السماح بمرور أى روح حيّة، حتى ولو كان السبب إنقاذ رقبة الأب من المشنقة أو حضور ولادة الابن فى البيت الواقع بالحقل. مغمومًا بالقرار الخاطئ الذى اتخذه، والذى بالتأكيد سيتم اعتباره كمخالفة ظاهرة وربما بسبق الإصرار والترصد للأوامر المتلقاه، وربما يمثل أمام مجلس الحرب ويتم فصله من الخدمة، صاح الضابط ليغلقوا الحواجز فى الحال، محاصرًا هكذا قوافل السيارات والميكروباصات المحمّلة على آخرها والممتدة على طول الطريق. مازالت الأمطار تتساقط. العذر الذى قد يقال إن أعضاء اللجنة، فجأة مدركين مسئولياتهم، لم يقفوا مكتوفى الأيدى، فى انتظار أن ينفتح لهم البحر الأحمر على مصراعيه. بدأت التليفونات المحمولة تدق لإيقاظ كل الأشخاص المؤثرين الذين، طبقًا للأخبار، أمكن إخراجهم من سباتهم بدون أن يكون رد فعلهم شديد العنف، وكان من الممكن أن تُحل المشكلة العويصة للنازحين الحزناء بأفضل طريقة لولا عناد وزير الدفاع الشرس الذى قرر ببساطة كبح النزوح بجفاء: لا يعبر أحد بدون أمر منى، قال. وكما يستنبط

مما قد قيل، فقد نسيت اللجنة إعلامه. ربما يقال إن وزير الدفاع ليس كل شيء، ففوقه رئيس الحكومة الذى على المذكور احترامه وتوقيره، وفوق الأول والثانى نجد رئيس الدولة الذى يجب عليهما احترامه وتوقيره إن لم يكن بنفس القدر فبقدر أعلى، مع أن الحق يقال، أغلب الشئون التى تتعلق بالرئيس هى فقط الشئون الخارجية. وبالرغم من كل ذلك، وبعد معركة حوارية قاسية بين رئيس الحكومة ووزير الدفاع، حيث كانت الأسباب تتحرّك من جانب لآخر كالنار العابرة، انتهى الوزير ضاحكًا. كان معارضًا، نعم، سيئ المزاج، نعم، لكنه تنازل فى نهاية المطاف. وكما هو منطقى سترغب فى معرفة البرهان القاطع، الذى لا يرد عليه، الذى استخدمه رئيس الوزراء ليخضع لطاعته مخاطبه العنيد. كان برهانًا بسيطًا ومباشرًا. عزيزى الوزير، قال، «دع رأسك تعمل، تخيّل العواقب غدًا إن أغلقنا اليوم الأبواب فى وجه أفراد قد أدلوا بأصواتهم لصالحنا». «إن ما أذكره هو أن الأمر الصادر عن مجلس الوزراء كان عدم السماح بالعبور لأحد». «أهنئك على ذاكرتك القوية، لكن الأوامر، من حين لآخر، يجب أن نجعلها مرنة، خاصة إذا كان فى مرونتها خير، وهو ما يحدث الآن». «لا أفهم». «سأوضح لك، غدًا بعد حل هذه الأزمة، وسحق الفتنة وهدوء الأنفس، ستدعوا لانتخابات جديدة، أليس كذلك». «بالطبع». «أتعتقد أننا من الممكن أن نتيقن أن الأفراد الذين قد ردعناهم سيصوتون لنا من

جديد». «أغلب الظن ألا يصوتوا لنا». «لكننا فى حاجة لهذه الأصوات، تذكر أن حزب الوسط يعقب آثارنا». «أفهم». «إذا، إعط أوامرك، من فضلك، ليتركوا الناس تعبر». «أمرك سيدى». وضع رئيس الوزراء السماعة، نظر فى الساعة وقال لزوجته : يبدو أن فى إمكانى أن أنام ساعة ونصف أو ساعتين. وأضاف : يبدو لى أن هذا الرجل يجب أن يرحل فى التعديل الوزارى القادم. «لابد ألا تسمح لهم بأن يقلوا أدبهم عليك»، قالت له زوجته العزيزة. «لا أحد يقل أدبه علىّ، حبيبتى، هم فقط يسيئون استغلال سماحتى، هذا هو الأمر برمته». «لا فرق بين قولى وقولك»، أنهت هى، وأطفأت النور. دق التليفون من جديد قبل أن تمر خمس دقائق. كان وزير الدفاع مرة أخرى. «معذرة، لم أرغب أن أعكر صفو راحتك، لكن لسوء الحظ ليس أمامى حل آخر». «ماذا حدث». «هناك جزئية مهمة لم نلحظها من قبل». «ماهذه الجزئية»، سأل رئيس الوزراء، بدون أن يدارى إطلالة الضيق التى سببها حديث الوزير بصيغة الجمع. «إنها جزئية بسيطة جدًا ومهمة جدا». «أكمل حديثك، ولا تضيع وقتى». «أسأل نفسى هل نحن على يقين أن كل من يريدون الخروج ينتمون لحزبنا، أسأل نفسى هل يكفى أن يؤكدوا لنا أنهم قد أدلوا بأصواتهم فى الانتخابات، أسأل نفسى ألا توجد بين مئات العربات المحجوزة فى الطرق عناصر من عملاء الفتنة المعدين لنشر الوباء الأبيض للجزء الذى لم يصبه الوباء بعد فى باقى البلد». شعر رئيس

الوزراء أن قلبه انقبض عندما انتبه أنه قد تفاجأ بالخطأ. «إنه احتمال وارد»، همس. «من أجل هذا عاودت الاتصال بك»، قال وزير الدفاع ضاربًا بعصاه مرة أخرى. الصمت الذى ساد بعد هذه الكلمات برهن مرة أخرى أن الوقت لا علاقة له بما تقوله الساعات، هذه الآلات المصنعة من حلقات لا تفكّر وعقارب لا تشعر، والمزودة بروح قد تسمح لها أن تتخيل أن خمس ثوان مقطعة بلا مغذى، الأولى، الثانية، الثالثة، الرابعة، الخامسة، كانت عذابًا مميتًا من جانب وماءً راكدًا يسبب المتعة الجمّة من جانب آخر. بكم البيجامة المخططة، جفف رئيس الوزراء عرقه المتصبب من جبهته، بعدها، منتقيًا بحذر كلماته، قال: «بالفعل، الأمر يتطلب تناول من جهة مختلفة، تقييم متعقل للمشكلة من جذرها، فالإنقاص من أهمية بعض المظاهر يعد خطأ». «هذا رأيى أيضًا». «كيف تسير الأمور فى هذه اللحظة»، سأل رئيس الوزراء. «توتر على أشده من كلا الجانبين، كان ضروريًا فى بعض الأماكن إطلاق النار فى الهواء». «ألديك أى اقتراح تقدمه لى كوزير للدفاع». «فى ظروف المناورة الأفضل من تلك الظروف كنت سآمرهم بالهجوم، لكن مع كل السيارات التى تملأ الشوارع يكون الهجوم مستحيلاً». «كيف كنت ستهاجم». «على سبيل المثال، كنت سأجعل الدبابات تتقدم». «رائع». «وعندما تلمس مقدمة الدبابة السيارة الأولى». «أنا أعرف أنه ليس للدبابة مقدمة». «إنه تعبير». «فبرأيك، ماذا تعتقد أن

يحدث». «الشىء الطبيعى أن يسود الخوف فى قلوب الأفراد عندما يرون الدبابة تتقدم ناحيتهم». «لكن، طبقًا لما سمعته من فيك، الشوارع ممتلئة». «نعم سيادتك». «إذا فلن يكون من السهل على السيارة الأولى أن تعود للخلف». «لا سيادتك، سيكون غاية فى الصعوبة، لكن بطريقة أو بأخرى، لو منعناهم من الدخول، ستتراجع السيارات». «سيتراجعون دون الدخول فى وضع غاضب سيسببه تقدم الدبابات بمدافعها». «نعم سيدى». «الخلاصة أنك ليس لديك فكرة لحل المشكلة»، أكد رئيس الحكومة، واثقًا من أنه استرد زمام الأمر والمبادرة. «يؤسفنى أن أعترف لك بذلك، سيادة رئيس الوزراء». «على أية حال، أشكرك على أنك لفتَ نظرى لأمر فى المشكلة لم أكن قد انتبهت له». «جلّ من لا يسهو». «حقًا، قد يسهو الجميع، لكن لا يجب أن يحدث هذا لى». «لديك الكثير من المشاكل تشغل بالك». «والآن زادت مشكلاتى مشكلة، علىّ حلها لأن وزير الدفاع لا يجد لها حلا». «إذًا قد فهمت الأمر كذلك، فأنا تحت أمرك». «لا أعتقد أنك سمعت ما تفوهت به، ولا أعتقد أنك تريد أن تسمعه». «أمرك سيادة رئيس الوزراء». جاءت لحظة صمت أخرى، لكنها أقل من سابقتها، استمرت ثلاث ثوان فقط، خلالها المتعة الجمّة والعذاب المميت أدركا أنهما قد تبادلا المكان. رن تليفون آخر فى غرفة النوم. ردت المرأة، سألت من يتحدّث، بعدها همست لزوجها فى نفس الوقت الذى

وضعت فيه يدها على ميكروفون السماعة، «إنه وزير الداخلية». قام رئيس الوزراء بإيماءة معناها فلينتظر. وأمر وزير الدفاع: «لا أريد طلقات أخرى فى الهواء، أريد وضعًا مستقرًا حتى نتخذ الإجراءات اللازمة، أخبر السيارات الأولى أن الحكومة مجتمعة لدراسة الوضع، وفى وقت قليل ستقدم الاقتراحات والتعليمات، أن كل شىء سيحل لمصلحة الوطن والأمن القومى، وأكّد على تلك الكلمات». «اسمح لى أن أذكرك، سيادة رئيس الوزراء، أن عدد السيارات يصل للمئات». «وماذا». «إننا لا نستطيع أن نحمل هذه الرسالة للجميع». «لا تشغل بالك، لوعرفها الأوائل سيتكلفون بتوصيلها للأواخر، فالأمر ينتشر كالنار فى الهشيم». «أمر سيادتك». «أعلمنى بكل جديد». «أمر سيادتك». المحادثة التالية، مع وزير الداخلية، ستكون مختلفة. «لا تهدر الوقت فى حكاية ما حدث، فأنا أعرفه». «ربما لم يخبروك أن الجيش أطلق النار». «لن يعودوا لإطلاقه. آه. من الضرورى الان أن تعود الناس للخلف». «وإن لم يحقق الجيش فعل ما تريد». «إن لم يحقق أو لم يستطع تحقيق ذلك فإنا لا نريد أن يعطى وزير الدفاع أوامره بتقدم الدبابات». «بالطبع لن تتقدم، سيادة رئيس الحكومة». «بداية من هذه اللحظة، المسئولية تقع على عاتقك». «ليس هذا من عمل الشرطة، كما أنه ليس لى سلطان على الجيش». «أنا لم أفكر فى رجالك الشرطيين ولا فى تعيينك رئيسًا أعلى لأركان الحرب». «أخشى ألا افهمك،

سيادة الرئيس». «استدع أفضل كاتب لخطبك من سريره، واجعله يعمل تحت إشرافك، وخلال ذلك أخبر وسائل الإعلام أن وزير الداخلية سيتحدث للراديو فى الساعة السادسة، أما التليفزيون والصحافة فسيأتيان فى المرحلة التالية، فأهم وسيلة فى هذه الحالة هى الراديو». «الساعة الآن اقتربت على الخامسة، سيادة الرئيس». «لست فى حاجة لتخبرنى بذلك، فمعى ساعة». «معذرة، فقط كنت أود أن أظهر لك ضيق الوقت». «إن لم يكن كاتبك قادرًا على كتابة ثلاثين سطرًا فى ربع ساعة، بقواعد لغوية صحيحة أو غير صحيحة، فالأفضل أن تطرده من عمله». «وماذا يجب أن يكتب». «أية قصة لتقنع هؤلاء الناس بالعودة إلى بيوتهم، ليشعل لديهم الحماس الوطنى ؛ فليقل إنها جريمة فى حق الوطن ترك العاصمة مهجورة فى يد الجماعات الثورية ؛ فليقل إن كل الذين أدلوا بأصواتهم للأحزاب التى تشكل النظام السياسى الحالى، بما فيهم حزب الوسط، لأنه لا يمكن عدم الإشارة إليه فهو منافسنا المباشر، يشكلون خط الدفاع الأول للمؤسسة الديمقراطية؛ فليقل إن ديارهم التى تركوها بلا حماية ستقتحمها وتنهبها الجماعات الثورية، وليقل إننا سنهاجم تلك الجماعات إن لزم الأمر». «يمكننا أن نقول إن أى مواطن يقرر العودة لداره، أيًا كان سنه وحالته الإجتماعية، ستعتبره الحكومة داعيًا مخلصًا للشرعية». «لا تقع منى موقعا حسنا كلمة "داعيا"، فهى سوقية جدا وتجارية أيضًا،

كما أن الشرعية كلمة مستهلكة فى الدعاية، نستخدمها كل يوم». إذًا، «فلنقل : مدافعًا، مناديًا، جنديًا شجاعًا». «جنديًا شجاعًا، إنه أفضل تعبير، وكثير الرنين، وحربىّ، أما مدافع فهى كلمة بلا صلابة، وقد تعطى فكرة سلبية، جامدة، أما منادى فهى كلمة تذكرنى بالعصور الوسطى، بينما تبدو كلمة جندى شجاع كلمة مناسبة سريعة الوصول وتشير لحدث حربى، فهو تعبير راسخ فى التقليد». «أتمنى أن تنصت ناس الطريق للرسالة». «صديقى العزيز، يبدو أن استيقاظك فى تلك الساعة المبكرة قد شوش على قدرتك الفهمية، أنا أراهن بمركزى كرئيس وزراء أن كل راديوهات السيارات مفتوحة فى تلك اللحظة، إن أهم شىء هو إعلان خبر البيان فى البلد بأسرها وإعادة الخبر كل دقيقة». «أخشى، سيادة رئيس الوزراء، ألا تكون الحالة النفسية للأفراد ميّالة للاقتناع، فلو أعلمناهم أن الحكومة ستلقى بيانًا، فإنه من المؤكد أنهم سيعتقدون أننا سنسمح لهم بالعبور، وقد تكون عواقب خيبة أملهم خطيرة». «الأمر فى غاية البساطة، على كاتب خطبتك أن يحلل لقمة عيشه ويحلل كل ما يتقاضاه عن عمله، وذلك باستخدام اللغة و البلاغة». «إن سمحت لى حضرتك باقتراح فكرة خطرت الآن ببالى». «اقترح، لكننى اذكرك أننا نهدر الوقت، فقد صارت الساعة الخامسة وخمس دقائق». «سيكون للبيان قوة فى الإقناع لو ألقاه رئيس الوزراء بنفسه». «ليس لدىّ شك فى ذلك». «إذًا،

فلم لا». «لأننى أدخّر نفسى لظرف آخر، ظرف يناسب منصبى». «أه، حقًا، أعتقد أننى فهمت». «أنظر، إنها قضية حس مشترك، أو، بكلمة أخرى، تدريج وظيفى، هذا بالإضافة إلى أنها ستكون مهانة فى حق الكرامة العليا للأمة أن يخرج رئيس الوزراء ليطلب من بعض السائقين إخلاء الطرق، كما أنه على رئيس الحكومة أن يكون منزهًا عن كل أمر قد يقلل من شأنه كرئيس للحكومة». «أنا أرى ذلك. حمدًا لله أنك قد استيقظت كلية». «نعم سيادة رئيس الوزراء». الآن إلى العمل، أريد أن تكون الطرق خالية على الساعة الثامنة على الأكثر، وأن يخرج التليفزيون بكل وسائله الأرضية والهوائية، أريد أن يرى البلد بأكمله الريبورتاج. «أمرك سيدى، سأفعل كل ما بوسعى». «لا تفعل كل ما بوسعك، افعل اللازم الذى سيؤدى للنتائج التى طالبتك بها فى التوّ». لم يجد وزير الداخلية وقتًا للرد، فقد أغلقت السماعة فى وجهه. «أحب أن أسمعك تتحدث هكذا»، «قالت زوجته». «أتحدث هكذا عندما يضايقوننى». «وماذا ستفعل لو لم يستطع حل المشكلة». «سيرحل». «مثل وزير الدفاع». «بالضبط». «لا يمكن أن تطرد الوزراء كما تطرد خادمات المنازل». «بل هم خادمات منازل». «نعم، لكن لن تجد أمامك سوى البحث عن أخريات». «هذه مسألة تحتاج إلى التفكير المتروى». «التفكير فى ماذا». «أفضّل ألا أتحدث عن ذلك الآن». «أنا زوجتك، لا أحد يسمعنا، أسرارك هى أسرارى». «أريد أن أقول، واضعًا فى اعتبارى خطورة الوضع، إنه قد لا

يفاجأ أحد عندما أقرر تولى منصب وزير الداخلية والدفاع، وبهذه الطريقة سينعكس وضع الطوارئ القومى على تركيبة وعمل الحكومة، بمعنى أنه من أجل تحقيق تنسيق تام ومركزية تامة، ستكون هذه الطريقة هى كلمة السر». «لكن ذلك مجازفة رهيبة، فإما أن تربح كل شىء وإما أن تخسر كل شىء.» «نعم، لكن فى حالة الانتصار على الأفعال الثورية التى لم نجد لها مثيلاً فى أى زمان ومكان، هذه الأفعال الثورية التى بلغت كلية أكثر الأعضاء حساسية بالنظام، عضو التمثيل المدنى، حينها سيحفظ التاريخ اسمى فى مكان لا يمكن أن يمحى، فى مكان منفرد، كمنقذ للديمقراطية». «وأنا سأكون أكثر الزوجات فخرًا»، همست الزوجة، دانية منه كالثعبان كما لو قد لستها فجأة عصا الشهوة السحرية الفريدة، بلمسة خليط من الرغبة الجسدية والحماس السياسى، لكن الزوج، مدركا لخطورة الساعة، اقتبس كلمات الشاعر: لماذا تركعين أمامى/ فوق حذائى الخشن ؟ / لماذا الآن تفكين شعرك المعطّر/وتفتحين ذراعيك الناعمين غدرا ؟/ فأنا لست إلا رجلاً بيد خشنة/ وقلب ينظر لجانب واحد/ وإن لزم الأمر/ سيخطو فوقك ليعبر/ سيخطو فوقك. «أنت تعرفين هذه الأبيات جيدًا»، أبعد بجفاء ملابسه فى جانب من السرير وقال: «سأتابع تطور الأحداث من مكتبى، نامى أنتِ، واستريحى». عبرت بذهن الزوجة الفكرة السريعة التى ترى، فى موقف محرج كالموقف الحالى، عندما تساوى المساعدة

الأخلاقية وزنها ذهبًا، أن قانون الواجبات الزوجية الأساسية، المقبول بحرية، يذكر فى فصل المساعدة المتبادلة، أن على الزوجة أن تنهض فورًا وتعد، بيديها، بدون أن تنادى للخدم، كوبًا من الشاى المنعش وتقدمه مع الفطير المغذى، مع ذلك، مع أنها مستيقظة، وشاعرة بخيبة الأمل، بشهوتها الوليدة وشبه المغشى عليها، أدارت وجهها للجانب الآخر وأغمضت عينيها برسوخ، بأمل باهت فى أن النوم قد يستطيع إنقاذ ما تبقى من رغبتها ومعه قد تستطيع تنظيم حلم جنسى خاص بها. بعيدا عن خيبة الأمل التى تركها وراءه، مرتديًا فوق بيجامته المخططة روبًا قصيرًا من الحرير المزين بعناصر غريبة، بهياكل صينية وأفيال مذهبة، دخل رئيس الوزراء مكتبه، أضاء جميع الأنوار، وأشعل بالتوالى جهازى الراديو والتليفزيون. كانت شاشة التليفزيون تعرض رسالة الضبط، فمازال الوقت مبكرًا جدًا على بث الإرسال، لكن فى إذاعات الراديو كان الحديث بحماس عن الازدحام الرهيب بالطرق، وكانت الأراء تدور حول التجمعات الواضحة للنازحين من السجن المشئوم الذى تحولت إليه العاصمة بسبب تفكيرها السيىء، بالرغم من عدم غياب تعليقات حول توقع أن الازدحام المرورى الشديد سيجعل من المحال دخول سيارات النقل الكبيرة التى تنقل المؤن للمدينة كل يوم. لم يكن هؤلاء المعلقون يعلمون أن تلك العربات قد تم حجزها، بأمر عسكرى، على بعد ثلاثة كيلومترات من الحدود. انتقل المحررون بالراديو،

طارحين الأسئلة، على طول صفوف السيارات والميكروباصات بالموتوسيكلات، مؤكدين أنه بالفعل حدث جماعى منظم من الألف للياء، فهناك عائلات بأكملها تجمعت لتهرب من الطغيان، من هذا الجو الخانق الذى فرضته قوات الفتنة على العاصمة. بعض الآباء بالعائلات كانوا يشكون من التأخير، نحن هنا منذ حوالى ثلاث ساعات والصف لم يتحرك ملليمترا واحدًا. بينما كان بعض آخر يشتبه فى حدوث خيانة، لقد أكّدوا لنا أننا نستطيع العبور بلا مشاكل، وهاهى النتيجة الباهرة، الحكومة تخلت عنّا، أخذت إجازة وتركتنا فى فم حيوان مفترس، والآن عندما تتاح لنا الفرصة للخروج، يغلقون الأبواب فى وجوهنا بلا حياء. كانت هناك أزمة أعصاب، أطفال تبكى، عجائز شاحبون بسبب الضيق، رجال متضايقون لنفاد سجائرهم، سيدات منهكات كن يحاولن تنظيم الفوضى العائلية اليائسة. بعض شاغلى السيارات حاولوا الخروج من الصف بنصف لفة ليعودوا للمدينة، لكنهم اضطروا للتراجع أمام وابل الشتائم والإهانات التى جاءتهم من كل حدب وصوب. جبناء، عرّة المدينة، أبيضيون، تيوس، دسساء، أبناء عاهرات، الآن نعرف لماذا جئتم، جئتم لتفسدوا الشرفاء، إن اعتقدتم أننا سنترككم تخرجون، فأنتم مجانين، فلو لزم الأمر سنثقب إطارات سياراتكم، لتتعلموا احترام الأزمات الحادة. دق الهاتف فى مكتب رئيس الحكومة، قد يكون وزير الدفاع، أو الداخلية، أو رئيس الدولة.

كان الرئيس. ماذا يحدث، لماذا لم تخبرنى فى الوقت المناسب بهذه البلبلة الواقعة فى مخارج العاصمة، سأل. سيدى الرئيس، الحكومة تسيطر على الوضع، خلال وقت قصير ستحل المشكلة. نعم، لكن كان لابد أن تعلمنى، فواجبى عليك أن تعلمنى. أعتبرت أنه لا يوجد سبب لأقطع عليك نومك، وأنا اتحمل مسئولية القرار، على أية حال كنت أفكر أن أهاتفك بعد عشرين دقيقة، نصف ساعة، أكرر، أنا أتحمل المسئولية، سيادة الرئيس. حسنًا، حسنًا، أشكرك على نيتك، لكن، لو لم يكن لدى زوجتى العادة الصحية للاستيقاظ المبكر، لكان رئيس الدولة نائما بينما الدولة تحترق. لا تحترق، سيادة الرئيس، لقد تم اتخاذ الإجراءات اللازمة. لا تقل لى أنكم ستقصفون صفوف السيارات . سيادتك تعرفنى جيدا، هذا ليس أسلوبى، سيدى الرئيس. إنه مجرد قول، أنا لم أفكر ابدًا أنك قد ترتكب هذه الوحشية. سريعًا سيذيع الراديو توجه وزير الداخلية للشعب فى السادسة صباحا، هاهو ذا، هاهو ذا، إنهم يذيعون النبأ الأول، وستأتى وراءه الأنباء الأخرى، نحن نمسك بزمام الأمور، سيدى الرئيس. أعترف أنكم فعلتم شيئا. إنه بداية النجاح، سيدى الرئيس، أنا على يقين، برسوخ على يقين، من أننا سنجعل كل هؤلاء البشر يعودون إلى بيوتهم. وإن لم يتحقق ذلك. إن لم يتحقق ذلك، ستقدم الحكومة بكامل هيئتها استقالتها. لا تلعب معى هذه اللعبة، فأنت تعلم كما أعلم أن فى ظروف كالتى تمر بها البلد

لن أستطيع، حتى لو أردت، أن اقبل استقالة الحكومة. أعلم هذا، لكن يجب أن أقول ذلك. جيد، أنا الآن مستيقظ، لا تنس إبلاغى بكل ما يحدث. كان الراديو يردد : نعتذر عن قطع الإرسال مرة أخرى لنخبركم أن وزير الداخلية سيقوم بقراءة بيانه على الشعب في الساعة السادسة، نكرر، سيقوم بقراءة بيانه على الشعب وزير الداخلية فى السادسة، نكرر، سيقوم البيان بقراءة وزير الداخلية على الشعب فى السادسة. لم تمر على رئيس الوزراء العبارة الأخيرة مرور الكرام، وخلال ثوان قليلة، مبتسمًا فى داخله، تخيّل مستمتعا كيف سيقوم البيان بقراءة وزير الداخلية. ربما قد كان يستطيع الوصول لنتيجة مفيدة بشأن المستقبل لو لم تختف فجأة من شاشة جهاز التليفزيون رسالة الضبط لتحل محلها صورة العلم الاعتيادية مرفرفًا فوق ساريته، بكسل، بينما كان النشيد الوطنى يدوى بطبوله ومترزداته، ببعض الترديد الصوتى للبوق فى الوسط وبعض جشاء آلة النفخ. وظهر المذيع بعقدة ربطة عنق معوجة وبوجه عبوس، كما لو كان ضحية لسب فى التو لم يستطع غفرانه ولا نسيانه فى الحال. «واضعين فى الاعتبار خطورة اللحظة السياسية والاجتماعية، قال، ومهتمين بالحق المقدس للدولة فى المعلومة الحرّة والجماعية، نبدأ إرسالنا قبل وقته المعتاد. مثل كثيرين ممن يستمعون إلينا، لقد وصل لعلمنا فى الحال أن وزير الداخلية سيتحدث فى الإذاعة فى الساعة السادسة،

ومن المتوقع أن يعبّر عن موقف الحكومة من محاولة نزوح قطاع كبير من السكان من المدينة. ولا يعتقد التليفزيون أنه كان هدفا لأى تمييز متعمد، نعتقد مع ذلك أنه فقط تضليل لا تفسير له، غير متوقع من شخصيات سياسية خبيرة مثل الذين يشكلون حكومة الأمة الحالية، أدى إلى نسيان هذا التليفزيون. على الأقل نسيانًا ظاهريًا. ربما يمكن تبرير هذا الاختيار بالساعة المبكرة نسبيًا التى فيها سيلقى البيان، لكن العاملين بهذا المكان، خلال تاريخهم الطويل، قد قدّموا البراهين الكافية على تضحيتهم الشخصية وتكريس حياتهم للعمل العام وأقصى درجات الوطنية والآن يقعون فى طى النسيان ليصبحوا فى وضع مخز كإعلاميين من الدرجة الثانية. مازال لدينا الثقة، حتى الساعة المتوقعة لإعلان البيان، أنه أمامنا إمكانية للوصول لنقطة اتفاق تعيد لهذا المكان الجدارة الخاصة التى تنسب إليه، بمعنى جعل هذا المكان الوسيلة الإعلامية الأولى فى الدولة، وذلك بدون أن ننتزع من زملائنا بالراديو العام ما تم منحه لهم. وبينما ننتظر هذا الاتفاق، ونتمنى التزود بمعلومات حوله، نخبركم أن طائرة هليكوبتر خاصة بالتليفزيون قد أقلعت فى هذه اللحظة بالتحديد لنقدم لمشاهدينا الصور الأولى لصفوف السيارات الهائلة التى، عند تحقيق خطة الانسحاب التى أطلقوا عليها، كما علمنا، الاسم التاريخى و التذكارى "جينوفونتى"، تجد، تلك السيارات، نفسها مشلولة الحركة عند الخروج من

العاصمة. ولحسن الطالع، توقفت منذ ساعة الأمطار التى جلدت القوافل المضحية طوال الليل. بعد قليل ستسطع الشمس فى الأفق وتقضى على السحاب الحزين. ياليت ظهورها يتمكن من إزالة الحواجز التى، لأسباب لم نتمكن من فهمها، مازالت تمنع مواطنينا البواسل من بلوغ الحرية. لصالح الوطن، كل شىء يهون». كانت الصور التالية تعرض الهليكوبتر فى الجو، بعدها، من أعلى، تم التقاط مكان الميناء الصغير الذى اقلعت منه، ثم المنظر الأول لأسطح البيوت والشوارع القريبة. حط رئيس الحكومة يده اليمنى فوق الهاتف. لم ينتظر ولا دقيقة واحدة. «سيادة رئيس الوزراء»، بدأ وزير الداخلية. «أعلم، أعلم، لقد إرتكبنا خطأ. هل قولت ارتكبنا. نعم، ارتكبنا، لأنه لو اخطأ أحد والأخر لم يصحح له، فالخطأ ينسب لكليهما». «لست أملك سلطتك ولا مسئوليتك، سيادة رئيس الوزراء». «لكنك ملكت ثقتى». «ماذا تريد سيادتك أن أفعل». «أن تتحدث فى التليفزيون، والراديو يذيع فى نفس الوقت، هكذا نخرج من المأزق». «ونترك بلا رد تبجح الألفاظ والنبرة التى عامل بها سادة التليفزيون الحكومة». «سيلقوا عقابهم فى الوقت المناسب، ليس الآن، وسأتكلف أنا بهم» «رائع». «ألديك البيان». «نعم، أتود أن أقرأه عليك». «الأمر لا يستحق، سأتابعه مباشرة». «يجب أن أذهب الآن، الوقت يسرقنى». «أيعلمون أنك ذاهب»، سأل باستغراب رئيس الوزراء. «لقد كلفت

وكيل مكتبى بالتفاوض معهم». «بدون علمى». «سيادتك تعلم أفضل منى أنه ليس أمامنا حل آخر». «بدون موافقتى»، كرر رئيس الوزراء. «أذكّرك أننى أملك ثقتك، إنها كلماتك، بالإضافة لذلك، لو أخطأ أحدنا فعلى الآخر تصحيح الخطأ، وهنا يصيب كلاهما». «لو لم تحل الأزمة حتى الساعة الثامنة، سأقبل استقالتك فورًا». «أمرك سيادة رئيس الوزراء». كانت الهليكوبتر تطير منخفضة فوق صفوف السيارات، وكان الأفراد فى الطريق يتحدثون بإيماءات أثناء كلامهم، ولابد أنهم كانوا يقولون بعضهم لبعض : إنه التليفزيون، إنه التليفزيون، وإن قام التليفزيون بهذه الجولة فذلك يعنى، بالنسبة للجميع، ضمان أكيد على أن الأزمة ستنفرج. إن وصول التليفزيون يعنى بشرة خير، كانوا يقولون. لكن ذلك لم يكن. فى الساعة السادسة بالضبط، وبوضوح شقشقة الفجر المتورّد فى الأفق، بدأ صوت وزير الداخلية ينطلق فى راديوهات السيارات. «أيها المواطنون الأعزاء، أيها المواطنات العزيزات، إن بلدنا عاش فى الأسابيع الأخيرة أزمة تعد بلا شك أخطر الأزمات التى سجّلها التاريخ منذ مولدها، فلم تكن أبدا فى حاجة ملّحة للدفاع عن تماسكها القومى مهما كلفها الأمر مثل تلك اللحظة الراهنة، فهناك شرذمة من الأقلية مقارنة بسكان البلد، موجهين فى الطريق الخطأ، ومتأثرين بأفكار لا علاقة لها بالعمل الصحيح بالمؤسسات الديمقراطية الفعّالة مع الاحترام الذى يكن لها، ويتصرفون كما

الأعداء اللدودين ضد هذا التماسك، ولهذا انتبهنا أنه يطفو فوق سطح مجتمعنا المسالم تهديد مروع بالحرب الأهلية لايمكن توقع عواقبها على مستقبل الوطن، فكانت الحكومة أول من أدركت عطش الحرية الذى عبّر عنه بطلب النزوح من العاصمة هؤلاء الذين كانوا دائما مواطنين شرفاء، هؤلاء الذين كانوا فى أحلك الظروف، سواء بصوتهم الانتخابى أو بمثاليتهم فى الحياة اليومية، مواطنين حقيقيين ومدافعين نزيهين عن الشرعية، كما أنهم شكّلوا وجددوا الصورة القديمة للجنود الشجعان، فأصرّوا أن يعززوا تقاليدهم فى خدمة الوطن بأن قرّروا بشكل قطعى النزوح من العاصمة، بنبل اخلاق نادر فى زمننا، مبرهنين بذلك على روحهم القتالية الجديرة بكل ثناء وتعترف الحكومة بذلك، إلا أن الحكومة تعتقد، واضعة فى الاعتبار المصلحة العامة فى مجملها، ولافتة انتباه من توجه لهم الحديث، من آلاف الرجال والنساء الذين انتظروا بشوق كلمة من المسئولين عن هذا البلد لتروى ظمأهم، الحكومة تعتقد، أكرّر، أن الحل السليم والمناسب لهذا الوضع الراهن يكمن فى العودة السريعة لهؤلاء الآلاف من الأشخاص إلى حياتهم الطبيعية بالعاصمة، العودة إلى بيوتهم، إلى حصونهم الشرعية، إلى خنادق مقاومتهم، إلى القلاع التى تراقب منها الذكرى الطاهرة للأجداد أعمال الأحفاد، إن الحكومة، أكرّر، تعتقد أن تلك الأسباب، الحقيقية والموضوعية، التى عرضتها عليكم وقلبى فى

يدى، لابد أن يزنها هؤلاء الذين يجلسون الآن داخل السيارات مستمعين لهذا البيان الرسمى، ومن جانب آخر، مع أن الأشياء المادية للوضع أقل جدارة للحديث عنها مقارنة بالأشياء الروحية التى تسيطر عليها، تستغل الحكومة هذه المناسبة لتعلمكم بوجود مخطط لاقتحام وسرقة البيوت المهجورة، وهو مخطط، طبقا لآخر معلوماتنا، قد بدأ الشروع فى تنفيذه، وكما تخبرنا الورقة التى استلمتها فى التوّ، حتى هذه اللحظة، فلنعلم، وصل عدد البيوت المقتحمة والمسروقة لسبعة عشر بيتا، انظروا، أيها المواطنون الأعزاء والمواطنات العزيزات، كيف لا يهدر أعداؤكم وقتهم، فى الساعات القليلة التى مرت على رحيلكم، كسر الهمجيون أبواب بيوتكم، سرق المجرمون المتوحشون ممتلكاتكم، ومازال فى يدنا الحل لتجنب كارثة أكبر، فلتسألوا ضمائركم، فأنتم تعلمون أن حكومة الأمة تقف بجانبكم، والآن عليكم أنتم أن تقرروا هل تقفون بجانب حكومة الأمة أم لا». قبل أن يختفى من الشاشة، كان أمام وزير الداخلية وقت ليوجه نظرة للكاميرا، فوق وجهه ارتسمت الثقة وشىء آخر يشبه التحدى كثيرًا، لكن هذا التحدى كان متوغلا فى أعماق نفسه فلا تتطلع عليه إلا الآلهة فيصعب حينئذ تفسير نظرته الخاطفة، لم يخطىء رئيس الوزراء، فقد اعتقد أن وزير الداخلية يوجه تلك النظرة إليه. حضرتك، يا من تتباهى بخططك الإستراتيجية و التكتيكات، لم تكن لتؤدى هذا الدور

خيرًا منى. وهذه كانت حقيقة، علىّ أن أعترف بذلك، ومع ذلك يجب أن ننتظر النتائج. ظهرت مرة أخرى صورة الهليكوبتر، ومن جديد ظهرت المدينة، ومرة أخرى تظهر صفوف السيارات التى لا نهاية لها. وخلال عشر دقائق لم يتحرك ساكن. كان المعلّق يبذل مافى وسعه ليملأ الوقت، كان يتصور نصائح العائلة داخل السيارات، يمدح بيان الوزير، يوبّخ مقتحمى البيوت، ويطالب ضدهم بإنزال أشد العقوبة، لكن كان واضحا أن القلق يغزوه رويدًا رويدًا، فقد كان جليًا مثل الشمس أن كلمات الحكومة وقعت فى جوال مثقوب، فليست الحكومة وحدها، التى مازالت تنتظر معجزة اللحظة الأخيرة، فلنتجرأ ونقول ذلك، بل إن أى مشاهد متوسط التدريب على فك الشفرات المرئية يستطيع أن يشعر بقلق المحرر المسكين. حينذاك تحقق المرغوب، المعجزة المنتظرة، تحققت بالتحديد عندما طارت الطائرة الهليكوبتر فوق نهاية الصف، لقد بدأت السيارة الأخيرة فى اللف نصف لفة، تلتها السيارة الواقفة أمامها، والواقفة أمامها، والأخرى، والأخرى. حينها أطلق المعلّق صيحة حماس: «أعزائى المشاهدون، نحن الآن أمام لحظة تاريخية، محترمين بانضباط مثالى نداء الحكومة، فى ظاهرة وطنية ستبقى محفورة بحروف من ذهب فى حوليات العاصمة، المواطنون يعودون لبيوتهم، ناهين بأفضل طريقة ما كان من الممكن أن ينفجر بعنف، هكذا قال وزير الداخلية منذرا، عندما تحدث عن عواقب لا

يمكن توقعها على مستقبل وطننا»، بداية من هنا، وخلال عدة دقائق، أصبح الريبورتاج يتخذ نبرة بطولية بشكل حاسم، صانعًا من انسحاب العشرة آلاف المهزومين هؤلاء نصرا لا يضاهى، واضعا خطة wagner محل خطة جينوفونتى، معيدا للآلهة الأوليمبية عبقها وتضحياتها الجليلة و للـ walhalla دخانها الكريه الذى تتقيأه من أنابيب الغاز العادم. كان الشارع يعج بفرق من المحررين، سواء من الصحف أو من الراديو، وكانوا يحاولون جميعا استوقاف السيارات ولو للحظة واحدة ليتلقوا من النازحين، مباشرة، من المصدر الأصلى، تعبيرهم عن مشاعرهم التى شجعتهم على العودة المجبرة لبيوتهم. وكما كان متوقعًا، وجدوا جميع الأحاسيس، شعور بالإخفاق، بالفتور، بالغضب، بالرغبة فى الانتقام، لن نخرج هذه المرة لكن سنخرج المرة القادمة، تأكيدات بناءة على الوطنية، تصريحات مجيدة للولاء الوطنى، فليحيا حزب اليمين، فليحيا حزب الوسط، روائح كريهة، غضب لقضاء ليلة كاملة بلا نوم، إبعد هذه الكاميرا عنى،لا نريد صورًا، اتفاق وعدم اتفاق مع الأسباب التى قدّمتها الحكومة، بعض الارتياب حول الغد، خوف من الانتقام، نقد لضعف إرادة السلطات المخزية، لا توجد سلطات، كان المحرر يذكر. إذا تلك هى المشكلة، عدم وجود سلطات، لكن ما كان يمكن ملاحظته بقوة وجود قلق هائل بشأن الموجودات المتروكة فى البيوت التى كان راكبو السيارات لا يفكرون سوى فى العودة إليها عندما قد

تنتهى ثورة الأبيضيين من سحقها مرة واحدة، فبلا أدنى شك، البيوت التى قد تم اقتحامها الآن لم تكن سبعة عشر بيتا، فمن يدرى كم بيت نهبوه حتى آخر سجادة فيه، حتى أخر دورق. الهليكوبتر تظهر الأن من أعلى، كيف أن صفوف السيارات و الميكروباصات، التى كانت من قبل الأخيرة والآن صارت الأولى، تمضى متفرعة بحسب دخولها فى الأحياء القريبة بالمركز، كيف كان بداية من لحظة معينة من المستحيل التمييز فى المرور بين السيارات القادمة والسيارات التى كانت موجودة من قبل. هاتف رئيس الوزراء رئيس الدولة، كانت المحادثة سريعة، شبه تهنئة. هؤلاء البشر لا يجرى فى عروقهم سوى الماء، سمح الرئيس لنفسه بالاستخفاف بهم، فلو كنت أنا فى واحدة من تلك السيارات، أقسم لك أننى كنت سأكسر الحواجز وأتقدم. الحمد لك أنك الرئيس، والحمد لله أنك لم تكن هناك، قال رئيس الوزراء مبتسما. نعم، لكن لو عادت الأمور وتعقدت، فيجب أن تنفذوا فكرتى. لا أعرف إلى الآن فكرة سيادتك. فى يوم ما سأخبرك بها. وكلى آذان صاغية، وبالمناسبة، سأدعو اليوم مجلس الوزراء لمناقشة الوضع الراهن، سيكون من المفيد جدًا وجود سيادتك معنا إن لم يكن لدى سيادتك التزام آخر أكثر أهمية تود الوفاء به. إنها مسألة تنظيم وقت، فلدى اليوم التزام بقص شريط لا أعرف أين. رائع، سيادة الرئيس، سأخبر مدير مكتبك. فكّر رئيس الوزراء أنها ساعة مناسبة لقول

كلمة ليّنة لوزير الداخلية، مهنئا إياه بفاعلية البيان، ياللعجب، فعدم استخفاف دمه ليس سببًا لعدم الاعتراف بأنه كان جديرا بحل الأزمة هذه المرة. كانت يده فوق سماعة الهاتف عندما سمع اضطراب فى صوت المعلق التليفزيونى جعله ينظر للشاشة. هبطت الهليكوبتر فى مستوى أسطح البيوت تقريبًا، كانوا يشاهدون بوضوح أشخاصًا يخرجون من بعض البيوت، رجالاً ونساء كانوا يقفون على الأرصفة، كما لو كانوا فى انتظار أحد. لقد وصلنا فى التو، قال المعلّق منذرا، هناك خبر يقول إن الصور التى كان مشاهدونا يرونها، أشخاصًا يخرجون من بيوتهم وينتظرون على الأرصفة، لصور منتشرة فى المدينة بأسرها فى هذه اللحظة، لا نريد أن نتوقع السيئ، لكن كل المؤشرات تؤكد أن ساكنى هذه البيوت، وهم الثوريون بلا شك، يستعدون لمنع النازحين من دخول المدينة، هؤلاء النازحون الذين كانوا جيرانهم حتى الأمس والذين قد انتهوا، فى أغلب الظن، من نهب بيوتهم حالا، ولو كان الأمر كذلك، بالرغم أنه من المؤلم أن نتفوه بما سنتفوه به، إلا أنه لا بد من قول إنه من الواجب تصفية الحسابات مع الحكومة التى أمرت بانسحاب جهاز الشرطة من العاصمة، وبروح قلقة نتساءل كيف يمكن تجنب، إن كان هذا مازال ممكنا، حقن الدماء فى المواجهة التى أوشكت على الوقوع، سيدى رئيس الدولة، سيدى رئيس الحكومة، قولا لنا أين جهاز الشرطة ليدافع عن أرواح الأبرياء من

المعاملة الوحشية التى سيلقونها من أخرين يستعدون لإلحاق الضرر بهم، إلهى، إلهى، ماذا سيحدث. كان المعلّق يتحدث شبه منهنها. توقفت الهليكوبتر، وكان يمكن مشاهدة كل ما يحدث فى الشارع. توقفت سياراتان أمام البيت. فتحت الأبواب، نزل الركاب. تقدّم الأفراد الذين كانوا يقفون على الرصيف. لقد حانت الساعة، لقد حانت الساعة، فلنستعد للأسوأ، جأر المعلق، بصوت أجش من الإثارة، حينها تبادل هؤلاء الأفراد بعض الكلمات التى لم يمكن سماعها، وبدون أن يفعلوا شيئًا آخر، بدأوا فى مساعدة العائدين فى تفريغ السيارتين ونقل محتواهما إلى البيت، فى وضح النهار، تلك المحتويات التى خرجت فى سواد الليل وتحت المطر. اللعنة، صاح رئيس الوزراء، وسدد لكمة إلى الترابيزة.

فى كلمات قليلة، كانت صيغة النداء اللعينة، بالقوة التعبيرية التى تناسب الخطاب التام لحالة الأمة، تلخّص وتركّز عمق خيبة الأمل التى كسرت مجاديف الحكومة، وخاصة الوزراء الذين، بطبيعة وظيفتهم، كانوا أكثر ارتباطًا بالمراحل المختلفة للعملية السياسية القمعية ضد الفتنة، نقصد بالتحديد وزيرى الدفاع والداخلية اللذين شاهدا، بطريقة أو بأخرى، إنطفاء وميض الخدمات الجليلة التى قام بها كل منهما على حدة ومن موقعه خلال فترة الأزمة. طوال اليوم، وحتى عقد اجتماع مجلس الوزراء، بل وحتى أثناء انعقاده، كانت الكلمة القذرة: خراء خراء، ممضوغة فى صمت فى تفكير كل الحضور، بل وصلت للتفوه بها، بدون شهود، بصوت عال أو بهمس كنوع من الفضفضة التى لا يمكن كظمها. لم يخطر ببال أحد، لا وزير الدفاع ولا الداخلية، ولا حتى رئيس الوزراء، وهو أمر لا يغتفر، أن يتدبر مليًا، ولا حتى بالمفهوم الأكاديمى الصارم والمنصف، ما يمكن أن يحدث للذين لن يستطيعوا الهروب عند عودتهم لبيوتهم من مضايقات قد يتعرضون لها، وأغلب الظن أنهم مالوا للنبوءة الفظيعة التى أدلى بها المحرر من الهليكوبتر، والتى نسينا تسجيلها، كان يقول وهو على

وشك البكاء: يالهم من مساكين، أراهن أنهم سيؤكلون أكلا. فى النهاية، لم يجر هذا الحدث العجيب فى هذا المبنى وهذا الشارع فقط، بل فى تحدٍ ظاهر لكل الأمثلة التاريخية النبيلة لحب الغير، هبطَ الأبيضيون المفترى عليهم والملعونون لمساعدة المهزومين من الحزب المضاد، ولقد قرّر كل واحد منهم تقديم تلك المساعدة من تلقاء نفسه، بدون دعوة من أحد ولا تحت أى شعار يذكر، فالحق أنهم نزلوا من بيوتهم لتقديم المساعدات التى بوسعهم، وكانوا هم من قالوا هذه المرة: خذ بالك من البيانو، خذ بالك من طقم الشاى، خذ بالك من الأوانى الفضية، من الصورة، من الجد. يفهم بالتالى أن الوجوه التى تحيط بمائدة المجلس وجوه عابسة، مقطبة الجبين، بنظرات محتقنة من الغضب وقلة النوم، ومن المحتمل أن أغلب هذه الوجوه كانت تفضّل نزيف الدم على احتقانه، ليس لدرجة المذبحة التى أعلن عنها محرر التليفزيون، لكن على الأقل لدرجة تجرح شعور السكان خارج العاصمة، على الأقل حدث يتحدث عنه فى البلد بأسرها خلال الأسابيع القادمة، برهان، حجة، سبب يضع الثوريين الملاعين فى صورة شيطانية. يفهم من هذا أيضًا أن وزير الدفاع، الذى لم ينبس بكلمة، قد همس فى التو فى أذن زميله وزير الداخلية: ماذا سنفعل الآن. لو كان هناك من سمع هذا السؤال، فلابد أنه سيتصنّع عدم مبالاته، بالتحديد ليعرف الإجابة التى من أجلها اجتمعوا وبالطبع لن يخرجوا بأياد فارغة.

ألقى الكلمة الأولى رئيس الجمهورية: أيها السادة، قال، برأيي، وأعتقد أنكم متفقون معي، نحن نعيش أصعب اللحظات وأكثرها تعقيدًا منذ إعلان نتيجة الانتخابات الأولى وظهور حركة ثورية شديدة القوة لم يستطع رجال الأمن القومي كشفها، ونحن لم نكشف عنها النقاب، بل هي التي أعلنت عن نفسها بوجه مكشوف، ووزير الداخلية، الذي تلقى مني، من جانب آخر، كل العون الشخصي والمهني، لا بد أنه متفق معي على وجه التحديد، والأسوأ من ذلك، أننا حتى اليوم لم نتقدم خطوة واحدة فعالة صوب طريق حل الأزمة، والأخطر من ذلك، أننا وجدنا أنفسنا مجبرين، وبأيد مكتوفة، على مشاهدة الضربة التكتيكية العبقرية التي كمنت في مساعدة الثوريين لمصوتي حزبنا في نقل عفشهم داخل بيوتهم، وهذا، أيها السادة، ماهو إلا نتاج فكر مكيافيلي، شخص يختبئ خلف الستار ويحرّك الجميع كالعرائس الماريونت كما يحلو له، ونعلم جميعا أن الأمر بتقهقهر كل هؤلاء البشر كان بالنسبة لنا ضرورة سببت الألم، لكن الآن يجب علينا أن نعد أنفسنا لمواجهة محاولات جديدة محتملة للنزوح، لن تكون عائلات كاملة، بقوافل هائلة من السيارات، وإنما ستكون في شكل أفراد فرادى أو مجموعات صغيرة، ولن يسيروا في الطرق الممهدة، وإنما عن طريق الحقول، سيقول لي وزير الدفاع إن الدوريات تؤمن مداخل المدينة وإن الأجهزة الإليكترونية ممتدة على طول الحدود، وأنا لا

أسمح لنفسى أن أشك فى فعالية هذه الوسائل النسبية، لكننى أرى أن هذه الوساوس ستنتهى برمته عند إنشاء جدار يحيط بالعاصمة، جدار لا يمكن اجتيازه، يشيد بالخرسانة، يصل طوله لثمانية أمتار، ويزود بالأجهزة الإليكترونية الموجودة بالفعل ويعزز بعدد من الأسلاك الشائكة المناسبة التى تعلوه، وأنا على يقين تام أنه بهذا الشكل لن يستطيع أحد اجتياز العاصمة، ولا حتى الذبابة، واسمحوا لى أن أستخدم هذه النكتة، فالذباب لا يستطيع عبور هذا الجدار، لا لأنه لا يمكن عبوره، وإنما لأن الذباب لا يطير عاليًا كما هو معروف. توقف رئيس الجمهورية ليوضّح صوته وأنهى حديثه: ورئيس الحكومة يعرف هذا الاقتراح الذى قدمته، وبالتاكيد سيقدّمه مختصرًا حتى تناقشه الحكومة التى بدورها، بالطبع، ستقرر مدى إمكانية تطبيقه وملاءمته للظروف الراهنة، أما ما يتعلق بى، فأنا لا أرتاب فى أنكم ستقدمون خبراتكم، وهذا يكفينى. حول المائدة انطلق همس دبلوماسى فسّره الرئيس على أنه موافقة ضمنية، وهى الفكرة التى كان سيعدّلها بالتأكيد لو كان قد انتبه للعبارة التى فلتت من فم وزير المالية: ومن أين سنأتى بالأموال اللازمة لتنفيذ هذه الحماقة.

بعد أن حرّك الأوراق التى أمامه كعادته، بدأ رئيس الوزراء حديثه. «لقد رسم لنا رئيس الجمهورية، بالوضوح والصرامة التى اعتدناها فيه، صورة للوضع المعقّد والعصيب الذى وضعنا بداخله، وبالتالى سيكون حشوًا صرفًا من جانبى إضافة بعض التفاصيل التى

فى نهاية الأمر ستفيد فقط فى إبراز ظلال الصورة، لهذا، ومراعاة للأحداث الأخيرة، أعتبر أننا فى حاجة لتغيير استراتيجيتنا جذريًا، ويجب أن نضع فى اعتبارنا، بين كل العناصر الأخرى، إمكانية ميلاد ونمو مناخ من السلم الاجتماعى فى العاصمة كنتاج للإيماءة التضامنية الواضحة، التى لا أشك أنها مكيافيلية، وأنها تعبر عن سياسة محددة، تلك الإيماءة التى شاهدها البلد بأسره فى الساعات الأخيرة، ولتقرأوا تعليقات الصحف المستقلة، المليئة بالثناء عليهم، بعدها، علينا أن نعترف، فى المقام الأول، أن محاولات المحتجين قد نجحت ، واحدة تلو الأخرى، نجاحًا مدويًا، وأن سبب نجاحها، هذا على الأقل رأيى، ربما يكون صرامة الوسائل القمعية التى استخدمناها، وفى المقام الثانى، لو داومنا على الإستراتيجية التى استخدمناها حتى هذه اللحظة، لو كثفنا فعل القهر، ولو ظل رد المحتجين كما كان بلا تغيير، أقصد البقاء بلا رد، سنلجأ رغم أنفنا لإجراءات متطرفة، ذات طابع ديكتاتورى، مثل إلغاء الحقوق المدنية لسكان المدينة لأجل غير مسمى، بمن فيهم الذين أدلوا بأصواتهم لصالحنا، حتى نتجنب أى تفضيل مبنى على الهوية الأيديولوجية، والموافقة على تطبيق قانون انتخابى استثنائى على البلد بأسرها مضمونه اعتبار الأصوات البيضاء أصواتًا لاغية، من أجل تجنب انتشار الوباء، وسنرى العواقب الوخيمة بعد ذلك».

توقف رئيس الوزراء عن الحديث ليأخذ رشفة ماء،

وواصل. «لـقـد ألمحت إلى الحـاجـة إلى تـغـيـيـر الإسـتـراتـيـجـيـة، مع ذلك، لم أقل إننى أعـرف هـذا التغيير أو قد أعددته للتطبيق الفورى، يجب أن نأخذ وقتنا، أن نتحلى بالصبر حتى تنضج الثمرة ويهبط الحماس، حتى أننى أعترف أننى قد أفضّل التوقف لفترة معلومة نعمل خلالها لاستخراج ما يمكن استخراجه من إمارات الاتفاق التى تبدو طافية على سطح الماء». توقف مرة أخرى، كان يبدو أنه سيواصل خطابه، لكنه قال فقط : «أستمع إلى آرائكم».

رفع وزير الداخلية يده. «ألاحظ أن رئيس الوزراء يثق فى الإقناع الذى قد يمارسه مصوتونا على روح من سمعته يسميهم بالمحتجين الصرف، وهى تسمية أعترف أنها أدهشتنى، لكننى لم أسمعه يتحدث عن الاحتمال المضاد، وهو احتمال قيام أنصار الفتنة بإقناع المواطنين المحترمين للقانون بأفكارهم السامة». «معك حق، فأنا بالفعل أتذكر اننىَ لم أذكر هذا الاحتمال - رد رئيس الوزراء - لكننا، عندما نتخيل حدوث هذا الاحتمال، لن يتغير فى شىء جوهر القضية، فأسوأ ما يمكن أن يحدث أن يصير الثمانون فى المئة الذين أدلوا بأصوات بيضاء مئة بالمئة، فالتغير الكمى الداخل فى القضية لن يكون له أى تأثير من حيث الكيف، إلا إذا كان تاثيرًا مؤديًا للإجماع». «وماذا سنفعل حينذاك» - سأل وزير الدفاع -. «هذا بالتأكيد هو ما اجتمعنا من أجله، لنحلّل و نزن الأمور ونقرر». «كما سنحلل أيضًا، كما أظن، فكرة

السيد الرئيس، التى اعلن مساندتى لها». «فكرة السيد الرئيس، لضخامة العمل وكثرة الآراء التى تحيطها، تحتاج إلى لجنة متخصصة سنعينها من أجل هذا الغرض، ومن جانب آخر، أعتقد أنه من الواضح بشكل كاف أن تشييد جدار عازل لن يحل المشكلة فى الحال، ولن يحل أية مشكلة أخرى نواجهها بل أعتقد أنه سيخلق مشكلات أخرى، ورئيسنا يعرف رأيى فى هذه الفكرة، وإخلاصى الشخصى والمهنى يحتم علىّ ألا أسمح لنفسى بتكتم رأيى أمام المجلس، وهذا لا يعنى أن اللجنة، أكرر، لن تبدأ عملها فورًا، فاللجنة ستشكل وستبدأ عملها قبل أسبوع». كان واضحًا رفض رئيس الجمهورية. «أنا رئيس جمهورية ولست قسيسًا، كما أننى لا أدعى أننى معصوم من الخطأ، لكننى أرغب أن يناقش اقتراحى بشكل فورى». «أنا نفسى قلت ذلك من قبل، سيدى الرئيس» - تدخل رئيس الوزراء - «وأعدك أننى سأوفيك بأخبار سريعة أسرع مما تتخيل عن أعمال اللجنة.» «وأثناء ذلك، سنجلس هنا نسجل النقاط، بلا تبصّر» - اعترض رئيس الجمهورية .. فكان الصمت هو رد هؤلاء. «نعم، بلا تبصّر» - كرّر الرئيس بدون أن ينتبه للقهر العام .. من عمق الصالة خرج صوت وزير الثقافة الهادئ: «مثلما حدث منذ أربع سنوات». بغضب جم، كما لو أهانه بسب فاحش، لا يُقبل، نهض وزير الدفاع وأشار بأصبع الاتهام وقال: «إنك خالفت بشكل مخز اتفاق قومى بالصمت كنا جميعا قد وافقنا عليه». «بقدر

معرفتى، لم يكن هناك أى اتفاق، ولا حتى قومىّ، فمنذ أربع سنوات كنت كبيرًا ولا أتذكر أن سكان العاصمة تم دعوتهم لتوقيع عقد يتعهدون فيه بالالتزام بالصمت، ولا كلمة واحدة عن إصابتنا جميعا بعمى البصيرة لعدة أسابيع». «معك حق، لم يكن هناك اتفاق رسمى - تدخل رئيس الوزراء - لكننا جميعا نعتقد، بدون حاجة للاتفاق والكتابة فوق ورقة، أن التجربة المريرة التى عشناها يجب اعتبارها، من أجل صحة أرواحنا، كالكابوس البغيض، شىء ليس له وجود سوى فى الأحلام وليس له أصل فى الواقع». «أمام الجمهور، قد يكون ذلك ممكنا، لكن لا يحاول رئيس الوزراء أن يقنعنى أنه داخل جدران بيته وفى حميميته لا يتكلم عما حدث». «سواء حدث ذلك أم لا، فهذا لا يهم، ففى حميمية البيوت تحدث أشياء كثيرة لا تخرج من حوائطه الأربعة، ولو سمحت لى، سأقول لك إن تلميحك للتراجيديا التى حدثت بيننا منذ أربع سنوات والتى لا تفسير لها حتى اليوم لم تكن سوى إحدى المظاهر شريرة الميول التى لم تكن تتوقع من وزير الثقافة». «إن دراسة الميول الشريرة، سيدى رئيس الوزراء، يجب أن تكون فصلا فى تاريخ الثقافات، بل وأكثرها نفعًا وتفصيلاً». «أنا لا أشير إلى هذا النوع من الميول الشريرة، وإنما إلى نوع آخر، نوع اعتدنا أن نسميه قلة الرصانة». «حسب ما أرى، يؤمن رئيس الوزراء بفكرة تشابه الفكرة التى ترى أن وجود الموت يرجع للاسم الذى يطلق عليه، وأن الأشياء لا وجود

لها قبل أن تسمى باسم» . «هناك آلاف الأشياء التى لا اعرف لها اسمًا، حيوانات، نباتات، أدوات، وأجهزة لها كافة الأشكال والأحجام وتصلح لكافة الاستخدامات». «لكنك تعرف أن لها اسما، وهذا يريحك». «نحن نبتعد عن جوهر الموضوع». «نعم سيدى رئيس الوزراء، نحن نبتعد عن جوهر الموضوع، انا فقط قلت إنه منذ أربع سنوات كنا عميانا وأقول الآن إننا ربما ظللنا عميانا». كان الغضب جماعيا، وانطلقت الاحتجاجات بتسرّع، كان الجميع يريد التدخل، حتى وزير النقل، الذى عادة ما يتحدث قليلا بسبب صوته الحاد، وجد الآن الفرصة متاحة أمامه ليحرّك أحباله الصوتية: «أريد التحدّث، أريد التحدّث» . نظر رئيس الوزراء لرئيس الجمهورية كما لو كان يطلب منه المشورة، لكن ذلك ما كان سوى مشهد مسرحى، فحركة رئيس الجمهورية الخجولة، أيا كان معناها، بطلت أمام يد رئيس الحكومة المرفوعة : «إن وضعنا فى الاعتبار النبرة الشديدة والحادة التى يعكسها الحوار، فلن يفيد الجدل فى شىء، لهذا لن أعطى الكلمة لأحد من الوزراء، خاصة لو تأملنا، ربما بدون أن ينتبه، أن وزير الثقافة قد أصاب كلية عندما قارن الوباء الجديد الذى نعانيه بنوع جديد من العمى». «إننى لم أقدم هذه المقارنة، سيدى رئيس الوزراء، لقد اقتصرت على ذكر أننا عميان وأننا ربما ظللنا عميانًا، وأن أى تأويل لم يتضمنه منطقياً رأيى الأول يعد تأويلا مرفوضًا». «إن

تبديل مكان الكلمات، فى أغلب الأحيان، يعنى تبديل معناها، وإن ظلت الكلمات موجودة فى النص بجسدها، اسمح لى أن أعبر بهذا التشبيه، ومن الحق ان أقول بالتالى» ... «فى هذه الحالة، اسمح لى أن أقاطعك، سيدى رئيس الوزراء، أريد أن أوضّح أن تغيير أماكن الكلمات ومعناها مسئوليتك وحدك، فأنا لم تكن لى يد فى الأمر» . «فلنقل أنك وضعت الأساس وأنا أكملت البناية، وأن الأساس والبناية يسمحان لى أن أؤكد أن الصوت الأبيض أحد مظاهر العمى المدمّر مثل الأخرى». «أو احد مظاهر البصيرة» ـ «قال وزير العدل» .. «ماذا؟» ـ سأل وزير الداخلية معتقدًا أنه لم يسمع العبارة جيدا .. «أقول إن الصوت الأبيض قد يمكن اعتباره أحد مظاهر البصيرة من جانب من مارسه». «كيف تتجرأ، فى حضرة مجلس الوزراء، على نطق عبارة بمثل هذه الهمجية المضادة للديمقراطية، يجب أن تخجل من قولك، إنك لا تبدو وزيرًا للعدل» ـ انفجر وزير الدفاع .. «أسأل نفسى هل كنت حقا وزيرًا للعدل مثلما أكون فى هذه اللحظة»!. «يساورنى الشك وعلى وشك التيقن من أنك قد أدليت بصوت أبيض» ـ تحدث وزير الداخلية باستهزاء .. «لا، لم أدل بصوت أبيض، لكننى سأفكّر فى ذلك فى الانتخابات القادمة». عندما بدأ يختفى الهمس الخافت حول هذا التصريح، قاطعه رئيس الوزراء بسؤال مفاجىء: «هل أنت واع لما قولته». «نعم واع لدرجة أننى أضع بين يديك الواجب الذى كلفتنى به، وأقدّم لك استقالتى» ـ

رد الـذى لم يـكن يـومًـا وزيـرًا ولا لـلـعـدل. شـحـب وجـه رئيس الجمهورية، وبدا مسمرًا فى ظهر كرسيه ذات المسند. «لم أتخيل أبدا أننى سأعيش لأرى وجه الخيانة» ـ قال، وفكّر أن التاريخ قد لا يكف عن أن يسجّل هذه العبارة، وعلى سبيل الاحتياط سيتكلّف هو بتذكير التاريخ .. نهض الذى كان حتى هذه اللحظة وزيرًا للعدل، ودّع بانحناءة رأس رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء وخرج من الصالة. قُطع الصمت بحركة كرسى مفاجئة، لقد نهض وزير الثقافة وأعلن من عمق الصالة بصوت قوى واضح : «أقدم استقالتى» . «اللعنة، لا تقل لى، كما وعدنا صديقك فى لحظة صدق حميدة، إنك ستفكّر فى الانتخابات القادمة فى الصوت الأبيض» ـ حاول رئيس الحكومة السخرية منه .. «لا أعتقد أن الأمر فى حاجة لتفكير، فأنا قد فكّرت بالفعل فى المرّة الفائتة». «هذا يعنى». «بالضبط ما سمعته، لا شىء آخر» . «أتريد أن تتراجع». «كنت على وشك الخروج، سيدى رئيس الحكومة، وعدت فقط لأودعكم». فتح الباب وأغلقه، وبقى كرسيان خاليان فى المائدة. «ماذا يحدث، إننا لم نفق من اللكمة الأولى فلحقت بنا اللكمة الثانية» ـ صاح رئيس الجمهورية .. «اللكمة شىء آخر، سيدى الرئيس، فدخول الوزراء وخروجهم أكثر الأمور الاعتيادية فى الحياة ـ قال رئيس الحكومة ـ أيا كان الأمر، فلو كانت الحكومة قد دخلت هنا كاملة، ستخرج من هنا كاملة ايضا، سأتولى أنا منصب وزير العدل، وسيتولى وزير الأشغال العامة

مهام وزير الثقافة». «أخشى أن تنقصنى الكفاءة اللازمة»، «أشار وزير الأشغال العامة». «بل لديك الكفاءة، فالثقافة، حسب ما يقول لنا باستمرار الأشخاص المتفتحون، هى عملا عاما، بالتالى ستبقى فى أمان تحت قبضتك». ضغط على الجرس وأمر الحاجب الذى ظهر عند الباب: «اسحب كرسيين». بعدها نظر لجهاز الحكومة: «سنستريح لمدة ربع أو ثلث ساعة، سنكون أنا والرئيس فى الصالة المجاورة».

بعد نصف ساعة التف الوزراء من جديد حول المائدة. دخل رئيس الجمهورية بوجه يحمل علامات الحيرة، كما لو كان فى التوّ قد أخبروه بخبر لم ينته من فهمه بعد. أما رئيس الوزراء، على العكس تمامًا، كان يبدو راضيًا عن نفسه. وسريعًا ما عُرف السبب. «عندما لفتُّ الانتباه للضرورة الملّحة للتغيير الاستراتيجى، بعد أن رأينا فشل كل الأساليب التى خططنا لها ونفذناها منذ بداية الأزمة ـ هكذا بدأ رئيس الوزراء ـ لم نتوقع إطلاقًا أن فكرة ما قد تسوق بنا إلى آمال كبيرة فى النجاح تصدر بالتحديد من وزير ليس بيننا الآن، أقصد، كما قد تتوقعون، وزير الثقافة السابق، فبفضل هذا الوزير جاء برهان آخر على أهمية الاستماع لآراء الخصم بهدف اكتشاف ما يصلح منها لنا». تبادل وزير الدفاع و الداخلية نظرات غاضبة، فقد كان هذا ما ينقص ليسمعانه، ثناء على ذكاء أحد الخونة الجاحدين. وسريعًا ما كتب وزير الداخلية عدة كلمات فى ورقة مررها فى الخفاء

للآخر. حاسة الشم عندى لا تخوننى، فأنا كنت أرتاب منذ بداية الأزمة فى هذين الرجلين. رد عليه وزير الدفاع ممررًا الورقة بنفس الطريق وبنفس الحذر: جئنا لنصطادهم فصادونا . واصل رئيس الوزراء عرض نتائجه التى استخلصها من التصريح الغامض لوزير الثقافة السابق حول أنهم كانوا بالأمس عميانًا ومازلوا عميانًا حتى اليوم: «إن الالتباس الذى وقع، التباسنا الكبير، الذى مازلنا ندفع ثمنه، كان بالتحديد يكمن فى محاولة الختم، ليس الختم على الذاكرة، فكلنا يذكر ما حدث منذ أربع سنوات، وإنما الختم على الكلمة، على الاسم، كما لو كان القضاء على الموت، كما شدّد زميلنا السابق، يكمن فى عدم نطق اسمه». «ألا يبدو لك أننا ندخل فى موضوعات فرعية - سأل رئيس الجمهورية - فعلى المجلس أن يتخذ قرارات مهمة». «على العكس، سيدى الرئيس، فهذا هو بالضبط مربط الفرس، وبهذه الطريقة، إن لم أخطئ، سيفيدنا جميعا تقديم حلول ممكنة وجاهزة مرة واحدة وللأبد لمشكلة وجدنا لها بالكاد حلا، فما فعلناه دائمًا هو ترقيع المشكلة وفى الحال تتهالك الرقعة ويعود كل شىء إلي ما كان عليه». «لا أفهم إلى أين تريد أن تصل، وضّح أكثر من فضلك». «سيدى الرئيس، أيها السادة، علينا أن نقدم على التقدم للأمام، علينا أن نستبدل الكلام بالصمت، وأن ننهى التظاهر الأحمق وغير النافع بأن قبل ذلك لم يحدث شىء، علينا أن نتحدّث بحرّية عن حياتنا السابقة، إن

كان ما عشناه يسمى حياة، حيث كنا عميانا، فلتذكر ذلك الصحف وليكتب ذلك الكتّاب وليعرض التليفزيون صور المدينة بعد أن استردت بصرها، وليقتنع الأفراد أنه من الضرورى الحديث عن مساوئ كل الأشياء التى تكبتوها، فليتحدثوا عن الموتى، عن المختفين، عن الخراب، عن الحرائق، عن القمامة، عن العفونة، وبعدها، عندما ننتزع خرق الحياة الطبيعية المزيفة التى جئنا بها لنداری الجرح، نقول إن عمى تلك الأيام قد عاد من جديد للمدينة لكن بشكل جديد، وعلينا أن نلفت انتباه الناس للمقارنة بين بياض العمى الذى حدث منذ أربع سنوات والتصويت الأبيض الذى يحدث اليوم، ستكون مقارنة فظة ومزيفة، وأنا أول من يعترف بذلك، وسيوجد بالطبع فى البداية من يرفضها كإهانة للذكاء، للمنطق، للحس المشترك، لكن من المحتمل أن أشخاصًا كثيرين، وأتمنى أن يكونوا أغلبية ساحقة، سينبهرون بها، ويسألون انفسهم أمام المرآة إن كانوا قد عادوا للعمى من جديد، ألا يكون هذا العمى، المخجل أكثر من العمى السابق، قد غيّر لهم قبلتهم الصحيحة، دافعًا إياهم ناحية الطرف الكارثى حيث يكمن الخراب، ربما الخراب النهائى، لنظام سياسى، بدون أن ينتبه للإنذار، كان ينقل من البداية فى نواته الحياتية، أى ممارسة حق التصويت، بذرة دماره الشخصى أو كان يتقدم صوب شىء جديد، غير معروف، مختلف لدرجة لا نجد معها الأمان فى أى مكان، بعد أن تربينا على الذهاب لظل الروتين

الانتخابى جيل وراء جيل لندلى بأصواتنا وهو الأمر الذى نجده الان أحد أهم نجاحات الأجداد. أعتقد يقينا - واصل رئيس الوزراء - أن التغيير الإستراتيجى الذى نحن فى حاجة إليه أمام أعيننا، أعتقد أن إعادة مسك زمام الأمور مازال فى أيدينا، لكننى رئيس وزراء هذا البلد ولست بائع مراهم سوقى أعد بالمعجزات، على أى حال يجب أن أقول إننا، إن لم نحصل على نتيجة خلال أربع وعشرين ساعة، فأنا أثق أننا سنستطيع أن نلاحظ الفرق قبل مرور أربعة وعشرين يوما، لكن الصراع طويل ومنهك، فالقضاء على الوباء الأبيض الجديد يتطلب وقتا وجهدا، بدون أن ننسى، نعم، بدون أن ننسى رأس الدودة الشريطية الملعونة، تلك التى توجد مختبئة فى أى مكان، وعندما لا نكتشفها داخل قذارة المؤامرة، عندما لا ننزعها ناحية الضوء وننزل بها العقاب الذى تستحقه، سيظل يتكاثر هذا الطفيلى المميت مخرجًا حلقاته ومقوضًا قوات الأمة. لكننا سننتصر فى المعركة الأخيرة، كلمتى وكلمتكم، من اليوم حتى النصر الأخير، ستكون هى ضمان تحقيق هذا الوعد». ساحبين الكراسى، نهض الوزراء كرجل واحد، ووقوفا صفقوا بحماس. أخيرًا، بعد أن تطهروا من العناصر المشوشة، صار المجلس كتلة واحدة مضغوطة، رئيسًا واحدًا، إرادة واحدة، مشروعًا واحدًا، طريقًا واحدًا. جالسًا على كرسيه الضخم، كما تفرض هيبة الوظيفة، كان رئيس الجمهورية يصفق بأطراف أصابعه، ملحوظًا عليه،

بتعبير وجهه الصارم، تناقض المشاعر بسبب عدم إشارة رئيس الوزراء إليه خلال خطابه الطويل، حتى ولو كانت إشارة صغيرة. لابد أن يعرف من يصارعه. وعندما بدأ التصفيق الحاد فى الهبوط، رفع رئيس الوزراء يده اليمنى طالبًا السكوت وقال : «كل مركب يحتاج إلى قبطان، وهذا القبطان، خلال هذا الإبحار الخطير الذى يواجه البلد فى تحدياته، هو ويجب أن يكون رئيس الوزراء، لكن ويل للمركب الذى لا يحمل بوصلة قادرة على توجيهه فى المحيط الواسع والعواصف الهائجة، حسنا أيها السادة، هذه البوصلة التى توجهنى وتوجه المركب، هذه البوصلة التى توجهنا جميعا، موجودة هنا، بجانبنا، حيث كانت توجهنا دائمًا بخبرتها، وتشجعنا دائما بنصائحها الحكيمة، وتعلمنا دائمًا بمثالها الذى لا مثيل له، فلتصفقوا بحدة بقدر ما تستطيعون، ولتوجهوا آلاف الشكر، لسعادة رئيس الجمهورية». زاد تصفيق الاستحسان الحار عن المرّة السابقة، وكان يبدو أن التصفيق لا يرغب فى الانتهاء، ولن ينتهى عندما يواصل رئيس الوزراء التصفيق، وعندما لا تقول الساعة التى تعلو رأسه: كفى، فلتكفوا حتى هذه النقطة، لقد فاز وانتهى الأمر. لقد تأخر دقيقتين أخريين ليؤكد الانتصار، وفى النهاية، عانق رئيس الجمهورية، بالدموع فى عينيه، رئيس الوزراء. إنها لحظات رائعة، بل ورفيعة، قد تحدث فى حياة أحد الساسة ـ قال بعد ذلك بصوت محشرج من الانفعال ـ «لكن، بدون أن أعرف ما يخبئه لى القدر

غدا، أقسم لكم أن تلك اللحظات لن تمحى أبدًا من ذاكرتى، ستكون تاج مجدى فى الساعات السعيدة، سلوتى فى اللحظات المريرة، من كل قلبى أشكركم، من كل قلبى أعانقكم». يزداد التصفيق.

اللحظات الرائعة، خاصة عندما تلامس الرفعة، عادة ما تعانى من عدو يسمى قصر المدة، على أن العدو الأكبر هو عدم معرفة ما سيحدث بعدها. لكن هذا الحمل الرائع يصير حملاً كاذبًا عند حضور وزير الداخلية. بمجرد أن إستعاد أعضاء المجلس مكانهم، وزرف وزير الأشغال العامة والثقافة دمعة مختلسة، رفع وزير الداخلية يده طالبًا الكلمة. «تفضّل» ـ قال رئيس الوزراء ـ «كما أشار سعادة رئيس الجمهورية، هناك فى الحياة لحظات رائعة، رفيعة بحق، ونحن قد تمتعنا هنا بلحظتين من تلك اللحظات، الأولى شكر الرئيس والثانية اقتراح رئيس الحكومة عندما دافع عن الإستراتيجية الجديدة، والتى لاقت القبول الجماعى من قبل الحضور، والتى سأستند عليها فى كلمتى هذه، ليس لأسحب تصفيقى، فهى فكرة شديدة البعد عن ذهنى، وإنما لأتوسع وأيسر آثار تلك الإستراتيجية، ولو أمكن لشخصى المتواضع، أشير لما قاله السيد رئيس الوزراء، الذى لا يثق فى الحصول على نتيجة خلال أربع وعشرين ساعة، لكنه على يقين أن تلك النتائج ستظهر قبل أربعة وعشرين يوما، حسنا، مع كل احترامى، أنا لا أعتقد أننا فى ظروف تسمح بالانتظار

لمدة أربعة وعشرين يوما، ولا حتى عشرين يومًا، ولا خمسة عشر، ولا عشرة، فالمبنى المجتمعى به فجوات، والحوائط تهتز، والأساس يرتجف، وفى أية لحظة قد يتهاوى فوق رءوسنا». «ألديك أى اقتراح، بدلاً من وصف حالة البناية التى تهدد بالسقوط» ـ سأل رئيس الوزراء .. «نعم سيدى» ـ أجاب وزير الداخلية بلا انفعال، كما لو لم ينتبه للسخرية اللاذعة .. «فلتغدق علينا بأفكارك النيّرة، من فضلك». قبل أى شىء، يجب أن أوضح، يا سيادة رئيس الوزراء، أن اقتراحى هذا ماهو إلا مكمّل لما اقترحته علينا ووافقنا عليه، فهو لا يعدل ولا يصحح ولا يتمم، هو ببساطة شىء آخر أتمنى أن يكون جديرا باهتمام الجميع». «تفضل، دعك من اللف والدوران، وأدخل فى صلب الموضوع». «إن ما اقترحه، سيدى رئيس الوزراء، هو فعل سريع، مفاجىء، بالطائرات الهليكوبتر». «لا تقل لى إنك تفكّر فى قصف المدينة». «نعم سيدى، أنا أفكّر فى قصف المدينة بالأوراق». «بالأوراق.» «بالضبط، سيدى رئيس الوزراء، بالأوراق، فى المقام الأول بترتيب الأولويات، سيكون لدينا تصريح موقّع من رئيس الجمهورية وموجه لسكان العاصمة، فى المقام الثانى، سلسلة من الرسائل القصيرة والفعالة التى تفتح الطرق وتجهّز الأنفس بالتدريج للأحداث المؤثرة ببطء التى أعلنت عنها، أقصد، الصحف، التليفزيون، ذكريات تجارب الأيام التى كنا فيها عميانًا، قصص الكتّاب، إلخ، وبالمناسبة، أذكّركم أن وزارتى تتمتع بجهاز خاص من

المحررين، وهم أشخاص مدربون جيدًا على فن إقناع الناس، وهو ما يميّز الكتّاب، كما أفهم، بمجهود كبير فى وقت قليل». «تبدو لى فكرة جهنمية» . قاطعه رئيس الجمهورية ـ «لكن بالطبع يجب أن يحظى النص بموافقتى، سأدخل التعديلات التى أراها مناسبة، على أى حال تبدو لى فكرة جيدة، فكرة رائعة، بالإضافة لذلك، ففكرة وضع صورة رئيس الجمهورية فى خط الدفاع الأول فكرة نيّرة، نعم سيدى. كان همس الموافقة الذى تردد فى الصالة يبرهن لرئيس الوزراء أن وزير الداخلية قد فاز هذه الجولة». هذا ما سنفعله، اتخذ اللازم ـ قال .. وفى عقله كان يسجل ملحوظة سلبية أخرى فى الصفحة الملائمة لكراسة التقدم الدراسى لحكومته.

كانت الفكرة المهدئة التى تكمن فى أن القدر عادة ما يقضى على العجرفة، عاجلاً أم آجلاً، وإن كان من الأفضل عاجلاً، تجد تأكيدها الصاخب فى الخزى المهين الذى تعرض له وزير الداخلية الذى، معتقداً أنه فاز فوزًا ساحقًا فى جولته الحديثة الشرسة ضد رئيس الوزراء، رأى خططه الآن تنهار بسبب تدخل غير متوقع هبط من السماء، فقرّر أن يجلس فوق دكة الخصم. فى المقام الأخير، بل وفى المقام الأولى، حسب رأى الملاحظين المحايدين و المنتبهين، كان كل الذنب ذنب رئيس الجمهورية بسبب تأخيره فى الموافقه على الإعلان الرسمى، هذا الإعلان الذى سيلقى من الهليكوبتر بتوقيعه والذى يهدف إثارة حماسة سكان العاصمة. خلال الثلاثة أيام التالية لاجتماع مجلس الوزراء ظهرت القبة السماوية على العالم فى ثوبها البهى فى زرقتها غير المختاطة، بلا ثنيات ولا غرز، فى حالة طقس معتدلة، بلا رياح على الأخص، جو رائع لإلقاء الأوراق من الجو ورؤيتها تهبط لتتراقص رقصة العفاريت عند الإسكندنافيين القدماء، بعدها يأخذها الذين يسيرون فى الشوارع أو يخرج لها من بيته من يدفعه الفضول لمعرفة ما

الجديد أو ما الأوامر التى تأتيهم من أعلى. خلال الثلاثة أيام تلك عانى النص من السفر ذهابًا وإيابًا، بين قصر الرئاسة ووزارة الداخلية، أحيانًا بأسباب مستفيضة لعودته، وأحيانًا أخرى بأسباب ينقصها المعنى، بكلمات مشطوب عليها لتحل محلها كلمات أخرى تلقى أيضًا نفس المصير بعد ذلك، وبعبارات غير مترابطة لا صلة لها بما سبقها ولا ما تلاها، كم من الحبر استهلكوا، ومن الورق مزقوا، هذا ما يسمى ألم العمل، عذاب الإبداع، ومن الخير أن يبقى كل شىء واضح. فى اليوم الرابع، قرّرت السماء، المتعبة من الانتظار، مشاهدة ثبات الأرض بلا ذهاب ولا إياب، فصار الشروق مكسيا بغيم من السحاب الكثيف الرمادى، هذا السحاب الذى يتمخض عنه عادة الأمطار. فى آخر ساعة فى الصباح بدأ فى التساقط بعض الرذاذ المتناثر، كان يتوقف من حين لآخر، ومن حين لآخر كان يعود، كان رذاذًا متعبًا، وبالرغم من تحذيره، لم يكن يعد بأكثر مما يجود به فى اللحظة. استمر هذا المطر الرطب حتى منتصف الظهيرة، وفجأة، دون سابق إنذار، كمن قد ملّ من دوره المتصنع، فُتحت السماء لتفسح طريقًا لمطر مستمر، محقق، رتيب، كثيف بلا عنف، يشبه الأمطار القادرة على التواصل أسبوعًا كاملاً والتى يتوجه إليها الزرع بكل الشكر والعرفان. أقول الزرع، لا وزارة الداخلية. إن افترضنا أن القائد الأعلى للقوات الجوية قد سمح للهليكوبتر بالطيران، وهو الأمر الذى قد يثير المشاكل،

فإلقاء الورق من الجو فى هذا الطقس سيكون أمرًا مضحكًا، ليس فقط لأن السائرين فى الشوارع قلائل، وهؤلاء القلائل سيكونون مشغولين، بداية، بتفادى حبات المطر حتى يُبلوا قليلاً، وإنما أيضًا لأن الإعلان الرئاسى قد يسقط فى وحل الأرض، أوقد تبتلعه البلوعات الشرهة، فيُبل ويتمزق فى البرك فتسير فوقه إطارات السيارات، وبشكل فظ، يلتصق بها، والحق، الحق أقول لكم، قد ترون فقط رجلاً متعصبًا للقانون والاحترام الواجب للرؤساء ينحنى ليرفع من الوحل الشائن الورقة التى تتضمن صلة القرابة بين العمى العام الذى أصابهم منذ أربع سنوات وبين عمى اليوم، الغالب. كانت نكاية وزير الداخلية تكمن فى كونه شاهدًا إجباريًا، عاجزًا، لما نفّذه رئيس الوزراء، بحجة الضرورة القومية الملحة، ولزيادة الطين بلّة، بموافقة رئيس الجمهورية. أما ما نفّذه رئيس الوزراء فكان تشغيل الأجهزة الإعلامية، الصحافة، الراديو، التليفزيون، وكل وسائل التعبير المكتوبة والمسموعة والمرئية، التابعة للحكومة والمعارضة، بهدف إقناع سكان العاصمة بعودة العمى من جديد. عندما توقّف المطر بعد أيام وعادت السماء ترتدى ثوبها الأزرق من جديد، استطاع فقط الإلحاح العنيد والغاضب من جانب رئيس الجمهورية ضد رئيس الحكومة تحقيق الجزء الأول المؤجل من الخطة. «عزيزى رئيس الحكومة - قال الرئيس - سجّل عندك أننى لم أتخل ولا أفكر فى التخلى عما قرّرناه فى مجلس الوزراء،

وأعتبر من واجبى التوجه شخصيًا لأمتى». «سعادة الرئيس، أعتقد أن الأمر لا يستحق العناء، فعملية التوضيح جارية، ولن تتأخر نتائجها فى الظهور». «حتى ولو كانت النتائج بعد غد عند العودة من الناصية، أريد أن ألقى بيانى قبل ذلك». «بالطبع تحقيق نتائج بعد غد مجرد كلام». «إذًا فهذا أفضل، وزّع بيانى بالفعل». «سعادة الرئيس، فكّر أنه». «أحذرك، إن لم تفعل ما آمرك به، سأحمّلك مسئولية فقدان ثقتى الشخصية والسياسية فيك وهو ما سيكون له عواقبه». «أسمح لنفسى أن أذكّرك، سعادة الرئيس، أننى مازلت أتمتّع بأغلبية مطلقة فى البرلمان، أما فقدان الثقة الذى تهددنى به فليس له سوى طابع شخصى صرف، وليس له أى صدى سياسى». «بل ستكون لها صدى لو أعلنت أمام البرلمان أن كلمة رئيس الجمهورية تم حجبها من قبل رئيس الحكومة». «سعادة الرئيس، من فضلك، هذا ليس حقيقة». «بل هو حقيقة كافية لأقولها أمام البرلمان، أو خارجه». «هل أوزّع البيان الآن. البيان و الأوراق الأخرى». «توزيع البيان وحده يكفى ويفيض». «هذا هو رأيك أنت، ليس رأيى أنا». «سعادة الرئيس. عندما تنادينى بلقب رئيس، فهذا اعتراف منك بأننى رئيس، وبالتالى، افعل ما تؤمر». «إن صارت الأمور بهذا الشكل»... «ستصير الأمور بهذا الشكل، وأضف لذلك ما أقوله الآن، لقد تعبت من حضور معاركك مع وزير الداخلية، إن لم تكن منه فائدة، فغيّره، لكن، إن لم تستطع أو لا ترغب،

فاحتمله، أنا على يقين أنه لو كانت فكرة بيان الرئيس الموقّع فكرتك أنت، فمن المحتمل أنك كنت سترسله ليسلّمها من باب لباب». «هذا ظلم، سعادة الرئيس». «قد يكون كذلك، لا أنفى، فكلنا نخرج عن شعورنا ونفقد رصانتنا وفى النهاية نقول ما لا نرغب ولا نعتقد». «فلنغلق إذًا هذا الموضوع». «حقًا، لقد أُغلق الموضوع، لكن صباح غد أريد الطائرات الهليكوبتر فى الجو». «أمرك سعادة الرئيس».

لو لم تحدث تلك المناقشة الحامية، لو انتهى مصير البيان الرئاسى و الأوراق الأخرى الطائرة، لعدم ضرورتها، فى القمامة، لصارت القصة التى نرويها، من الآن فصاعدًا، مختلفة تمامًا. لا نتخيّل بالتحديد كيف ولا إلى أين، فقط نعرف أنها كانت ستصير مختلفة. بالطبع لن يكف قارئ منتبه لمنعطفات القصة، قارئ من هؤلاء المحللين الذين ينتظرون تفسيرًا منطقيًا لكل الأحداث، عن ترديد سؤال حول الحوار الجارى بين رئيس الحكومة ورئيس الجمهورية وهل تم إدخاله فى الساعة الأخيرة ليفسح الطريق لتغيير الخطة المعلنة، أم أن الراوى لم يجد أمامه طريقة أخرى ليتجاوز القصة الأصلية ويدخل فى طريق جديد ظهر له فجأة مرسومًا فى رسالة إبحاره، وبهذه الطريقة ما حدث كان يجب أن يحدث لأنه المصير الذى سنرى عواقبه بعد قليل. من العسير أن نؤكد أى الإجابتين قادرة تمامًا على إرضاء هذا القارئ. إلا إذا تمتع الراوى بصراحة غير مألوفة

دفعته للاعتراف بأنه لم يتيقن أبدا كيف سيروى بطريقة حسنة هذه القصة التى لم تحدث من قبل و المرتبطة بمدينة قرّرت أن تدلى بأصوات بيضاء، وبالتالى فإن تبادل الكلمات العنيف بين رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة، والذى انتهى بتوفيق، كان بالنسبة له مثل سقوط الخبز فى العسل. وبطريقة أخرى لا يجب أن يُفهم أننا هجرنا الخيط الرئيسى للقصة التى تتطور لندخل فى طرق لا طائل من ورائها لنروى أحداثا لم تحدث، وإنما كانت أحداثًا قد وقعت. نحن نشير، بدون لف ولا دوران، إلى الخطاب الذى تلقاه رئيس الجمهورية بعد ثلاثة أيام من إمطار الطائرات الهليكوبتر شوارع وميادين وحدائق وطرق العاصمة بأوراق ملونة تتضمن استنباط كتّاب وزارة الداخلية حول العلاقة المحتملة بين مأساة العمى الجماعى التى حدثت منذ أربع سنوات والهراء الانتخابى الذى يحدث اليوم. وكان من حظ مرسل الخطاب أن وقع خطابه فى يد سكرتير مرتاب، من هؤلاء الذين يقرأون الكلمات الصغيرة قبل الكبيرة، القادرين على أن يستخرجوا من نسق الكلمات السيئ البذرة الصغيرة التى يجب أن تروى فى أسرع وقت، على الأقل لمعرفة أية ثمرة ستطرح. وهذا هو نص الخطاب : سعادة رئيس الجمهورية. بعد أن قرأت بالتركيز الواجب الذى يستحقه البيان الذى وجهه سعادتكم للشعب ولسكان العاصمة على الأخص، وبإدراك تام لواجبى كمواطن أنتمى لهذا البلد وعلى

يقين أن الأزمة الغارق فيها الوطن تتطلب منا جميعا الحمية ذات التيقظ المستمر والصارم خاصة عندما تظهر أمام أعيننا، أطلب منكم السماح لأبسط أمام فطنتكم المعروفة بعض الأحداث المجهولة التى ربما تساعدكم، بشكل أفضل، على فهم طبيعة البلاء الذى سقط فوق رءوسنا. أقول هذا لأننى أعتقد مثل سعادتكم، أن هناك علاقة وطيدة بين العمى الحالى الذى هو التصويت الأبيض والعمى الأبيض الآخر الذى جعلنا جميعا لعدة أسابيع خارج العالم. أريد أن أقول، سعادة رئيس الجمهورية، إن العمى الحالى ربما يفسر لنا العمى الأول، وأن الاثنين، ربما، ناتجان عن وجود نفس الشخص. قبل أن أواصل، بروح وطنية هى التى تقودنى ولا أسمح لأحد أن يشكك فى ذلك، أريد أن أوضح أننى لست واشيًا ولا مبلغًا ولا مخبرًا، وإنما ببساطة خادمًا لوطنى فى الموقف الحرج الذى يجد نفسه فيه، بدون مصباح ينير له الطريق إلى النجاة. لست أدرى، وكيف يمكننى أن أدرى، إن كان هذا الخطاب الذى أسطّره كافيًا لإضاءة هذا المصباح، لكن، أكرّر، الواجب هو الواجب، وفى هذه اللحظة أرى نفسى كما المجند المتجه للجبهة ليقدّم نفسه كالمتطوع فى مهمة، هذه المهمة، سعادة رئيس الجمهورية، تكمن فى البوح بأنه منذ أربع سنوات، مع زوجتى، كنت جزءًا عارضًا من مجموعة تتكون من سبعة أفراد كانت، مثل أفراد كثيرين آخرين، تكافح بيأس من أجل النجاة، وهذا الحدث أرويه لأول مرة لأحد. قد يبدو

أننى لا أروى جديدًا، فبخبرة سعادتك الخاصة تعرف ما أقول، لكن ما لا يعرفه أحد أبدًا أن أحد أفراد المجموعة لم يصبه العمى، وكانت امرأة متزوجة من طبيب عيون، أصيب زوجها بالعمى، مثلنا جميعًا، ولم يصبها هى. فى هذه اللحظة أقسمنا قسما عظيما ألا نتحدث قط فى هذا الموضوع، وكانت تقول إنها لا تريد بعد ذلك أن يرونها كمخلوق غريب، لا تريد أن تخضع لأسئلة ولا لاختبارات، ولأننا جميعا استرددنا بصرنا، كان النسيان هو أفضل طريقة، على أن نتعامل كما لو لم يحدث شىء. ولقد احترمت القسم حتى اليوم، لكننى لا أستطيع اليوم أن ألتزم الصمت. سعادة رئيس الجمهورية، آسف أن أقول لك إننى سأشعر بالإهانة لو اعتبرت هذا الخطاب وشاية، مع أنه من جانب آخر يجب أن يكون كذلك، وبالمناسبة، وهذا أيضا لا تعرفه سعادتك، لقد ارتكب هذا الشخص الذى أحدثك عنه جريمة اغتيال فى تلك الأيام، لكن هذه قضية قضاء، وأنا أكتفى بالقيام بواجبى كمواطن طالبًا من سعادتك أن تأخذ حذرك من فعل مازال حتى الآن سرًا ومنه، ربما، قد يخرج تفسيرًا للاعتداء القاسى الذى يكون النظام السياسى الحالى هدفًا له، إن هذا العمى الأبيض الجديد الذى أسمح لنفسى، بتواضع، إن استخدم كلمات سعادتك، يصيب كلية قلب الاسس اليمقراطية كما لم يبلغه من قبل أى نظام شمولى. وأنا لست فى حاجة لأقول، سعادة رئيس الجمهورية، إننى تحت أمر سعادتك وتحت أمر الهيئة

معرفتي

التى تتكلف بمواصلة التحقيق الضرورى بلا شك، لتوسع وتحدث وتكمل المعلومات التى تضمنها الخطاب. أقسم أننى لا يدفعنى أى حقد ضد الشخص الذى أتحدث عنه، لكن هذا الوطن الذى سعادتك خير من تمثله يبقى دائمًا قبل أى شىء، وهذا هو قانونى، وهو القانون الوحيد الذى يرحب به برباطة جأش من أدى واجبه على أكمل وجه. ولكم فائق الاحترام». ثم التوقيع وتحته على الجانب الأيسر اسم الراسل كاملا، عنوانه، تليفونه، ورقم البطاقة الشخصية والبريد الإليكترونى.

وضع رئيس الجمهورية الورقة فوق مكتب العمل ببطء، وبعد برهة صمت، سأل رئيس مكتبه: «كم شخص قد أطلع على هذا الخطاب». «لا أحد سوى السكرتير الذى فتحه وسجّله». «هل هو أهل ثقة». «أعتقد أننا يمكننا أن نثق به، سعادة الرئيس، فهو من الحزب، لكن من الملائم أن يفهمه أحد أن أى إفشاء لمحتوى الخطاب سيدفع ثمنه غاليا، ولو سمحت لى أن أقترح، يجب أن يكون التحذير مباشرًا». «من جانبى». «لا، سعادة الرئيس، بل من جانب الشرطة، فهى قضية بسيطة وفعالة، يستدعون الرجل للمقر المركزى، يدخله ضابط صارم صالة الاستجوابات، ويبث فيه الرعب». «ليس لدىّ شك فى صلاح النتيجة، لكننى أرى هنا مشكلة خطيرة». «ماهى سعادة الرئيس». «قبل أن يصل الأمر للشرطة ستمر عدة أيام، وأثناء ذلك، قد يفلت لسان الرجل بكلمة، قد

يحكى لزوجته، لأصدقائه، وقد يتحدث مع صحفى، وفى النهاية يهد المعبد». «معك حق، سعادة الرئيس، قد يكون الحل إرسال رسالة لمدير جهاز الشرطة، سأتكلف أنا بهذا الأمر بكل سرور، لو بدا لك حسنًا». «أهذه هى فكرتك، إحداث ماس كهربائى فى التدرج الوظيفى بالحكومة، تخطى رئيس الوزراء». «لم أكن لأتجرأ على ذلك لولا أننى أرى الأمر غاية فى الجدية، سعادة الرئيس» . «صديقى العزيز، فى هذه الدنيا التى تجمعنا، وليس فى دنيا أخرى، كل شىء يعرف فى نهاية الأمر، أنا أثق بك عندما تقول لى إن السكرتير جدير بالثقة، لكنك لاتستطيع أن تقول نفس الشىء عن مدير الشرطة، تخيل أنه متواطئ مع وزير الداخلية، وهو احتمال وارد، تخيل الأزمة التى قد تسببها لنا، وزير الداخلية يطلب تصفية حساباته مع رئيس الوزراء لأنه لا يستطيع فعل ذلك معى، ورئيس الوزراء يريد أن يعرف إن كنت أريد أن أتخطى سلطاته واختصاصاته، وفى ساعات قليلة سيذاع ما نريد أن نحتفظ به سرًا». «معك حق مرة أخرى، سعادة الرئيس». «لن أقول، مثل الأخر، إننى لا أخطئ أبدًا، ونادرًا ما تساورنى الحيرة، فذلك يحدث أحيانا». «ماذا نفعل إذًا، سعادة الرئيس». «إحضر لى هنا هذا الرجل». «السكرتير» . «نعم، هذا الذى اطلع على الخطاب.» «الآن». «خلال ساعة وهذا كثير». «استخدم رئيس المكتب التليفون الداخلى ليهاتف الموظف. إحضر فورًا لمكتب السيد الرئيس، بسرعة». «لكى يعبر

الممرات المتعددة والصالات الكثيرة عادة ما يحتاج على الأقل خمس دقائق، لكنه ظهر أمام الباب فى ثلاث فقط. جاء مخنوقًا بساقين تهتزان. «أيها الرجل، لم يكن ضروريًا أن تأتى جريًا» ـ قال الرئيس راسمًا ابتسامة طيبة .. «قال لى مدير مكتبة سعادتك أن آتى بسرعة، سعادة الرئيس»، ـ «قال الرجل لاهثًا» .. «خير ما فعلت، أمرته أن يستدعيك بشأن هذا الخطاب». «نعم سعادة الرئيس». «لقد قرأته بالطبع». «نعم سعادة الرئيس». «وتتذكر فحواه». «تقريبًا، سعادة الرئيس». «لا تستخدم هذا النوع من الكلمات معى، أجب على السؤال». «نعم، سعادة الرئيس، أتذكر فحواه كما لو انتهيت من قراءته فى التو». «أتعتقد أنك تستطيع بذل مجهود لتنسى فحواه». «نعم، سعادة الرئيس». «فكّر جيدًا، يجب أن تعرف أن بذل مجهود لتنساه ليس مثل النسيان فورًا». «لا سعادة الرئيس، ليس نفس الشىء». «بالتالى، المجهود ليس كافيا، سيكون من الضرورى شيئًا آخر» . «أعهد بشرفى». «كنت على وشك أن أكرّر لك ألا تستخدم هذا النوع من العبارات معى، لكننى أفضل أن تشرح لى المعنى الحقيقى لديك، فى الحالة الراهنة، لما تسميه بشكل رومانسى العهد بكلمة الشرف». «يعنى، سعادة الرئيس، التصريح الرفيع بأننى لن أنشر فحوى الخطاب، بأية طريقة، مهما حدث». «هل أنت متزوج». «نعم سعادة الرئيس». «سأسألك سؤالا» . «وأنا سأجيبك». «لو ظننا أنك أخبرت زوجتك، فقط زوجتك، بطبيعة الرسالة،

فبالمعنى الحرفى للكلمة أنت تنشرها، أقصد الرسالة بالطبع، لا زوجتك». «لا سعادة الرئيس، ينشر يعنى يذيع»، يشيع. «أصبت، أتحقق الآن برضا أنك تعرف المعجم». «لن أخبر حتى زوجتى». «تقصد أنك لن تحكى لها شيئًا». «لن أحكى لأحد، سعادة الرئيس». «أتعاهدنى بشرفك». «معذرة، سعادة الرئيس، لقد عاهدتك على ذلك». «تخيل، لقد نسيت أنك عاهدتنى، عامة لو مسحت من ذاكرتى سيذكرنى بها مدير مكتبى». «نعم، سعادتك» - «قال الصوتان فى وقت واحد. التزم الرئيس الصمت عدة ثوان، بعدها سأل». «أظن أننى سأرى ما كتبته فى دفتر التسجيل، أيمكنك أن تجنبنى النهوض من كرسىّ وتقول لى ماذا دونت». «كلمة واحدة فقط، سعادة الرئيس». «لابد أنك تتمتع بقدرة بلاغية هائلة لتلخص كل هذه الرسالة فى كلمة واحدة». «طلب، سعادة الرئيس». ماذا. «طلب، هى الكلمة المدونة فى الدفتر». «فقط». «لا شىء آخر». «لكن بهذه الطريقة لن تستطيع معرفة مضمون الخطاب» .«هذا بالضبط ما قصدته، سعادة الرئيس، أنه من غير المناسب معرفة ذلك، فكلمة طلب صالحة لجميع الأغراض». اتكأ الرئيس مسرورًا، ابتسم بكل أسنانه للسكرتير الحذر وقال: «كان يجب أن تبدأ من هذه النقطة، لتتجنب شيئًا جادًا مثل العهد بكلمة الشرف». «الحذر الأول لا يمنع الثانى، سعادة الرئيس». «خير ما فعلت، سيدى، خير ما فعلت، لكن من حين لآخر ألق نظرة على الدفتر، فربما يخطر

ببال أحد إضافة شىء لكلمة طلب» . «لقد أغلقت السطر، سعادة الرئيس». «تستطيع الانصراف». «أمرك، سعادة الرئيس». عندما أُغلق الباب، قال رئيس المكتب: «يجب أن أعترف أننى لم أكن أتوقع أنه قادر على هذه المبادرة، أعتقد أنه أعطانا خير برهان على أنه جدير بثقتنا». «ربما هو جدير بثقتك، أما ثقتى فلا». «لكننى أظن». «أظن خيرًا، صديقى العزيز، لكن أيضا ظن بسوء، إن الفرق الأكيد الذى يمكن أن نعقده بين الناس ليس تقسيمهم إلى أذكياء و أغبياء، وإنما إلى أذكياء وأكثر ذكاء، فمع الأغبياء نفعل ما نريد، أما الأذكياء فالحل أن نضعهم فى خدمتنا، أما الأكثر ذكاء، خاصة عندما يكونوا جانبنا، فهم أشد خطورة بشكل جوهرى، ولا يمكن أن يتلافوا ذلك، والطريف فى الأمر أنهم يقولون لنا باستمرار بتصرفاتهم إن علينا أن نأخذ منهم حذرنا، لكننا عادة لا ننتبه لتحذيراتهم وبعدها علينا أن نتحمل العواقب». «إذاً تريد، سعادة الرئيس، أن تقول». «أريد أن أقول إن سكرتيرنا الحذر، بهلوان السجل، قادر على نقل خطاب مقلق كهذا فى طلب بسيط، لا تتأخر فى جعل الشرطة تستدعيه ليبثوا فيه الخوف الذى وعدناه به هنا، هو نفسه قال بدون أن يتخيل مبلغ كلماته : الحذر الأول لا يمنع الثانى». «دائمًا أنت محق، يا سعادة الرئيس، فعيناك ترى أبعد البعيد». «نعم، لكن أكبر خطأ ارتكبته فى حياتى السياسية هو أن سمحت لهم أن يجلسونى فوق هذا الكرسى، لم أفهم فى

الوقت المناسب أن لذراعيه سلاسل». «إنه نتيجة لأن النظام ليس رئاسيًا». «هو كذلك، لهذا لا يتركوننى أفعل شيئًا سوى قص الأشرطة وتقبيل الأطفال». «الآن تملك الآس فى يدك». «وفى اللحظة التى أسلمه فيها لرئيس الوزراء، سيكون الانتصار انتصاره هو، وسأصير أنا فقط مجرد بوسطجى. «وعندما يسلمه هو لوزير الداخلية، سيكون فى يد الشرطة، فالشرطة هى التى توجد فى طرف سلسلة التجميع». «لقد تعلّمت كثيرًا». «أنا أدرس بمدرسة كبيرة، سعادة الرئيس». «أتعرف شيئًا». «كلى آذان صاغية». «سنترك الرجل المسكين فى سلام، أنا نفسى، عندما أصل لبيتى، أو هذه الليلة فى سريرى، سأروى لزوجتى مضمون الخطاب، وأنت، عزيزى مدير مكتبى، ربما تفعل نفس الشىء، وستنظر لك زوجتك كما البطل، الزوج الحبيب الذى يعرف الأسرار والنسيج الذى يحيك الدولة، الذى يشرب أرق الأشياء، الذى يتنفس بلا قناع الرائحة العفنة لبالوعة السلطة». «سعادة الرئيس، من فضلك». «لا تلتفت لما أقول، أعتقد أننى لست شريرا أكثر من الشريرين، لكننى من آن لآخر تقفز لذهنى فكرة أن هذا ليس كافيًا، وحينها تؤلمنى روحى أكثر مما يمكن أن أقول». «سعادة الرئيس، أنا لم أفتح فمى ولن أفتحه». «ولا أنا أيضا، ولا أنا أيضًا، لكن أحيانًا أتخيل ما يمكن أن يكون عليه هذا العالم لو فتحنا جميعًا افواهنا ولم نسكت عندما». «عندما ماذا، سعادة الرئيس». «لا شىء، لا شىء، دعنى بمفردى».

مرت أقل من ساعة عندما دخل رئيس الوزراء مكتب الرئيس، مدعوًا بصفة عاجلة للقصر. أعطى له الرئيس إيماءة ليجلس وطلب منه، بينما كان يمد له الخطاب، قائلا : اقرأ هذا وقل لى ما رأيك. اتكأ رئيس الوزراء على الكرسى وبدأ يقرأ. لابد أنه قد وصل لنصف الخطاب عندما رفع رأسه بتعبير متسائل، كمن يجد صعوبة لفهم ما انتهى من قراءته فى التو، بعدها واصل، وبدون توقف ولا أى مظاهر إيمائية أخرى أنهى قراءته. «إنه وطنى يحمل نوايا حسنة - قال - لكنه فى الوقت نفسه رجل سافل». «لماذا هو رجل سافل؟» - سأل الرئيس.. «لو كان ما يرويه هنا صوابًا، لو كانت هذه المرأة موجودة، ولم تُصب بالعمى وساعدت الستة الآخرين فى تلك المحنة، فعلينا ألا نستبعد أن كاتب هذا الخطاب مدان لها بحياته، ومن يدرى ربما كان أبوىّ أيضا مدانين لها لو كان الحظ قد أسعدهما وقابلاها». «إنه يقول هنا إنها قد قتلت». «سعادة الرئيس، لا أحد يدرى كم من الناس قد قتل خلال تلك الأيام، ففى النهاية قرروا أن كل الجثث التى عثروا عليها كانت نتيجة حوادث أو لأسباب طبيعية وبهذا كفوا على الخبر حجرا». «حتى أشد الأحجار ثقلاً يمكن تحريكها». «معك حق، سعادة الرئيس، لكن رأيى أن نترك الحجر فى مكانه، أظن أنه لا يوجد شهود حضور للجريمة، ولو كان هناك شهود فى تلك الفترة، فلم يكونوا سوى عميان مع عميان، وسيكون الأمر عبثًا، هراء، فكيف سنسوق

امرأة إلى المحكمة بسبب جريمة لا شهود لها وبدون وجود جسم الجريمة». «كاتب الخطاب يؤكد أنها قتلت». «نعم، لكنه لا يقول إنه شاهد على الجريمة، وبالإضافة لذلك، سعادة الرئيس، أكرّر أن الشخص كاتب الخطاب سافل». «الأحكام الأخلاقية لا تأتى عفويًا». «أعلم سعادة الرئيس، لكن دائما يمكن للواحد منا أن يفضفض عن مكنونه». أخذ الرئيس الخطاب، نظر له كما لو كان لا يراه وسأل: «فيما تفكر أن تفعل». «من جانبى، لا شىء، - أجاب رئيس الوزراء - فهذه القضية لا خيط لها». «انظر، إن كاتب الخطاب يلمّح لإمكانية وجود صلة بين هذه المرأة التى لم تفقد بصرها وبين التصويت الجماعى الأبيض الذى أدى بنا لهذا الموقف الذى نحن فيه». «سعادة الرئيس، أحيانًا لا نتفق». «هذا منطقى». «نعم، هذا منطقى، منطقى مثل عدم شكى فى أن ذكاءك وحسك المشترك، الذى أحترمهما، لا يقبلون فكرة أن امرأة، لمجرد أنها لم تُصب بالعمى منذ أربع سنوات، تكون هى اليوم المسئولة عن مئات الآلاف من الأفراد، الذين لم يسمعوا منها شيئًا، يدلون بأصوات بيضاء فى الانتخابات». «كيف تتحدث هكذا». «ليس هناك طريقة أخرى للتحدث، سعادة الرئيس، فرأيى أن تضع هذا الخطاب فى الأرشيف فى قسم الكتابات الوهمية، وأن تتجاهل الأمر ولنواصل بحثنا عن حلول حقيقية، لا أوهام وأحقاد رجل معتوه». «أعتقد أنك محق، لقد أخذت مأخذ الجد أمرًا أحمق وأضعت وقتك بطلبى

مجيئك هنا لتتحدث معى». «وقتى الضائع لا يهم، سعادة الرئيس، إن أردت أن تسميه هكذا، فقد يعوضنى عن ذلك الوصول معك لاتفاق». «يشرفنى كثيرًا أن أعترف بذلك وأشكرك». «أتركك لعملك وأعود لعملى». كان الرئيس على وشك أن يمد له يده ليودعه لولا أن دق الهاتف بجفاء. رفع السماعة وسمع السكرتيرة. السيد وزير الداخلية يريد التحدث معك، سعادة الرئيس. مررى لى المكالمة. كان الحوار بطيئًا، الرئيس كان يستمع، وبمقدار مرور الثوانى، كان تعبير وجهه يتغير، أحيانًا كان يهمس. نعم، فى فرصة أخرى - قال - إنه موضع دراسة. وأنهى كلامه قائلا: فلتتحدث مع رئيس الوزراء. وضع السماعة. «كان وزير الداخلية» - قال .. «وماذا كان يريد هذا الرجل الظريف». «لقد تلقى خطابًا بنفس المضمون وقرّر بدء التحقيقات». «خبر سيئ. لقد قلت له إن يتحدث معك». «لقد سمعت، لكنه مازال خبرًا سيئًا». «لماذا». «أنا أعرف وزير الداخلية جيدًا، وأعتقد أننى أعرفه أكثر من أى أحد، وهو الآن قد تحدث مع مدير الشرطة. «أوقفه». «سأحاول لكننى أخشى أن تذهب محاولتى هباء». «استخدم سلطتك». «حتى يتهموننى أننى أوقف التحقيقات حول قضايا تؤثر على أمن الدولة، فى الوقت الذى نعلم فيه أن الدولة فى حالة خطر، سعادة الرئيس، - سأل رئيس الوزراء وأضاف - أنت أول من ستتخلى عنى، فالاتفاق الذى توصلنا إليه ماهو إلا وهم، لأنه لا يفيد فى شىء». حرّك الرئيس

رأسه بإيماءة تأكيد، بعدها قال: «منذ قليل، رئيس مكتبى، بمناسبة هذا الخطاب، أطلق عبارة حكيمة جدًا. ماذا قال. إن الشرطة هى طرف سلسلة التجميع». «أهنئك، سعادة الرئيس، فلديك مدير مكتب هائل، مع ذلك من الملائم أن أنبهك أن هناك من الحقائق ما لا يمكن أن يقال بصوت عال». «ما يقال فى مكتبى لا يخرج منه» . «هذا لا يعنى أن مكتبك خال من الميكروفونات». «سآمرهم ليفتشوه». «على أى حال، سعادة الرئيس، أرجوك ألا تعتقد، لو وجدوها، أننى أنا من أمرتهم بوضعها». «إنها نكتة ظريفة». «إنها نكتة حزينة». «آسف، صديقى العزيز، إن أدخلتك الظروف فى هذه الحارة السد». «سأجد لها مخرجًا، مع أنى لا أرى مخرجًا الآن، لكن التراجع مستحيل». صاحَب الرئيس رئيس الحكومة حتى الباب. «شىء غريب - قال - أن كاتب الخطاب لم يرسل لكَ نسخة منه». «لابد أنه قد فعل ذلك، لكن على ما يبدو، سكرتارية رئاسة الجمهورية ووزير الداخلية أكفأ من سكرتارية رئيس الوزراء». «نكتة ظريفة». «نكتة لا تقل حزنًا عن النكتة السابقة، سعادة الرئيس».

تأخّر يومين فى الوصول الخطاب الموجه لرئيس الوزراء حتى تسلمه فى يده. وانتبه فى الحال أن السكرتير المكلّف بتسجيله فى الدفتر كان أقل تحفظًا من سكرتير رئاسة الجمهورية، مؤكدًا بهذه الطريقة أحقية الشائعات التى انتشرت منذ يومين، والتى كانت، فى الوقت نفسه، إما أنها نتيجة لعدم تكتم بعض الموظفين الذين يجدون أنفسهم فى منتصف سجل الموظفين، وبالتالى فى شوق لرواية ما يعرفون، أقصد رواية الأسرار، أو أن الشائعات انطلقت عن عمد من وزارة الداخلية كطريقة لاقتلاع أية نزوة محتملة من جذورها من قبل المعارضة أو أى تعويق بسيط ورمزى من جانب رئيس الحكومة لتحريات المباحث. يتبقى أمامنا الافتراض الذى نسميه الافتراض التآمرى، أقصد أن الحوار الذى يفترض أنه سرى بين رئيس الحكومة ووزير الداخلية، فى غسق اليوم الذى استدعى فيه الأول لقصر الرئاسة، كان أقل تحفظًا مما يجب توقعه مع حوائط لها آذان، تلك الحوائط التى لا أحد يدرى إن كان مدسوس فيها عدد من الميكروفونات من الجيل الأخير، المختارة من أجود الأنواع والتى تتميز بكونها ممغنطة إليكترونيًا

وتستطيع التشمم واقتفاء الأثر. أيا كان الوضع، فالشر لا علاج له، وأسرار الدولة حقيقة تمر بأوقات مريرة، ولا يوجد من يدافع عنها. رئيس الوزراء مدرك لهذه الحقيقة التى يرثى لها، وعلى تمام الاقتناع بأنه لا فائدة من كتمان السر، خاصة بعد أن أُفشىَ، وبإيماءة من يحفظ الدنيا من علاه، قال : أعلم كل شىء، لا تضايقونى، وطوى الخطاب بتمهل وحفظه فى أحد الجيوب الداخلية لبذلته. إنها قادمة مباشرة من العمى الذى أصابنا منذ أربع سنوات، سأحتفظ به، ـ قال .. جعله يبتسم تعبير المفاجأة المرسوم على وجه مدير مكتبه. لا تقلق، صديقى العزيز، فهناك على الأقل خطابان مثله، هذا بدون الحديث عن النسخ الكثيرة المحتملة التى تجول المدينة. صار تعبير وجه مدير مكتبه فجأة شاردًا، غير مبال، كما لو لم يفهم ما سمعه، أو كما لو أظهر له ضميره بغتة فى الطريق عملاً شريرًا قديمًا أو ربما حديثًا قد ارتكبه. يمكنك الانصراف، سأهاتفك عندما أحتاج إليك، ـ قال رئيس الوزراء، ناهضًا من كرسيه ومتجهًا لإحدى النوافذ .. غطى ضجيج فتح النافذة على صوت إغلاق الباب. من هنا يمكن مشاهدة عدد أكثر قليلاً من تتابع الأسطح المنخفضة. شعر بالحنين للعاصمة، بالحنين للزمن السعيد الذى فيه كانت الأصوات الانتخابية مطيعة لأوامره، لمرور الساعات الرتيب، لأيام المقر البرجوازى الصغير لرؤساء الحكومة وبرلمان الأمة، للاضطرابات السياسية وأحيانًا الأزمات الصبيانية

والمسلية التى كانت كالنيران ذات الاستمرار المعلوم والحدة المحكومة، متظاهرًا غالبًا بأن الكذب هو الوجه الآخر للحق، منسقًا بين الحقيقة التى يقولها والكذب الذى يناسبه، نقطة بنقطة، لو كان ذلك مفيدًا، والعكس صحيح، وبكل طبيعية. سأل نفسه إن كانت التحريات قد بدأت بالفعل، توقّف مفكّرا فى الضباط الذين سيشتركون فى التحريات، هل هم هؤلاء الذين مكثوا فى العاصمة بلا جدوى بهدف التقاط المعلومات وإعداد التقارير، أم أن وزارة الداخلية فضّلت أن ترسل لهذه المهمة أناسًا أكثر ثقة من جانبها، هؤلاء الذين يوجدون فى متناول رؤيتهم ويدهم، ومن يدرى، لأنهم مشدودون لعنصر المغامرة السينمائية الصارخ الذى قد يكون العبور السرى للحصار، قد ينزلقون بخنجر فى الخصر من تحت الأسلاك الشائكة، خادعين بأجهزة مغناطيسية مضادة للأجهزة الإليكترونية الحساسة الهائلة، ليعبروا للجانب الآخر، لأرض العدو، فى اتجاه الهدف، كأناس مزودين بنظارة نظر ليلية ومرونة القطط. ولأنه يعرف وزير الداخلية خير المعرفة، ويعرف أنه أقل دموية بقليل من دراكولا لكنه أكثر دارمية من رامبو، فقد يكون هذا هو المنهج الذى سيأمر بتبنيه. ولم يخطئ رئيس الوزراء. مختبئين بين الأشجار التى تحيط الأرض المحاصرة، كان هناك ثلاثة رجال ينتظرون ليلاً ظهور الفجر. مع ذلك، ليس كل ما تخيّله رئيس الوزراء من نافذة مكتبه بحرّية،

يناسب الواقع الماثل أمام أعيننا. على سبيل المثال، هؤلاء الرجال يرتدون ملابس مدنية، ولا يحملون معهم أى خنجر فى الخصر، فالسلاح الذى يضعونه فى الجراب هو ببساطة مسدس يسمونه الاسم المطمئن : سلاح نظامى. أما الأجهزة المغناطيسية المضادة للأجهزة الهائلة، فلا وجود لها هنا، بين الأجهزة الكثيرة، ولا شىء يبرز وظيفتها القطعية، وهو الشىء الذى، لو فكّرنا جيدًا، يمكن أن يعنى فقط أن الأجهزة المغناطيسية المضادة ليس لها بالفعل هيئة أجهزة مغناطيسية مضادة. وسريعًا ما سنعرف، فى الساعة المحددة، أن الأجهزة الإليكترونية فى هذه القطعة من الحصار سيتم فصلها خلال خمس دقائق، وهو ما يعتبر وقتًا كافيًا لعبور ثلاثة رجال، رجل وراء الآخر، بلا سرعة ولا عجلة، عابرين السلك الشائك، الذى تم قصه اليوم بشكل مناسب من أجل هذا الغرض، متلافين بهذه الطريقة شبك البنطلون وخربشة الجلد. سيحضر جنود سلاح المهندسين بالجيش ليصلحوه قبل بزوغ شقشقة الفجر الأولى من جديد، واضعين الأسلاك الشائكة الرادعة غير المؤذية خلال وقت موجز، وبكرات الأسلاك الهائلة الممتدة على طول الحدود، على الجانب و الجانب الآخر. لقد عبر الثلاثة رجال بالفعل، يتقدمهم رئيسهم، وهو أكثرهم طولاً، مجتازين بخطوة الأوزة مرجًا ترشح مياهه ويئن تحت أحذيتهم. وفى طريق فرعى، على بعد خمسمائة متر من هناك، تنتظر سيارة لتأخذهم فى صمت الليل

إلى مكانهم بالعاصمة، شركة مزيفة للتأمين لم يؤد بعد نقصان عملائها، الداخليين والخارجيين، إلى انهيارها. إن الأوامر التى تلقاها هؤلاء الرجال من فم وزير الداخلية مباشرة لأوامر واضحة ومحددة، أحضروا لى النتائج ولن أسألكم عن الوسائل. ليس لديهم أية تعليمات مكتوبة، ولا أى جواز مرور يغطيهم ويستطيعون إبرازه كدفاع عن أنفسهم أو تبرير لو حدث أى عائق غير متوقع، ولا يستبعد بالتالى إمكانية أن تتخلى عنهم الوزارة لو ارتكبوا أى خطأ ملموس قد يضر سمعة البلد والطهارة النقية لأهدافها وعملياتها. إن هؤلاء الرجال يشبهون القوات الخاصة فى الحروب، حيث يلقون بأنفسهم فى أرض العدو، ولا يجدون فى الظاهر أسبابًا ليفكّروا فى الخطر الذى يعرضون له حياتهم، لكنهم جميعًا مدركين لمنعرجات المهمة التى تتطلب مهارة فى الاستنطاق ومرونة فى الاستراتيجية وسرعة فى الأداء.. كل شىء فى أقصى درجاته. «لا أعتقد أن عليكم أن تقتلوا أحدًا»، - قال وزير الداخلية - «لكن لو وجدتم أنفسكم فى موقف صعب، واعتبرتم أنه لا يوجد حل آخر، فلا تترددوا فى القتل، وأنا سأتكلف بحل القضية مع وزارة العدل». «التى صارت من مهام رئيس الوزراء»، تجرأ رئيس المجموعة على القول .. تصنع وزير الداخلية بأنه لم يسمع شيئًا، واقتصر على توجيه نظرة حادة لصاحب العبارة غير المناسبة، الذى لم يجد حلاً أمامه سوى غض بصره عنه. دخلت السيارة المدينة،

توقفت فى الميدان ليتبدل السائق، وأخيرًا، بعد أن لف ثلاثين لفة ليضل أى مراقب غير محتمل، تركهم عند باب المبنى الذى تقع فيه شركة التأمين. لم يظهر حارس العقار ليعرف من يدخل فى هذه الساعة غير المعتادة فى روتين البناية، وقد يفترض أن أحدًا بكلمات طيبة قد أقنعه بالذهاب مبكرًا لفراشه، ناصحًا إياه بألا يرفع الملاءة عن جسده، حتى ولو انتابه الأرق الذى يخطف النوم من العين. صعد الثلاثة رجال بالمصعد حتى الطابق الرابع عشر، ساروا بالممر الأيسر فالأيمن فالأيسر، وأخيرًا وصلوا لمقر الشركة، إس، إيه بروبيدنشيال للتأمين ، هذا ما كان مكتوبًا فوق الباب، بحرف سوداء فوق لوحة مستطيلة من النحاس المنطفىء، مثبتة بمسامير ذات رءوس هرمية الشكل. دخلوا، أضاء النور أحد المرءوسين، وأغلق الآخر الباب بسلسلة الأمان. أثناء ذلك، كان رئيسهم يدور بالمنشأة، يتحقق من الوصلات، يوصّل الأجهزة بالفيشات، يدخل المطبخ وغرف النوم والحمّامات، يفتح باب الجزء المستقل المفضى لغرفة الأرشيف، يتجول بعينيه سريعًا على الأسلحة المتعددة الموجودة هناك فى الوقت الذى كان يشم فيه الرائحة المعتادة للمعدن ومادة التشحيم، غدًا سيعاين كل هذا، قطعة قطعة، ذخيرة ذخيرة. نادى مساعديه، جلس وأمرهم بالجلوس. «فى الساعة السابعة صباحًا ـ قال ـ سنبدأ عملنا فى مراقبة المشبوه، ولاحظوا أننى لا أسميه مشبوها لأبسّط حوارنا حوله، فلتعلموا أنه لم يرتكب

أية جـريمـة، وإنمـا لأنه من غيـر المنـاسب، لأسـبـاب أمنـيـة، أن أنـطق اسـمـه، عـلـى الأقل فى هـذه الأيـام الأولـى، أضيف أيضا أننى بهذه العملية، التى أتمنى ألا تـطـول أكـثـر من أسـبـوع، أطـمـح فـى المقـام الأول فى تـكوين صـورة عن تحـركات المشبـوه فى المـديـنـة، أين يـعمل، من أين يـسيـر، مع من يلتقى، أقصـد مـعـرفة روتـين الـتـحـريـات الأولـى، دراسـة أرض المعـركـة قـبل الاقـتـحـام». «وهل نـلـفت انـتـبـاهه أنه مـراقب» ـ سـأل مسـاعـده الأول ـ «نـعم، لـكن لـيس فـى الأيـام الأربـعـة الأولـى، وإنمـا بـعـد ذلك، فـأنـا أريـد رؤيته مضـطـربًا، قلقًا». «بما أنـه كتب الخطـاب فلابد أنه فى انتظار أن يـظـهـر له من يـراقـبه». «لـكل وقت آذان، مـا أريـده، وسـنـرتب الأمـر كى يـحـدث ذلك، هـو أن يـخشـى أنه مـراقب من قـبـل من أوشـى عـنه». «من قـبـل زوجـة الطبيب». «من قبل المـرأة لا بـالـطـبع، وإنمـا من قبل شـركـائهـا، هـؤلاء الـذين أدلـوا بـأصـوات بـيـضـاء». «ألا نـسيـر بـذلك بـإيقـاع سـريع ـ سـأل مـسـاعـده الثـانى ـ فـنـحن لم نـبـدأ الـعـمل بـعـد وهـانـحـن نـتـحـدث عن الشركاء». «ليس ذلك إلا كروكى لعملنا، كروكى بسيط فقط، أريد أن أضع نفسى فى موضع كاتب الخطـاب ومن هـنـاك أحـاول أن أرى مـا يـراه هـو». «أيـا كـان الـوضع، فـأسـبـوع مـراقـبـة يـبـدو زمـنًـا طـويلاً لإنجـاز المهمة» ـ قال مـسـاعده الأول ـ «لو عـملنا بجد، سننجز العملية فى ثلاثة أيام». عقد حاجبيه، كان على وشك أن يقول: قلت أسبوعًا، وسيكون أسبوعًا، لكنه تذكّر

وزير الداخلية، ولم يكن يتذكّر هل طلب منه باللفظ الصريح نتائج سريعة، لكن، بما أن ذلك هو الطلب الدائم الذى يسمع المديرين يتفوهون به، وبما أنه ليس لديه أسباب ليفكر أن الحالة الراهنة من الممكن أن تكون استثناء، بل على العكس تمامًا، لم يظهر نفورًا فى قبول فترة الثلاثة أيام، وهو أمر طبيعى فى العلاقة بين الرئيس ومرءوسيه، لأن الأحوال التى يجد فيها الرئيس نفسه مجبرًا على التنازل أمام مرءوسه، فى نهاية الأمر، أحوالاً نادرة. «لدينا صورتان لكل البالغين القاطنين بالعمارة، أقصد بالطبع الرجال منهم ـ قال رئيسهم وأضاف بدون أن يسأله أحد ـ إحدى هذه الصور للرجل الذى نبحث عنه». «فعندما لا نتعرف عليه، لن نتمكن من بدء مراقبته» ـ أوضح المساعد الأول .. «هو كذلك» ـ خفض له جناحه الرئيس ـ «لكن على أى حال، فى السابعة ستكونان فى موقعكما الإستراتيجى بالشارع لمراقبة الرجلين اللذين يبدوأن أكثر شبهًا للشخص الذى كتب الخطاب، سنبدأ بناء على الحدس، هذه المنارة البوليسية، فلابد من فائدة لها». «أيمكن أن أبدى رأيى» ـ سأل المساعد الثانى .. «تحدث». «بناء على نبرة الخطاب، لابد أن يكون كاتبه ابن عاهرة». «ما معنى ذلك» ـ سأل المساعد الأول ـ «أيعنى أننا يجب أن نراقب كل من يبدو عليه ابن عاهرة» ـ وأضاف ـ لقد علمتنى الحياة أن أسوأ أبناء العاهرات هم هؤلاء الذين لا يظهر عليهم ذلك». «حقيقة، كان من المنطق أن نذهب

للسجل المدنى بصورة لهذا الرجل، بهذه الطريقة كنا سنكسب وقتًا وجهدًا». قرّر الرئيس مقاطعته، «أظن أنكما لن تفكران أبعد من ذلك، فإن كنا لم نأمر بهذا الإجراء فذلك لأننا لا نريد إثارة الشبهات التى قد تجهض العملية». «معذرة رئيسى، أسمح لنفسى أن أختلف معك» ـ قال المساعد الأول ـ «كل المؤشرات تشير إلى أن هذا الرجل مشتاق لتفريغ الجوال، حتى أننى أعتقد أنه لو عرف مكاننا، سيطرق علينا الباب بنفسه». «أظن ذلك» ـ أجاب رئيسهم كاظمًا غيظه الناتج عن مظاهر النقد الهدام للخطة التى وضعها ـ «لكن من المناسب معرفة أقصى شىء عنه قبل لقائه المباشر». «لدىّ فكرة» ـ قال المساعد الثانى .. «فكرة أخرى» ـ سأل الرئيس بوجه عابس .. «أؤكد لك أن هذه الفكرة جيدة، أن يقوم أحدنا بالتخفىِ فى صورة بائع موسوعات وبهذه الطريقة سنتمكن من رؤية من سيفتح الباب». «إن خدعة بائع الموسوعات لخدعة شاب شعرها ـ قال المساعد الأول ـ بالإضافة لذلك، فالنساء هن من تعودن عمومًا على فتح الباب، ربما صارت فكرة رائعة لو كان هذا الرجل يحيا بمفرده، لكنه، إن كنت أتذكر جيدًا ما قاله الخطاب، رجل متزوج». «إذًا لقد ضايقتكم الفكرة» ـ صاح المساعد الثانى .. التزموا الصمت، متبادلين النظرات، وقد أدرك المساعدان أنه من الأفضل الآن انتظار الفكرة التى يقترحها رئيسهم. فى البداية، كانا على استعداد للتصفيق لها حتى ولو خر منها الماء من جميع

جوانبها. كان الرئيس يزن كل شىء قد تم اقتراحه من قبل، محاولا تركيب الاقتراحات المختلفة مع الأمل فى ظهور حل ذكى قد ينبثق من التسوية الطارئة لأطراف اللغز المعقد، يجبر الخاضعين لأوامره على فتح أفواههم من الدهشة. وفجأة، كما لو كانت الغمامة قد انزاحت من فوق عينيه، وجد الحل. «الناس - باستثناء العاجزين جسديًا - لا يجلسون دائما ببيوتهم، فهم عادة يذهبون لعملهم، يخرجون لشراء طلباتهم، يتنزهون، وبالتالى فإن فكرتى تكمن فى دخول البيت عندما لا يكون هذا الرجل بداخله، ولدينا عنوانه المكتوب فى الخطاب، ولا ينقصنا مفتاح مدلس، وعادة ما نجد صورًا فوق قطع الأثاث، وسنتعرف عليه هكذا عن طريق مجموعة الصور وبالتالى سنتمكن من مراقبته بلا صعوبات، ولكى نعرف عدم وجود أحد بالبيت سنقوم بالاتصال التليفونى، وغدًا سنعرف الرقم عن طريق خدمة الاستعلامات الخاصة بشركة التليفونات، يمكننا كذلك الاطلاع على الدليل، فكل الطرق تؤدى إلى روما». بهذه الطريقة التعيسة التى أنهى بها الجملة، أدرك الرئيس أن اللغز ليس له تسوية ممكنة. وبالرغم من استعداد كلا المرءوسين للتسامح أمام الاقتراح الناتج عن تأمل رئيسهما، كما قلنا من قبل، إلا أن المساعد الأول شعر أنه مضطر لإبداء ملاحظته، باذلاً جهدًا فى استخدام نبرة صوت لا تجرح شعور الآخر. «إن لم أكن مخطئًا، فإن أفضل حل، بما أننا نعرف عنوان الهدف، سيكون طرق باب

بيته مباشرة وسؤال من يفتح : هل هذا بيت فلان الفلانى، إن كان هو سيرد : نعم سيدى، إنه أنا، وإن فتحت زوجته فأغلب الظن أنها ستقول: سأنادى زوجى، وبهذه الطريقة سنمسك بالعصفور بدون أن نجرى وراءه». رفع رئيسهم قبضة يده المغلقة كمن سيسدد ضربة قوية للوح المائدة، لكنه فى اللحظة الأخيرة احتوى عنف الإيماءة، وأنزل ذراعه ببطء وقال بصوت كان ينحدر مع كل مقطع : «سندرس هذا الاحتمال غدًا، الآن سأخلد للنوم، فلتصبحوا على خير». كان يتوجه صوب باب غرفة النوم التى كان سيشغلها خلال فترة التحريات عندما سمع المساعد الثانى يسأل : «هل سنبدأ العملية فى السابعة فى كل الأحوال». أجابه بدون أن يلتفت له : «ما اتفقنا عليه سيظل معلقًا حتى إشعار جديد، ستتلقيان تعليمات غدا، وعندما تنتهى مراجعة الخطة التى تلقيتها من الوزارة، والتصديق عليها، لتيسير العمل، سنسلك الطرق التى نجدها مناسبة. فلتصبحوا على خير». «وأنت من أهل الخير سيدى الرئيس»، أجابه المساعدان، ودخل غرفة النوم. وبمجرد أن أغلق الباب، استعد المساعد الثانى لمواصلة حديثه، لكن المساعد الأول وضع سبابته على فمه وهز رأسه فى إيماءة لالتزام الصمت. وكان الأسبق فى ترك كرسيه وقول: «سأذهب لأنام، إن تأخرت، فأدخل بحرص حتى لا تقلق منامى». وعلى عكس الرئيس، فليس من حق هذين المرءوسين النوم فى غرفة فردية، وسينامان

فى غرفة رحبة بثلاثة أسرّة، وهى عبارة عن صالة صغيرة قليلا ما كانت مشغولة تمامًا. كان السرير الأوسط هو أقل الأسرّة استخدامًا. فعندما يأتى شرطيان، كما هو الحال، كانا يستخدمان السريرين الجانبين بشكل ثابت، وعندما كان ينام أحد بمفرده، فمن المؤكد والمعروف أنه أيضًا كان يفضل النوم فى الطرف، لا فى الوسط، ربما لأنه كان يشعر أنه محاصر أو مساق للسجن. وأخيرًا فضباط الشرطة الأكثر قسوة وحدّة، مع أن هذين الشرطيين لم تأت المناسبة لتبرهن قسوتهما، يحتاجون الشعور بالحماية بقرب الحائط. نهض المساعد الثانى، الذى فهم الرسالة، وقال: لا، لا أستطيع البقاء، أنا أيضًا سأنام. ومحترما التدرج الوظيفى، دخل الأول وتلاه الثانى، ومرا بحمام مزود بكل ما تحتاجه نظافة الجسد، كما قال الكتاب، حيث أننا لم نذكر فى أية لحظة من الحكاية أن الضباط الثلاثة قد أحضروا معهم شيئًا أكبر من حقيبة صغيرة او حقيبة كتف بسيطة تحتوى على ملابسهم، وفرشاة أسنان وماكينة حلاقة. قد يكون من المدهش حقًا ألا تهتم شركة تحمل الاسم السعيد للتأمين على الحياة بتزويد من تستضيفهم وقتيا بمواد ومنتجات للنظافة الشخصية التى لا غنى عنها لراحتهم ولقيامهم بالمهمة التى كلفوا بها على أكمل وجه. بعد نصف ساعة كان المساعدان كل فى سريره، ببيجامته النظامية، بشعار الشرطة المطرز على القلب. «فى النهاية، كانت خطة وزارة الداخلية لا

تحتوى على خطة» ـ قال المساعد الثانى .. «هذا هو ما يحدث عادة عندما لا يسألون أهل الخبرة» ـ أجاب المساعد الأول .. «الرئيس لا تنقصه الخبرة قال المساعد الثانى ـ فلو نقصته الخبرة ما صار ماهو عليه اليوم». «القرب أحيانًا من مركز القرار يؤدى إلى قصر النظر، يحجب الرؤية» ـ أجاب المساعد الأول عن علم .. «أتقصد أننا لو وصلنا ذات يوم إلى مركز رئاسى حقيقى، مثل رئيسنا، سيحدث لنا نفس الشىء؟» ـ سأل المساعد الثانى .. «فى هذه الأحوال الخاصة ليس هناك سبب ليختلف المستقبل عن الحاضر» ـ أجاب المساعد الأول بعقل سليم .. بعد ربع ساعة وقع كل منهما فى غياهب السبات ـ كان أحدهما يعزف شخيرًا والآخر لا.

لم تكن قد وصلت الساعة الثامنة صباحًا عندما دخل الرئيس، نظيفًا وحليق اللحية مرتديًا بذلته، فى الصالة التى فيها مزق المساعدان، بتحفظ جدير بالاستحسان وباحترام ملموس بل وبلباقة فى الحديث، خطة الوزارة، أو بكلمة أدق، خطة وزير الداخلية، تلك الخطة التى ألقاها بضيق صدر على مكتب إدارة المباحث. لقد اعترف بذلك بلا صعوبات ولم يحمل لهما أقل ضغينة فى قلبه، بل على العكس، كان واضحًا عليه الشعور بالراحة. وبنفس الإرادة القوية التى قضى بها على الأرق الذى لاحقه فجعله يتقلب فى سريره، سيتولى بنفسه قيادة العملية، تاركًا ما لقيصر لقيصر وما لله لله، كل باسمه، لكنه موضح

أن إلى الله و السلطة تعود فى النهاية، عاجلا أم آجلا، كل المكاسب . كان بالتالى رجلا هادئا، واثقًا بنفسه، هذا الرجل الذى وجد مساعديه فى غفوة عندما ظهرا بعد دقائق فى الصالة، مرتديان البيجامة و البورنس الذى يحمل شعار المباحث، جارين بهمة فاترة نعليهما. كان الرئيس يتوقع ذلك، وكان يثق أنه سيكون الأول فى النهوض، وهاهو يتأكد ظنه. «صباح الخير يا أولاد - حيّاهما بنبرة ودودة - أتمنى أن تكونا قد استرحتما». «نعم سيدى» - قال أحدهما .. «نعم سيدى» - كرّر الآخر. «هيا نفطر، بعدها تهندما بسرعة، فربما نفاجئ الهدف فى سريره، سيكون أمرًا رائعًا، بالمناسبة، فى أى يوم فى الأسبوع نكون». «السبت». «اليوم يوم السبت». «لا أحد يستيقظ مبكرًا يوم السبت، سترون كيف سيفتح الباب مرتديا ملابس النوم مثلكما، البورنس و البيجامة، منتعلا نعليه فى الممر، وهو ما يعنى الخروج بهمة فاترة، بهبوط نفسى، هيا سريعا، من منكما الشجاع الذى سيتبرع بإرادته بتجهيز الفطار». «أنا» - قال المساعد الثانى عارفا تمامًا أنه لا يوجد مساعد ثالث ليقوم بهذه المهمة .. فى حالة مختلفة، أقصد لو كانت خطة الوزارة بدلا من تمزيقها إربا، قد تم قبولها بلا نقاش، لجلس المساعد الأول مع الرئيس ليسجل ويدقق، حتى ولو لم يكن ذلك ضروريا، بعض تفاصيل الإجراءات التى سيشرعون فيها ، لكن ذلك لم يحدث، وبالتالى، متنازلاً، قرر القيام بإيماءة صداقة وقال: «سأساعده».

وافق الرئيس، بدا له رائعًا، وجلس يراجع بعض الملحوظات المكتوبة قبل أن يرقد. وقبل أن تمر ربع ساعة كان المساعدان قد ظهرا بالصوانى، فناجين القهوة، إبريق اللبن، علبة البسكويت، عصير البرتقال، الزبادى، الفواكه المطبوخة بالسكر، ولم يكن من شك أن خدمة تموين الشرطة السياسية تستحق السمعة التى غزتها خلال سنوات طويلة من عملها. مستسلمين لتناول القهوة باللبن البارد أو المعاد تسخينه، قال المساعدان بخجل إنهما سيدخلان ليهندما نفسهما وسيعودان، فى أسرع وقت ممكن. بالفعل، كانت تبدو قلة احترام، أمام الرئيس المرتدى بدلته وربطة عنقه، الجلوس بهذا المنظر، بهذا الإهمال، بلحية غير حليقة، بعينين شبه مغمضتين، برائحة ليلية وكثيفة لجسد لم يغتسل. لم يكن ضروريًا أن يشرحا له ذلك، فنصف كلمة قد لا تكفى فى الأحوال العادية، تكفى الآن وتفيض. بشكل طبيعى، ولأنه قد ساد جو من الطمأنينة واتخذ المساعدان مكانهما، لم يكلف الرئيس جهدًا أن يقول لهما اجلسا وكلا معى عيشًا وملحًا. «نحن زملاء عمل، نركب سويا نفس المركب، مسكينة تلك السلطة التى تحتاج للشدة فى كل الأوقات لتحصل على الطاعة، من يعرفنى يعرف أننى لست من هذه النوعية، اجلسا،اجلسا». قسرًا، جلسا المساعدان، مدركين، وليقال ما يقال، أن هناك أمرًا غير لائق فى هذا الوضع، اثنان متشردان يفطران مع شخص يبدو داندى مقارنة بهما، كان عليهما هما أن

يهزا أردافهما مبكرًا، كان يجب عليهما أن يعدا الإفطار قبل خروج الرئيس من غرفة نومه، بالبورنس و البيجامة، إن أراد ذلك، لكننا لم نفعل، ارتدينا ملابسنا ومشطنا شعرنا كما قال الكتاب، ووضعنا الأناقة فى تصرفاتنا، لا القلق الصارخ بحيرة، الذى يضاهى القلق الذى يهز البنايات الاجتماعية الأكثر رسوخًا. إنه لمثل حكيم هذا المثل القديم الذى يقول : كلما زادت الألفة، زاد الاشمئزاز ؛ أتمنى ألا يندم الرئيس على حسن معاملته لنا. حتى الآن يبدو واثقًا من مسئولياته، ليس علينا سوى الاستماع له. «هذه المهمة لها هدفان، الأول أساسى و الثانى فرعى، أما الهدف الفرعى، الذى أتعجل به حتى لا أضيع الوقت، فهو التحرى بقدر الإمكان حول الجريمة التى ارتكبتها المرأة التى كانت تقود مجموعة العميان الستة المذكورة فى الخطاب، لكن بدون إصرار مبالغ فيه، أما الهدف الرئيسى، الذى سنبذل من أجله كل جهدنا وقدرتنا وسنستخدم له كل الوسائل المنصوح بها، أيا كانت تلك الوسائل، فهو التحرى حول وجود علاقة بين هذه المرأة، التى يقال عنها أنها ظلت مبصرة عندما أصابنا جميعًا العمى وصرنا تائهين، وبين الوباء الجديد المسمى بالتصويت الأبيض» . «ليس من السهل العثور عليها» - قال المساعد الأول .. «لهذا نحن هنا، فكل المحاولات التى بذلت لكشف النقاب عن جذور الامتناع عن الانتخاب باءت بالفشل وقد لا يفضي بنا الخطاب إلى طريق جديد، لكنه على الأقل يعطينا خيطًا جديدًا

للتحرى». «أجد من الصعب الاعتقاد بأن هذه المرأة وراء حركة تؤثر على مئات الآلاف من الأشخاص وأنه، غدا، إن لم يجتز الشر من جذوره، ستتمكن من الإجتماع بملايين وملايين» ـ قال المساعد الثانى .. «يبدو الافتراضان دربًا من المستحيل، لكن لو حدث الافتراض الأول، فهناك إمكانية لحدوث الافتراض الثانى» ـ أجاب رئيسهما وأنهى المسألة واضعًا وجه من يعرف أكثر مما يُسمح له بالقول، وبدون تخيل إلى أية نقطة قد يكون ذلك حقيقة .. «لا يأتى المستحيل مفردًا». بجملة الختام السعيدة هذه، الشبيهة بمفتاح من ذهب لقصيدة شعرية، قد وصلوا للانتهاء من إفطارهم: نظف المساعدان المائدة وحملا الأطباق والأكواب وبقايا الطعام للمطبخ. «الآن سنتهندم، لن نتأخر شيئًا» ـ قالا .. «انتظرا ـ قاطعهما الرئيس وتوجه للمساعد الأول ـ استخدم حمامى لتنجز، وإلا لن نستطيع الخروج من هنا». من الرضا احمرت وجنتا التعيس، فقد تقدم كثيرًا والآن سيتبول فى كنيف الرئيس.

فى الجراج الواقع تحت الأرض كانت تنتظرهم سيارة، كان أحد قد جاء فى اليوم السابق وترك مفاتيحها فوق كومودينو الرئيس برفقة ورقة توضح ماركتها ولونها ورقم لوحتها المعدنية والمكان المركونة فيه. بدون المرور بمدخل المبنى، هبطوا بالمصعد ووجدوا السيارة سريعا. كانت حوالى العاشرة صباحًا. أمرالرئيس المساعد الثانى أن يفتح له الباب الخلفى

وأن يقود السيارة. جلس المساعد الأول فى الكرسى الأمامى، بجانب السائق. كان صباحًا معتدلاً، مشمسًا، وهو ما يبرهن بكل الحجج أن لعنة السماء الذى كانت فى الماضى نبعا فياضًا قد فقدت مع مرور الزمن تدفقها، لقد كانت أوقات سعيدة تلك الأوقات التى فيها بسبب العصيان البسيط والمسبَّب للأوامر الإلهية تصعق وتدك مدن توراتية بكامل سكانها بداخلها. هنا توجد مدينة أدلت بأصوات بيضاء ضد الرب ولم تصب حتى بشعاع يسقط عليها من فوقها ولم تتناثر لرماد كما حدث لقرية سدوم وعمورة، عندما ارتكبوا ذنبًا أقل مثالية بكثير مما حدث هنا، ولا لقرية آدوم وصبوييم، اللتين أُحرقتا حتى السحق، مع أن هاتين القريتين لا يتحدث عنهما كثيرا مثل الأقوام الأوائل التى التصقت أسمائها بالأذان للأبد بسبب موسيقاها التى لا تقاوم. اليوم، وقد كفوا عن الطاعة العمياء لأوامر الرب، الأشعة تسقط فقط حيث تريد، ومن الواضح و الظاهر أنه لن يكون ممكنًا الوثوق بها لقيادة المدينة المذنبة بإدلاء أصوات أبيض إلى الطريق المستقيم. وليحلوا محله، أرسل وزير الداخلية ثلاثة من رؤساء ملائكته، هؤلاء الشرطيون الموجودون هنا الآن، الرئيس ومعاوناه، الذين من الآن فصاعدًا سنسميهم برتبهم الرسمية، وهم طبقا للسلم الوظيفى: مأمور، مفتش، معاون مباحث. الاثنان الأوائل يراقبان الأفراد السائرين بالشارع، لا أحد منهم برئ، كلهم مذنب بشىء قد ارتكبه، ويتساءلان فيما بينهما ألا يكون ذلك

الرجل العجوز الوقور فى مظهره، مثلا، هو مايسترو الأحداث المظلمة الأخيرة، ألا تكون هذه الفتاة التى تعانق خطيبها هى التجسيد الحى لثعبان الشر، ألا يتوجه هذا الرجل الذى يعبر الشارع مطرقًا إلى وكر غير معروف تتصعد فيه الفلاتر التى تبث السم فى روح المدينة. أما هموم المعاون، الذى بسبب وضعه الوظيفى لا يجد نفسه مضطرًا إلى دعم أفكار سامية ولا تغذية الشبهات الواقعة تحت سطح الأشياء، فكانت تكمن فقط فى المرور بالبيت، وكانت من نوع الاقتراح الذى تجرأ وقاطع به تأمل رئيسيه : مع هذا الطقس الرائع، قد يكون الرجل قد ذهب ليقضى يومه فى الحقل. أى حقل - أراد المفتش أن يعرف بنبرة ساخرة .. الحقل، ماذا سيكون. الحقل الفعلى، الحقيقى، يقع على الجانب الآخر من الحدود، أما هذا الجانب فليس إلا المدينة. كان محقًا. فقد المعاون فى التو فرصة جيدة ليلتزم الصمت، لكنه تعلم درسا، أنه فى هذا الطريق لن يصل إلى شىء. ركّز فى قيادة السيارة قاسما اليمين ألا ينبس بكلمة سوى ليرد على سؤال. كان ذلك عندما أمسك المأمور بطرف الحديث. سنكون صارمين، بلا رحمة، لن نمارس أية مهارة كلاسيكية، مثل تلك المهارة القديمة والمحنطة لضابط شرير يستخدم الإرهاب وضابط آخر ظريف يمارس الإقناع، سنكون فرقة فدائية، فلا مجال هنا للمشاعر، فلنتخيل أننا ماكينات أنشئت لمهمة بعينها وسننفذها ببساطة، دون النظر للوراء. أمرك سيدى - قال المفتش

.. أمرك سيدى ـ قال المعاون ـ حانثًا بيمينه. دخلت السيارة الشارع حيث يقطن الرجل الذى كتب الخطاب، هذه هى العمارة، الشقة، الرقم. ركن السيارة إلى الأمام قليلاً، فتح المعاون الباب لينزل المأمور، نزل المفتش من الجانب الآخر، اكتملت الفرقة، وقفت على خط النار وبقبضة يد محكمة، أكشن.

الآن نراهم فى بسطة السلم. المأمور يوجه أمرًا بإيماءة إلى المعاون ، فيقوم الأخير بقرع الجرس. صمت مطبق على الجانب الآخر. يفكر المعاون : إنه قد ذهب بالفعل إلى الحقل لقضاء اليوم، لقد كنت محقا. إيماءة جديدة، قرعة جديدة. بعد عدة ثوان تُسمع حركة أحد، إنه رجل يسأل من الداخل : من الطارق. نظر المأمور إلى مساعده المباشر، فقال هذا، بصوت معظّم، بوليس. لحظة من فضلك ـ قال الرجل ـ سأرتدى شيئًا. مرت أربع دقائق. قام المأمور بنفس الإيماءة، وعاد المعاون ليدق الجرس ، بدون أن يرفع عن الجرس إصبعه. لحظة واحدة، لحظة واحدة، من فضلك، سأفتح الآن، لقد أيقظتمونى من نومى. قيلت الكلمات الأخيرة مع فتح الباب وظهور رجل يرتدى بنطلونًا وقميصًا، ونعلين أيضًا. اليوم يوم النعال ـ فكّر المعاون .. لم يكن الرجل مذعورًا، كان يرتسم على وجهه تعبير من يرى فى النهاية وصول زوار كان ينتظرهم، ولو كانت هناك مفاجأة فهى فقط عدد الزوار. سأله المفتش عن إسمه، فأجاب وأضاف : تفضلوا، معذرة على عدم ترتيب البيت، لم أتوقع أن

تأتوا بهذه السرعة، وبالإضافة لذلك كنت مقتنعًا أنكم سترسلون فى استدعائى لكنكم جئتم بأنفسكم، أظن أن مجيئكم بسبب الخطاب. نعم، بسبب الخطاب ـ أكّد المفتش بإيجاز .. تفضلوا، تفضلوا. كان المعاون أول من دخل، فى بعض الأحوال يسير التدرج الوظيفى بالعكس، بعده دخل المفتش فالمأمور، وانتهى الموكب. تقدّم الرجل إلى الممر منتعلاً نعليه. اتبعونى، ادخلوا من هنا ـ فتح بابًا يؤدى لغرفة الجلوس وقال : ـ تفضلوا بالجلوس،استأذنكم لأنتعل حذاء، فهذا لا يليق باستقبال ضيوف. لسنا بالتحديد ضيوفًا ـ صحّح له المفتش .. بالطبع، إنها عبارة تقال. اذهب لانتعال حذاء ولا تتأخر، فنحن على عجلة. لا، لسنا على عجلة، لسنا على عجلة ـ أنكر المأمور الذى لم يكن قد نبس بكلمة .. نظر له الرجل، الآن نعم بملامح تعرف الخشية، كما لو كانت النبرة التى تحدث بها المأمور خارج توقعاته، ولم يجد خيرًا من أن يقول : أؤكد لك أنك تستطيع أن تثق كلية فى تعاونى، سيدى. المأمور، إنه مأمور ـ قال المعاون .. سيدى المأمور ـ كرّر الرجل، وأنت. أنا فقط معاون، لا تقلق. صوّب الرجل نظره للعضو الثالث فى المجموعة وحل محل السؤال استجواب بالحاجب، لكن الإجابة جاءته من المأمور. هذا السيد مفتش ومساعدى المباشر ـ وأضاف ـ اذهب الآن لانتعال الحذاء. خرج الرجل. لا نسمع صوت أحد آخر فى البيت، ويبدو على هذا الرجل أنه وحيد هنا ـ همس المعاون .. أغلب الظن أن زوجته

ذهبت لتقضى اليوم فى الحقل ـ مزح المفتش .. أعطى المأمور أمرا بإيماءة كى يلتزموا الصمت. سأطرح أنا عليه الأسئلة الأولى ـ أشار لهما بصوت خفيض .. دخل الرجل، وعند جلوسه قال: اسمحوا لى بالجلوس ـ كما لو لم يكن فى بيته، بعدها قال : هأنا بين أيديكم وتحت أمركم. وافق المامور بتلطف، وبدأ بعدها. خطابك، أقصد الثلاثة خطابات التى بعثت بها، لأنها كانت ثلاثة. اعتقدت أن ذلك أضمن، فخطاب واحد قد يضيع ـ فسّر الرجل .. لا تقاطعنى، جاوب على الأسئلة عندما أوجهها لك. أمرك سيدى المأمور. خطاباتك، أكرّر، تمت قراءتها باهتمام كبير لمن ارسلتها لهم، خاصة النقطة التى تقول فيها إن امرأة ما غير معروفة الهوية قد ارتكبت جريمة اغتيال منذ أربع سنوات. لم يكن ثمة سؤال فى العبارة، كان فقط تكرارًا لما قيل من قبل، لذا فقد التزم الرجل الصمت. وارتسم على وجه الرجل تعبير الحيرة والارتباك، فلم يفهم لماذا لا يدخل المأمور مباشرة فى صلب الموضوع بدلا من تضييع الوقت فى حدث يذكر فقط فى تظليل ظلال الصورة المقلقة. تصنّع المأمور بأنه لم ينتبه. احك لنا ما تعرفه عن هذه الجريمة ـ طلب منه .. كبح الرجل دفعة كانت ستسوقه ليذكر المأمور أن أهم ما فى الخطاب ليس هذا الحدث، فحادثة الاغتيال مقارنة بحال البلد لا تساوى شيئا، لكنه لا، لن يفعل، فالحيطة تأمر أن يواصل الموسيقى التى دعوه عليها ليرقص، فبعد ذلك بالطبع سيغيرون هذه الموسيقى.

أعرف أنها قتلت رجلا. أرأيت الحادث، أكنت هناك ـ سأل المأمور ـ. لا سيدى المأمور، بل هى التى اعترفت. آه. اعترفت لى ولآخرين. أظن أنك تعرف المعنى الفنى لكلمة الاعتراف. تقريبًا، سيدى المأمور. تقريبًا كلمة غير كافية، هل تعرف أم لا. بهذا المعنى الذى تقوله لا أعرفه. الاعتراف معناه الإعلان عن الأخطاء والذنوب، لكنه قد يعنى الإفصاح عن الذنب أو الاتهام، من جانب المتهم، أمام السلطات أو القضاء، أتعتقد أن هذه التعريفات تنطبق بشدة على الحالة. بشدة، لا، سيدى المأمور. رائع، فلتواصل. كانت زوجتى هناك، زوجتى كانت شاهد عيان على موت الرجل. ماذا تعنى كلمة هناك. أقصد بهناك مستشفى المجانين القديمة التى عزلونا فيها بسبب الحجر الصحى. أظن أن زوجتك كانت أيضًا عمياء. كما قلت لكم، الشخص الوحيد الذى لم يفقد بصره كانت هى. من هى . المرأة التى قتلت. آه. كنا فى إحدى الصالات التى كانت غرف نوم جماعية. وهناك وقعت الجريمة. لا سيدى المأمور، الجريمة وقعت فى صالة أخرى. إذًا لم يوجد أحد من أفراد صالتك فى مكان الجريمة. النساء فقط. لماذا النساء فقط. إنه من الصعب شرحه سيدى المأمور. لا تشغل بالك، لدينا وقت. هناك بعض العميان أمسكوا زمام السلطة وبثوا الرعب. الرعب. نعم سيدى المأمور، الرعب. وكيف كان ذلك. امتلكوا الطعام، ومن يرغب الأكل فليدفع. وكانوا يطلبون نساء كرشوة جنسية. نعم سيدى المأمور. حينها قتلت هذه

السيد هذا الرجل. نعم سيدى المأمور. كيف قتلته. بالمقص. من كان هذا الرجل. كان من يأمر العميان الآخرين. إنها امرأة شجاعة بلا شك. نعم سيدى المأمور. الآن اشرح لنا لماذا أوشيت بها. لم أوش بها، لقد ذكرتها لأن الكلام أتى ببعضه. لا أفهم. إن ما كنت أرغب أن أقوله فى خطابى إن من يفعل شيئًا يستطيع أن يفعل شيئا آخر. لم يسأل المأمور عن هذا الشىء الأخر، وأقتصر على النظر إلى من سماه مساعده المباشر، داعيًا إياه أن يواصل الاستجواب. تأخر المفتش عدة ثوان. أيمكن أن تنادى زوجتك - سأل - نود الحديث معها. امرأتى ليست موجودة. متى ستعود. لن تعود، إننا تطلقنا. منذ متى. منذ ثلاث سنوات. ألديك مانع فى أن تخبرنا بسبب الطلاق. أسباب شخصية. بالطبع لابد أنها أسباب شخصية. أسباب حميمية. كما يحدث فى كل طلاق. نظر الرجل فى الوجوه التى لا يسبرغورها الجالسة أمامه وأدرك أنهم لن يتركونه فى حاله حتى يقول ما يريدونه. تنحنح ليسلك حنجرته، ووضع ساقًا فوق ساق وأنزلها. أنا رجل له مبادئه - بدأ -. ونحن على ثقة من ذلك، - قفز المعاون بدون أن يحتوى نفسه - أقصد أننى متأكد من ذلك، فقد كان لى الشرف أن أطلع على خطابك. ابتسم المأمور و المفتش، كانت المفاجأة جديرة بإثارة الابتسام. نظر الرجل للمعاون باستغراب، كما لو لم يتوقع الهجوم من هذا الجانب، فغض بصره وواصل : كان لها علاقة بهؤلاء العميان، لم أستطع أن أتحمل أن تقع

زوجتى تحت يد تلك العصابة، خلال عام احتملت العار، لكننى فى النهاية لم أحتمل، فانفصلت عنها، طلقتها. يبدو لى أننى سمعتك تقول إن العميان الآخرين كانوا يقدمون زوجاتهم مقابل الطعام - قال المفتش .. هذا ما حدث. أظن، بالتالى، أن مبادئك لم تسمح لك بلمس الطعام التى أحضرته لك زوجتك بعد أن خضعت لتلك العصابة، حتى أستخدم تعبيرك القوى. طأطأ الرجل رأسه ولم يرد. أفهم تحفظك - قال المفتش - إنه فعلا أمر حميمى، غاية فى الحميمية فلا يصح الإفصاح به للغرباء، معذرة، لم أقصد جرح مشاعرك. نظر الرجل للمأمور كما لو يطلب النجدة، على الأقل ليستبدل التعذيب بالكماشة بالعقاب بالمطرقة. لبى له المأمور طلبه، واستخدم العصا. فى خطابك أشرت لمجموعة من سبعة أفراد. نعم سيدى المأمور. من هم. بالإضافة للمرأة وزوجها. أية امرأة. التى لم تصب بالعمى. التى كانت تقودهم. نعم سيدى المأمور. التى لتنتقم لزميلاتها قتلت رئيس العصابة بالمقص. نعم سيدى المأمور. واصل. كان الزوج طبيب عيون. نعرف ذلك. كانت هناك امراة عاهرة. هل قالت هى إنها عاهرة. لا أتذكر، سيدى المأمور. كيف عرفت إذًا أنها عاهرة. من طريقتها، فطريقتها لا تضلل. آه، نعم، فالطريقة لا تكذب أبدا، واصل. كان هناك أيضًا رجل عجوز أعمى، بعين واحدة ويضع عليها ضمادة سوداء، ذهب بعد ذلك ليعيش معها. مع مَنْ. مع العاهرة. وهل عاشا سعيدين. لا أدرى. يجب أن تعرف

شيئا. خلال العام الذى ظللنا فيه على اتصال يبدو لى أنهما كانا سعيدين.عدّ المأمور على أصابعه. باقى واحد - قال .. حقا، كان معنا طفل أحول تاه من عائلته فى وسط الفوضى.وتعارفوا جميعا داخل غرفة النوم الجماعية. لا سيدى المأمور، فقد تعرفوا على بعض قبلها.أين. فى عيادة الطبيب الذى حملتنى إليه زوجتى السابقة عندما صرت أعمى، أعتقد أننى أول من فقد بصره. ثم نقلت العدوى للآخرين ، نقلت العدوى للمدينة بأسرها، بمن فيهم الذين يزورك اليوم. ليس ذنبى، سيدى المأمور. أتعرف أسماء هؤلاء الأفراد. نعم سيدى المأمور. كلهم. بإستثناء الطفل، ولو عرفته من قبل فقد نسيته. لكنك تذكر الأسماء الأخرى. نعم سيدى المأمور. وعناوينهم. نعم إن لم يغيروها خلال هذه السنوات الثلاث. بالطبع، إن لم يغيروها خلال هذه السنوات الثلاث. وجّه المأمور نظره صوب الغرفة الصغيرة، وعلق نظره على التليفزيون كما لو كان منه سيأتى الوحى، بعدها قال : أيها المعاون، إعطه كراسة ملحوظاتك ليكتب أسماء وعناوين الأفراد الذين انتهى من ذكرهم تكرما، باستثناء اسم الطفل الأحول الذى لا يستحق العناء فى كل الأحوال. ارتجفت يد الرجل عندما تلقى القلم و الكراسة، وظلت ترتجف بينما كان يكتب، وكان يقول فى قرارة نفسه إنه ليس هناك سبب لخوفه، فإن كان رجال المباحث هنا فلأنه قد أرسل فى طلبهم، لكن ما استعصى على فهمه هو لماذا لم يتحدثوا عن الأصوات البيضاء ، عن الثورة، عن التآمر

ضد الدولة، عن السبب الوحيد والحقيقى الذى كتب من أجله الخطاب. وكنتيجة لارتجاف يده، جاءت الأحرف سيئة الكتابة. أيمكن أن أستعمل ورقة أخرى ـ سأل .. كما تريد ـ أجابه المعاون .. خرجت الأحرف أكثر ثباتًا، ولم تخزه. وبينما كان المعاون يأخذ القلم ويسلم كراسة الملحوظات للمأمور، كان الرجل يسأل نفسه بأية إيماءة، بأية كلمة يستطيع أن يجتذب ود رجال المباحث، لطفهم، رضاءهم، حتى ولو حدث ذلك فى اللحظة الأخيرة. فجأة تذكّر. لدىّ صورة ـ صاح ـ نعم، أعتقد أن لدىّ صورة. أية صورة ـ سأل المفتش .. صورة للمجموعة، أخذناها بعد أن استرددنا بصرنا، لم تأخذها معها زوجتى، قالت إنها ستستخرج أخرى، وتركتها لى حتى لا أفقد الذكرى. أهذه كانت كلماتها ـ سأل المفتش، لكن الرجل لم يجب، كان قد وقف وخرج متوجها لغرفته .. حينها أمر المأمور : أيها المعاون، كن مع هذا الرجل، إن وجد صعوبة فى العثور على الصورة حاول أن تجدها أنت، لا تعد بدونها. تأخرا عدة دقائق. وجدتها ـ قال الرجل .. اقترب المأمور من نافذة ليرى بشكل أفضل. فى صف، بعضهم جانب بعض، اجتمع الستة البالغين، اثنين اثنين. على اليمين كان صاحب البيت، أمكن التعرف عليه بكل سهولة، وبجانبه زوجته السابقة، وعلى اليسار بلا أدنى شك كان الرجل العجوز بالضمادة السوداء وبجانبه العاهرة، وفى الوسط، بلا مسافة تذكر، من يحتمل أنهما الطبيب وزوجته. وأمامهم، فى جلسة القرفصاء

مثل لاعبى كرة القدم، كان الطفل الأحول. بجانب زوجة الطبيب كان هناك كلب كبير ينظر للأمام. أصدر المأمور إيماءة للرجل ليقترب. أهى تلك المرأة - سأل .. نعم، سيدى المأمور، إنها هى. والكلب. لو أردت لرويت لك القصة، سيدى المأمور. لا تستحق العناء، هى ستروبها لى. خرج المأمور أولا، بعده المفتش فالمعاون. ظل الرجل الذى كتب الخطاب ينظر إليهم حتى هبطوا السلم. المبنى بلا مصعد ولا أمل فى إنشائه فى يوم من الأيام.

تجول بالسيارة الضباط الثلاثة داخل المدينة لقضاء الوقت حتى ساعة الغداء. لن يتناولوا غداءهم سويًا. تركوا السيارة بالقرب من منطقة مطاعم وتفرّقوا، ذهب كل منهم حيث أراد، ليعاودوا اللقاء بعد تسعين دقيقة بالضبط فى ميدان شبه ناء، حيث سيمر المأمور، الجالس الآن فى مقعد السائق، ليأخذ معاونيه. بكل وضوح، لا أحد هنا يعرف من هم، بالإضافة لكونهم لا يضعون على جبهتهم حرف P الذى هو علامة البوليس، لكن الحس المشترك والحيطة ينصحان ألا يتنزهوا مجتمعين بوسط مدينة تعد عدِوة لأسباب كثيرة. الحق أن هناك رجالا عددهم ثلاثة يسيرون من هنا، وثلاثة آخرون يسيرون أمامهم، لكن بالنظرة المجردة سنشعر أنهم رجال عاديون، ينتسبون لطبقة المشاه السوقية، رجال مألوفون، بعيدون عن أية شبهة، سواء كانت شبهة العمل من أجل القانون او شبهة مطاردة القانون لهم. خلال التجول بالسيارة أراد المأمور أن يعرف الانطباعات التى أخذها كل من معاونيه عن الحوار مع الرجل كاتب الخطاب، محددًا، مع ذلك، أنه غير مهتم بسماع الأحكام الأخلاقية. «هو رجل وغد من

الدرجة الأولى، نعرف ذلك، فلا يستحق الأمر إسراف الوقت فى البحث عن صفات أخرى». بدأ المفتش حديثه ليقول إنه يقدّر، قبل أى شىء، الطريقة التى أدار بها المأمور الاستجواب، حيث أهمل بمهارة كبرى أية إشارة للتلميح الشرير الذى احتواه الخطاب، هذا التلميح الخاص بأن زوجة الطبيب، لكونها مستثناه من العمى الجماعى الذى انتشر منذ أربع سنوات، قد تكون السبب أو بشكل ما متورطة فى المؤامرة التى ساقت العاصمة إلى الأصوات البيضاء. «كانت واضحة - قال - حيرة الرجل، إنه كان ينتظر أن يكون الموضوع الرئيسى، إن لم يكن الموضوع الوحيد، لاهتمام المباحث، وفى النهاية جاءت النتيجة عكس ما توقّع». «كان مؤسفًا رؤيته فى تلك الحالة» - أنهى جملته .. اتفق المعاون مع رؤية المفتش، بارزًا، بالإضافة، روعة تتابع الأسئلة الذى فتت وسائل دفاع المستجوب، سواء من جانب المأمور أو المفتش. توقّف، وبصوت خفيض أضاف : «سيدى المأمور، واجبى ان أخبرك أننى استخدمت المسدس عندما أمرتنى أن أصحب الرجل». «استخدمت المسدس، كيف ؟» - سأل المأمور .. «وضعته بين ضلوعه، وربما مازال أثره فى مكانه». «ولماذا؟». فكّرت أنه سيتأخر فى العثور على الصورة، وأنه سيستغل الهدنة ليخترع أية خدعة تعوق التحقيق، وهو الشىء الذى سيجبرك على تغيير خط الاستجواب فيكون ذلك فى صالحه. «والآن ماذا تريد أن أفعل، أن أعطيك ميدالية وأعلقها على صدرك» - سأل المأمور

بنبرة ساخرة .. «لقد كسبنا الوقت، سيدى المأمور، فالصورة ظهرت فى ثانية». «وأنا على وشك أن أخفيك». «معذرة، سيدى المأمور». «سنرى إن لم أنس أن أنبهك كم مرة ستقدم اعتذارا». «أمرك سيدى المأمور». «أريد أن أسألك سؤالا». «تحت أمرك، سيدى المأمور». «هل رفعت أجزاء السلاح». «لا سيدى المامور، لم أرفعه». «هل نسيت رفعه». «لا سيدى المأمور، أقسم لك، فهدفى كان فقط تخويفه». «وهل استطعت تخويفه». «نعم سيدى المأمور». «على ما أرى يجب أن أعطيك هذه الميدالية، والآن اصنع فى معروفًا ولا تفقد أعصابك، لا تطأ خط المشاه ولا تكسر الإشارة، إن كان هناك شىء لا أرغبه فهو أن أجد نفسى مضطرًا لتقديم أعذار لشرطى المرور» . «لا يوجد أفراد شرطة فى المدينة، سيدى المأمور، لقد سحبوهم عندما أعلنوا حالة الحصار» - قال المفتش .. «آه، الآن أفهم، لقد كنت استغرب كل هذا الهدوء». كانوا يعبرون بجانب حديقة يلعب بها أطفال. نظر المأمور نظرة تائهة، غائبة، لكن التنهيدة التى خرجت من صدره أوضحت أنه لابد أنه يفكر فى أزمنة أخرى وأماكن أخرى. «بعد الغداء - قال - قلانى إلى السكن». «أمرك سيدى المأمور» - رد المعاون .. «ألديك أى أوامر لنتبعها بعد الغداء» - سأل المفتش .. «تنزها، تجولا فى المدينة، أدخلا مقاهى ومحلات، افتحا عيونكما وآذانكما، عودا عند ساعة العشاء، فلن نخرج هذه الليلة، أظن أن هناك معلبات محفوظة فى المطبخ». «أمرك سيدى

المأمور» - أجابه المعاون .. «وسجلا كملحوظة أننا غدا سنعمل منفردين، سائق سيارتنا الجرئ»، ضابط المسدس، سيتحدث مع الزوجة السابقة لكاتب الخطاب، أما من يجلس فى كرسى الموت فسيزور الرجل العجوز ذا العصابة السوداء وزوجته العاهرة، أما أنا فسأزور الطبيب وزوجته، أما عن التكتيك الذى سنتبعه، فسنواصل بالضبط نفس تكتيك اليوم،، لن نذكر على الإطلاق قضية الأصوات البيضاء، لن نتحدث فى أى أمر من أمور السياسة، وجها الأسئلة فى الظروف التى وقعت فيها الجريمة، إلى الشخص المفترض أنه مرتكبها، اجعلاه يتحدث عن المجموعة، كيف تشكلت، هل كانوا يعرفون بعض من قبل، ما العلاقة التى صارت بينهم بعد استرداد بصرهم، وما العلاقة التى تربطهم الآن، فقد يكونوا اليوم أصدقاء ويريدون أن يحمى بعضهم بعضا، لكنهم قد يرتكبون خطأ إن اختلفوا فيما يقولون وفيما يسكتون عنه، مهمتنا تكمن فى مساعدتهم على ارتكاب هذه الأخطاء، ولأن الكلام قد طال، احفظا فى ذاكرتكما أهم شىء: إن تواجدنا غدًا فى بيت هؤلاء الأشخاص سيكون بالضبط فى الساعة العاشرة والنصف صباحًا، لا أقول إننا يجب أن نصل بالضبط، فنحن لا نمثل فى فيلم أكشن، لكن علينا أن نتجنب إعطاء الفرصة للاتصال بين المشتبه فيهم، وتحذير بعضهم بعضا، والآن فلنذهب إلى الغداء، آه، عندما تعودان للمسكن أدخلا من الجراج، يوم الإثنين سأخبركما إن

كان حارس العقار مصدر ثقة أم لا». بعد ساعة وخمس وأربعين دقيقة سيمر المأمور ليأخذ معاونيه اللذين ينتظرانه فى الميدان، ليتركهما بعد ذلك، بالتتابع، المعاون أولا ثم المفتش، فى حيين مختلفين، حيث سينفذان أوامره، بمعنى أنهما سيتنزهان، سيدخلان مقاهى ومحلات، وسيفتحان أعينهما وآذانهما، باختصار، سيتشممان الجريمة. سيعودان إلى القاعدة ليتناولا عشاءهما المعلب المعلن عنه، ويناماان، وعندما يسألهما المأمور عن الجديد الذى جاءوا به، سيعترفان أنهما لم يحضرا ولا حتى عينة، وأن سكان هذه المدينة يتحدثون فى أى شىء، إلا ما يهم سماعه. فليكن لديكما أمل - سيقول - إن البرهان على وجود مؤامرة يكمن بالتحديد فى عدم الحديث عنها، فالصمت فى هذه الحالة لا يتعارض مع البرهان - يؤكد .. هذه الجملة ليست جملته، بل هى جملة وزير الداخلية، الذى عقد معه مكالمة تليفونية سريعة بعد وصوله شركة التأمين، ومع أن الخط كان آمنا، إلا أنه اتخذ كل الوسائل الاحتياطية اللازمة المذكورة فى قانون السرية. هنا نذكر ملخص الحوار. «مساء الخير، يحدثك ببغاء البحر». «مساء الخير ببغاء البحر»، رد البطريق. «عقدنا اللقاء الأول فى المزرعة المحلية، كان الاستقبال بلا كره، والاستجواب فعال بمشاركة ذكر وأنثى النورس، حصلنا على نتائج جيدة». «أهى نتائج ملموسة، ببغاء البحر». «ملموسة جدًا، بطريق، حصلنا على صورة ممتازة لمجموعة

العصافير، وغدا سنبدأ التعرف على أنواعها».
«تهنئتى، ببغاء البحر». «شكرًا، بطريق». «اسمع، ببغاء البحر». «أسمعك، بطريق». «لا تنخدع فى الصمت الطارئ، يا ببغاء البحر، إذا كانت الطيور صامتة، فهذا لا يعنى أنهم غير موجودين فى العشش، فهدوء الطقس يخبىء العاصفة، وليس العكس، يحدث نفس الشىء بالنسبة للمؤامرات البشرية، فالسكوت عنها ليس دليلاً على عدم وجودها، أفهمت، ببغاء البحر». «نعم، بطريق، لقد فهمت جيدًا». «ماذا ستفعل غدا، ببغاء البحر، وضّح لى». «الطائر الوحيد الموجود على الشاطىء، بطريق، فلا نعرف طائرًا آخر». «آه، حقًا، أرى ذلك». «إعطنى أوامر، بطريق». «نفّذ بصرامة الأوامر التى أعطيتها لك قبل الرحيل، ببغاء البحر». «ستنفذ بصرامة، بطريق». «أخبرنى بكل جديد، ببغاء البحر». «سأفعل، بطريق». بعد أن تأكّد من وضع السماعة، همهم بفضفضة. ياله من شغل بهلوانات مضحك، ياإلهى من البوليس و التجسس، أنا ببغاء البحر وهو بطريق، لا ينقصنا سوى أن نتحدث عن طريق العواء والنعيق،على الأقل لدينا عاصفة. عندما وصل المعاونان، متعبين من الترجل بالمدينة، سألهما إن كانا قد أحضرا جديدًا وأجابا بالنفى، وأنهما قد أرهفا السمع ودققا النظر، لكن النتائج لسوء الحظ جاءت صفر. هؤلاء الناس يتحدثون كما لو لم يداروا شيئًا . قالا .. كانت هذه هى اللحظة التى فيها قال المأمور، بدون إشارة للمصدر، جملة وزير الداخلية حول المؤامرات وأساليب إخفائها.

في الصباح التالى، بعد تناول الإفطار، تحققوا فى خريطة المدينة من أماكن الشوارع التى تهمهم. أقرب الشوارع للبناية التى تقع فيها شركة التأمين هو شارع الزوجة السابقة لكاتب الخطاب، الذى يسمونه أحيانًا الأعمى الأول، يليه فى القرب شارع الطبيب وزوجته، أما أبعدها فهو شارع الرجل ذى العصابة السوداء وزوجته العاهرة. ليتهم جميعا فى البيت. مثل اليوم السابق، هبطوا جميعا بالمصعد إلى الجراج، والحق يقال، لسرية العملية لا تعد هذه أفضل مناورة، لأنهم إن كانوا قد استطاعوا حتى الآن الهروب من تلصص حارس العقار، من هؤلاء العصافير الذين لم أرهم هنا من قبل - قد يسأل نفسه -، فلن يفلتوا من حارس الجراج، بعدها سنرى العاقبة. هذه المرة سيقود المفتش السيارة، لأنه سيذهب بعيدًا. سأل المعاون المأمور إن كان لديه أى أمر خاص يأمره به، فأجابه أن الأوامر الموجهه له كلها أوامر عامة، ليس بها أمر خاص. «أتمنى فقط ألا ترتكب حماقات وأن تترك الطبنجة فى جرابها». «لست أنا من يهدد النساء بالطبنجة، سيدى المأمور» . «ستحكى لى بعد ذلك، ولا تنس، ممنوع طرق الباب قبل العاشرة و النصف». «أمرك سيدى المأمور». «تنزه قليلا، تناول فنجان قهوة إن وجدت مقهى، اشتر جريدة، شاهد الفترينات، أظنك لم تنس الدروس الأولية التى علموها لك فى مدرسة الشرطة». «حقا سيدى». «رائع، هذا هو شارعك، اقفز». «وأين سنلتقى بعد انتهاء المهمة - سأل

المعاون ـ أظن أننا نحتاج أن نحدد نقطة التقاء، فالشقة لها مفتاح واحد، فلو أنهيت أنا عملى أولا، على سبيل المثال، لن أستطيع العودة للشقة». «ولا أنا ـ قال المفتش .. «هذا يحدث لأننا لا نعرف أرقام تليفوناتنا المحمولة» ـ ألح المعاون، واثقًا من منطقه وواثقًا أن جمال الصباح سيمنح رئيسه التسامح .. أعطاه المأمور الحق. «مؤقتا سنكتفى بمفتاح واحد للشقة، وإن احتاج التحقيق، سأطالب بوسائل أخرى، أما بالنسبة للمفاتيح، لو سمحت الوزارة بالمصروفات، سيكون مع كل منكما غدًا مفتاحه». «وإن لم تسمح». «سأجد حلا». «وماذا عن موضوع نقطة الالتقاء» ـ سأل المفتش .. «كما نعرف عن هذا الأمر، ستكون مهمتى هى الأكثر شغلاً، وبالتالى ستأتيان للقائى، اكتبا العنوان، سنرى وقع الظهور غير المتوقع لفردى مباحث أخرين فى نفوس المستجوبين». «فكرة نيّرة، سيدى المأمور» ـ قال المفتش .. اكتفى المعاون بهزة رأس مؤكدة، حيث إنه لم يستطع التعبير عما يدور بخلده بصوت عال، بمعنى الاستحسان الذى تلقته فكرته، حتى ولو كان بطريقة غير مباشرة وبطريق معوج. سجل الملحوظة فى كراسته كباحث، ونزل. سار المفتش بالسيارة فى نفس الوقت الذى كان يقول فيه : «إنه يجتهد، مسكين، ويجب علينا أن ننصفه، أتذكر أننى كنت فى البداية مثله، توّاق لأصيب شيئا ولو أحمق، حتى أننى وصلت لأسأل نفسى كيف ترقيت وصرت مفتشًا». «وأنا أيضا أسأل نفسى عما وصلته اليوم».

«أنت أيضا سيدى المأمور». «أنا أيضا، صديقى العزيز، فطينة رجال المباحث واحدة، أما الباقى فهى مسألة حظ.» «حظ ومعرفة». «المعرفة، فى حد ذاتها، ليست كافية، بينما بالحظ بجانب الوقت تبلغ معظم الأشياء، لكن لا تسألنى فيما يكمن الحظ لأننى قد لا أعرف كيف أجيبك، إن كنت قد لاحظت أنه فى أحيان كثيرة برفقة الأصدقاء فى الأماكن المناسبة أو بدفع الثمن يبلغ المراد». «لكن الجميع ليس مؤهلا ليكون مأمورًا بالميلاد». «معك حق. بالإضافة لذلك، عندما يكون جهاز الشرطة كله مأمورين، لن يعمل». «وكذلك جيش كله لواءات». دخلا شارع طبيب العيون. «اتركنى هنا - طلب المأمور - سأمشى الأمتار المتبقية». «أتمنى لك التوفيق، سيدى المأمور». «وأنا كذلك». «ياليت هذه القضية تُحل سريعًا، أعترف لك أننى أشعر أننى تائه فى حقل ملغوم». «يا رجل، فلتهدأ، ليس هناك مبرر لقلقك، أنظر لهذه الشوارع، لهدوء المدينة، لسكينتها». «هذا بالتحديد ما يثير قلقى، سيدى المأمور، مدينة كهذه، بلا سلطات، بلا حكومة، بلا رقابة، بلا شرطة، ولا يبدو أن أحدًا فيها يهمه الأمر، هنا يكمن أمر غامض لا أستطيع فهمه». «من أجل أن نفهم أرسلونا هنا، لدينا المعرفة وأتمنى ألا ينقصنا الباقى». «الحظ». «نعم، الحظ». «حظ سعيد إذًا، سيدى المفتش، وإذا رمتك فلانة هذه التى يسمونها عاهرة بنظرة ساحرة أو أظهرت لك جزءا من فخذيها، تصنع أنك لا تفهم، وركّز فى مصالح التحقيقات، فكّر فى

الجهاز عظيم الشأن الذى نعمل من أجله». «من المؤكد أن هناك سأجد العجوز ذا العصابة السوداء، والعجائز مرعبون، طبقا لما سمعته من أهل الخبرة فى الأمر». قال المفتش .. ابتسم المأمور. «هاهو العجز على وشك الاقتراب منى، وسأرى إن كنت سأحيا الوقت الكافى لأكون مرعبًا». بعدها نظر للساعة. إنها العاشرة و الربع، «أتمنى أن تصل لمكانك فى الوقت المناسب». «لو وصلت أنت و المعاون فى الوقت المناسب فلن يحدث شىء لو تأخرت أنا» - قال المفتش .. ودّعه المأمور. «إلى اللقاء». خرج من السيارة، وبمجرد أن وطأت قدماه الأرض، كما لو كان هناك موعد مع غبائه، أدرك أنه ليس هناك منطق فى صرامة تحديد الساعة التى سيطرقون فيها أبواب المشتبه فيهم، حيث إنهم مع وجود شرطى فى بيتهم لن تتاح لهم الفرصة ولا برودة الدم التى تدفعهم للاتصال بأصدقائهم لينبهوهم بالخطر المحتمل، مفترضا، لزيادة الطين بلّة، أنهم ماكرون، وماكرون بشكل استثنائى، وسيخطر على بالهم أنهم لو كانوا هدفا لرجال الشرطة، فسيكون أصدقاؤهم مثلهم. بالإضافة لذلك - فكّر المأمور - فمن الجلىّ أن هذه الصداقات ليست صداقاتهم الوحيدة، فمن المؤكد أن لديهم أصدقاء كثيرين يجب أن يهاتفوهم . لم يقتصر على التفكير فى صمت، بل كان يهمس باتهامات، سب وشتائم. فليقل لى أحد كيف وصل هذا المعتوه ليكون مأمورا، فليقل لى أحد كيف بالتحديد وضعت الحكومة ثقتها فى هذا المعتوه

وحمّلته مسئولية التحرى فى أمر ربما قد يتوقف عليه أمر البلد، فليقل لى أحد من أين جاء لهذا المعتوه الأمر الأحمق الذى أعطاه لمعاونيه، ليتهما لا يسخران منى الآن، المعاون لا أعتقد، أما المفتش فهو رجل ذكى، ذكى جدا، بالرغم من أن ذلك لا يلاحظ عليه من النظرة الأولى، أو أنه يعرف كيف يدارى ذكاءه، وهو ما يجعل خطورته مضاعفة، بلا شك، يجب أن أحتاط منه، أن أعامله بحذر، أن أمنع انتشار ما حدث، فآخرون وقعوا فى نفس المطب وكانت العواقب كارثية، لا أعرف من قال لى أن غباء ثانية قد يقضى على كل ثوانى الحياة. استراح المأمور عندما ضرب نفسه بسوط اللوم . عندما وطأ الأرض، صارت الكلمة فى يد التفكير المتأمل الذى برهن له أن أمره لم يكن سخيفًا، بل على العكس تماما. تخيّل أنك لم تعط هذه التعليمات، وذهب كل من المفتش و المعاون فى الساعة التى راقت له، أحدهما فى الصباح و الآخر فى المساء، كنت ستصير حينئذ معتوهًا بكل معانى الكلمة، كامل العته، حيث لم تتوقع ما يجب أن يحدث، فالأشخاص المستجوبون صباحًا كانوا سيسرعون لإبلاغ المستجوبين مساء، وعندما يذهب المحقق مساء لطرق باب المشتبه فيهم المكلف بهم، كان سيتعثر مع خط دفاع ربما لا يستطيع تدميره، وبالتالى، فأنت مأمور، و ستظل مأمورًا، ليس فقط لأنك تعرف أكثر فى مهنتك، وإنما لأنك محظوظ لأننى بجانبك، أنا التفكير المتأمل، لكى أضع الأشياء فى مكانها، بداية

من المفتش، الذى لا يجب أن تعامله بيد قاسية، كما كانت نيتك، الجبانة جدا بالمناسبة، إن لم يكن قولى هذا إهانة لك. لم يكن القول إهانة للمأمور. ومع ذهابه وإيابه، وتفكيره وإعادة تفكيره، تأخر فى تنفيذ الأمر الخاص به، فكانت الساعة الحادية عشرة إلا الربع عندما قرع الجرس. ساقه المصعد إلى الدور الرابع. هذا هو الباب.

كان المأمور ينتظر أن يسألونه من الداخل: من الطارق. إلا أن الباب قد فُتح ببساطة وظهرت امرأة تقول : ماذا تريد. دسّ المأمور يده فى جيبه وأخرج بطاقة هويته وقال: مباحث. وماذا تريد المباحث من الناس التى تعيش فى هذا البيت - سألت المرأة .. يريد أن يجيبوا على بعض الأسئلة. حول ماذا. لا أعتقد أن السلم هو المكان المناسب لبداية استجواب. إذًا هو استجواب. سيدتى، مع إن كل ما أرغبه هو توجيه سؤالين، إلا أن ذلك يسمى استجوابًا. أرى أنك تراعى الدقة اللغوية. خاصة فى الأجوبة التى يعطونها لى. هذا رد جيد. لم يكن صعبًا، فهم يقدمونها لى فوق صينية. وأنا سأقدم لك إجابات أخرى، إن كنت تبحث عن الحقيقة. البحث عن الحقيقة هو الهدف الرئيسى لكل ضابط شرطة. يسرنى أن أسمع ذلك منك بهذا التفخيم، والآن تفضل، لقد نزل زوجى لشراء الجرائد، ولن يتأخر. إن رأيت أن دخولى غير مناسب، يمكننى الانتظار بالخارج. يالها من فكرة، تفضل، تفضل، ففى أية حالة سيشعر الإنسان أنه فى يد أمينة أكثر من يد

رجال الشرطة ـ سألت المرأة .. دخل المأمور، أمامه المرأة، وفتحت له باب غرفة الصالون، التى شعر بداخلها بجو من الألفة والحياة. تفضّل بالجلوس، سيدى المأمور ـ قالت فسألت: ـ أيمكن أن أقدم لك فنجان قهوة. شكرًا جزيلاً، لا نقبل شيئًا أثناء عملنا. معك حق، فهكذا تبدأ عادة الرشاوى الكبيرة، فنجان قهوة اليوم، فنجان آخر غدًا، وفى اليوم الثالث كل شىء يضيع. إنه مبدأ لدينا، سيدتى.سأطلب منك أن تشبع فضول صغير. أى فضول. تقول إنك مباحث، وأريتنى البطاقة التى تصدّق أنك مأمور، لكن، طبقًا للأخبار، انسحبت الشرطة من العاصمة منذ عدة أسابيع، تاركين إيانا بين مخالب العنف والجريمة التى تسرح فى كل مكان، أيجب أن أفهم بحضورك هنا أن الشرطة قد عادت لأرضها. لا سيدتى، لم نعد لأرضنا، لو سمحتى لى باستخدام تعبيرك، فمازلنا على الجانب الآخر من الخط الفاصل. لابد أن الأسباب التى أجبرتكم على اجتياز الحدود أسباب قوية. نعم، قوية جدًا. وطبعًا الأسئلة التى جئت بها مرتبطة بهذه الأسباب. طبعا. وبالتالى يجب أن أنتظر طرحها. هو كذلك. بعد ثلاث دقائق سُمع فتح الباب. خرجت المرأة من الغرفة وقالت لمن دخل فى التوّ: لدينا زائر، مأمور مباحث، لا أكثر ولا أقل. ومنذ متى يهتم مأمورو المباحث بالناس الأبرياء. نُطقت الكلمات الأخيرة داخل الصالون، تقدّم الطبيب زوجته ووجه سؤاله هكذا للمأمور، الذى أجاب، ناهضًا من الكرسى

الجالس فوقه : لا يوجد أناس أبرياء، فإن لم يكن مذنبًا بجريمة، فهو مذنب بارتكاب خطأ، الأمر هكذا دائما. ونحن بأية جريمة أو خطأ مذنبون أو متهمون. لا تتعجل أمرك، دكتور، نستريح أولا وسنتكلم بشكل أفضل. جلس الطبيب وزوجته على كنبة وانتظرا. التزم المأمور الصمت عدة ثوان، وفجأة دخلته الريبة حول أفضل تكتيك يجب أن يتبعه. حتى لا ينبهوا الناس لأمر خفى قبل الأوان، فقد اقتصر المفتش و المعاون، طبقا لأوامره، على السؤال حول اغتيال الأعمى، أمر رائع، لكن بالنسبة له، كمأمور، كان نظره يركّز فى هدف آخر أكثر طموحا، التحقق من أن المرأة الجالسة أمامه، بجانب زوجها، هادئة كما لو لم تفعل شيئًا، ولا شىء يبث فيها الخوف، بالإضافة لكونها قاتلة، تشكل جزءا من المناورة الشيطانية التى أذلت حالة الاستقامة، برأس محنية وجسد راكع. لا يعرف مَنْ، فى قسم الشفرات الرسمى، قد قرّر أن يعطى المأمور الاسم المضحك: ببغاء البحر، لا شك أنه عدو شخصى، لأن الاسم الحركى الذى يستحقه هو اليكاين، أستاذ الشطرنج الأعظم الذى صار لسوء الحظ خارج تعداد الأحياء. تبددت الريبة التى راودته عدة دقائق كالدخان وحل محلها يقين راسخ. تأملوا الفن المرتب السامى الذى سيقوده ، على الأقل هذا ما يعتقده، إلى كش الملك. مبتسما برقة قال : قد أقبل الآن فنجان القهوة الذى قدمته لى بلطفك. أذكّرك أن رجال المباحث لا يتناولون شيئًا بينما يعملون ـ أجابت

المرأة مدركة للعبة .. مسموح للمأمور أن يكسر القواعد كلما رأى ذلك مناسبًا. أتقصد، كلما كان ذلك فى مصلحة التحقيق. يمكن أيضا أن تقال بهذه الطريقة. ألا تخاف أن يكون فنجان القهوة الذى أقدمه لك خطوة فى طريق الرشوة. أتذكر أنك قلت إن ذلك يحدث مع الفنجان الثالث. لا، ما قلته هو أنه مع الفنجان الثالث تتم عملية الرشوة، أما الفنجان الأول فهو يفتح الطريق، والثانى يدعم خطوات الراغب فى الرشوة ليتقدم، أما الثالث فهو يغلق العملية نهائيًا. شكرًا على تنبيهك، الذى أتلقاه كنصيحة، وسأكتفى بالفنجان الأول. سأحضره لك فورًا - قالت المرأة وخرجت من الصالون .. نظر المأمور فى ساعته. أأنت مستعجل - سأل الطبيب قاصدًا .. لا يا دكتور، لست مستعجلاً، فقط كنت أتحقق أننى لا أضايقكم وقت غدائكم. مازال الوقت مبكرًا جدًا على الغداء. كما كنت أسأل نفسى عن الوقت الذى سأتأخره للحصول على الإجابة التى أرغبها. وهل تعرف الإجابة التى ترغبها، أم أنك ترغب أن تكون أسئلتك مجابًا عليها - سأل الطبيب وأضاف - : فالأمر مختلف. معك حق، فالأمر مختلف، خلال الحوار القصير الذى عقدته مع زوجتك على انفراد، أتيحت لها الفرصة لتلاحظ أننى أقدر التدقيق اللغوى، أرى أن نفس الأمر يحدث لك. فى عملى من الشائع أن تكون الأخطاء فى التشخيص ناتجة عن عدم التدقيق اللغوى. أنا أناديك بدكتور،

لكنك لم تسألنى كيف عرفت أنك طبيب. لأننى أرى مضيعة للوقت أن أسأل رجل مباحث كيف عرف ما يعرفه أو ما يؤكد أنه يعرفه. إجابة رائعة، حقا سيدى، فلا أحد أيضا يسأل الله كيف أصبح عليمًا وموجودًا وقديرًا. لا تقل لى إن رجال المباحث إله. نحن ممثلوه المتواضعون فى الأرض، يادكتور. كنت أعتقد أن الكنيسة و الكهنة هم ممثلوه. الكنيسة و الكهنة يأتون فى الصف الثانى.

دخلت المرأة بالقهوة، ثلاثة فناجين فى الصينية، وبعض العجائن. يبدو أن كل شىء فى هذه الدنيا يجب أن يكرّر نفسه ـ فكّر المأمور بينما كان يتذكّر مذاق الإفطار فى شركة التأمين .. سأتناول القهوة فقط ـ قال ـ شكرًا جزيلاً. عندما حط الفنجان فى الصينية كرّر الشكر، وأضاف بابتسامة رضا : قهوة ممتازة، سيدتى، ربما أعيد تفكيرى فى أمر تناول الفنجان الثانى. أنهى الرجل وزوجته فنجانيهما. لم يلمس أحد العجائن. أخرج المأمور من جيب بذلته الداخلى كراسة ملحوظات، وجهّز القلم، وترك صوته يخرج بنبرة محايدة، بلا تعبير يذكر، كما لو لم تهمه الإجابات. أى تفسير ممكن أن تعطيه لى يا سيدتى عن عدم إصابتك بالعمى منذ أربع سنوات، أثناء الوباء. تقاطعت نظرات المرأة والطبيب فى ذهول، وأجابت هى: كيف تعرف أننى لم يصبنى العمى منذ أربع سنوات. الأن ـ قال المأمور ـ اعتبر زوجك بذكائه الفطن أنه مضيعة للوقت أن تسأل رجل مباحث كيف عرف

ما يعرف أو ما يؤكد أنه يعرفه. لكننى لست زوجى. وأنا لست مضطرًا أن أكشف لك أو لزوجك عن أسرار مهنتى، أنا أعرف أنك لم تفقدى بصرك وهذا يكفينى. أعطى الطبيب إيماءة ليتدخل، لكن المرأة وضعت يدها على ذراعه. رائع، الآن قل لى، أظن أن ذلك لن يكون سرًا، فيما يمكن أن يهم المباحث إن كنت قد أصبت بالعمى أم لا منذ أربع سنوات. لو كان العمى قد أصابك مثلما أصاب كل الناس، مثلما أصابنى أنا شخصيًا، فتأكدى تماما أنك ما كنت لتجديننى هنا الآن. وهل كان جريمة ألا أصاب بالعمى - سألت المرأة .. عدم إصابتك بالعمى لم يكن ولن يكون جريمة، لكن هناك جريمة قد ارتكبت بالتحديد لعدم أصابتك بالعمى، وأنا مضطر أن أقول لك ذلك. جريمة. جريمة قتل. نظرت المرأة لزوجها كما لو تطلب منه نصيحة، بعدها أدارت نظرها بصرامة صوب المأمور وقالت : نعم، هذه حقيقة، لقد قتلت رجلا. لم تواصل حديثها، ظلت معلقة فيه نظرها، منتظرة. تظاهر المأمور أنه يسجل ملحوظة فى كراسته، لكن ما كان يرغبه حقيقة هو كسب الوقت، التفكير فى اللعبة القادمة. إن كان رد فعل المرأة قد أربكه، فلم يكن ذلك لأنها اعترفت بالقتل، بل لالتزامها الصمت بعدها، كما لو كان لا شىء يقال بعدها. والحق أنه فكّر أن هذه الجريمة ليست هى ما يهمه. أظن أن لديك سببًا مقنعًا ستقدمينه لى - غامر المأمور .. حول ماذا - سألته المرأة .. حول الجريمة. لم تكن جريمة. ماذا

كانت إذًا. تطبيق للعدل. العدل يُطبق فى المحاكم. لم أستطع أن أذهب لأقدم بلاغا فى الشرطة، فكما قلت فى التو، كنا جميعا عميانا فى تلك اللحظة. ماعدا أنتِ. نعم، ماعدا أنا. من الذى قتلتِه. رجلا مغتصبا، بغيضا. أتقصدين أنك قتلتِ رجلا جاء يغتصبك. لا، لم يغتصبنى أنا، بل زميلة لى. عمياء. نعم عمياء. والرجل كان أيضا أعمى. نعم. كيف قتلتِه. بالمقص. أغرزته فى قلبه. لا، بل فى رقبته. أنظر لك ولا أرى وجه قاتلة. لست قاتلة. لقد قتلتِ إنسانًا. لم يكن إنسانا، كان حشرة. سجل المأمور ملحوظة أخرى وتوجه للطبيب. وأنت أين كنت عندما قتلت زوجتك الحشرة. فى صالة أخرى بمستشفى المجانين القديم حيث أدخلونا عندما كانوا يفكرون حتى ذلك الحين أنهم بعزل العميان الأوائل الذين ظهروا سيمنعون انتشار العمى. أعتقد أنك طبيب عيون. نعم، وكان لى الشرف أن أكشف فى عيادتى على أول شخص أصيب بالعمى. أكان رجلا أم امرأة. كان رجلا. وهل وضع فى نفس غرفة النوم الجماعية، فى نفس الصالة. نعم، بجانب بعض الأشخاص الآخرين الذين وجدوا فى العيادة. هل بدا لك حسنًا قتل زوجتك للمغتصب. بدا لى ضروريا. لماذا. لم تكن لتطرح هذا السؤال لو كنت هناك. جائز، لكننى لم أكن هناك، لهذا أكرّر سؤالى لك لماذا بدا لك ضروريا أن تقتل زوجتك هذا الحشرة، أقصد هذا المغتصب لزميلتها. لأن أحدا كان يجب أن يقتله، وكانت هى الوحيدة التى ترى. فقط لأن

الحشرة كان مغتصبا. لم يكن وحده، كان كل من فى نفس الصالة يطلبون نساء مقابل الطعام، لكنه كان رئيسهم. هل تم اغتصاب زوجتك أيضا. نعم. قبل زميلتها أم بعدها. قبلها. سجل المأمور ملحوظة أخرى فى كراسته، بعدها سأل : برأيك كطبيب عيون، ما السبب فى عدم إصابة زوجتك بالعمى. برأيى كطبيب عيون، لا يوجد أى سبب. لديك زوجة منفردة، يا دكتور. هو كذلك، لكن ليس فقط لهذا السبب. ماذا حدث بعد ذلك للأشخاص الذين وضعوا فى مستشفى المجانين القديم. حدث لهم حريق، ومات أغلبهم محروقا أو مسحوقا بسبب سقوط المستشفى. كيف عرفت أنه حدث سقوط للمستشفى. أمر بسيط، سمعنا ذلك عندما كنا بالخارج. وأنت وزوجتك، كيف تم إنقاذكم. تمكننا من الهرب فى الوقت المناسب. أصابكم الحظ. نعم، وهى قادتنا. إلى من تشير عندما تقول قادتنا. أشير إلىّ وإلى أشخاص آخرين، كانوا معنا فى المستشفى. من هم. الأعمى الأول، هذا الذى حدثتك عنه من قبل، وزوجته، وهى امرأة كانت تعانى من التهاب الملتحمة، ورجل عجوز كان مصاب بالمياه البيضاء، وطفل أحول برفقة أمه. هل أنقذت زوجتك كل هؤلاء من الحريق. كلهم ماعدا أم الطفل الأحول، فهى لم تكن فى المستشفى، وتاهت من ابنها ووجدته بعد عدة أسابيع عندما رجع لنا بصرنا. ومن اهتم بالطفل خلال هذه الفترة. نحن. أنت وزوجتك. نعم،هى لأنها كانت ترى، أما الباقون فقد كنا نساعد

بقدر المستطاع. أتقصد أنكم كنتم تعيشون معا، فى جماعة، وكانت زوجتك هى الدليل. كانت الدليل و الراعى. لقد كنتم محظوظين حقًا ـ كرّر المأمور ـ. ممكن أن تسمينا كذلك. وظللتم على علاقة بأفراد المجموعة بعد أن صارت الأحوال طبيعية. نعم، كما يقول المنطق. ومازالت هذه العلاقة قائمة. نعم، باستثناء العلاقة مع الأعمى الأول. ولماذا هذا الاستثناء. لأنه لم يكن شخصًا ظريفًا. بأى معنى. بكل المعانى. هذا جواب غامض. صفه كما تشاء. ألا تريد التحديد. تستطيع الحديث معه وإصدار حكمك عليه. أتعرف أين يقيمون. مَنْ. الأعمى الأول وزوجته. لقد انفصلا، تطلقا. وهل لكما علاقة بزوجته. بزوجته نعم. لكن معه هو لا. معه هو لا. لماذا. لقد سبق وقلت لك، ليس شخصًا ظريفًا. عاد المأمور لكراسة ملحوظاته وكتب اسمه حتى لا يبدو أنه لم يستفد من هذا الاستجواب. كان سينتقل للحادثة الثانية، المشكلة العويصة، اللعبة الخطرة. رفع رأسه، نظر لزوجة الطبيب، فتح فمه ليتكلم، لكنها سبقته. أنت مأمور مباحث، جئت، عرّفتنا بنفسك وبدأت فى طرح الأسئلة من كل نوع، لكن، بعيدا عن قضية القتل العمد الذى ارتكبته واعترفت به، لكنه ليس له شهود، لأن البعض مات، والكل كان مصابًا بالعمى، هذا بدون أن أستند على أن أحدًا لا يهمه اليوم معرفة ماذا حدث منذ أربع سنوات فى وضع كان يسوده الفوضى المطلقة، حيث كانت كل القوانين حبرًا على ورق، لكننا مازلنا ننتظر

أن تخبرنا عن سبب مجيئك هنا، فأنا أعتقد أنه قد حان الوقت لكشف جميع الورق على الترابيزة، فدعك من اللف و الدوران ولتدخل صراحة فى صلب الموضوع الذى يهم من أرسلك إلى هنا. حتى هذه اللحظة كان واضحا فى ذهن المأمور الهدف من المهمة التى كلفه بها وزير الداخلية، لا شىء أكثر من التحقق إن كانت هناك علاقة بين ظاهرة التصويت الأبيض والمرأة التى تجلس أمامه، لكن كلامها المقحم، الجاف و المباشر، نزع منه جميع أسلحته، والأسوأ من ذلك أن ذلك حدث بإدراك مفاجىء للفخ المضحك بشدة الذى قد يقع فيه إن سألها، بعينين مكسورتين لأنه قد يفقد شجاعته لو نظر فى وجهها لوجه : ألا تكونين أنت المنظمة و المسئولة ورئيسة الحركة الثورية التى وضعت النظام الديمقراطى فى موضع خطير ربما لا أبالغ إن أسميته موضعًا مميتًا. أى حركة ثورية ـ قد تريد هى أن تعرف ـ. حركة الأصوات البيضاء. أتقول لى إن الأصوات البيضاء حركة ثورية ـ تجيبه بسؤال ـ. إن كانت بأعداد زائدة عن اللازم، نعم. وأين نجد هذا مكتوبا، فى الدستور، فى القانون الانتخابى، فى الوصايا العشر، فى نظام المرور، فى زجاجات الدواء ـ ستلّح ـ. لا، هذا ليس مكتوبا، لكن أى شخص يفهم أنه عبارة عن مسألة تدرج بسيط للقيم والحس المشترك، أولا الأصوات الواضحة، بعدها تأتى الأصوات البيضاء فالأصوات الملغية، ثم يأتى الامتناع عن الإنتخابات، هو أمر واضح أن الديمقراطية ستتعرض

للخطر إن جارت إحدى هذه الدرجات الثانوية على الدرجة الرئيسية ، فوجود الصوت الانتخابى يعنى استخدامه الاستخدام الأمثل. وهل أنا المسئولة عما حدث. هذا هو ما أحاول التحقق منه. وكيف تمكنت من تحريض أغلب سكان العاصمة على التصويت الأبيض، هل قمت بإدخال منشورات للبيوت من تحت أبوابها، أم عن طريق الصلوات والتضرعات الليلية، أما يا ترى عن طريق وضع منتج كيميائى فى المياه، أم منح الجائزة الكبرى فى اليانصيب لكل شخص، أم شراء الأصوات بما يكسبه زوجى من عيادته. لقد كنت الوحيدة التى احتفظت ببصرك عندما أصابنا جميعا العمى ومازلت غير قادرة أو ترفضى شرح السبب فى ذلك. وهل هذا يجعل منى الآن متهمة بالتآمر ضد الديمقراطية العالمية. هذا ما أتحقق منه. إذًا فلتتحقق وعندما تصل لنهاية تحرياتك عد إلى هنا وأحك لى ما جرى، وحتى يحدث ذلك لن تسمع من فمى كلمة أخرى. وكان هذا قبل أى شىء ما لم يكن المأمور يرغبه، وكان على وشك أن يقول إنه فى هذه اللحظة لن يطرح أسئلة و قد يعود غدًا ليواصل استجوابه، عندما دق جرس الباب. نهض الطبيب وذهب ليرى من الطارق. عاد إلى الصالة برفقة المفتش. هذا السيد يقول إنه مفتش مباحث وإنك قد أمرته بالمجئ إلى هنا. فعلاً لقد حدث ذلك ـ قال المأمور ـ لكن عمل اليوم قد انتهى، سنواصل غدًا فى نفس التوقيت. أذكرك بما قولته لى وللمعاون ـ تجرأ المفتش لكن

المأمور قاطعه .. ما قلته وما لم أقله ليس مهمًا الآن. وهل سيأتى ثلاثتنا غدا. مفتش، السؤال غير لائق، فأنا أتخذ قراراتى فى المكان المناسب والوقت المناسب، وفى الوقت المحدد ستعرف - أجاب المأمور غاضبًا .. توجه لزوجة الطبيب وقال : غدا، فبما أنك شاكية، لن أضيع وقتى فى الدوران فى الكلام، وسأدخل مباشرة فى صميم الموضوع، وما يجب أن أطرحه عليك من أسئلة لن يثير استغرابك أكثر مما أثار استغرابى عدم فقدانك لبصرك خلال وباء العمى الأبيض العام الذى وقع منذ أربع سنوات، حتى أننى أنا نفسى أصبت به، المفتش كذلك، زوجك نفس الشىء، أما أنت فلا، وسنرى إن كان سينطبق عليك أم لا المثل القديم القائل إن من يصنع سلة واحدة يصنع مئة. إذًا هى مسألة سلات، سيدى المأمور - سألت زوجة الطبيب بنبرة ساخرة .. بل مئات من السلات، مئات سيدتى - أجاب المأمور بينما كان منصرفًا، مستريح النفس لأن خصمته زودته بإجابة لخروج شبه لبق. كان عنده صداع خفيف.

لم يتناولوا غداءهم معًا. ومخلصًا لسياسة التفرق المنضبطة، ذكّر المأمور كلا من المفتش و المعاون، قبل أن يفترقوا، ألا يجب أن يكرّرا المطاعم التى كانا فيها بالأمس وبنفس الطريقة نفّذ الأمر على نفسه أيضًا، وبروح مضحية، حيث إنه قد أعجبه فى المطعم الذى اختاره ما قدموه له. لم يحدد هذه المرة نقطة التقاء، وإنما نقطتين، النقطة الأولى للمعاون، والثانية للمفتش. أدركا فى الحال أن المأمور غير مستعد للحوار، ربما لم تكن النتائج على ما يرام مع الطبيب وزوجته. وبما أنهما، من جانبهما، لم يحضرا نتائج جديدة فى مهمتهما، لم يكن الاجتماع لتبادل المعلومات و الدراسة فى شركة التأمين بحرًا من الورود. وبالإضافة للضغط المهنى جاء السؤال الغريب و المقلق من جانب عامل الجراج عندما دخلوا بالسيارة: وحضراتكم، من أين أنتم. الحق أن المأمور، لوقاره وخبرته فى عمله، لم يفقد صبره. نحن نعمل بشركة التأمين ـ أجابه بجفاء ، بعدها بكثير من الجفاء قال: ـ وسنركن سيارتنا فى المكان المخصص للشركة، وبالتالى فإن سؤالك، بالإضافة لكونه غير لائق، هو أيضا قليل الأدب. ربما يكون غير لائق وقليل الأدب،

لكننى لا أتذكّر أننى رأيتكم هنا من قبل. بالإضافة لكونك قليل الأدب أنت أيضًا ضعيف الذاكرة - أجاب المأمور - فهذه هى المرة الأولى التى ترى فيها زملائى، لكننى كنت دائمًا هنا، والآن ابتعد لأن السائق عصبى المزاج وقد يدوسك بلا قصد. ركنوا السيارة وصعدوا بالمصعد. وبدون أن يفكر فى عدم حيطته، أراد المعاون أن يشرح أنه ليس عصبى المزاج، وأن الاختبارات التى مر بها ليدخل الشرطة صنّفته على أنه شديد الهدوء، لكن المأمور، بإيماءة صارمة، ألزمه الصمت. والآن، تحت حماية الجدار المقواه و سقف الشركة وأرضيتها التى لا تخرج صوتًا، كيّل له اللوم بلا رحمة. حتى لم يخطر ببالك، أيها المعتوه، أن المصعد قد يكون به ميكروفونات. سيدى المأمور، أنا شديد الحزن، فلم يخطر هذا الأمر ببالى - تلعثم المسكين .. غدًا لن تخرج من هنا، ستمكث بالسكن لتحرسه وتستغل الوقت لتكتب خمسمائة مرة : أنا معتوه. سيدى المأمور، من فضلك. دع الأمر، لا تعر اهتمامًا، فأنا أعلم أننى أبالغ، لكن عامل الجراج أثار ثورتى، فقد تجنبنا باب الدخول حتى لا نلفت نظر أحد و الآن يخرج لنا هذا الرجل الحشرى. ربما يستحق الأمر أن يصله تحذير من جانبنا، كما حدث مع حارس العقار - اقترح المفتش .. قد يكون ذلك تهورًا، فما نحتاجه هو ألا نلفت انتباه أحد لنا. أعتقد أن هذا الأمر جاء متأخرا، سيدى المأمور، فلو كان للجهاز مكان آخر، فالأفضل أن ننتقل إليه. من حيث عنده، فعنده، لكن، على قدر معرفتى،

ليست أماكن فعالة. قد نتمكن من المحاولة. لا، ليس لدينا وقت، وبالإضافة لذلك، فلن تروق الفكرة للوزارة، وهذه المسألة يجب أن تحل بأقصى سرعة، وبكل عجلة. أتسمح لى أن أحدثك بصراحة سيدى المأمور ـ سأل المفتش .. قل لى. أخشى أن نكون قد دخلنا فى حارة سد، أو أسوأ من ذلك، وكر زنابير مسموم. ما الذى جعلك تفكر هكذا. لا أعرف كيف أشرح لك، لكن الحقيقة أننى أشعر كما لو كنت فوق برميل من البارود وفى يدى كبريت مشتعل، وأشعر أن هذا البرميل قد ينفجر من لحظة لأخرى. كان يبدو للمأمور أنه يسمع تفكير نفسه، لكن المركز الذى يشغله و مسئولية المهمة التى يحملها على عاتقه لا يسمحان له بالتزييف فى الطريق المستقيم للواجب. أنا لا أشاركك الرأى ـ قال، وبهذه الجملة أغلق الموضوع ..

الآن يلتفون حول المائدة التى تناولوا عليها الإفطار هذا الصباح، بكراسات الملحوظات مفتوحة، على أهبة الاستعداد لهبوب العاصفة. ابدأ أنت ـ أمر المأمور المعاون .. عندما دخلت ـ قال المعاون ـ فهمت أن أحدًا لم يحذر المرأة. بالطبع لا، لم يستطيعوا، لقد وصلنا جميعا فى العاشرة و النصف. أنا تأخرت قليلاً، كانت العاشرة و النصف وسبع دقائق عندما طرقت الباب ـ اعترف المعاون ـ . هذا لا أهمية له، أكمل، بلا مضيعة للوقت. تركتنى أدخل، سألتنى إن كنت أريد تناول فنجان قهوة، فأجبتها بالإيجاب، ولم

أعرها اهتمامًا، كنت كما الزائر، حينئذ قلت لها إنهم كلفونى بمهمة التحرى فيما حدث منذ أربع سنوات فى مستشفى المجانين، لكننى فكرت أنه من الأفضل مبدئيا عدم طرق موضوع الأعمى المقتول، لهذا وجهت الدفة ناحية موضوع الظروف التى حدث فيها الحريق، أما هى فقد أصابتها الدهشة من أننا نعود لنتذكر أمرًا قد وقع منذ أربع سنوات بينما الجميع يريد نسيانه، قلت لها إن الفكرة الآن تكمن فى تسجيل العدد الأكبر من البيانات لأن الأسابيع التى وقع فيها الحادث لا يمكن أن تبقى ممسوحة من ذاكرة تاريخ البلد، لكنها لم تكن غبية، وفى الحال لفتت انتباهى إلى عدم مناسبة الوقت، وهى العبارة التى استخدمتها هى، فبينما نحن بالتحديد فى هذا الوضع الذى نجد أنفسنا فيه،، حيث المدينة معزولة وتقع تحت الحصار بسبب التصويت الأبيض، يخطر ببال أحد أن يتحرى فيما حدث خلال وباء العمى الأبيض، ويجب أن أعترف، سيدى المأمور، أن سهم الله نزل على فى اللحظة الأولى، بدون أن أعرف ردًا، وحينها استطعت أن أتوصل لتفسير، أن التحريات قد تقررت قبل أن يحدث أمر التصويت الأبيض، لكن التنفيذ تأخر لمشاكل بيروقراطية والآن فقط أمكن البدء، حينها قالت هى إنها لا تعرف شيئًا عن أسباب الحريق، قد يكون ناجمًا عن الصدفة التى قد تحدثه من قبل، حينها سألتها كيف استطاعت الهرب، فبدأت الحديث عن زوجة الطبيب مثنية عليها بكل الأساليب، فهى

إنسانة لا مثيل لها ولم تعرف أحدًا مثلها طيلة حياتها، وبعيدًا عما هو شائع، لدىّ يقين أنه بدونها ما كنت أمامك الآن أتحدث معك ، لقد أنقذتنا جميعًا، ولم تكتف بذلك، بل حمتنا أيضًا، أطعمتنا، اعتنت بنا، حينذاك سألتها عما تشير إليه بضمير الجمع، فذكرت واحدًا واحدًا أسماء الأشخاص الذين نعرفهم، وفى النهاية قالت إن زوجها كان أيضا من ضمن المجموعة، لكنها لا ترغب الحديث عنه لأنهما تطلقا منذ ثلاث سنوات، وكان هذا كل ما دار فى الحوار، سيدى المأمور، أما عن الانطباع الذى أخذته فهو أن زوجة الطبيب هذه امرأة بطلة، وقلب كبير. تظاهر المأمور بأنه لم يفهم الكلمات الأخيرة. ولأنه تظاهر بعدم إنتباهه لم يتحتم عليه أن يرد على المعاون لوصفه بالبطلة والقلب الكبير لامراة تقع تحت الشبهة بأنها متورطة فى أسوأ جريمة قد ترتكب فى الوقت الراهن ضد الوطن. كان يشعر بالتعب. وبصوت خافت، منطفىء، طلب من المفتش أن يروى ما حدث فى بيت العاهرة والعجوز ذى العصابة السوداء. إن كانت عاهرة، فلا يبدو لى أنها مازالت تمارس العهر. لماذا ـ سأل المأمور ـ ليس فى طريقة كلامها ولاكلامها ولا إيماءاتها ولا أسلوبها مايشير لذلك. يبدو أنك تعرف كثيرا عن العاهرات. لا تعتقد ذلك، أيها المأمور، فما أعرفه بالكاد يعد تافها، تجربة واحدة مباشرة، وأفكار كثيرة مجرد تصور. أكمل. استقبلانى بترحاب، لكنهما لم يقدما لى قهوة. أهما متزوجان. يلبسان

خاتم الزواج فى إصبعيهما. وكيف بدا لك العجوز. إنه عجوز، وبهذه الكلمة يتضح كل شىء. هنا ترتكب خطأ، فعن العجائز لا يتضح كل شىء، فما يحدث هو أنك لم تسأله عن شىء، وبالتالى التزم الصمت. لكن هذا العجوز لم يصمت. هذا أفضل له، أكمل. بدأت حديثى عن الحريق، كما فعل الزميل، لكننى فى الحال فهمت أن هذا الطريق لا يؤدى إلى شىء، وهكذا قررت الهجوم المواجه، تحدثت معهما عن الخطاب الذى تلقته المباحث والذى يصف بعض الأحداث الإجرامية التى ارتكبت فى مستشفى المجانين قبل نشوب الحريق، مثل حادثة القتل، وسألتهما إن كانا يعرفان شيئًا حول هذه القضية، حينها ردت هى بالإيجاب، قائلة إنها تعرف، ولا أحد يمكن أن يعرف خيرًا منها، حيث إنها هى القاتلة. وهل قالت ماهو سلاح الجريمة - سأل المأمور .. نعم، إنه المقص. وغرزته فى قلبه. لا يا مأمور، بل فى رقبته. أكمل. يجب أن أعترف إنها تركتنى مشوشًا. أظن ذلك. فجأة أصبح لدينا قاتلتان فى نفس الجريمة. أكمل. ما سأرويه الآن صورة مريعة. الحريق. لا يا مأمور، لقد بدأت تصف لى بفظاظة، شبه وحشية، ما كان يحدث للنساء المغتصبات فى صالة العميان. والعجوز، ماذا كان يفعل عندما كانت المرأة تصف كل هذا. كان ينظر لى وجهًا لوجه، بتركيز، بعين واحدة، كما لو كان يرانى من داخلى. إنها أوهام. لا يا مأمور، بداية من الآن أعرف بالفعل أن عينا واحدة ترى أفضل من عينين،

لأن عينا واحدة، بلا عين أخرى تساعدها، يتحتم عليها أن تقوم هى بكل العمل. ربما من أجل هذا يقولون إنه فى بلد العميان يصير الأعور ملكًا. ربما، سيدى المأمور. أكمل، أكمل. عندما صمتت هى، تحدث هو ليقول إنه لا يعتقد أن سبب الزيارة - هذا هو التعبير الذى استخدمه - يكمن فى تحرى أسباب الحريق الذى لم يبق منه شىء أو توضيح الظروف التى أحاطت جريمة القتل التى لا يمكن إثباتها، وإن لم يكن لدىّ شىء آخر ذو قيمة يمكن أن أضيفه، فلأسدى إليه معروفا بانصرافى. وأنت. استعنت بسلطتى كرجل مباحث، وأننى أقوم بمهمة وسأصل لنهايتها أيًا كان الأمر. وهو. أجاب أننى فى هذه الحالة أكون الممثل الوحيد للسلطة فى العاصمة، حيث إن جهاز الشرطة قد اختفى لا أعرف منذ كم أسبوع، وشكرنى بالتالى على اهتمامى بأمن الزوجين، وتمنى أن أهتم بزوجين أخرين، لأنه لم يستطع أن يصدق أن جهاز الشرطة قد أرسلنى فقط من أجل الشخصين الجالسين أمامى. وبعدها. تعقّدت الأمور، ولم أستطع المضى للأمام، ووجدت الطريقة الوحيدة لأغطى انصرافى هو أن يستعدا للمواجهة، حيث إنها، طبقًا للمعلومات المتوافرة لدينا، والموثوق فيها إطلاقا، ليست هى القاتلة لرئيس صالة العميان المجرمين، وإنما شخص آخر، امرأة تم التعرف عليها. وماذا كان رد فعلهما. فى اللحظة الأولى بدا لى أننى أرعبتهما، لكن العجوز استرد نفسه سريعًا، وقال إنه هناك، فى

بيته، أو أيا كان المكان، سيأتى برفقة محام يعرف قانون الشرطة جيدًا. أتعتقد حقًا أنك أدخلت فى قلبيهما الرعب ـ سأل المأمور .. يبدو لى ذلك، لكننى لست متيقنًا مطلقًا. من الممكن أن يكون الرعب قد اصابهما، لكن ليس خوفًا عليهما. خوفًا على من إذًا، مأمور. على القاتلة الحقيقية، على زوجة الطبيب. لكن العاهرة.. لا أعرف إن كان من حقنا أن نظل نسميها عاهرة. لكن زوجة العجوز ذا العصابة السوداء أكدت أنها هى القاتلة، حقًا إن خطاب الرجل لم يوش بها، وإنما وشى بزوجة الطبيب. هى بالفعل من ارتكبت الجريمة، وهى بنفسها من اعترفت بذلك وأكدته لى. عندما وصل الحوار لهذا المستوى كان منطقيًا أن ينتظر المفتش و المعاون أن يروى لهما رئيسهما، الذى أجرى تحرياته أيضًا، القصة شبه كاملة عما استطاع أن يعرفه فى مهمته، لكن المأمور اقتصر على قول إنه سيعاود زيارة بيت المشتبه فيهما فى اليوم التالى ليستجوبهما وبعد ذلك سيقرر الخطوات التالية. وماهى مهمتنا غدًا ـ سأل المفتش .. عملية مواصلة، لا شىء سوى مواصلة، أنت ستراقب الزوجة السابقة للرجل الذى كتب الخطاب، ولن تواجه مشاكل، فهى لا تعرفك. وأنا ـ قال المعاون ـ سأتابع تلقائيًا العجوز والعاهرة. قبل أن تتحقق بالفعل من كونها عاهرة، لن نستخدم كلمة عاهرة فى حواراتنا. أمرك سيدى المأمور. وحتى لو تحققت من كونها عاهرة، سنبحث عن كلمة أخرى ننعتها بها. أمرك سيدى المأمور،

سنسميها باسمها. الأسماء لديّ في كراسة ملحوظاتى، وليست لديك. ستقول لى ما اسمها وهكذا ينتهى الأمر. لن أقوله لك، إلى الآن مازال معلومة سرية. اسمها أم إسم الجميع - سأل المعاون .. أسماء الجميع. إذًا أنا لا أعرف كيف أسميها. يمكنك أن تسميها، على سبيل المثال، صاحبة النظارة السوداء. لكنها لا تضع على عينيها نظارة سوداء، وأقسم لك على هذا. كل الناس يرتدون نظارة سوداء على الأقل مرة واحدة فى حياتهم، أجاب المأمور ناهضًا .. وبظهر مشدود توجه لغرفة نومه وأغلق الباب. أراهن انه سيهاتف الوزير - قال المفتش .. ماذا يحدث له - سأل المعاون .. يشعر أنه مثلنا، مشتتا. يبدو أنه غير مقتنع بما يقوم به. وأنت، أمقتنع. أنا أنفذ الأوامر، لكنه هو الرئيس، ولا يمكن أن تصدر عنه إيماءات بالتيهة، فالعواقب نعانيها نحن بعد ذلك، فعندما تصطدم الموجة بالصخرة، الطحالب دائمًا هى من تدفع الثمن. أشك كثيرًا فى صدق هذه المقولة. لماذا. لأنه يبدو لى أن الطحالب تشعر بسعادة جمة عندما يأتيها الماء. لا أعرف، لم أسمع أبدًا عن ضحك الطحالب. إنها لا تضحك فقط، بل تقهقه، وما يحدث هو أن ضجيج الأمواج يمنع سماع قهقهتها، لذا يجب أن نرهف السمع. لا شىء من هذا يحدث، أنت تهزأ بمعاون ملازم أول. إنها طريقة غير مهينة لتضييع الوقت، لا تغضب. أعتقد أن هناك طريقة أخرى أفضل. ماهى. النوم، فأنا مرهق، سأدخل لأنام. قد يحتاجك المأمور.

ليضرب لى رأسى مرة أخرى بالحائط، لا أعتقد. معك حق ـ قال المفتش ـ سأتبع خطاك، وأدخل لأستريح قليلاً، وسأترك ملحوظة هنا قائلا أن ينادى علينا إن احتاج شيئًا. يبدو لى حسنًا.

خلع المأمور حذاءه ورقد فى سريره، على ظهره، بيدين متقاطعتين خلف رقبته، بعينين ناظرتين للسقف كما لو كان ينتظر أن تأتيه نصيحة من أعلى، أو على الأقل يأتيه ما يأتى قليلا وما اعتدنا أن نسميه رأيًا حرًا. ربما لأنه لا يعبر من خلاله صوت، وبالتالى فهو أصم، لم يكن لدى السقف شىء ليقوله، وبالإضافة لذلك، ولأنه يقضى أغلب الوقت بمفرده، فقد خسر عمليا ملكة الكلمة. تذكّر المأمور الحوار الذى عقده مع الطبيب وزوجته، وجه أحدهما، ووجه الآخر، الكلب الذى نهض يخنفر عندما رآه يدخل وعاد للرقود عند سماع صوت صاحبته، القنديل النحاسى ذو الثلاثة أعين يذكره بقنديل شبيه كان فى بيت أبويه واختفى بدون أن يعرف أحد كيف، كان يمزج هذه الذكريات بما سمعه فى التو من المفتش والمعاون وظل يسأل نفسه أية حماقة يفعلها هنا. كان قد اجتاز الحدود ليصل لأقصى الأساليب نقاء لبطل فيلم، مقتنعًا أنه جاء لينقذ الوطن من خطر مميت، وباسم هذا الاقتناع أصدر أوامره الحمقاء لمرءوسيه اللذين صنعا به معروفًا طائعين إياه، حاول أن يستند على تجميع منحط لشبهات تسقط مع كل دقيقة تمر عليه، والآن يسأل نفسه، مذهولاً من ضيق مجهول يقبض على

حجابه الحاجز، أية معلومة جديرة بالاعتماد يستطيع أن ينقلها هو، ببغاء البحر، إلى البطريق، الذى لابد أنه فى هذا الوقت يسأل نفسه بضيق صدر لماذا تأخرت الأخبار فى الوصول إليه. ماذا سأقول له ـ سأل نفسه ـ هل أخبره أن الشبهات حول النسر الصياد قد تأكدت، أن الزوج والآخرين يشكلون جزءًا من المؤامرة، وهو سيسأل من هم الآخرون، وأنا سأقول له إن هناك رجلاً عجوزًا بعصابة سوداء على عينه سيليق عليه كاسم شفرة السمكة الذئب، وامرأة بنظارة سوداء من الممكن أن نسميها القرموط، والزوجة السابقة لكاتب الخطاب، والتى قد نسميها السمكة الإبرة، إن اتفقت معى على ذلك، بطريق. نهض المأمور من سريره، الآن يتحدث بالهاتف الأحمر، ويقول : «نعم، بطريق، هؤلاء الذين ذكرتهم الآن ليسوا بالفعل أسماكًا سمينة، وإنما كان نصيبهم أن قابلوا النسر الصياد، الذى حماهم». «وهذا النسر الصياد، كيف يبدو لك، ببغاء البحر». «بدا لى كسيدة فاضلة، طبيعية، ذكية، وكل ما قاله عنها الآخرون حقيقة، بطريق، وأنا أميل للتفكير فى ذلك، فهى امرأة على الإطلاق خارجة عما هو مألوف». «خارجة عما هو مألوف لدرجة القدرة على قتل رجل بطعنات المقص، ببغاء البحر». «طبقا للشهود، كان رجلاً مغتصبًا بغيضًا، ممقوتًا بكل الأشكال، بطريق». «لا تترك نفسك للخديعة، ببغاء البحر، فأنا أرى بوضوح أن هؤلاء الأشخاص قد اتفقوا على رواية واحدة

للأحداث فى حالة استجوابهم فى أى يوم، وكان لديهم أربع سنوات للتخطيط، وكما أرى الأمور، وبناء على المعلومات التى أعطيتها لى واستنباطاتى الخاصة، هؤلاء الخمسة ينشئون خلية منظّمة، وربما يكونون رأس الدودة الشريطية التى نتحدث عنها منذ فترة». «لكن لا أنا ولا أحد من معاونىّ قد شعرنا بهذا الانطباع، بطريق». «إذًا ليس أمامكم حل آخر، ببغاء البحر، يجب أن تشعروا بهذا الانطباع». «نحتاج لأدلة، فبدون أدلة لن نستطيع أن نفعل شيئًا، بطريق». «إذًا فلتعثروا على الأدلة، ببغاء البحر، فتشوا بيوتهم بصرامة». «لكن لا يمكن أن نقوم بذلك بلا إذن القاضى، بطريق». «أذكّرك أن العاصمة فى حالة حصار وأن كل حقوق وضمانات السكان متوقفة، ببغاء البحر» . «وماذا سنفعل إن لم نجد أدلة، بطريق». «أنا أرفض فكرة ألا تجدوا أدلة، ببغاء البحر، ويبدو لى أنك ساذج جدًا لتكون مأمورًا، فمنذ أن أصبحت وزير داخلية وأنا أعرف أن الأدلة غير الموجودة دائما توجد فى نهاية الأمر». «ما تطلبه منى ليس سهلاً ولا مريحًا، بطريق». «أنا لا أطلب، بل آمرك، ببغاء البحر». «حقًا، بطريق، على أى حال أطلب منك الإذن لأسجل ملحوظة أننا لسنا أمام جريمة واضحة، وليست هناك أدلة على أن الشخص الذى قررت اعتباره مشتبهًا فيه حقًا مشتبهًا فيه، فاللقاءات التى عقدت، والاستجوابات التى أجريت، تؤكد، على العكس تماما، براءة هذا الشخص». «إن الصورة التى نراها

فى المسجون هى دائما صورة البرئ المفترض ، ببغاء البحر، وفى النهاية نعرف أنه المجرم». «أيمكن أن أوجه لك سؤالاً، بطريق». «وجه لى ماتشاء وأنا سأجيبك، ببغاء البحر، فأنا دائمًا عظيم فى ردودى». «ماذا سيحدث لو لم نجد أدلة اتهام». «سيحدث نفس ما سيحدث إن لم نجد أدلة براءة». «كيف يجب أن أفهم ذلك، بطريق». «أن هناك أحوالاً فيها تصدر الأحكام قبل ارتكاب الجريمة». «إن كان الأمر هكذا، وأنا قد فهمت إلى أين تريد أن تصل، فأنا أرجوك أن أنسحب من المهمة، بطريق». «سيتم سحبك من المهمة، ببغاء البحر، لكن ليس الآن وليس بناء على طلبك، سيتم ذلك عندما تغلق هذه القضية، ولن تغلق القضية إلا بفضل مجهودك المستحسن ومجهود معاونيك، إنصت لى جيدًا، سأعطيك خمسة أيام، سجّل ذلك، خمسة أيام، ولا يوم أكثر، لتسلّمنى الخلية كاملة مكبّلة الأرجل و الأيادى، النسر الصياد وزوجه، هذا المسكين الذى لم نعطه اسما، والثلاث سمكات الأخريات التى ظهرت فى التو، الذئب والقط والإبرة، أريد أن أسحقهم بكم من أدلة الاتهام التى يستحيل إنكارها، هذا هو ما أريده، ببغاء البحر». «سأفعل ما فى وسعى، بطريق». «ستفعل بالضبط ما انتهيت من قوله حالا، ومع ذلك، وحتى لا تأخذ انطباعًا سيئًا عن شخصى، فسأكون، كما أنا بالفعل، رجلاً منطقيًا، لذا فأنا أدرك أنك فى حاجة لمساعدة ما لتختم عملك خير خاتمة». «أترسل لى مفتشًا آخر، بطريق». «لا،

ببغاء البحر، مساعدتى ذات طبيعة أخرى، لكنها أكثر من فعّالة حتى الآن، كما لو كنت سأرسل لك كل رجال المباحث الواقعين تحت أوامرى. لا افهم شيئًا، بطريق». «ستكون أول من يفهم عندما يدق الجرس». «جرس». «نعم، جرس الهجوم الأخير، ببغاء البحر.» وقطع الاتصال.

خرج المأمور من غرفة نومه عندما أشارت عقارب الساعة للسادسة وعشرين دقيقة. قرأ الرسالة التى وضعها المفتش فوق المائدة وكتب تحتها: يجب أن أحل مسألة، انتظرانى. هبط للجراج، ركب السيارة، أدارها وتوجه لطريق الخروج. هنا توقف وأشار لعامل الجراج ليقترب. مازال العامل مستاء من تبادل الكلام وسوء المعاملة التى تلقاها من مستأجر شركة بروبيدنشيال للتأمين، اقترب مرتابًا لنافذة السيارة وتحدث بالشكل الرسمى. أحدث شيئًا. لقد كنت عنيفًا معك المرة السابقة. لا يهم، فقد اعتدنا كل شىء. لم أقصد إهانتك. ولم يكن هناك سبب لذلك، سيدى. مأمور، أنا مأمور بالمباحث، وهذه هى لوحة اسمى. معذرة، سيدى المأمور، من لا يعرفك يجهلك، وماذا عن السيدين الآخرين. الأصغر سنًا معاون مباحث والآخر مفتش. سأضع ذلك فى اعتبارى، سيدى المأمور، وأعدك أننى لن أضايقك بعد ذلك، لكننى كنت أحدثكم بحسن نية من قبل. كنا هنا لنقوم بمهمة تحريات، و أنهينا مهمتنا، الآن نحن مثل بقية الناس، كما لو كنا فى أجازة، ومن أجل سلامتك

أنصحك بحفظ الموضوع سرًا، وتذكّر أن رجل المباحث يظل رجل مباحث أيضا خلال أجازته، فهو أمر يسير فى دمه. أفهم ذلك جيدًا جدًا، سيدى المأمور، لكن، بما أن الأمر كذلك، وأسمح لى أن أكون صريحا معك، كان من الأفضل ألا تقول لى شيئًا، فعندما لا ترى العين لا يشعر القلب، ومن لا يعرف كمن لا يرى. كنت فى حاجة لأفضفض مع أحد، وكنت أنت من وجدتك قريبًا من يدى. بدأت السيارة فى صعود طريق الخروج الصاعد، لكن مازال لدى المأمور نصائح أخرى. لا تنبس بكلمة، حتى لا أندم على ما قلته لك. كان سيندم بالتحديد لو عاد للوراء، حيث سيجد عامل الجراج يتحدث فى الهاتف بشكل غامض، ربما يحكى لزوجته أنه تعرف فى التو على مأمور مباحث، وربما يخبر حارس العقار من هم الثلاثة رجال الذين يرتدون بدل سوداء ويصعدون للبناية من الجراج مباشرة إلى الطابق الذى فيه تقع شركة التأمين، ربما هذا، ربما ذاك، لكن أغلب الظن أننا لن نعرف حقيقة المكالمة التليفونية. بعد عدة أمتار، أوقف المأمور السيارة بقرب الرصيف، أخرج من جيب جاكيت بدلته الخارجى كراسة الملحوظات، قلّب الصفحات حتى وصل للصفحة التى فيها كتب رجل الخطاب أسماء وعناوين الزملاء القدامى، بعدها نظر فى دليل شوارع المدينة والخريطة، ورأى أن البيت الأقرب له هو بيت الزوجة السابقة للواشى. سجل ملحوظة أيضًا عن الطريق الذى يجب أن يسير فيه ليصل لبيت

العجوز ذى العصابة السوداء والسيدة ذات النظارة السوداء. ابتسم عندما تذكر خطأ المفتش عندما قال له إن هذا الاسم يهب الكمال لزوجة العجوز ذى العصابة السوداء ؛ لكنها لا تضع نظارة سوداء - أجاب المفتش المسكين مضطربًا .. لم أكن مخلصا - فكّر المامور - كان يجب أن أريه صورة المجموعة، كانت المرأة تترك ذراعها الأيمن على جسدها ساقطًا وتمسك فى يدها نظارة سوداء، مثل نظارة عزيزى واطسون، نعم، من أجل هذا هو فى حاجة لعيون مأمور. شغّل السيارة. دفعة ما أجبرته على الخروج من شركة التأمين، دفعة ما جعلته يقول لعامل الجراج من يكون، دفعة ما تسوقه الآن لبيت المطلقة، دفعة ما ستسوقه لاحقا لبيت العجوز ذى العصابة السوداء ودفعة ما ستحمله لبيت زوجة الطبيب، إن لم يقل لهما، للزوجة و الطبيب، إنه سيعود غدا فى نفس الساعة ليستكمل الاستجواب. أى استجواب - فكّر - أيقول لها، على سبيل المثال، أيتها السيدة، أنت مشتبه فيك فى أنك المنظِمة، المسئولة، المديرة الكبرى للحركة الثورية التى وضعت النظام الديمقراطى فى خطر، أقصد بذلك حركة التصويت الأبيض، لا تتصنعى الجهل، ولا تضيعى الوقت سائلة إياى عن أدلتى التى تؤكد قولى، فأنت من يجب أن يقدم أدلة براءته،، حيث إن الأدلة، وأنا على يقين من ذلك، ستظهر عند الحاجة، فهى مسألة اختراع دليل أو دليلين لا يمكن دحضهما، وحتى لو صارت الأدلة غير كافية، فالأدلة الطارئة والقديمة

تكفى، مثل عدم فهمنا لماذا لم يصبك العمى منذ أربع سنوات عندما سار يطأ ويضرب حتى أعمدة الإنارة بالشوارع، وقبل أن تجيبنى بأن هذا الأمر لا علاقة له بالأمر الآخر، أقول لها إن من يصنع سلة واحدة يصنع مئة سلة، وهذا على الأقل هو رأى وزير الداخلية. سأقول ذلك بكلمات أخرى. وأنا مضطر أن أنفذ ذلك حتى ولو آلم قلبى، لايوجد مأمور يألمه قلبه، قولى ذلك، سيدتى، فهذا هو ما تعتقدين فيه، فقد تعرفين كثيرا عن المأمورين، لكن أؤكد لك أنك عن هذه النقطة لا تعرفين شيئا، حقًا أننى لم آت هنا بهدف توضيح الحقيقة بنزاهة، حقًا أنك قد تم الحكم عليك قبل إدانتك، لكن ببغاء البحر هذا، كما يسمينى وزيرى، يؤلمه قلبه ولا يعرف كيف يحرر نفسه من هذا الألم، اقبلى نصيحتى، اعترفى، اعترفى حتى بأن الذنب ليس ذنبك، ستقول الحكومة للشعب أنك ضحية حالة تنويم مغناطيسى جماعى لم يحدث من قبل، وأنت عبقرية فى هذا الفن، وتقدمين للناس بذلك خدمة جليلة وتعود المياه إلى مجاريها، ستقضين عدة سنوات فى السجن، وأصدقائك أيضا لو أردنا، وأثناء ذلك، كما تعلمين، سيتم إصلاح القانون الانتخابى، وستنتهى الأصوات البيضاء أو سيتم تقسيمها على كل الأحزاب بالتساوى كأصوات مدلاة، وبهذه الطريقة لن تفسد نسبة الأصوات، النسبة، سيدتى، هى ما يتم عدها، أما الناخبون الذين سيمتنعون ولم يقدموا شهادة طبية فأحسن فكرة هى نشر أسمائهم فى الجرائد، كما كان يحدث مع

المجرمين فى الأزمنة القديمة عندما كانوا يربطونهم بالنصبة الحجرية فى الميادين العامة، وإن كنت أتحدث معك هكذا فلأننى أستريح لك، وحتى ترين كم أنا ودود، فقط سأقول لك إن سعادة حياتى العظمى، ظنا أنك لم تفقدى أحدًا من عائلتك فى تلك التراجيديا، كما فقدت أنا، ستكون ذهابى منذ أربع سنوات مع المجموعة التى حميتها أنت، فى تلك اللحظة كنت مفتشًا أعمى، لم أكن سوى مفتش أعمى عندما استرد بصره بعد ذلك قد يجد نفسه فى الصورة برفقة من أنقذتهم أنت من الحريق، وحينها لن يخنفر كلبك عندما يرانى أدخل. لو كان كل ذلك قد حدث أو أكثر منه لأستطعت أن أصرح بكلمة شرف أمام وزير الداخلية أنه مخطىء، فتجربة كتلك وأربع سنوات صداقة كافين لأعرف جيدًا تلك المرأة، وفى النهاية، انظرى، دخلت بيتك كما العدو، والآن لا أعرف كيف أخرج، أباعترافى للوزير أننى فشلت فى مهمتى، أم بمصاحبتك لأسوقك للسجن. الأفكار الأخيرة لم تكن أفكار المأمور، الذى نجده الآن مشغولاً بالبحث عن مكان يركن فيه سيارته أكثر من انشغاله بمصير المشتبه فيها التى سيحقق معها الآن، بل وأكثر من انشغاله بمستقبله هو نفسه. ألقى نظرة أخرى فى كراسة الملحوظات ودق جرس الشقة التى تعيش فيها مطلقة كاتب الخطاب. دق الجرس مرة أخرى، لكن الباب لم يفتح. مد يده ليدق من جديد عندما رأى بابًا من الدور الأعلى يُفتح ويطل منه رأس مزين ببكر لف لامرأة عجوز، ترتدى ملابس البيت. عمن تبحث.

سألت .. أبحث عن سيدة تقيم بالدور الأول على اليمين - أجاب المأمور .. ليست موجودة، بالصدفة رأيتها تخرج. أتعرفين متى ستعود. ليس لدى فكرة، لو أردت أن تترك لها رسالة، قلها لى - عرضت السيدة .. شكرا جزيلاً، الأمر لا يستحق، سأعود فى يوم آخر. لم يتخيل المأمور أن المرأة ذات البكر اللف ستعتقد أن المرأة المطلقة المقيمة بالدور الأول على اليمين تعرف رجالا يأتون لزيارتها، جاء أحدهم صباحا، وهاهو الآخر الذى يصل لعمر والدها. ألقى المأمور نظرة على الخريطة المفتوحة على الكرسى الذى بجواره، وشغّل السيارة وتوجه للهدف الثانى. هذه المرة لم تظهر جارات فى الباب. كان باب السلم مفتوحًا، لهذا تمكن من الصعود مباشرة للدور الثانى، حيث يعيش العجوز ذو العصابة السوداء والمرأة ذات النظارة السوداء. يالهما من زوجين غريبين، قرّب بينهما العمى بقسوته، لكنهما قضيًا سويا أربع سنوات، ولو كانت أربع سنوات لا شىء فى حياة امرأة شابة، فهى تعنى الكثير بالنسبة لرجل عجوز لأن كل سنة تساوى ضعفها. ومازالا سويًا - فكّر المأمور .. دق الجرس وانتظر. لم يرد أحد. دنا بسمعه ناحية الباب وأنصت. صمت مطبق على الجانب الآخر. دق الجرس مرة أخرى بشكل روتينى، بدون أن ينتظر أن يفتح له أحد. نزل على السلم، دخل سيارته وهمس : أنا أعرف مكانهما. إن كان لديه تليفون مباشر فى السيارة وهاتف الوزير وأخبره أين يذهب الآن، فهو على يقين من أن رد الوزير سيكون : برافو، ببغاء البحر، هكذا

يكون العمل، اضبط هؤلاء الأفراد متلبسين بجريمتهم، لكن خذ حذرك، فمن الأفضل أن تأخذ معك قوة، فرجل بمفرده لا ينتصر على خمسة مجرمين، على استعداد لفعل أى شيء، سوى فى الأفلام، بالإضافة إلى أنك لا تلعب كارتيه، والزمن ليس زمنك. اطمئن، بطريق، فأنا لا ألعب كارتيه، لكننى أعرف ما أفعل. أدخل بالطبنجة فى يدك، إرعبهم، سيتبرزون على أنفسهم من الخوف. أمرك، بطريق. وأنا سأبدأ فى إجراءات ترقيتك. لست متعجلاً، بطريق، كما أننى لست متيقنا اننى سأخرج حيًا من هذه المهمة. هيا، ببغاء البحر، فهم قلّة، وأنا أضع فيك كل ثقتى، وكنت أعرف ماذا أفعل عندما كلفتك بهذه المهمة. أمرك، بطريق.

أضيئت أعمدة الإنارة بالشوارع، وجاء الغروب ينزلق من منحدر السماء، وبعد قليل سيحل الليل. دق المأمور الجرس، ولم يكن هناك شيء يثير الدهشة، ففى أغلب المرات يدق رجال المباحث الأجراس ولا يكسرون الأبواب. ظهرت زوجة الطبيب. لم أكن أنتظرك حتى الغد، سيدى المأمور، والآن لا أستطيع أن أستضيفك، فلدىّ ضيوف. أنا أعرف من هم ضيوفك، لا أعرفهم شخصيًا، لكننى أعرف من هم. لا أعتقد أن هذا سبب كاف لأتركك تدخل. من فضلك. لا علاقة لأصدقائى بالأمر الذى جئت من أجله. ولا أنت تعرفين حتى الأمر الذى جئت من أجله، وآن الأوان لتعرفيه الآن فلتدخل .

ترى فكرة منتشرة هنا أن ضمير مأمور المباحث بشكل عام ضمير سهل الانقياد، حتى لا نقول ضميرًا خاضعًا، وهو أمر لا جدال فيه على المستوى النظرى والعملى فقد تم التحقق منه، فما يجب أن يكونه، يجب أن يكونه، وبالإضافة لذلك فلديه القوة التى يحتاج إليها. وقد يحدث مع ذلك، لنقول الحق، بالرغم من أنه غير مألوف، أن يجد أحد هؤلاء الموظفين المجتهدين نفسه بين السيف والحائط، أقصد بين ما يجب أن يكونه وما يجب ألا يكونه، ويحدث ذلك بالصدفة وعلى غير المتوقع. ولقد جاء هذا اليوم على مأمور شركة التأمين. لم يمكث فى بيت زوجة الطبيب أكثر من نصف ساعة، لكنها كانت كافية ليعلن للمجموعة المندهشة المجتمعة هناك أعماق مهمته المظلمة. قال إنه سيفعل كل ما فى وسعه ليضلل رؤسائه، القلقين، عن طريق هذا البيت، لكنه لا يستطيع أن يضمن لهم تحقيق ذلك، وقال إنهم قد منحوه فترة مدتها خمسة أيام ليغلق التحريات وإنه كان يعرف مقدمًا أنهم لن يقبلوا سوى أدلة إدانة، وأضاف، متوجهًا لزوجة الطبيب، أن الشخص الذى يريدونه كبش فداء، ومعذرة على هذا التعبير غير اللائق، هو باختصار أنتِ، وقد يكون زوجك كذلك فى

نفس السلة، أما الباقون فلا أعتقد أن الخطر الحقيقى يحيق بهم، إن جريمتك سيدتى ليست قتل هذا الرجل، وإنما جريمتك الكبرى هى عدم إصابتك بالعمى عندما كنا جميعا عميانا، إن ما لا يمكن فهمه يمكن اعتباره تافها، لكن لن يكون تافهًا إن أمكن إستخدامه كحجة. كانت الساعة الثالثة صباحًا ومازال المأمور يتقلّب فى سريره، بدون أن يتمكن من مصالحة النوم. كان يخطط ذهنيًا لليوم التالى، ويراجع خططه بقلق ويعود للبداية، سيقول للمفتش و المعاون، كما خطط، إنه سيذهب لبيت الطبيب ليواصل استجواب المرأة، ويذكّرهم بالعمل المكلفين به، مراقبة أعضاء المجموعة الآخرين، لكن لا معنى لكل هذا بعد أن وصلت الأمور لهذا الحد، فالمطلوب الآن هو إعاقة البحث، إرجاء الأحداث، تقدم التحريات وتقهقهرها فى ذات الوقت ، حتى يصير من السهل والصعب تنفيذ خطط الوزير، حتى يعرف فى النهاية فيما تكمن المساعدة التى سيقدمها له الوزير. كانت حوالى الثالثة والنصف عندما رن التليفون الأحمر. نهض المأمور قفزا، أدخل قدميه فى الشبشب الذى يحمل شعار المباحث، وصل ناعسًا إلى الترابيزة التى تحمل التليفون. رفع السماعة قبل أن يجلس وسأل : مَنْ. أنا بطريق - جاءته الإجابة من الجانب الآخر .. مساء الخير، بطريق، وأنا ببغاء البحر. لدىّ تعليمات لك، ببغاء البحر، اكتب. أمرك، بطريق. اليوم، فى التاسعة صباحًا، لا مساء، ستجد شخصًا ينتظرك عند

النقطة 6 شمال الحدود، وقد تم تبليغ الجيش، لن تواجه أية مشكلة. أيجب أن أفهم أن هذا الشخص سيحل محلى، بطريق. ليس هناك سبب لذلك، ببغاء البحر، لقد تصرّفت حتى الآن بشكل جيد وأتمنى أن تواصل كذلك حتى نهاية المهمة. شكرًا، بطريق، وتحت أمرك. كما قلت لك، ستجد شخصًا ينتظرك الساعة التاسعة صباحا عند النقطة 6 شمال الحدود. أمرك، بطريق، لقد كتبت. سلّم لهذا الشخص الصورة التى حدثتنى عنها للمجموعة التى فيها تظهر المشتبه فيها الأساسية، سلّم له أيضًا قائمة بأسماء وعناوين من يقعون تحت إمرتها. شعر المامور ببرد مفاجىء يسرى فى ظهره. لكن هذه الصورة مازالت لها أهميتها فى تحرياتنا ـ تجرأ قائلاً .. لا أعتقد أن لها تلك الأهمية التى تتحدث عنها، ببغاء البحر، حتى أننى أظن أنك لست فى حاجة لها، فأنت ومعاونك قد عقدتم اتصالا مباشرًا مع كل أعضاء العصابة. تقصد المجموعة، بطريق. كل عصابة هى مجموعة. حقًا، بطريق، لكن ليست كل مجموعة عصابة. لم أكن أعلم أنك مشغول بالتصحيحات اللغوية، أرى أنك تستخدم المعجم جيدا، ببغاء البحر. معذرة على تصحيحى لك، بطريق، فأنا مازلت نائمًا. أكنت نائما. لا بطريق، كنت أفكر فيما سأفعله غدا. ها أنت الآن تعرف، الشخص الذى سينتظرك فى النقطة 6 شمالاً رجل فى مثل عمرك تقريبًا وسيرتدى ربطة عنق زرقاء بنقط بيضاء، أظن أنك لن تجد كثيرًا يرتدون ربطة العنق

هذه فى النقطة العسكرية على الحدود. هل أعرفه، بطريق. لا، لا تعرفه، فهو لا ينتمى للمباحث. آه. سيرد عليك بعبارة : آه لا، الوقت دائمًا لا يكفى. وماهى جملتى أنا. الوقت دائما يأتى. حسنا، بطريق، ستنفذ أوامرك، فى التاسعة سأكون على الحدود لهذا اللقاء. الآن عد للسرير ونم ما تبقى من الليل، ببغاء البحر، وأنا سأفعل نفس الشىء، لقد واصلت فى عملى حتى الآن. أيمكن أن أطرح عليك سؤالاً، بطريق. اطرح سؤالك، لكن لا تطيل كثيرًا. هل هناك علاقة بين الصورة وبين المساعدة التى وعدتنى بها. أهنئك على فطنتك، ببغاء البحر، حقيقة أنا لا أستطيع ان أدارى عليك شيئا. إذًا هناك علاقة. نعم، هناك علاقة، لكن لا تنتظر أن أخبرك ماهى تلك العلاقة، فلو أخبرتك لفقدت المفاجأة فاعليتها. فى النهاية سأظل أنا المسئول المباشر عن التحريات. بالضبط. أتقصد بذلك أن تقول إنك لا تثق فىّ، بطريق. ارسم مربعًا فى الأرض، ببغاء البحر، وضع نفسك بداخله، داخل المكان المحدد بإطار اللوحة أثق فيك، وخارجه لا أثق إلا فى نفسى، وتحرياتك هى هذا المربع، اكتف بما يخصك. أمرك، بطريق. نم جيدا، ببغاء البحر، ستتلقى أخبارًا منى قبل نهاية الأسبوع. سأكون هنا فى انتظارها، بطريق. فلتصبح على خير، ببغاء البحر. وأنت من أهله، بطريق. بالرغم من آراء الوزير المألوفة، القليل الذى تبقى من الليل لم يفد المأمور فى شىء. لم يستطع النوم أن يصل لأعماقه، كانت ممرات وأبواب

مخه مغلقة، وبداخله كان الأرق ملكا وسيدا مطلقًا يحكم. لماذا طلب منى الصورة - كان يسأل نفسه ويكرر السؤال - ما قصده بتهديده عندما قال إننى سأتلقى أخبارًا منه قبل نهاية الأسبوع، الكلمات فى حد ذاتها ليس بها تهديد، وإنما النبرة، نعم، إنها نبرة تهديد. فالمأمور، بعد أن يقضى حياته مستجوبًا الناس، يتعلم تمييز الطريق الذى يؤدى للمخرج فى المتاهات المتشابكة للمقاطع، كما أنه يعد قادرا على كشف المناطق المظللة التى تنتجها كل كلمة وماذا تحمل وراءها عندما تنطق. قل بصوت مرتفع : ستتلقى أخبارًا منى قبل نهاية الأسبوع، وسترى سهولة تطعيمها بنقطة خوف غادر، رائحة عفنة للرعب، الارتجاف التسلطى من شبح الأب. كان المأمور يفضل أن يفكر فى أشياء مطمئنة كتلك. لكن ليس لدىّ سبب للشعور بالخوف، فأنا أؤدى عملى، أنفذ الأوامر التى أتلقاها، ومع ذلك، فى أعماق ضميره، كان يعرف أن الأمر ليس كذلك، فهو لا ينفذ الأوامر لأنه لا يعتقد أن زوجة الطبيب، لكونها لم تصب بالعمى منذ أربع سنوات، يتم إدانتها الآن بالتصويت الأبيض الذى قام به ثلاثة وثمانون فى المئة من التعداد الانتخابى بالعاصمة، كما لو كان الحدث الأول أدى اوتوماتيكيًا للحدث الثانى. هو أيضا لا يعتقد أنها مجرمة - فكّر - فما يهمه سوى العثور على أى هدف ليصوّب نحوه، وإن أخفق فى هذا، سيبحث عن آخر وثالث ورابع، أيا كان العدد اللازم حتى يصيب أو حتى يظهر

الأشخاص الذين يطمح فى إقناعهم بجدارته بأنهم، بسبب التكرار، غير مبالين بما يدور حولهم . وفى كل الأحوال سيكسب المباراة. وبفضل مفتاح الشرود عن الموضوع استطاع النوم فتح باب، عبور ممر، وفى المرحلة التالية هاجمه ليرى فى منامه وزير الداخلية يطلب منه الصورة ليفقأ عين زوجة الطبيب بإبرة، بينما كان يترنّم بتعويذة ساحرة شريرة. لم يصبكِ العمى، لكن سيصيبك، لم ترى البياض، لكنك سترين السواد، بهذا المنقار أنقرك، من أمامك ومن ورائك. مستاء، غارقًا فى عرقه، شاعرًا أن قلبه ينتفض من صدره، استيقظ المأمور على صرخات زوجة الطبيب وقهقهات الوزير. ياله من حلم فظيع - تلعثم بينما كان يضىء النور - يالتلك الأشياء القبيحة التى يولّدها العقل. كانت عقارب الساعة تشير للسابعة والنصف. حسبَ الوقت الذى يحتاجه ليصل للنقطة 6 شمالاً وكان على وشك شكر الكابوس لأنه نبهه فى الوقت المناسب. نهض غاية فى الإرهاق، كانت رأسه تزن ثقلا، وكان ساقاه أكثر ثقلا، سار متخبطًا جارًا قدميه حتى وصل للحمّام. خرج منه بعد عشرين دقيقة منتعشًا بسبب الدش، حالقًا لحيته، مستعدا للعمل. ارتدى قميصًا نظيفًا وأنهى لبسه. هو يرتدى ربطة عنق زرقاء بنقط بيضاء - فكّر .. دخل المطبخ ليسخّن لنفسه فنجان قهوة تبقى من الليلة السابقة. لا بد أن المفتش والمعاون نائمان، فلا أثر لهما. أكل عجينة بلا شهية، وقضم أخرى، بعدها عاد للحمام ليغسل

أسنانه. دخل غرفة النوم، حفظ فى مظروف متوسط الحجم الصورة والقائمة الخاصة بأسماء وعناوين المجموعة، هذا بعد أن عمل منها نسخة فى ورقة أخرى، وعندما عاد للصالة سمع ضجيجًا قادمًا من حيث ينام مساعداه. لم ينتظرهما ولم يطرق بابهما. كتب سريعا: وجب علىّ الخروج مبكرًا، السيارة معى، نفذا المراقبة التى أمرتكما بها، ركّزا فى النساء، زوجة الرجل ذى العصابة السوداء ومطلقة كاتب الخطاب، تغديا بالخارج إن استطعتما، سأكون هنا آخر النهار، أنا فى انتظار نتائج. أوامر واضحة، معلومات محددة، لو أمكن أن يصير كل شىء هكذا فى حياة المأمور الشاقة. خرج من شركة التأمين، هبط للجراج. كان العامل هناك، حيّاه وسمع منه رد التحية، بينما كان يسأل نفسه إن كان العامل ينام فى كشك الحارس. يبدو أنه لا وقت للعمل فى هذا الجراج. كانت الساعة الثامنة و النصف تقريبا. لدىّ وقت - فكّر - فى أقل من نصف ساعة سأكون هناك، بالإضافة إلى أننى غير ملزم أن أصل أولا، فبطريق كان واضحًا شديد الوضوح، سينتظرنى الرجل الساعة التاسعة، بالتالى أستطيع الوصول متأخرًا دقيقة، اثنتين، أو ثلاثة، أو وقت الظهيرة لو راق لى ذلك. كان يعرف أن الأمر ليس كذلك، وأنه ببساطة لا يجب أن يصل قبل الرجل الذى سيلتقى به، ربما لأنه سيضايق جنود الحراسة بالنقطة 6 شمالاً أن يروا أناسًا واقفين فى هذا الجانب من الخط الفاصل - فكّر بينما كان يسرع

ليصعد المنحدر .. كان صباح يوم الإثنين، لكن الازدحام المرورى كان قليلاً، لا يجب أن يتأخر المأمور عشرين دقيقة فى الوصول للنقطة 6شمالا. وأين تقع نقطة 6 شمالاً الملعونة. سأل نفسه بصوت مرتفع .. لا بد أنها فى الشمال، لكن اين وضعوا النقطة .6 قال الوزير النقطة 6 بكل طبيعية، كما لو كانت أحد آثار العاصمة الشهيرة أو محطة المترو التى دمرتها القنبلة، وهى أماكن مختارة يجب على الناس أجمعين أن يعرفونها، والآخر لم يخطر بباله أن يسأل بغبائه: أين تقع تلك النقطة، بطريق. فى لحظة ما كانت كمية رمال المستودع الأعلى للساعة الرملية تقل عن ذى قبل، الحبات الصغيرة كانت تهرول بسرعة فائقة نحو الفتحة، كل منها كانت تريد الخروج بسرعة قبل أخواتها، الوقت مثل الأشخاص، تأتى عليهم لحظات لا يستطيعون جر سيقانهم، لكن فى لحظات أخرى يهرولون كما الأيّل الأسمر ويتقافزون كما الجدى، مع أننا لو ركّزنا النظر للاحظنا أن الفهد أسرع الحيوانات لكن لم يخطر ببال أحد أن يقول هذا التشبيه لإنسان : هرول وتقافز كما الفهد، ربما لأن التشبيه الأول جاء من فترة العصور الوسطى الجليلة، عندما كان الفرسان يخرجون للاقتناص ولم يروا فهدا يهرول ولم يعرفوا حتى عن وجوده. اللغات دائما محافظة، تسير دائمًا بالأرشيف على عاتقها، وتبغض التجديد. ركن المأمور سيارته بأية طريقة، والآن يضع خريطة المدينة أمامه مفتوحة، وبشغف يبحث عن

مكان النقطة 6شمالا فى الجزء الشمالى للعاصمة. ربما يكون من السهل نسبيًا تحديد مكانها لو كانت المدينة، باستثناء اتخاذها شكل المعين القائم على زاوية حادة، مشيدة فى شكل متوازى الأضلاع، كما قال بطريق ببرود إن شكلها الهندسى محيط بفراغ الثقة الذى تستحقه، لكن محيط المدينة غير متساوٍ، وفى أطرافها، ناحية جانب والجانب الآخر، لا تعرف إن كان هذا مازال شمالاً أم أنه شرقًا أم غربًا. ينظر المأمور فى الساعة ويشعر بالخوف كمعاون ينتظر توبيخا من رئيسه. لن أصل فى الوقت المتفق عليه، هذا مستحيل. يبذل جهدًا ليهدئ نفسه ويتعقل. هذا منطقى. لكن منذ متى تدار القرارات البشرية بالمنطق، قد أرتب النقط على اعتبار أنها بادئة من الجانب الغربى للقطاع الشمالى، مواصلاً اتجاه عقارب الساعة، واللجوء للساعة الرملية، وبجلاء، فى تلك الأحوال، لا فائدة منها. ربما يخطئ الاستنباط. لكن منذ متى والقرارات البشرية يديرها الاستنباط. ومع أنه لم يكن سهلا الإجابة على السؤال، إلا أن امتلاك مجداف أفضل من عدمه، بالإضافة إلى أنه مكتوب أن المركب المرتطم بالشط لا يقوم بالسفر، وبالتالى أشار المأمور بالصليب على المكان الذى ظنه النقطة 6 وتحرّك. ولأن المرور كان هادئًا ولم يكن يرى ظل شرطى فى الشوارع، كان وسواس تخطى عدة إشارات حمراء وسواسًا ملحًا ولم يقاومه المأمور. لم يكن يجرى، بل يطير، لم يرفع قدمه من دواسة البنزين، لو

فرمل لانزلق جانبًا، كما نرى أكروبات عجلة القيادة فى أفلام مطاردات السيارات التى تجبر المشاهدين العصبيين على الفرك فى كراسيهم. لم يقد المأمور السيارة بهذا الشكل أبدا، ولن يكررها. وعندما مرت الساعة التاسعة، وصل للنقطة 6 شمالا، اقترب منه عسكرى ليرى ماذا يريد السائق المنتفض وأخبره أن هذه هى النقطة 5 شمالا. لعن المأمور الدنيا وما فيها، ولف بسيارته، لكنه صحح إيماءته المتسرعة فى الوقت المناسب وسأل من أى جانب تقع النقطة.6 أشار العسكرى اتجاه شروق الشمس، وحتى يقضى على أى شك، قال جملة مختصرة : من هناك. ولحسن الحظ، فُتح فى هذا الاتجاه شارع مواز تقريبًا لخط الحدود، كانت ثلاثة كيلومترات، فصار المأمور على هواه، فهناك لا توجد إشارات مرور، أسرعت السيارة، فرملت، أخذت ملفًا بغضب جم جديرًا بالجائزة الكبرى، توقفت شبه لامسة الخط الأصفر الذى يعبر الطريق، إنها هنا، هاهى النقطة 6 شمالاً. بجانب الحاجز، على بعد ثلاثين مترًا، كان ينتظر هناك رجل متوسط العمر. فى النهاية يطلع رجل أصغر منى سنًا . فكّر المامور .. أخذ المظروف وخرج من السيارة. لم ير أى عسكرى، قد ينفذون الأوامر باحتجابهم أو ينظرون للجانب الآخر بينما يستمر طقس التعارف والتسلم. تقدم المأمور. كان يحمل المظروف فى يده ويفكر: لا يجب أن أبرّر تأخرى، فلو قلت : «مرحبًا، صباح الخير، معذرة على تأخرى، لقد حدثت لى مشكلة مع

الخريطة، تخيل أن بطريق نسى أن يخبرنى أين تقع النقطة 6 بالتحديد». فالأمر لا يحتاج ذكاء لأفهم أن هذه الجملة الطويلة وسيئة النسق قد يفهمها الآخر على أنها كذبة، وبالتالى سيحدث شىء من اثنين، إما أن ينادى الرجل العسكريين ليحجزوا الكذاب المحرض، وإما أنه سيخرج طبنجته وفى نفس المكان، سيقيم العدالة، تحت اسم التصويت الأبيض، والثورة، فليقتل الخونة. وصل المأمور حتى الحاجز. نظر له الرجل بدون أن يتحرك. كان يضع إصبع الإبهام ليده اليسرى مشبوكًا بحزامه، ويده اليمنى داخل جيب معطفه المشمع، كل شىء كان طبيعيًا ليصير حقيقيًا. أيأتى مسلحًا، معه طبنجة - فكّر المأمور وقال: - الوقت دائمًا يأتى. لم يبتسم الرجل، لم يرمش، ورد: آه لا، فالوقت دائمًا لايكفى. حينها سلّم له المأمور المظروف، وربما يتبادلان الان التحية، ربما يتحدثان عدة دقائق عن اعتدال طقس صباح الإثنين، لكن الآخر اقتصر على قول: رائع جدًا، الآن تستطيع الانصراف، أنا أتعهد بتوصيل هذا لمكانه. دخل المأمور السيارة، رجع بها للخلف وتحرك صوب المدينة. شاعرًا بالمرارة، بالإخفاق التام، حاول أن يسلى نفسه متخيلاً أنها كانت ستصير لعبة هائلة لو سلم المظروف فارغًا وبقى منتظرًا النتائج. وعندما يودع أشعة الغضب ورعد الغيظ، قد يهاتفه الوزير فى الحال طالبا تفسيرًا وهو قد يقسم بكل قديسين مملكة السماء، بمن فيهم قديسين الأرض الذين مازالوا ينتظرون إعلان

القداسة، أن المظروف كان يحوى الصورة وقائمة الأسماء والعناوين كما أمر. «إن مسئوليتى، بطريق، تنتهى فى اللحظة التى أخرج فيها رسولك يده اليمنى من جيب معطفه المشمع وتسلم المظروف، بعد أن ترك الطبنجة التى كان يمسك بها، نعم، لقد انتبهت أن معه طبنجة». «لكن المظروف كان فارغًا، أنا فتحته» ـ قد يصيح الوزير .. «هذه ليست مسئوليتى، بطريق» ـ يجيب بهدوء من يتمتع بسلام تام مع ضميره .. «إن ما تريده أنا أعرفه ـ يصيح الوزير من جديد ـ إن ما تريده هو ألا ألمس بإصبعى شعر من تحميها». «أنا لا أحميها، إنها إنسانة بريئة من جريمة تتهمونها بها، بطريق». «لا تسمينى بطريقا، فبطريق هو أبوك، بطريق هى أمك، أما أنا فأنا وزير الداخلية». «إن كان الوزير قد كف عن كونه بطريق، فالمأمور أيضًا قد كف عن كونه ببغاء البحر». «الشىء المؤكد هو أن ببغاء البحر سيكف عن كونه مأمورا». «كل شىء ممكن الحدوث». «حقًا، أرسل لى اليوم صورة أخرى، اسمع ما أقوله لك». «ليست معى صورة أخرى». «لكن سيكون معك، بل وأكثر من صورة لو لزم الأمر». «كيف». «بكل سهولة، ستذهب أينما كانوا، فى بيت من تحميها وبيت الآخرين، ولا تحاول إقناعى أن الصورة المختفية كانت نسخة واحدة». هز المأمور رأسه. «إنه ليس مغفلاً، فلا فائدة من تسليم المظروف فارغًا». وصل وسط المدينة تقريبًا، حيث الحركة أكبر بشكل طبيعى، لكن بلا ضجيج، بلا مبالغة. كان يرى أن

الأفراد الذين يقابلهم فى الطريق يسيرون مهمومين، لكنهم يبدون هادئين فى الوقت نفسه. لكن المأمور كان قليل الاهتمام بهذا التناقض الواضح، فكون الإنسان غير قادر على شرح ما يشعر به بالكلمات لا يعنى أنه لا يشعر به. فهذا الرجل وهذه المرأة السائرين هناك، على سبيل المثال، يبدو أن كلاً منهما معجب بالآخر، يتمنى له الخير، يعشقه، يبدو أنهما سعيدان، الآن يبتسمان، ومع كل، ليسا فقط مهمومين، لكنهما بالإضافة لذلك، كما يروق لنا أن نقول، لديهما إدراك واضح ومطمئن لهمومهما. يلاحظ أيضًا أن المأمور مهموم، ربما أسباب همه، التى قد تكون تناقضًا آخر، دفعته للدخول فى هذه الكافتيريا ليتناول إفطار تقليدى، يلهيه وينسيه القهوة المعاد تسخينها والعجينة الناشفة والصلبة التى تناولها فى شركة التأمين. الآن طلب بجد عصير برتقال طبيعى، خبزًا محمصًا وفنجان قهوة باللبن. فى السماء من خلقكم - همس ناظرا للخبز المحمص عندما وضعه الجرسون أمامه، مغطيه بفوطة حتى لا يبرد، على العرف القديم. طلب جريدة، كل أخبار الصفحة الأولى كانت دولية، ولا شىء عن الهم المحلى، باستثناء تصريح لوزير الخارجية أعلن فيه أن الحكومة تستعد لاستشارة منظمات دولية مختلفة حول وضع العاصمة القديمة الشاذ، بدءًا بمنظمة الأمم المتحدة ونهاية بمحكمة لاهاى، ومرورًا بالاتحاد الأوروبى ومنظمة التعاون والتطورالاقتصادى ومنظمة الدول المصدرة للبترول

والحلف الأطلسى والبنك العالمى وصندوق النقد الدولى ومنظمة التجارة العالمية والمنظمة العالمية للطاقة الذرية ومنظمة العمل العالمية وبعض المنظمات الأخرى، الثانوية منها والتى مازالت تحت الدراسة، وبالتالى لم يرد ذكرها. لابد أن بطريق لم يسره الخبر، لابد أنهم يريدون أخذ الشوكولاتة من فمه - فكّر المأمور .. رفع نظره من الجريدة كمن يحتاج فجأة رؤية البعيد وقال لنفسه إن هذا الخبر ربما يكون سبب طلب الصورة المفاجىء والفورى. لم يكن أبدًا إنسانًا يسمح بتقدم الآخرين عليه، لابد أنه يتدبر لعبة، وأغلب الظن أنها لعبة قذرة بل شديدة القذارة - همس .. بعدها فكّر أن لديه بقية اليوم وقت فراغ، يستطيع أن يفعل ما يحلو له. لقد أشار لهما إلى عملهما، أى عمل تافه سيقومان به، المعاون و المفتش، فى هذه الساعة سيكونان مختبئين فى فتحة باب أو وراء شجرة، قد يفضل المعاون أن يراقب المرأة ذات النظارة السوداء، أما المفتش، لعدم وجود سيدة أخرى، فسيتحتم عليه القناعة بمطلقة كاتب الخطاب العاهر. أسوأ ما يمكن أن يحدث للمعاون أن يظهر له العجوز ذو العصابة السوداء، لكن ليس كما قد يفكر البعض أن مراقبة امرأة شابة أمر أكثر جاذبية من الجرى وراء عجوز، بل لأن هؤلاء الناس الذين يرون بعين واحدة يرون الضعف، فليس لديهم عين أخرى قد تضللهم أو تركّز فى شىء آخر، لقد قلنا شيئًا مشابهًا من قبل، لكن الحقائق، المسكينة، يجب أن نكررها مرات كثيرة

حتى لا تقع فى طى النسيان. وأنا ماذا أفعل ـ تساءل المأمور .. نادى الجرسون، أعاد له الجريدة، دفع حسابه وخرج. عندما جلس أمام عجلة القيادة ألقى نظرة على الساعة. العاشرة و النصف ـ فكّر ـ وقت مناسب، إنه نفس الوقت الذى حددته للاستجواب الثانى. لقد فكر أن الوقت مناسب، لكنه لم يعرف أن يقول لماذا ومن أجل ماذا هو وقت مناسب. ربما يعود لشركة التأمين ليستريح حتى ساعة الغداء، ربما ينام قليلا، ليعوض النوم المفقود خلال الليلة الملعونة التى تألم فيها غضبًا، بسبب الحوار المحزن مع الوزير، بسبب الكابوس، صرخات زوجة الطبيب عندما كان بطريق يفقأ عينيها، لكن فكرة أن يحبس نفسه بين تلك الحوائط الصماء بدت له بغيضة، فليس لديه ما يفعله هناك، ولن يشغل نفسه بمراجعة مخزن السلاح والذخيرة، كما فكّر عندما وصلوا وكان ذلك واجبه كمأمور، بكل معانى الكلمة. كان الصباح مازال يحتفظ بضوء الفجر، والهواء رطبا، إنه أفضل وقت ممكن ليتنزه على قدميه. خرج من السيارة وبدأ يتمشى. وصل إلى آخر الشارع، لف ناحية اليسار ووجد نفسه فى ميدان، كان يتذكر عندما كان هنا منذ أربع سنوات، أعمى فى وسط العميان، ينصت لوعاظ كانوا مثله فى عماه، ينصت للصدى الأخير الذى مازال متبقيا، إن كانت أصواتهم مازالت موجودة، فستسمع أصوات الاجتماعات السياسية الحديثة التى عقدت فى هذه الأماكن، صوت حزب اليمين فى الميدان

الأول، وصوت حزب الوسط فى الثانى، أما حزب اليسار، كما لو كان هذا مصيره التاريخى، فلم يجد أمامه سوى الاكتفاء ببادية شبه خارجة عن الحدود. مشى المأمور ومشى ومشى وفجأة، بدون أن يفهم كيف، وجد نفسه فى الشارع الذى يقطن فيه الطبيب وزوجته، مع أن تفكيره لم يكن ذلك. إنه الشارع حيث يقطن هو. مشى الهوين، ظل يتقدم فى خطوته فى الجانب العكسى وكان ربما على بعد عشرين مترًا، عندما فتح باب البناية وخرجت زوجة الطبيب بكلبها. وبحركة تلقائية أعطى المأمور ظهره، واقترب من فترينة وبدأ يشاهد المعروض، فى انتظار إن كانت ستمر فى نفس الجانب، سيراها منعكسة فى الزجاج. لم تأت. وبكل حذر، نظر للاتجاه العكسى، كانت زوجة الطبيب تبتعد، والكلب بلا حزام يسير بجانبها. حينها فكّر المأمور أن عليه أن يتبّعها، فلن يراق ماء الوجه إن فعل ما يفعله الآن المعاون و المفتش، فلو كانا يدوسان المدينة خلف المشتبه فيهم، فمن واجبه أن يفعل نفس الشىء لكونه مأمورًا محترفًا، الله يعلم أين تذهب الآن هذه المرأة، التى ربما تأخذ كلبها معها للتضليل، أو ربما تستغل طوق الكلب لنقل رسالة، زمن منعم هذا الزمن الذى فيه كانت الكلاب مثل سان برناردو تعلق فى رقابها براميل من الكونياك وبهذا القليل كم حياة ظنت أنها ستفقد تم إنقاذها فى جليد الجبال الشاهقة. إن مطاردة المشتبه فيها، إن أردنا أن نسميها هكذا، لم تكن بعيدة. فى مكان محتجب بالحى،

كضاحية منسية داخل المدينة، كانت توجد حديقة مهجورة محفوفة بأشجار ظل، بطريق يحفه الرمل الغليظ وأحواض الزهور، بدكك ريفية مدهونة بالأخضر، ونافورة فى الوسط يتوسطها تمثال يمثل صورة امرأة تميل على الماء بدورق فارغ. جلست زوجة الطبيب، فتحت حقيبة يدها وأخرجت كتابًا. لو لم تفتحه وتبدأ فى القراءة، ما تحرّك الكلب من جانبها. رفعت عينيها من الصفحة وأمرته : تعال. بينما مضى هو مهرولا، ذهب إلى حيث يجب أن يذهب، إلى هذا المكان، كما تقول العبارة الملطفة، الذى لا يأخذه منه أحد. كان المأمور ينظر من بعيد، تذكّر سؤاله الذى طرحه على نفسه بعد الإفطار : وأنا ماذا أفعل. خلال خمس دقائق انتظر مختبئا بين النباتات، وكان من الحظ أن الكلب لم يأت صوب هذا الجانب، فقد يكون قادرًا على التعرف عليه وفعل شيئا أكثر من العواء عليه. لم تكن زوجة الطبيب تنتظر أحدًا، هى ببساطة أخذت الكلب للشارع، كما يفعل أناس كثيرون. سار المأمور متجهًا صوبها مقعقعًا الرمل الغليظ وتوقّف على بعد خطوات منها. ببطء، كما لو كان من الصعب أن تفارق القراءة، حرّكت زوجة الطبيب رأسها ونظرت. كان يبدو للوهلة الأولى أنها لم تتعرف عليه، بالتأكيد لأنها لم تتوقع رؤيته هناك، بعدها قالت: لقد انتظرناك، لكن لأنك لم تأت ولأن الكلب كان ضيق الصدر ليخرج هبطت به للشارع، زوجى فى البيت، تستطيع الحديث معه حتى أعود، هذا إن لم تكن

مستعجلا. لست مستعجلاً فى شىء. إذًا فلتذهب فلن أتأخر، سأمكث فقط الوقت الذى يحتاجه الكلب، فليس ذنبه أن الأشخاص أدلوا بأصوات بيضاء. إن لم يضايقك، لأن الفرصة تساعدنى، أفضل الحديث معك هنا، بلا شهود. لكننى أعتقد، إن لم أكن مخطئة، أن هذا الاستجواب، لنستمر فى تسميته هكذا، يجب أن يكون مع زوجى، كمتهم أول. إنه ليس استجوابًا، وكراسة الملحوظات لن تخرج من جيبى، كما أنه ليس لدى أى جهاز تسجيل أخبئه، وأعترف لك أن ذاكرتى ليست كما كانت، فهى سريعة النسيان، خاصة عندما لا آمرها أن تسجل ما تسمع. لم أكن أعرف أن الذاكرة تسمع. إنها الأذن الثانية ، فالأذن الخارجية تفيد فقط فى توصيل ما تسمعه إليها. إذًا ماذا تريد. لقد قلت لك، أود الحديث معك. فيما. فيما يدور فى هذه المدينة. سيدى المأمور، أنا شاكرة لك جدًا لأنك جئت بالأمس لبيتى ورويت لنا، ولأصدقائى أيضا، أن هناك أشخاصًا فى الحكومة مهتمين جدًا بظاهرة زوجة الطبيب التى لم يصبها العمى منذ أربع سنوات والآن، كما نرى، هى منظمة مؤامرة ضد الدولة، لكن، بكل صراحة، إن لم يكن لديك جديد تقوله لى حول هذا الأمر، فأنا لا أعتقد أن هناك أمرًا آخر يستحق حديثنا حوله. طلب منى وزير الداخلية أن أوصّل له الصورة التى تجمعك بزوجك وأصدقائك، وهذا الصباح كنت فى نقطة على الحدود لأسلّمها. إذًا فلديك جديد لترويه، على أى حال لم تكن فى حاجة

لترهق نفسك بمتابعتى، كنت تستطيع أن تذهب لبيتى مباشرة، فأنت تعرف الطريق. لم أتبعك، لم أكن مختبئًا وراء شجرة أو أتظاهر بأننى أقرأ الجريدة فى انتظار أن تخرجى من البيت لأراقب تحركاتك، كما يفعلان الآن مع أصدقائك، المفتش والمعاون المشاركان فى التحرى، لقد أمرتهما بمتابعتهم حتى اشغلهما، ليس إلا. أتقصد أنك هنا بالمصادفة. بالضبط، بالمصادفة كنت أعبر الشارع ورأيتك تخرجين. من الصعب تصديق أن الصدفة الباحتة و البسيطة هى التى أحضرتك للشارع الذى أقيم فيه. أسميها كما يروق لك. على أى حال، إن كنت ترغب أن تسميها هكذا، فهى مصادفة سعيدة، فلولاها ما كنت عرفت أن الصورة الآن فى يد وزيرك. كنت سأقول لك ذلك فى مناسبة أخرى. وفيما يحتاج الصورة إن لم يكن فضولاً زائدًا عن الحد من جانبى. لا أعرف ، لم يخبرنى، لكننى على يقين أنه لا يحتاجها فى شىء طيب. إذًا أنت لم تأت اليوم لتقوم باستجوابك الثانى - سألت زوجة الطبيب .. لا اليوم ولا غدًا، ولا أى يوم آخر، ولو اعتمدت على إرادتى، فأنا أعرف ما أحتاج معرفته من هذه القصة. يجب أن توضح كلامك أكثر من ذلك، اجلس، لا تقف مثل هذه المرأة ذات الدورق الفارغ. ظهر الكلب فجأة، خرج يتقافز ويعوى بين الشجيرات وجرى ناحية المأمور، الذى تراجع بتلقائية عدة خطوات للخلف. لا تخف - قالت زوجة الطبيب وهى تمسك بالكلب من طوقه - فلن يعضّك. كيف

تعرفين أننى أخاف من الكلاب. لست ساحرة، فقط لاحظت ذلك عندما كنت فى بيتى. وهل يلاحظ ذلك جدًا. يلاحظ بشكل كاف، هادئ ـ كانت الكلمة الأخيرة موجهة للكلب، الذى توقف عن العواء والآن يصدر من حنجرته صوت شخير مستمر، وعوعة مازالت قلقة، من عضو غير مؤتلف مع بقية الأعضاء. من الأفضل أن تجلس حتى لا يفهم أنك جئت لتؤذينى. جلس المأمور بكل حيطة، محتفظًا بالمسافة بينه. هل اسمه هادئ. لا، بل اسمه ثابت، لكنه بالنسبة لنا ولأصدقائنا يعد كلب الدموع، فأسميناه ثابتًا لأنه اسم قصير. ولماذا هو كلب الدموع. لأنه منذ أربع سنوات كنت أبكى وكان يقترب ويلعق دموعى. خلال فترة العمى الأبيض. نعم، فى فترة العمى الأبيض، ها أنت ترى المعجزة الثانية لتلك الأيام البائسة، أولها المرأة التى لم تصب بالعمى عندما بدا هذا واجبها، والثانية هذا الكلب العطوف الذى جاء ليلعق دموعها. أحدث ذلك حقيقة أم أنا أحلم. حتى الأحلام تحدث حقيقة سيدى المأمور. أتمنى ألا تحدث كلها. ألديك سبب محدد لقول ذلك. لا، إنها مجاراة للحديث. كان المأمور يكذب، فالجملة الكاملة التى لم تسمح بالخروج من فمه كانت جملة أخرى : أتمنى ألا يفقأ بطريق عينيك. اقترب الكلب وأوشك أن يلمس ركبة المأمور بأنفه. نظر للكلب وعيناه تقولان : لن أؤذيك، لا تخف، فهى أيضا لم تخف ذاك اليوم. وحينها مد المأمور يده بتوءدة وملّس على رأسه. كان يروق له أن يبكى، أن يترك الدموع

تهرب على خديه، ربما تحدث المعجزة من جديد. احتفظت زوجة الطبيب بالكتاب في حقيبة يدها وقالت : هيا بنا. إلى أين ـ سأل المأمور .. ستتناول غداءك معنا إن لم يكن لديك شيء أهم لتقوم به. هل أنت متأكدة. من ماذا. من أنك تريدين دعوتي إلى الجلوس على مائدتك. نعم، متأكدة. ألا تخافين أن أخدعك. بدموع عينيك هذه، لا.

عندما وصل المأمور لشركة بروبيدنشيال للتأمين، وقد تجاوزت الساعة السابعة مساءً، وجد معاونيه فى انتظاره. لا يبدو أنهما كانا مسرورين. سألهما بنبرة متحمسة، مرحة، متصنعا اهتمام نعرف نحن أفضل من الجميع أنه لا يمكن أن يشعر به: كيف حال اليوم، أى جديد تحضران. أجابه المفتش: بالنسبة لليوم، سيئ، وبالنسبة للجديد، أسوأ. كان من الأفضل أن نبقى فى سريرنا نائمين. قال المعاون .. وضحا كلامكما. لم أشترك فى حياتى أبدًا فى تحريات حمقاء هكذا . بدأ المفتش .. كان المأمور على وشك أن يظهر اتفاقه معه، . فكّر : . هذا ولا تعرف عن القداس منتصفه . لكنه فضّل التزام الصمت .. واصل المفتش: كانت الساعة العاشرة عندما وصلت لشارع المرأة السابقة للرجل كاتب الخطاب. معذرة . تعجّل المعاون فى التصحيح . ليس صحيحًا أن تقول المرأة السابقة فى هذه الحالة. لماذا. لأن قولك المرأة السابقة قد تعنى أنها قد كفت عن كونها امرأة. ألم يحدث هذا . سأل المفتش .. لا، لم يحدث، فالمرأة مازالت امرأة، لكنها أصبحت غير زوجة له. حسنا، إذًا أقول إنه فى العاشرة وصلت لشارع الزوجة السابقة للرجل كاتب

الخطاب. بالضبط. لكن كلمة زوجة لها وقع مضحك ورنان، فعندما تقدم امرأتك، فمن المؤكد أنك لاتقول هاهى زوجتى. قاطع المأمور النقاش: احتفظا بهذا الأمر لوقت لاحق، ولنتحدث فى المهم. المهم - واصل المفتش - أنها لم تخرج من البيت وظللت فى انتظارها حتى منتصف اليوم، وهو أمر ليس بغريب، فتنظيم المدينة صار مختلاً، وهناك مؤسسات أغلقت وأخرى تعمل نصف يوم، وأشخاص ليسوا فى حاجة للاستيقاظ مبكرًا. وهذا ما أتمناه - قال المعاون .. لكنها خرجت أم لا - سأل المأمور بضيق صدر .. خرجت فى الثانية عشرة وربع بالتحديد. أتقول بالتحديد لسبب خاص. لا، سيدى المأمور، نظرت فى ساعتى كما هو منطقى وهذا ما رأيته : الثانية عشرة وربع. أكمل. كنت أركّز دائما بعينى فى التاكسيات التى تمر، فربما يخطر ببالها أن تركب إحداها وتتركنى فى منتصف الشارع كالأبله، راقبتها، وسريعًا ما فهمت إلى أين تريد أن تذهب، كانت تسير على قدميها. وأين ذهبت. الآن ستضحك، سيدى المأمور. أشك فى ذلك. سارت نصف ساعة بخطوة سريعة، من الصعب مجاراتها، كما لو كان تدريبا، وفجأة، بدون أن أتوقع ذلك، وجدت نفسى فى شارع العجوز ذى العصابة السوداء وزوجته ذات النظارة السوداء، العاهرة. ليست عاهرة، أيها المفتش. إن لم تكن عاهرة الآن، فقد كانت عاهرة من قبل، والأمر سواء. الأمر سواء فقط فى رأسك، ليس فى رأسى، ولأنك تتحدث معى أنا ولأننى

رئيسك، استخدم الكلمات بحيث أستطيع أن أفهمها. إذًا فلأقل : العاهرة سابقًا. بل قل : امرأة العجوز ذو العصابة السوداء كما قلت عن امرأة كاتب الخطاب، كما ترى أنا أستخدم برهانك. أمرك سيدى. وجدت نفسك فى الشارع، وماذا حدث بعدها. دخلت هى البيت حيث يعيش الآخران، وبقت هناك. وماذا كنت تفعل أنت - سأل المأمور المعاون .. كنت مختبئًا، وعندما دخلت هى، ذهبت أنا بحثًا عن المفتش لنتفق على الإستراتيجية. وحينها. قررنا أن نعمل معا كلما كان ذلك ممكنًا - قال المفتش - وحددنا بأية طريقة سنتصرف إن تحتم علينا أن نفترق من جديد. وبعدها. عندما حان وقت الغداء، أخذنا راحة. وذهبتما للغداء. لا، سيدى المأمور، لأنه قد اشترى سندوتشين، أعطانى سندوتشًا، وكان هذا غداءنا. ابتسم المأمور فى النهاية. أنت تستحق وسامًا - قال للمعاون الذى، بثقة، تجرأ على الإجابة. البعض فاز بأوسمة على أشياء أقل من ذلك، سيدى المأمور. لا تستطيع ولا حتى أن تتخيل كم أنت محق. إذًا فلتكتب اسمى فى القائمة. ضحك الثلاثة، لكن سريعًا ما غيّم وجه المأمور. ماذا حدث بعدها - سأل .. كانت الساعة الثانية و النصف عندما خرجوا جميعًا، أظن أنهم تناولوا غداءهم فى البيت - قال المفتش - وسريعا ما انتبهنا أننا لم نكن نعرف إن كان العجوز لديه سيارة أم لا، لكن إن كان لديه، لم يستخدمها، ربما لأنه يوفّر البنزين، بدأنا فى مراقبتهم، وإن كان عملاً سهلاً على

فرد، تخيّل بالنسبة لفردين. وأين انتهى بهم المطاف. انتهى فى السينما، حيث ذهبوا هناك. وهل تحققتما من أنه ليس للسينما باب آخر قد يكونوا خرجوا منه بدون أن تنتبها. كان لها باب آخر لكنه كان مغلقا، وعلى أى حال ولنتخذ حيطتنا أمرت المعاون أن يراقبهم لمدة نصف ساعة. ومن هناك لم يخرج أحد. أكّد المعاون .. شعر المأمور بالتعب من الكوميديا. والباقى، اختصرا لى الباقى - أمر بصوت متوتر. نظر له المفتش بدهشة. الباقى، سيدى المأمور، لا شىء، خرجوا معا عند نهاية الفيلم، أخذوا تاكسيًا، وأخذنا نحن تاكسيا آخر، وقولنا للسائق الأمر الكلاسيكى: بوليس، اتبع هذه السيارة ؛ وكانت جولة طبيعية، نزلت امرأة كاتب الخطاب أولا. أين. فى الشارع الذى تسكن فيه، لقد قولنا لك سيدى المأمور، نحن لم نأت بجديد. بعدها ترك التاكسى الباقين عند بيتهما. وأنتما، ماذا فعلتما. أنا بقيت عند شارع الأولى - قال المعاون. وأنا عند شارع الثانية - قال المفتش .. وبعدها. بعدها لم يحدث شىء، لم يخرج أحد من بيته من جديد، بقيت لمدة ساعة تقريبًا، وفى النهاية أخذت تاكسيًا، ومررت بالشارع الآخر وأخذت هذا وعدنا هنا معًا، ووصلنا فى التو. جهد بلا فائدة - قال المأمور .. هذا ما يبدو - رد المفتش - لكن المثير فى الأمر هو أن القصة لم تبدأ بشكل سيئ، فاستجواب كاتب الخطاب، مثلا، كان يستحق العناء، بل صار مسليا، فالشيطان المسكين لم يكن يعرف أين أدخل نفسه وفى النهاية خاب أمله،

لكن بعدها، لا أعرف كيف، وجدنا أنفسنا فى ورطة، أقصد نحن أنفسنا، ويجب أنك تعرف أكثر، لأنك استجوبت مرتين المشتبه فيهما المباشرين. ومن هما المشتبه فيهما المباشرين - سأل المأمور .. الطبيب و زوجته، فالأمر بالنسبة لى جليًا، فإن كانا يقتسمان السرير، فهما يقتسمان الذنب. أى ذنب. أنت تعرف جيدا مثلى. تخيّل أننى لا أعرف، اشرح لى أنت. ذنب الوضع الذى نحن فيه. أى وضع. الأصوات البيضاء، المدينة الواقعة تحت الحصار، القنبلة التى انفجرت فى محطة المترو. أتصدق حقا ما تقوله - سأل المأمور .. من أجل هذا جئنا، لنحقق ونقبض على المذنب. تقصد زوجة الطبيب. نعم سيدى المأمور، فأوامر وزير الداخلية بالنسبة لى شديدة الوضوح. الوزير لم يقل إن زوجة الطبيب كانت مذنبة. سيدى المأمور، أنا لست إلا مفتش مباحث وقد لا أصل لأكون مأمورًا، لكننى تعلّمت بخبرة مهنتى أن أنصاف الكلمات قد وجدت لتقول ما لا يمكن أن تقوله الكلمات كاملة. سأساعدك فى ترقيتك لمأمور عندما أجد مكانًا لك، حتى ذلك الحين، الحقيقة تتطلب منى أن أعلّمك أن امرأة الطبيب، بكلمة كاملة لا بنصف كلمة، امرأة بريئة. نظر المفتش للمعاون بميل طالبًا منه العون، لكن كان على وجه الآخر تعبير من أناموه مغناطيسيًا، وبالتالى لا يمكن أن يعتمد عليه. وبكل حرص سأل المفتش : أتلمّح إلى أننا سنذهب من هنا بأياد فارغة. نستطيع أيضا أن نذهب من هنا بأيادينا فى جيوبنا، إن كان

يروق لك هذا التعبير. وهكذا سنمتثل أمام الوزير. إن لم يكن هناك مذنب، لا يمكن أن نخترعه. أود أن أعرف هل هذه العبارة عبارتك، أم عبارة الوزير. لا أعتقد أنها عبارة الوزير، وبالتالى أنا لا أتذكّر أننى قد سمعتها منه. أنا لم أسمعها فى حياتى منذ دخلت المباحث، سيدى المأمور، وأمام ما تقوله ليس أمامى سوى الصمت، ولن أنبس بكلمة. نهض المأمور، نظر فى ساعته وقال : هيا تناولا عشاءكما فى مطعم، فأنتما لم تتغديا بالفعل، ولابد أنكما تشعران بالجوع، ولا تنسيا أن تحضرا لى الفاتورة لأمضيها لكما. وأنت - سأل المعاون -. لقد تغديت جيدا، ولو شعرت بجوع فالشاى والفطائر تسده. قال المفتش : احترامى لك، سيدى المأمور، يجبرنى أن أقول لك إننى مشغول عليك. لماذا. نحن معاونان، لا يمكن أن يحدث لنا شىء سيئ أكثر من لفت نظر، أما أنت فمسئول عن نجاح المهمة ويبدو أنك قررت إعلان فشلها. أتعتقد أنه فشل فى المهمة أن تقول على المتهم إنه برئ. نعم، إن كانت المهمة مصممة لتحويل البرئ إلى متهم. منذ قليل كنت تؤكد بقدم ثابتة أن امرأة الطبيب مذنبة، الآن أنت على وشك القسم على الإنجيل أنها بريئة. ربما أقسم على الإنجيل على ذلك، لكن ليس فى حضرة وزير الداخلية. أفهم ذلك، فلديك عائلة، مهنة، حياة. هو ذلك، سيدى المأمور، ويمكنك أن تضيف إلى ما قولت، إن أردت، جبنى. أنا أيضًا إنسان، ولا أسمح لنفسى أن أحلق فى الهواء، لكننى فقط أنصحك أن

تأخذ المعاون تحت حمايتك من الآن فصاعدًا، فلدىّ شعور أن كلا منكما سيحتاج كثيرًا للآخر. قال المعاون و المفتش : حسنا، سيدى المأمور، إلى اللقاء. رد المأمور : بالهناء و الشفاء، لا تستعجلان العودة. أُغلق الباب.

مضى المأمور ناحية المطبخ ليشرب ماءً، بعدها دخل غرفة النوم. لم يكن السرير مرتبًا، وفى الأرضية كانت الجوارب المستعملة ملقية، جورب هنا وجورب هناك، والقميص المتسخ كان مرميًا بأى شكل فوق كرسى، هذا دون الحديث عن الحمّام، فمسألة نظافة شركة التأمين يجب أن تُحل عاجلاً أم آجلاً، سواء اتفق أم لم يتفق، مع السرية الطبيعية التى تحيط بالعملية، وضع خادمة أيًا كانت فى خدمة الضباط المقيمين هنا، على أن تكون، فى الوقت نفسه، موفّرة وطبّاخة وربة منزل. بسط المأمور الملاءة ومفرش السرير، وجه ضربتين للوسادة، كوّر القميص و الجوارب وأدخلها فى علبة، تحسن قليلاً منظر الغرفة الكئيب، لكن، بالطبع، أى يد أنثوية كانت ستحسنه بشكل أفضل. نظر فى الساعة، كان الوقت مناسبًا، وقد تعرف النتيجة. جلس، أضاء لمبة الكومودينو وطلب رقمًا. بعد أربع رنات رد. آلوه، تحدث ببغاء البحر، هنا بطريق، آلوه. أريد أن أخبرك بحصاد عمليات اليوم، بطريق. أتمنى أن تكون لديك أخبار مرضية تعلمنى بها، ببغاء البحر. هذا يتوقف على ما تعتبره مرضيا، بطريق. ليس لدىّ وقت ولا صبر للف

والدوران، ببغاء البحر، أدخل مباشرة فى صلب الموضوع . اسمح لى قبل أى شىء أن أسألك، بطريق، إن كان المطلوب قد وصل. أى مطلوب. مطلوب التاسعة صباحا، نقطة 6 شمالا. آه، نعم وصل فى حالة جيدة، وسينفعنى كثيرًا، فى الوقت المناسب ستعرف فيما سينفعنى، ببغاء البحر، الآن ارو لى ما حدث اليوم. لم تحدث أشياء كثيرة، بطريق، بعض عمليات المراقبة واستجواب واحد. احك لى بالتفصيل، ببغاء البحر، ما هى نتائج المراقبة. لا نتيجة بشكل فعلى، بطريق. لماذا. لأن هؤلاء الذين كنا نسميهم مشتبهًا فيهم من الدرجة الثانية، فى كل المناسبات، كان لهم سلوك طبيعى جدا، بطريق. واستجواب المشتبه فيهم من الدرجة الأولى، فعلى ما أتذكر كانت هذه مهمتك شخصيًا، ببغاء البحر. إجلالاً للحقيقة. ماذا ستقول لى. إجلالا للحقيقة. ما مناسبة هذا الآن، ببغاء البحر. إنها طريقة لبدء جملة، بطريق. إذًا إصنع فىَّ معروفا ودعك من إجلال الحقيقة وقل لى، ببساطة، إن كنت مستعدًا لتؤكّد لى، بدون لف ولا دوران، أن زوجة الطبيب التى صورتها أمامى الآن حقا مذنبة. لقد اعترفتِ أنها قتلت، بطريق. أنت تعرف جيدا، لأسباب كثيرة، منها عدم وجود جسم الجريمة، أن هذا لا يهمنا. نعم، بطريق. إذًا فلتدخل فى الموضوع مباشرة، وأجبنى إن كنت تستطيع أن تؤكّد لى أن زوجة الطبيب متورّطة فى حركة التصويت الأبيض المُنظمة، بل أنها هى رئيسة المنظمة. لا، بطريق، لا أستطيع أن أؤكّد لك

ذلك. لماذا، ببغاء البحر. لأنه لا يوجد رجل مباحث فى العالم، وأنا أعتبر نفسى آخرهم جميعا، بطريق، من الممكن أن يجد أقل دليل يسمح له بإسناد اتهام كهذا. يبدو أنك نسيت أننا اتفقنا أنك ستقيم الأدلة اللازمة، ببغاء البحر. وأية أدلة يجب أن تكون فى حالة كهذه، بطريق، إن سمحت لى بهذا السؤال. هذا ليس من اختصاصى، لقد تركت الأمر لرأيك، ببغاء البحر، عندما كنت أثق وقتها أنك قادر على إنهاء المهمة بأفضل نتيجة. الوصول للنتيجة التى تقول إن المشتبه فيه برئ من الجريمة التى تنسب إليه تبدو لى أفضل نتيجة فى عمل المباحث، بطريق، وأنا أقول ذلك مع كل احترامى. بداية من هذه اللحظة سننهى مسخرة الأسماء المستعارة، أنا وزير الداخلية وأنت مأمور مباحث. أمرك سيدى الوزير. لأرى إن كنا متفاهمين أم لا، سأطرح عليك السؤال الذى طرحته عليك فى التوّ بشكل مختلف. أمرك سيدى الوزير. هل أنت جاهز، بعيدًا عن اقتناعك الشخصى، على تأكيد أن زوجة الطبيب مذنبة، أجب بنعم أم لا. لا سيدى الوزير. هل وزنت عواقب ما تفوهت به الآن. نعم سيدى الوزير. رائع جدا، إذًا فلتسجل القرارات التى اتخذتها حالا. كلى آذان صاغية، سيدى الوزير. أخبر كلا من المفتش و المعاون أن لديهما أمرًا بالعودة صباح غد، فى الساعة التاسعة يجب أن يكونا عند النقطة 6 شمال الحدود حيث سينتظرهما الشخص الذى سيرافقهما إلى هنا ، رجل من نفس عمرك تقريبا

يرتدى ربطة عنق زرقاء بنقط بيضاء، وليحضرا فى السيارة التى استعملاها فى الانتقالات والتى لم تعد ضرورية لهما الآن. أمرك سيدى الوزير. أما بالنسبة لك. أما بالنسبة لى سيادة الوزير. ستظل فى العاصمة حتى إشعار آخر، بالتأكيد لن يتأخر كثيرا. والتحريات. أنت نفسك قد قولت إنه لا يوجد شىء للتحرى عنه، وإن الشخص المشتبه فيه برئ. هذا حقا، سيدى الوزير، ما أعتقده. إذًا فقضيتك محلولة، فلا تشتك. وماذا أفعل وأنا هنا. لا شىء، لا تفعل شيئًا، تنزه، تسلى، اذهب للسينما، للمسرح، زر متاحف، ولو راق لك، ادع أصدقاءك الجدد إلى العشاء، وستدفع الوزارة. لا أفهم، سيدى الوزير. الخمسة أيام التى أعطيتها لك مهلة للتحرى لم تنته بعد، ربما من الآن حتى نهايتها يضاء فى رأسك نور مختلف. لا أعتقد، سيدى الوزير. حتى ولو كان الأمر كذلك، فخمسة أيام هى خمسة أيام، أنا رجل بكلمة واحدة. أمرك سيدى الوزير. تصبح على خير، نم بعمق، أيها المأمور. تصبح على خير، سيدى الوزير.

وضع المأمور السماعة. نهض من كرسيه، دخل الحمام. كان فى حاجة لرؤية وجه الرجل الذى طردوه من عمله باختصار. الكلمة لم تقال، لكنها مكشوفة، كل حرف على حدة يفضحها، حتى كلمة تمنى النوم العميق توضّح ذلك. لم يفاجأ، فهو يعرف بما فيه الكفاية وزير الداخلية وكان يعرف أنه سيدفع الثمن غاليًا إن لم ينفّذ التعليمات المطلوبة، المعبّر عنها، بل

وحتى التعليمات الواقعة بين السطور، تلك التعليمات التى اتضحت مؤخرا كالأخريات، لكن ما أدهشه، هذا حقا، رباطة جأش الوجه الذى كان يشاهده فى المرآة، وجه قد اختفت منه التجاعيد، وجه به عينان نقيتان ولامعتان، وجه رجل فى السابعة و الخمسين عامًا، يعمل مأمورا فى المباحث، انتهى فى التوّ من عبور لعبة طوق النار وخرج منها كما يخرج من حمّام مُطهّر. كانت فكرة رائعة، أن يأخذ حمّامًا. خلع ملابسه ودخل تحت الدش. ترك الماء يجرى على جسده بطمأنينة، فلم يكن لديه أمر يشغل نفسه به، فالوزارة ستدفع الحساب، بعدها غسل جسده بالصابون ببطء، ومرة أخرى جرى الماء على جسده ليقضى على بقية الوسخ، حينها ساقته ذاكرته إلى أربع سنوات مضت، عندما كان الجميع عميانًا يسيرون وسخين وجوعى فى المدينة، على استعداد لفعل أى شىء مقابل بقايا رغيف خبز ناشف يعلوه العفن، مقابل أى شىء يمكن أن يُهضم، أو على الأقل يُمضغ، ليخدعوا الجوع بزيده المسكين، تخيّل زوجة الطبيب تقودهم فى الشارع، تحت المطر، كما القطيع الصغير من المبلولين، ست معزات تائهة، سبع عصافير متساقطة من عششها، ست قطات عمياء حديثة الولادة، ربما فى يوم من تلك الأيام، فى شارع ما، التقى بهم، ربما من الخوف ردعوه، ربما من الخوف ردعهم هو، فقد كانت فترة أنقذ نفسك كيفما استطعت، اسرق قبل أن يسرقوك، اضرب قبل أن يضربوك، فألد أعدائك، طبقا لقانون

العميان، هو هذا الشخص الأقرب منك. لكننا لسنا فى حاجة لنكون عميانًا حتى لا نعرف إلى أين نذهب. فكّر .. كان الماء الساخن ينزل بخريره الخفيف فوق رأسه وكتفيه، ينزلق فوق جسده، نظيفا، ليختفى مقرقرًا فى البالوعة. خرج من الدش، جفف جسده ببشكير الحمام الذى يحمل شعار المباحث، أخذ الملابس المعلقة على المشجب وعاد لغرفة النوم. ارتدى ملابس داخلية نظيفة، كانت الأخيرة المتبقية نظيفة، أما البذلة فكانت هى نفسها، فمن أجل مهمة خمسة أيام لم يكن فى حاجة لأخرى. نظر فى الساعة، كانت التاسعة تقريبًا. ذهب للمطبخ، سخّن ماء للشاى، وضع فيه الشاى الفتلة وانتظر الدقائق التى توصى بها تعليمات الاستخدام. أما العجينة فكان يبدو أنها مصنوعة من جرانيت مخلوط بالسكر. كان يقطّعها بقوة، مقسّما إياها إلى قطع سهلة المضغ، بعدها تذوب ببطء. كان يشرب الشاى برشفات صغيرة، كان يفضّل الشاى الأخضر، لكنه كان يجب أن يرضى بالموجود، الشاى الأحمر الذى لا طعم له لكونه قديمًا وقد انتهت صلاحيته ربما، كانت شركة التأمين تكرّم ضيوفها بفخامة زائدة عن اللازم. ترن كلمات الوزيرلاذعة السخرية فى أذنه. الخمسة أيام التى أعطيتها مهلة لك لإنهاء التحريات لم تنته بعد، حتى نهايتها : تنزه، تسلى، اذهب للسينما، الوزارة ستدفع، وكان يسأل نفسه ماذا سيحدث بعد ذلك، أيجعلونه يعود للمركز الرئيسى، متعللين بعدم قدرته على الخدمة الفعّالة

سيجلسونه أمام ترابيزة ليرتب الأوراق، مأمور متدنى يقوم بأعمال موظف حقير، أسيكون هذا هو مصيره، أم أنهم سيحيلونه للمعاش قهرياً وينسونه كلية حتى يعودوا لنطق اسمه بعد وفاته ويضطروا لشطب اسمه من سجل الموظفين. أنهى طعامه، ألقى فتلة الشاى المبللة والباردة فى سلة القمامة، غسل الفنجان، وبالسكين فى يده جمع الفتات الذى تبقى على المائدة. كان يتصرّف بتركيز حتى يشغل نفسه عن التفكير، حتى يترك الأفكار تتساقط واحدة وراء الأخرى، لكن مع الأفكار قليلا ما تفيد الحيطة، فبعض الأفكار تأتينا محاطة بجو من البراءة و النفاق، وبعدها، بوقت كثير، تظهر لنا وجهها الحقيقى الملعون. نظر مرة أخرى فى الساعة، العاشرة إلا الربع، كيف يمر الوقت. من المطبخ خرج إلى الصالة، جلس على الكنبة وانتظر. استيقظ على ضجيج القفل. عاد المفتش و المعاون، كان يلاحظ عليهما أنهما أكلا وشربا جيدًا، بدون مبالغة يمكن اتهامها. ألقيا عليه التحية، بعدها إعتذر المفتش باسم كليهما عن الوصول متأخرين. نظر المأمور فى الساعة، إنها قد تجاوزت الحادية عشرة. ليس متأخرًا ـ قال ـ لكن عليكما أن تستيقظا غدًا مبكرًا قبل ما كنتما تعتقدان. ألدينا مهمة أخرى ـ سأل المفتش واضعًا لفافة على المائدة ـ إن كان يمكن تسميتها مهمة. توقّف المأمور وبدأ ينظر فى الساعة وواصل : فى التاسعة صباحًا يجب أن تكونا عند النقطة 6 العسكرية شمالا بكل متعلقاتكما الشخصية.

لماذا ـ سأل المعاون .. لقد تم استبعادكما من مهمة التحريات التى جئنا هنا من أجلها. أهو قرارك، أيها المأمور ـ سأل المفتش بتعبير جاد. إنه قرار الوزير. لماذا. لم يخبرنى عن السبب، لكن لا تقلقا، أنا على يقين أنه ليس لديه شىء ضدكما، سيوجه إليكما كم من الأسئلة، لكنكما تعرفان الإجابة. أمعنى ذلك أنك لن تأتى معنا ـ سأل المعاون. حقا، سأبقى أنا هنا. أتواصل وحدك التحريات. لقد تم إغلاق التحريات. بلا نتائج محددة. لا محددة ولا مجردة. إذًا أنا لا أفهم لماذا لا تصحبنا فى العودة ـ قال المفتش .. أمر الوزير أن أستمر هنا حتى نهاية مهلة الخمسة أيام التى حددها، بالتالى حتى يوم الخميس. وبعدها. ربما يخبركما عندما يستجوبكما. يستجوبنا حول ماذا. حول كيف جرت التحريات، كيف أدرتُ دفتها. لكنك قولت لنا فى التو أن التحريات قد أغلقت. نعم، لكنه قد يبدأ من جديد فى طرق أخرى، حتى ولو لم يكن معى. أنا لا أفهم شيئًا ـ قال المعاون .. نهض المأمور من مكانه، دخل غرفة النوم وعاد بخريطة بسطها على المائدة، وبالتالى اضطر لإقصاء اللفافة جانبًا. النقطة 6شمالا تقع هنا ـ قال واضعًا إصبعه فوقها ـ لا تضلا الطريق، سيكون فى انتظاركما رجل يقول الوزير إنه من نفس عمرى تقريبًا، لكنه أكثر شبابًا، ستتعرفان عليه عن طريق ربطة العنق التى يرتديها، زرقاء بنقط بيضاء، عندما قابلته اليوم كان من الضرورى أن نتبادل الإمارات،، لكن هذه المرة لا آراه ضروريًا، فعلى

الأقل لم يقل لى الوزير شيئًا من هذا القبيل. لا أفهم. قال المفتش .. إنه لأمر جلىّ - ساعده المعاون - سنذهب للنقطة 6 شمالا. ما لا أفهمه ليس ذلك، مالا أفهمه هو لماذا نعود ويبقى المأمور وحده. قد يكون عند الوزير أسبابه. الوزراء دائمًا لديهم أسبابهم. ولا يوضوحونها أبدا. تدخل المأمور : لا ترهقا نفسيكما فى الجدال، فأفضل حل هو عدم طلب تفسير شىء، وفى الحالة المستحيلة التى قد يفسرون شيئًا، فعليكم أن ترتابوا فى تفسيرهم، فعادة ما يكون كذبا. طوى الخريطة بحيطة ، وكما لو كانت الفكرة جاءت فى الحال بباله، قال : خذا السيارة معكما. استبقى أيضًا بلا سيارة - سأل المفتش .. المدينة لا ينقصها أوتوبيسات وتاكسيات، بالإضافة إلى أن السير على الأقدام مفيد للصحة. مع الوقت أفهم أقل. ليس هناك شىء لتفهمه، عزيزى المفتش، أنا أتلقى الأوامر وأنفّذها، وأنتما عليكما أن تقتصرا على فعل نفس الأمر، فالتحليل و الاعتبارات لن تغير شيئًا فى هذا الواقع. دفع المفتش اللفافة للأمام . أحضرنا هذه - قال .. ماذا بداخلها. ما تركوه لنا هنا من أجل الإفطار لا يؤكل لذا قررّنا شراء بعض الأرغفة المختلفة، الرقيقة، وقليلا من الجبن الأبيض والزبدة الجيدة والجبن الرومى والخبز العادى. إذًا إما أن تأخذوه معكما أو تتركوه لى - قال المأمور مبتسما .. غدا،إن وافقت، نتناول إفطارنا معا وما يفيض يبقى هنا - ابتسم أيضا المفتش .. كان قد ابتسم الجميع، حتى

المعاون صاحبهما فى الابتسامة، والآن عادوا لجديتهم ولم يعرفوا ماذا يقولون. فى النهاية ودعهما المأمور. سأدخل لأنام، فقد جفانى النوم الليلة الماضية، واليوم كان يومًا مضطربًا، بدأ بهذه الزيارة للنقطة 6شمالاً. ماهذه الزيارة، أيها المأمور - سأل المفتش - فنحن لا نعرف شيئًا عن هذه النقطة 6شمالاً. نعم، لم أخبركما، لم أجد مناسبة، بأمر الوزير ذهبت هناك لأسلّم صورة المجموعة للرجل ذى ربطة العنق الزرقاء بنقط بيضاء، هذا الرجل الذى ستلتقيان به غدًا. ولماذا يريد الوزير هذه الصورة.لو استخدمت كلماته : فى الوقت المناسب ستعرفون. أشم رائحة حريق. وافق المأمور بهزة رأسه لمن يتفق معه، وواصل: بعدها ساقتنى الصدفة لأقابل زوجة الطبيب، وتناولت غدائى معهما فى بيتهما، ولأختصر تحدثت مع الوزير. مع كل احترامنا لشخصك - قال المفتش - هناك شىء لن نغفره لك، وأنا أتحدث باسم كلينا لأننا علّقنا على ذلك من قبل. ما الأمر. الأمر أنك لم ترغب أبدًا أن نذهب لبيت هذه المرأة. أنت ذهبت. نعم، على عجلة. هذه حقيقة - اعترف المأمور .. وما السبب. لأننى تملكنى الخوف. من ماذا، فلسنا وحوشًا. الخوف من أن يمنعكما وسواس الكشف عن المتهم أيا كان الثمن من رؤية حقيقة الشخص القابع أمامكما. أنستحق هذه الثقة الضئيلة، سيدى المأمور. ليست مسألة ثقة، أضعها فيكما أم لا أضعها، وإنما بتشبيه أفضل كأننى إكتشفت كنزًا وأردت أن أحتفظ به وحدى، لا،

ياللخاطر، ليست مسألة مشاعر، ليس بالتحديد ما تفكران فيه الآن، الأمر أننى ملآنى الخوف على أمن المرأة، فكّرت أنه كلما قل عدد من يستجوبونها، ستكون هى أكثر أمنا. بكلمات قليلة وبسيطة وبدون لف ولا دوران حول اللغة، ومعذرة على جراءتى - قال المعاون - ألم يكن لديك ثقة فينا. نعم، حقا، أنا أعترف، كانت تنقصنى الثقة فيكما. أنت لست فى حاجة لطلب المعذرة - قال المفتش - فأنت مبدئيًا معذور، خاصة لأنك قد تكون محقًا فى مخاوفك، فقد كان من الممكن أن ندمّر كل شىء، كزوج من الفيلة دخل فى فاخورة. فتح المأمور اللفافة، أخذ قطعتين من الخبز العادى، وضع بين شقتيه شريحتين رقيقتين من الجبنة الرومى وابتسم مبررًا : أعترف أننى جائع، فلم أتناول سوى فنجان شاى وبعض العجائن الملعونة التى كسّرت أسنانى. دخل المعاون المطبخ وأحضر زجاجة بيرة وكوبًا. هاهى أمامك، سيدى المأمور، وهكذا الخبز سيؤكل أفضل. جلس المأمور يمضغ متلذذًا سندوتش الجبنة الرومى، شرب البيرة كما لو كان يغسل روحه وعندما انتهى، قال : الآن نعم، سأدخل لأنام، فلتناما جيدًا، وشكرًا على العشاء. سار حتى باب غرفة النوم، وهناك وقف والتفت : سأفتقدكما كثيرا. توقّف فأضاف : لا تنسيا ما أخبرتكما به قبل العشاء. إلاما تشير، سيدى المأمور - سأله المفتش .. إن لدىّ شعورًا أن كلا منكما سيكون فى حاجة للآخر، لا تتركا أحدًا يخدعكما باللسان

الليّن أو بوعد بترقية سريعة، المسئول عن نتيجة التحريات هو أنا وليس شخص آخر، ولن تخونانى عندما تقولان الحقيقة، ارفضا أن تقولا أكاذيب باسم الحقيقة أنتما تعلمان أنها ليست كذلك. أمرك سيدى المأمور ـ وعده المفتش .. فليساعد كل منكما الآخر بالتبادل ـ قال المأمور وبعدها : هذا كل ما يمكن أن أريده منكما وكل ما أطلبه.

لم يرغب المأمور أن يستغل كرم وزير الداخلية الوافر. فلم يمض بحثًا عن تسلية فى المسارح أو السينمات، ولم يزر متاحف، وعندما خرج من شركة التأمين، لم يخرج سوى ليتناول الغداء والعشاء، وكان بعد دفع الحساب، يترك الفاتورة على المائدة برفقة البقشيش. لم يعد لبيت الطبيب ولا عاد للحديقة التى عقد فيها الصلح مع كلب الدموع : ثابت هو اسمه الرسمى، وحيث تحدث مع صاحبته، بالعين فى العين والروح مع الروح، عن الذنب و البراءة. لم يذهب كذلك ليتجسس على المرأة ذات النظارة السوداء والعجوز ذى العصابة السوداء، فى ذهابهما وإيابهما، كذلك لم يفعل ذلك مع المطلقة التى كانت زوجة الأعمى الأول. هذا الرجل الذى كتب خطاب الوشاية البغيض وصانع المصائب، والذى لو التقيت به فى الشارع - فكّر - سأتجاهله. أما بقية الوقت، صباحًا وظهرًا ومساء، فقد كان يقضيه جالسًا بجانب التليفون، منتظرا، حتى عندما ينام، كان يرهف له السمع. كان على يقين أن الوزير فى النهاية سيهاتفه، لكنه لم يكن على نفس اليقين من أنه سيفهم سبب إرادة الوزير فى إرهاقه، حتى الدقائق الأخيرة، وبنفس خاصيته المميزة، وحتى الثمالة، من الأيام الخمسة

للمهلة التى حددها للتحريات. كانت أكثر الأمور منطقية أن يأمروه بالعودة للجهاز وهناك يصفى حساباته المعلّقة، ويحال على المعاش المبكّر أو يقدّم استقالته، لكن الخبرة برهنت له أن هذا الشىء المنطقى أبسط بكثير من عقل وزير الداخلية المتعرّج. تذكّر كلمات المفتش، السوقية لكنها معبّرة: أشم رائحة حريق، قال ذلك عندما حدّثه عن الصورة التى اضطر لتسليمها للرجل ذى ربطة العنق الزرقاء بنقط بيضاء فى النقطة 6 شمالا، فكّر أن مربط الفرس لابد أنه فى هذا الحدث، فى الصورة، مع أنه لم يكن قادرًا على تخيل كيفية ذلك ولا الهدف منه. وخلال هذا الانتظار البطىء المرئية حدوده بالبصر، والذى يقال عنه انتظارا لأجل معلوم عندما يراد ثراء التعبير، وبهذه الأفكار، التى لم تكن فى مرات كثيرة سوى نعاس مستمر لا يمكن كبحه كان ينتفض منه من حين لآخر بالضمير شبه المترقب، مرت الثلاثة أيام المتبقية فى المهلة : الثلاثاء، الأربعاء، الخميس، ثلاث ورقات فى التقويم كان من الصعب بمكان نزعها من خياطتها فى منتصف الليل، وبعد نزعها بقت كالملتصقة فى الأصابع وتحولت لمادة لاصقة ومشوهة لفترة، فوق جدار ناعمة ستقاومها وفى نفس الوقت ستمتصها. أخيرًا، هاتفه الوزير يوم الأربعاء فى الحادية عشرة والنصف مساء. لم يحيّه، لم يقل له مساء الخير، لم يسأل المأمور كيف حاله، ولا كيف يقضى وقته فى هذه العزلة، لم يقل له إن كان قد استجوب المفتش والمعاون،

معا أم كل على حدة، بحوار هادئ أم بتهديد صارم، فقط اقترح عليه سريعًا، كما لم تأت مناسبتها: أظن أنه سيهمك قراءة جرائد الغد. أقرأ الجرائد كل يوم، سيدى الوزير. أهنئك، فأنت رجل مثقف، على أى حال أوصيك بحماس ألا تمتنع عن قراءتها غدًا، ستروق لك كثيرًا. سأفعل ذلك، سيدى الوزير. وشاهد أيضا نشرة الأخبار التليفزيونية، لا تفوّتها من أجل أى شىء فى الدنيا. ليس لدينا تليفزيون فى شركة التأمين، سيدى الوزير. أمر مؤسف، مع ذلك يبدو لى حسنًا، حتى لا يشرد عقلك من مشاكل التحريات العسيرة التى كنت مكلفًا بها، على أى حال، أذكّرك أنك يمكنك مشاهدتها فى بيت أى أحد من أصدقائك الجدد، اقترح عليهم أن تجتمع المجموعة كاملة وتمتعوا معا بالمشاهدة. لم يرد المأمور. كان من الممكن أن يسأله عن وضع العمل ابتداءً من اليوم التالى، لكنه فضّل الصمت، فالحق أن مستقبله فى يد الوزير، وهو من يخوّل إليه النطق بالحكم، بالإضافة إلى أنه على يقين من أنه سيتلقى كلمات جافة كإجابة، من نوع : لا تتعجل، غدًا ستعرف كل شىء. فى هذه اللحظة أدرك المأمور أن الصمت طال أكثر مما يعتبره طبيعيًا فى حوار تليفونى، حيث تكون الوقفات أو الراحات بين العبارات، عامة، قصيرة بل قصيرة جدًا. لم يأخذ رد فعل أمام اقتراح الوزير سيئ النية وأعطى انطباعا بأنه لم يتضايق منه. قال بحيطة: سيدى الوزير. عبرت الكلمات الأسلاك التليفونية على طول الخط،

لكن من الجانب الآخر لم يأت نفس. كان بطريق قد وضع السماعة. فقام المأمور أيضًا بوضع السماعة وخرج من غرفة النوم. ذهب للمطبخ وشرب كوب ماء، لم تكن المرة الأولى التى لاحظ فيها أن الحديث مع وزير الداخلية يسبب له عطشًا شبه مكدّر، كما لو كان خلال الحوار معه يحترق من داخله والآن يذهب لإطفاء ناره الخاصة. جلس على كنبة الصالة، لكنه لم يمكث هناك وقتًا طويلاً، لقد اختفى السبات الذى عاش فيه هذه الأيام الثلاثة، تبخّر مع الكلمة الأولى للوزير، والآن صارت الأمور، هذا الكسل الذى نسميه عادة بالاسم الكسلان والشامل للأمور عندما نحتاج وقتًا طويلاً ويشغل مساحة أكبر شرحها أو ببساطة الإعراب عنها، أقول صارت الأمور سريعة وقد لا تتوقف حتى النهاية، أية نهاية، متى ستكون، كيف ستكون، أين ستكون. كان على يقين من شىء، لم يكن فى حاجة لتسمية نفسه ميجريت أو بويروت أو شارلوك هولمز ليعرف ماذا ستنشر الجرائد فى اليوم التالى. انتهت فترة انتظاره، لن يعاود وزير الداخلية الاتصال به، الأمر الذى أصدره قد يصل من خلال السكرتارية أو من رئيس المباحث مباشرة، خمسة أيام أو خمس ليال، لا أكثر، فترة كافية ليتحول من مأمور مكلّف بأحد أصعب مهام التحرى إلى لعبة مكسورة تلقى فى القمامة. حينئذ فكّر أن عليه واجبًا يجب أن يؤديه. بحث عن الاسم فى دليل التليفونات، حفظ العنوان فى ذاكرته وسجل الرقم. ردت عليه زوجة

الطبيب. آلو. مساء الخير، إنه أنا، المأمور، معذرة على مهاتفتك فى هذه الساعة من الليل. لا يهمك، عادة لا ننام مبكرا. أتذكرين ما قلته لك عندما كنا فى الحديقة، إن وزير الداخلية طلب منى صورة مجموعتك. نعم، أتذكّر. إذًا فلدىّ أسباب لأفكّر أنهم سينشرونها غدا فى الجرائد وسيعرضونها فى التليفزيون. لن أسألك عن السبب، مع أننى أتذكّر أنك قولت لى إن الوزير لن يريدها فى شىء طيب. نعم، على أى حال لم أكن أنتظر أن يستخدمها بهذا الشكل. وماذا يريد. سنرى غدًا ما ستقوله الجرائد بالإضافة لنشر الصورة، لكننى أظن أنهم سيشوهونها أمام الرأى العام. ذلك لأننى لم يصبنى العمى منذ أربع سنوات. أنت تعرفين جيدا أنك مشتبه فيك بشكل كبير لعدم إصابتك بالعمى عندما فقد الجميع بصره، وبناء على هذه النقطة، يعتبرك المسئولة، كلية أو جزئية، عما هو حادث الآن. أتقصد التصويت الأبيض. نعم، أقصد التصويت الأبيض. هذا محال، بشكل كلى محال. لقد تعلّمت فى هذه المهنة أن الذين يأمرون لا يتجاوزون فقط ما نسميه نحن محالا، بل أنهم أيضًا يستفيدون منه لعرقلة الوعى وإبادة العقل. وما رأيك فيما يجب أن نفعله. عليكم بالاختفاء، اختبئوا، على ألا يكون ذلك فى بيت أصدقائكم، فهو ليس مكانًا آمنًا، فقريبًا سيضعونكم تحت المراقبة، إن لم تكونوا مراقبين بالفعل. معك حق، لكن أيا كان الوضع، لن نسمح لأنفسنا أبدًا أن نضع فى خطر أمن

شخص قرّر الترحيب بنا، فالأن أفكّر، مثلا، أنك قد أخطأت بمكالمتك هذه. لا تقلقى، فهذا الخط آمن، ولا توجد خطوط كثيرة آمنة مثله فى هذا البلد. سيدى المأمور. نعم. هناك سؤال أود أن أطرحه عليك، مع أننى لا أعرف إن كانت لدىّ الجراءة الكافية. اطرحى سؤالك، لا تترددى. لماذا تفعل كل هذا من أجلنا، لماذا تساعدنا. ببساطة، بسبب عبارة قرأتها فى كتاب منذ سنوات طوال، ونسيتها، لكنها عادت لذاكرتى هذه الأيام. أية عبارة. نولد، وفى لحظة ميلادنا كما لو كنا نوقّع ميثاقًا للحياة للأبد، لكن فى يوم ما نسأل أنفسنا من وقّع هذا الميثاق بالنيابة عنا. حقا إنها كلمات جميلة، من الكلمات التى تجعلنا نفكّر، ماعنوان هذا الكتاب. أعترف بكل خجل أننى لا أستطيع تذكّر شىء آخر. لا تشغل نفسك، حتى ولو لم تتذكر شيئًا آخر، ولا حتى عنوان الكتاب. ولا حتى اسم المؤلف. تلك الكلمات التى خطرت ببالك، ربما لم يتفوه بها أحد من قبل، تلك الكلمات نالت من الحظ ما نالت لذا لم يته بعضها عن بعض، حيث وجدت من يجمعها، من يدرى أن هذه الدنيا ستصير أكثر تهذيبًا لو استطعنا أن نعرف كيف نجمع بعض الكلمات التى تتجول هناك فرادى. أشك أن الكلمات المسكّنة المهجورة من الممكن أن تلتقى. وأنا مثلك، لكن ليس هناك أرخص من الحلم، فلا لا يكلف أموالاً. سنرى ماذا تقول الصحافة غدًا. سنرى، وأنا مستعدة لما هو أسوأ. سيأتى سريعًا ما يخبئه المستقبل، فكّرى فيما قلته لك، اختبئوا،

اختفوا. سأتحدث مع زوجى . أتمنى أن تقنعيه. فلتصبح على خير، وشكرا على كل شىء. لا شكر على واجب. بعد وضع السماعة، سأل المأمور نفسه إن كان حماقة منه تأكيد أن الخط آمن، وأنه فى البلد بأسرها لا توجد خطوط كثيرة تتمتع بهذا الأمن. ضم كتفيه وهمس : ماذا سيحدث، لا شىء آمن، لا أحد آمن.

لم يتعمق فى النوم، رأى فى منامه سحابة من الكلمات كانت تهرب وتتناثر بينما هو يطاردها بشبكة صيد فراشات ويرجوها : توقفى، من فضلك، لا تتحركى، انتظرينى. حينئذ، وفجأة، توقفت الكلمات وتجمّعت، وترتبت واحدة فوق الأخرى كسرب من النحل ينتظر الخلية التى يستريح فيها، أما هو، فى صيحة سرور، رمى الشبكة. التقط جريدة. كان حلمًا سيئًا، لكن الأسوأ منه أن يعود بطريق ليفقأ عينىّ زوجة الطبيب. استيقظ مبكرا. هندم نفسه كلية ونزل. لم يعبر بالجراج، بباب الأثرياء، الآن يخرج من الباب العمومى، باب المشاه، ألقى التحية على حارس العقار بإيماءة برأسه عندما رآه داخل عشه، كان يحيّه بكلمة واحدة عندما يجده خارجه، فلا داعى لأكثر من كلمة، فهو هناك لفترة مؤقتة، المأمور لا البواب. كانت أعمدة الإنارة بالشوارع مازالت مضاءة، ستفتح المحلات بعد أكثر من ساعتين. بحث ووجد كشك جرائد، من الأكشاك الكبيرة، التى تتلقى كل الجرائد، فبقى هناك فى الانتظار. لحسن الحظ لم تمطر السماء.

وانطفأت أعمدة الإنارة فتركت المدينة للحظات غارقة فى ظلامها الأخير و القصير، وفى الحال انقشع الظلام، وتكيفت العيون على هذا التحول عندما نزلت زرقة شقشقة الفجر الأولى فملأت الشوارع . وصلت سيارة التوزيع، فرّغت الشاحنة وواصلت طريقها. بدأ صاحب الكشك فى فتحها وترتيب الجرائد طبقا للكمية التى تلقاها، من اليسار لليمين، من الأكبر للأصغر. اقترب المأمور، ألقى التحية، وقال : إعطنى واحدة من كل جريدة. وبينما كان صاحب الكشك يعبّىء له الجرائد فى كيس بلاستيك، ألقى نظرة على الصفحات الأولى المعروضة فى الصف، وباستثناء آخر جريدتين، كانت كل الجرائد الأخرى تعرض الصورة فى صفحتها الأولى تحت عناوين فظيعة. كان صباحًا سعيدًا للكشك، حيث استفتح بزبون فضولى ولديه إمكانيات، وبقية اليوم سار على نفس الوتيرة، فكل الجرائد ستباع، باستثناء هاتين الجريدتين الواقعتين على اليمين، حيث لم تحتو سوى على الأخبار التقليدية. لم يبق المأمور هناك، جرى مهرولاً ليركب تاكسيا ظهر له على الناصية، والآن، متوترًا، بعد أن أعطى للسائق عنوان شركة التأمين واعتذر عن قصر المسافة، أخرج الجرائد من الكيس، فتحها، بالإضافة لصورة المجموعة، بسهم يشير لزوجة الطبيب، جانبًا، داخل دائرة، هناك صورة مكبّرة لوجهها. أما العناوين، المكتوبة بالأحمر و الأسود، فكانت : «كشف النقاب عن وجه المؤامرة أخيرًا». «المرأة التى لم تصب بالعمى منذ

أربع سنوات». «التصويت الأبيض لغز تم حله». «تحريات المباحث تعطى ثمارها الأولى». لم يسمح له الضوء القليل ولا ارتجاج السيارة فوق الطريق المرصوف بأن يقرأ الكلمات الصغيرة. وفى أقل من خمس دقائق وقف التاكسى أمام باب البناية. دفع المأمور الأجرة، ترك الباقى فى يد السائق ودخل سريعًا. مر أمام حارس العقار كما الريح وبدون أن يوجه له كلمة، ركب المصعد، كان التوتر يرجف قدميه من ضيق الصدر، هيا، هيا، لكن المصعد، تلك الماكينة التى قضت حياتها فى صعود الناس و هبوطهم، مستمعة حواراتهم، مونولوجاتهم التى لا نهاية لها، أجزاء من أغانيهم سيئة الترنيم، تنهيداتهم التى لا تكبح، همسهم المعكّر، لا يرغب فى الصعود، كما لولم يتدرّب على صعود الناس وهبوطهم طيلة حياته، مثل القدر، إن كنت مستعجلاً، فعليك بالسلم. أخيرًا أدخل المأمور المفتاح فى باب شركة التأمين، أضاء النور وأسرع ناحية الترابيزة التى بسط عليها خريطة المدينة والتى تناول عليها أيضًا إفطاره الأخير مع معاونيه الغائبين. كانت يداه ترتجفان. أجبر نفسه على القراءة ببطء، على ألا يقفز أسطرًا، على أن يقرأ كلمة كلمة، حتى انتهى من قراءة الأربع جرائد التى نشرت الصورة. وبالرغم من بعض التباينات الأسلوبية الصغيرة، وبعض الاختلافات فى المفردات، إلا أن الخبر كان واحدًا فى كل الجرائد، وهذا الأمر يرجع لكفاءة المصدرالأصلى للخبر الذى أعده مستشارو

الكتابة بوزارة الداخلية. وقد يكون النص الأصلى للخبر ما يلى : عندما كنا نفكر أن الحكومة تركت وسلمت لفعل الزمن، هذا الزمن الذى نسرفه جميعًا ونقطعه، أمر السيطرة وتجفيف الورم الخبيث الذى ولد فجأة فى عاصمة الدولة تحت شكل التصويت الأبيض الغامض و الكريه الذى، كما يعرف قراؤنا، تجاوز بشكل واسع قدرة كل الأحزاب السياسية الديمقراطية مجتمعة، وهانحن الآن يصلنا خبر غير متوقع ومن أسعد الأخبار التى وصلتنا. الباحث العبقرى بمثابرته ذات الحس البوليسى، يتمثل فى مأمور ومفتش ومعاون مباحث، ليس لدينا رخصة بكتابة أسمائهم لأسباب أمنية، تمكنوا من كشف الحقيقة حول ما تعتبر بنسبة كبيرة رأس الأفعى التى أشلت، بشكل خطير، الضمير الوطنى لأغلبية سكان هذه المدينة خلال فترة الانتخابات. تلك المرأة، زوجة طبيب العيون، التى كانت عجيبة العجائب، وطبقا لشهود عيان ذوى ثقة، كانت الشخص الوحيد التى لم تصب منذ أربع سنوات بالوباء الفظيع الذى حول بلدنا لبلد العميان، تلك المرأة تعتبرها المباحث المتهمة المفترضة فى العمى الجديد، الذى لحسن الحظ لم يخرج من حدود العاصمة،والذى أدخل على الحياة السياسية ونظامنا الديمقراطى أخطر جرثومة للفساد والانحراف. عقل شيطانى واحد، مثل العقل الذى اقترف الجرائم الإنسانية الخطيرة فى الماضى، يستطيع أن يكون كما وصف سعادة رئيس الجمهورية،

فى مصدر موثوق فيه، مثل طوربيد طائش تحت خط الطفو ضد مركب الديمقراطية المقدس. هو كذلك. وإن تم إقامة الدليل القاطع، بدون أدنى شك، كما تشير التحريات، أن زوجة الطبيب مدانة، سيجب حينئذ على سكان المدينة المحترمين للنظام والقانون أن يطالبوا بأقصى العقوبة لهذه المرأة. وسنرى كيف ستسير الأمور. قد تكون هذه المرأة، لانفرادها بعدم الاصابة بالعمى منذ أربع سنوات، تشكّل عنصر دراسة مهم لجماعتنا العلمية، وقد تستحق مكانة بارزة فى تاريخ التخصص فى طب العيون، لكنها الآن خاضعة لكراهية عامة كعدوة للوطن وللشعب.وبلا شك، يمكن أن نؤكد أنه كان من الأفضل لها أن تصاب بالعمى.

الجملة الأخيرة، المهدِّدة بكل وضوح، يرن فيها نبرة الإدانة، كما لو كان يقول : كان من الأفضل لها ألا تولد. أول فكرة مرّت برأس المأمور كانت مهاتفة زوجة الطبيب، ليسألها إن كانت قد قرأت الجرائد، وليشد قليلاً من أزرها، لكن أوقفته فكرة احتمال أن يكون تليفونها مراقبا، وهى الفكرة التى صارت، بين ليلة وضحاها، مؤكدة مئة بالمئة. أما بالنسبة لتليفونى شركة التأمين، الأحمر و الرمادى، فالأمر لا يستحق الحديث منهما، فهما متصلان مباشرة بالشبكة الخاصة للدولة. تصفّح الجريدتين الأخرتين، لم يذكرا شيئًا حول الموضوع. ماذا يجب أن أفعل الآن، سأل المأمور نفسه بصوت مرتفع .. عاد للخبر، قرأه من جديد، استغرب لأنه لم يتعرف على الأشخاص الذين

جاءوا فى الصورة، خاصة الطبيب وزوجته. عندئذ انتبه لما هو مكتوب تحت الصورة : المشتبه فيها مشار إليها بسهم. على مايبدو، مع أن هذه المعلومة لم تثبت بعد كلية، كانت زوجة الطبيب تعول المجموعة تحت حمايتها خلال وباء العمى. طبقا لمصادر رسمية التعرّف الكامل على هؤلاء الأشخاص كان فى مرحلة متقدمة ويجب الإعلان عنهم غدًا. همس المأمور : لابد أنهم يتحرّون أين يعيش الطفل، كما لو كان ذلك سيخدمهم فى شىء. بعدها تفكّر : بالنظرة المجردة، نشر الصورة بدون أن يُرفق بإجراءات أخرى، لا معنى له، حيث إنه يعطى الفرصة لهم، كما نصحتهم، بالإختفاء من الساحة، لكن الوزير يعشق المنظرة، فصيد كهذا سيعطيه وزنًا سياسيًا، تأثيرًا أكثر فى الحكومة والحزب، أما بالنسبة للإجراءات الأخرى، فأغلب الظن أن بيوت هؤلاء الأفراد مراقبة خلال أربع وعشرين ساعة فى اليوم، فلقد كان أمام الوزارة وقت كاف لتبسل جواسيس للمدينة ووضع الأجهزة الخاصة. لكن لا شىء من هذا، مع أنه حق، يجيبنى على السؤال : ماذا يجب أن أفعل الآن. كنت أستطيع مهاتفة وزارة الداخلية بحجة معرفة القرار الذى اتخذوه بخصوص وضعى فى العمل الآن، فاليوم يوم الخميس، لكن لا جدوى من ذلك، فأنا متأكد أن الوزارة لن تهتم، فأحد السكرتارية قد يقول له : هاتف رئيس المباحث. فلقد انتهت أيام الصداقة بين بطريق وببغاء البحر، أيها المأمور. ماذا أفعل إذًا ـ عاد يكرر

سؤاله على نفسه - أن أبقى هنا متعفنا حتى يتذكّرنى أحد ويرسل فى حمل جثتى، أم أحاول الخروج من المدينة عندما أصبحتُ على شبه يقين أنهم أعطوا أوامر صارمة فى كل النقاط الحدودية لكيلا يتركونى أعبر. ماذا أفعل. نظر للصورة من جديد، الطبيب وزوجته فى الوسط، المرأة ذات النظارة السوداء و العجوز ذو العصابة السوداء على اليسار، كاتب الخطاب وزوجته على اليمين، الطفل الأحول جالس على ركبتيه كلاعب كرة قدم، والكلب جالس على قدمى صاحبته.أعاد قراءة المكتوب أسفل الصورة : التعرّف الكامل على هويتهم يجب أن يعلن غدًا، يجب أن يعلن غدا، غدا، غدا. عندئذ سيطّر عليه قرار مفاجىء، مع أنه فى اللحظة التالية أثبتت له الحيطة أن قراره جنون مهلِك. كن حذرا - كان يردد - لا توقظ التنين النائم، فمن الحماقة الاقتراب منه عندما يكون مستيقظًا. نهض المأمور من الكرسى، لف لفتين فى الصالة، عاد للترابيزة حيث كانت الجرائد، نظر مرة أخرى لرأس زوجة الطبيب داخل محيط أبيض كان كما حبل المشنقة، فى هذه الساعة نصف المدينة يقرأ الجرائد و النصف الآخر يشاهد التليفزيون ليسمع ما يقوله المذيع فى التقرير الإخبارى الأول أو ينصت لصوت الراديو الذى ينبه أن اسم المرأة سيعلنونه غدًا، وليس فقط الاسم، وإنما العنوان أيضا، حتى تعرف المدينة بأسرها أين يعشش الشر. حينها مضى المأمور صوب الآلة الكاتبة ووضعها فوق الترابيزة. أغلق

الجرائد، أبعدها فى جانب وجلس ليعمل. استخدم ورقًا عليه شعار شركة التامين، ومن الممكن، غدًا لا، بعد الغد، أن يمثل أمام القضاء لأن الدولة تتهمة بالتهمة الثانية، وهى استخدام مواد من الإدارة العامة لأغراض شخصية، مع ظروف مشددة ذات طبيعة متحفظة لهذه المادة بل واستخدامها من أجل عملية ذات طبيعة تأمرية. ماكان يكتبه المأمور ليس إلا قصة مفصّلة لأحداث الأيام الخمسة الأخيرة، منذ فجر السبت، عندما عبر مع معاونيه سرا حدود العاصمة المحاصرة، حتى اليوم، حتى هذه اللحظة التى يكتب فيها. وكما هو واضح، فشركة التأمين مزودة بماكينة تصوير، لكن لا يبدو للمأمور أنه من الأدب أن يسلّم أحدا خطابا أصليا ويسلّم لآخر صورة من الأصل، مهما أكّدت لنا تقنيات التصوير الحديثة أنه ولا حتى عين الصقر تستطيع أن تلاحظ الفرق بين الأصل و الصورة. ينتسب المأمور لثانى أقدم جيل من الأجيال التى مازالت تأكل خبزًا فى هذه الدنيا، من أجل ذلك يحافظ على بقية من احترام المظاهر، وهو ما يعنى أنه بعد أن انتهى من كتابة الخطاب الأول بدأ، باهتمام، فى نسخه فى ورقة جديدة. نعم هى نسخة، بلا شك، لكنها ليست مصوّرة. بعد أن أنهى عمله، طوى وأدخل كل خطاب فى مظروفه، ووضع عليهما الطابع البريدى، وأغلقهما وكتب العنوان الذى يناسب كل منهما. حقا أنه سيسلم كلا منهما باليد، لكن المرسل إليهما سيفهمان، فقط بسبب الأناقة السرية

لهذه الحركة، أن الخطابين الواصلين إليهما، بشعار شركة التأمين، يتضمنان موضوعات مهمة وتستحق كل الاهتمام الإعلامى.

الآن سيخرج المأمور مرة أخرى. احتفظ بالخطابين فى جيبى الجاكيت الداخليين، ارتدى معطف المطر، مع أن هذا الوقت من العام يعد أفضله، حسب ما يمكن التحقق منه عند فتح النافذة ورؤية الجليد الأبيض بعيدًا وبطيئًا يمر عاليًا نائيًا. ربما لسبب آخر قوى ارتدى المعطف، قد يكون الصورة المعتادة المميزة للمخبرين من الزمن الكلاسيكى، على الأقل منذ أن ابتدع ريموند تشاندلير صورة مارلو، لدرجة أنه عند رؤية رجل يمر بقبعة مبسوطة جوانبها وياقة المعطف مرفوعة يمكن أن نقسم فى الحال أنه هامفرى بوجارت يمر مسددًا نظرة خارقة بين حاشية الياقة وجانب القبعة، وهو أمر يعلمه جيدًا قرّاء الروايات البوليسية، فى فصل القتل. هذا المأمور لا يستعمل قبّعة، يسير برأس عارية، هذا هو ما حدده استعمال حداثة تبغض كل ماهو مثير للصورة الذهنية، وكما اعتدنا أن نقول اقتل نفسك قبل أن يسألونك إن كنت مازلت حيًا. هبط بالمصعد، مر أمام حارس العقار الذى حيّاه من كوّته، والآن يسير بالشارع لينفّذ أهدافه الصباحية الثلاثة، أى، تناول إفطاره المتأخر، المرور بالشارع حيث تقطن زوجة الطبيب وتسليم الخطابين للمرسل إليهما. الأمر الأول محلول، الجلوس فى هذه الكافتيريا، تناول قهوة باللبن

مع الخبز المحمّص بالزبدة، لن يكون إفطارًا ناعمًا ودسمًا كإفطار الأمس، لكن لا يوجد سبب للاستغراب، فهذه هى الحياة، لتربح أشياء، تخسر أشياء أخرى، وبالنسبة للخبز المحمّص بالزبدة فمؤيدوه قليلون، سواء من يجهزونه أو من يستهلكوه. علينا أن نعذر هذه الاعتبارات الغذائية التافهة لرجل يضع فى جيبه قنبلة. أنهى إفطاره، دفع حسابه، الآن يسير بخطى سريعة صوب الهدف الثانى. تأخر تقريبًا ثلث ساعة فى الوصول. هدأ بخطوته عندما دخل الشارع، اتخذ شكل من خرج ليتنزه، يعرف أنه لو كان هناك أفراد مباحث يراقبون فأغلب الظن أنهم سيعرفونه، مع أن ذلك لا يهمه. فإن بلّغ أحد هؤلاء رئيسه المباشر أنه رآنى، وبلّغ هذا رئيس المباحث، وهذا وزير الداخلية، فمن المعروف جيدًا أن بطريق سينعق بنبرة صوت حادة : الأمر لا يستحق أن تحكوا لى ما أعرفه، أخبرونى بما أحتاج معرفته، إن هذا المأمور على وشك الموت الفظيع. الشارع مزدحم أكثر من عادته. هناك مجموعات صغيرة أمام البناية التى تسكنها زوجة الطبيب، إنهم أفراد من الحى، حرّكهم التلصّص، الذى هو فى بعض الأحيان برئ، وفى أحيان أخرى شؤم، اقتربوا هؤلاء، بالجرائد فى أيديهم، من المكان الذى تقيم فيه المتهمة، التى يعرفونها تقريبًا بالشكل أو بالمعاملة العارضة، بعض هؤلاء يتفق أن علم زوجها كطبيب عيون قد نفعها، وهو توافق لا يمكن تلافيه. حدّد المأمور أماكن الجواسيس، انضم أحدهم

إلى إحدى المجموعات الأكثر عددًا، والآخر، معتمدا على تراخيه المتصنّع على الحائط، يقرأ مجلة رياضية كما لو كان فى عالم الحروف لا شىء آخر يهمه. إن قراءته لمجلة وعدم قراءته لجريدة له تفسير سهل، فالمجلة تعد حماية كاملة، فهى لا تشغل حيزًا كبيرًا فى مجال رؤية الجاسوس كما أنها تُطوى بسهولة وتوضع فى الجيب إن تحتم علية فجأة متابعة هدف. رجال المباحث يعرفون هذه الأشياء، يتعلّمونها من صغرهم. حسنا، بما أن هؤلاء الموجودين هنا لا يعرفون العلاقة العاصفة بين المأمور القريب منهم والوزارة التابعين لها، فسيفكّرون أن المأمور يشكل جزءا من العملية وأنه يرغب التحقق من أن كل شىء يسير على ما يرام . الأمر ليس بغريب. ومع أنه فى بعض مستويات الوزارة بدأ الهمس حول أن الوزير ليس راضيًا عن عمل المأمور، والدليل على ذلك إصدار أمر بعودة معاونيه، تاركه كالأرض البور، بينما يقول بعض آخر أنه يتحزب له، إلا أن الهمس لم يصل حتى الآن إلى المستويات المتدنية التى ينتسب إليها هؤلاء المعاونون. يجب أن نوضّح، قبل أن يسهو علينا، أن الهامسين المذكورين أعلاه ليس لديهم أية فكرة عن عمل المأمور فى العاصمة، وهو ما يبرهن أن المفتش و المعاون، حيثما كانوا الآن، لم ينبسوا ببنت كلمة. أهم شىء، مع خلوه من المرح، كان رؤية المعاونين يقتربون من المأمور بشكل متآمر ليقولوا له بصوت خفيض بشدقهم : لا جديد. هز المأمور رأسه إيجابًا، نظر

لنوافذ الطابق الرابع، وابتعد مفكّرا : غدًا، عند نشر الأسماء و العناوين، سيمتلئ الشارع بأناس أكثر. نادى لتاكسى كان يسير خاليًا. ركب، ألقى التحية، أخرج المظروفين من جيبيه، قرأ العنوانين للسائق وسأله : أيهما أقرب. الثانى. إذًا وصّلنى إلى هناك، من فضلك. بجانب مقعد السائق كانت توجد جريدة مطوية، تحمل الخبر، بحروف بلون الدم، بعنوان يصدم : كشف النقاب عن وجه المؤامرة أخيرًا. وأتى المأمور وسواس ليسأل السائق عن رأيه فى الخبر المثير المنشور فى جرائد اليوم، لكنه تخلى عن الفكرة خشية أن يوشى بمهنته نبرة صوت المحقق الزائدة التى يمتلكها. وهو ما يسمى ـ فكّر ـ معاناة زائدة الإدراك للتشويه المهنى الخاص. كان السائق هو من فتح الموضوع. لا أعرف رأى حضرتك، لكن قصة المرأة هذه التى يقولون إنها لم تصب بالعمى تبدو لى أكذوبة واضحة اخترعوها ليبيعوا جرائد، إن كان قد أصابنى العمى، إن كنا جميعًا قد أصابنا العمى، كيف ظلت تلك المرأة مبصرة، إنها خرافة لا تدخل رأس أحد. ويقولون إنها هى المسئولة عن التصويت الأبيض. تلك أكذوبة أخرى، المرأة دائمًا امرأة، لا تتدخل فى هذه الأمور، لو كان رجلاً، أيا كان الوضع، قد يصدّق، لكن امرأة، بوففف. سنرى كيف سينتهى كل ذلك. عندما تنتهى عصارة القصة، سيبتدعون عصارة أخرى، إنه ما يحدث دائما، حضرتك لا تعرف ما نتعلمه وراء هذا المقود، سأقول لك شيئًا آخر. تفضل، قل. على عكس ما

يعتقد الناس، مرآة السيارة لا تفيد فقط فى رؤية السيارات القادمة من الخلف، إنها تفيد أيضا فى رؤية روح الركاب، وأراهن أنك لم تفكّر فى هذا أبدا. أنت تركتنى مذهولاً، حقيقة لم أفكّر فى ذلك أبدًا. إذًا فكما قلت لك، هذا المقود يعلمنا الكثير. بعد هذا الإلهام اعتقد المأمور أنه من الحيطة أن ينهى الحوار. فقط عندما وقف التاكسى وقال السائق : ها قد وصلنا، تحمّس وسأله إن كان أمر المرآة والروح يطبّق على كل السيارات والسائقين، لكن السائق كان قاطعا : فقط فى التاكسى،سيدى، فقط فى التاكسى.

دخل المأمور البناية، توجه لمنضدة الاستقبال وقال : صباح الخير، أنا ممثل شركة بروبيدنشيال إس إيه للتأمين، وأريد الحديث مع المدير. إن كان الأمر يتعلق بالتأمينات، فأعتقد أنه من الأفضل التحدث مع إدارى. مبدئيا، نعم، معك حق، لكن ما جاء بى إلى هنا ليس له طبيعة فنية، وبالتالى فمن الأفضل الحديث مع المدير. المدير غير موجود، أظن أنه سيصل فى منتصف الظهيرة. مع من يبدو لك إذًا أننى يجب أن أتحدث، من هو الشخص المناسب. أعتقد رئيس التحرير. إن كان الأمر كذلك، اصنع فىَّ معروفًا وأعلمه، تذكّر، شركة بروبيندثيال إس إيه للتأمين. أتقول لى إسمها. هذا إسمها. آه، أفهم، الشركة هذا اسمها. بالضبط. قام موظف الاستقبال بمكالمة تليفونية، شرح الحالة وقال، بعد أن وضع السماعة : سيأتون بحثًا عنك، سيدى بروبيدنشيال. بعد دقائق

قليلة ظهرت امرأة. أنا سكرتيرة رئيس التحرير، أيمكن أن تتفضل بصحبتى. سار وراءها بالممر، هادئا، ساكنًا، لكن، فجأة، بدون أن يتوقع، أدرك الخطوة الطائشة التى على وشك أن يخطوها والتى قطعت أنفاسه كما لو كانت ضربة حادة فى حجابه الحاجز. كان بإمكانه حتى الآن أن يتراجع، أن يقدّم أى عذر، ياللضيق، لقد نسيت مستندًا مهمًا بدونه لن أستطيع التحدث مع رئيس التحرير، لكن ذلك لم يكن حقيقة، فالمستند فى جيب جاكيته الداخلى، لقد تم إعداد النبيذ، أيها المأمور، وليس أمامك غير أن تتجرعه. جعلته السكرتيره يعبر إلى الصالة المفروشة بتواضع، عدة كراسى بمسند مستعملة أُحضرت لهذا المكان لتقضى فيه حياتها الطويلة فى سلام معقول، وفوق إحدى الترابيزات كانت عدة جرائد، و رف عليه كتب مرصوصة بلا ترتيب. تفضّل بالجلوس،لقد طلب رئيس التحرير أن تنتظره قليلاً من فضلك، فهو مشغول الآن. هائل ـ قال المأمور ـ سأنتظر. جاءت فرصته الثانية ليتراجع. إن خرج من هنا، إن عاد من نفس الطريق الذى جاء منه حتى هذا الفخ، سيبقى فى سلام، كما لو كان يرى فى مرآة سيارة روحه الخاصة التى هى روح رجل متهور، فلا يمكن أن تسير الأرواح ساحبة وراءها الأشخاص صوب المصائب الكبرى، بل على العكس، يجب أن تبعدهم عن الأخطار وتتصرّف بتعقل، لأن الأرواح، إن خرجت من الجسد، ستضيع، لن تعرف أين تذهب، ليس فقط وراء المقود

نتعلّم هذه الأشياء. لم يخرج المأمور، لقد جاء وقت تقديم الخمر، إلخ، إلخ. دخل رئيس التحرير. معذرة على انتظارك كثيرا، لكن كان بين يدى أمر لا يمكن أن أقطعه. ليس عليك أن تعتذر، أنا من علىّ أن أشكرك على استقبالى. قل لى إذًا، سيد بروبيدنثيال، فيما أستطيع خدمتك، مع أنه يبدو لى، حسب ما أخبرونى به، أن الأمر متعلق بعمل الإدارة. دس المأمور يده فى جيبه وأخرج المظروف الأول. أشكرك على قراءتك لهذا الخطاب. الآن؟ سأل رئيس التحرير ـ نعم، من فضلك، لكن قبلها واجبى أن أخبرك أن اسمى ليس بروبيدنثيال. إذًا ما اسمك. عندما تقرأ ستفهم الأمر. فتح رئيس التحرير المظروف، بسط الخطاب، وبدأ يقرأ. أوقف القراءة فى السطور الأولى، نظر حائرًا للرجل الجالس أمامه، كما لو يسأله أليس من الرصانة أن يتركه هناك. أشار له المامور ليواصل القراءة. حتى النهاية لم يرفع رئيس التحرير رأسه، بل على العكس، كان يتعمّق فى كل كلمة، فلم يستطع العودة للسطح بنفس وجه رئيس التحرير بعد أن رأى المخلوقات المخيفة التى تسكن أعماق المحيط. كان رجلاً مشوشًا هذا الرجل الذى نظر أخيرا للمأمور وقال : عفوا على فظاظة السؤال، من أنت. اسمى موجود فى توقيع الخطاب. نعم، أراه، هنا يوجد اسم، لكنه اسم فقط ليس أكثر من كلمة، لا يفسّر من هو هذا الشخص. قد أفضّل ألا أضطر لأقوله، لكننى أفهم تماما أنك تحتاج معرفته. فى هذه الحالة،

أخبرنى به. ليس قبل أن تعدنى بأن الخطاب سيُنشر. فى غياب المدير ليست لدى رخصة لأتحمّل هذه المسئولية. قالوا لى فى الاستقبال إنه سيأتى ظهرًا. هو كذلك، فى حدود الساعة الرابعة. إذًا سأعود فى هذه الساعة، مع ذلك واجبى أن أنبهك أننى أُحضر خطابًا آخر مماثلاً سأسلّمه لرجل آخر فى حالة عدم اهتمامكم بهذا الموضوع. خطاب آخر موجه لجريدة أخرى، أظن ذلك. نعم، لكنها ليست من الجرائد التى نشرت الصورة. أفهم، على أى حال لا يمكن أن تتيقن أن هذه الجريدة الأخرى ستكون مستعدة لقبول المغامرة التى ستنتج بشكل لا يمكن تلافيه عن نشر الأحداث التى يصفها الخطاب. ليس لدىّ يقين فى شىء، فى هذا الموقف أراهن على حصانين وأعرّض نفسى للخطر إن فقدت كليهما. ستعرض نفسك للخطر أكثر إن فاز أحدهما. مثلكم تماما إن قررتم نشره. نهض المأمور. سآتى فى الساعة الرابعة و الربع. إذًا فلتأخذ الخطاب، فبما أننى لم أتفق معك على نشره فلا أستطيع ولا يصح أن أحتفظ به معى. شكرا لأنك رفعت عنى حرج طلبه. استغل رئيس التحرير تليفون الصالة ليهاتف السكرتيرة. اصحبى هذا السيد لباب الخروج . قال . وسجلى عندك أنه سيعود فى الرابعة و الربع، استقبليه واصحبيه لمكتب المدير. أمرك سيدى. قال المأمور : إذًا، إلى اللقاء. أجابه الآخر : إلى اللقاء، باسطًا يده. فتحت السكرتيرة الباب ليخرج المأمور. اتبعنى، سيد بروبيدنثيال . قالت

ـ فى الممر. إن سمحت لى أن أبدى ملحوظة، هذه هى المرة الأولى فى حياتى التى أصادف فيها هذا اللقب، ولا حتى كنت أعرف بوجوده. هـأنت تعرفين. لابد أنه لقب جميل. لماذا. لمعناه نفسه، مختص بالعناية الإلهية، هذه هى أفضل إجابة. وصلا لصالة الاستقبال. سأكون هنا فى الساعة المتفق عليها ـ قالت السكرتيرة .. شكرا. إلى اللقاء، سيد بروبيدنثيال. إلى اللقاء.

نظر المأمور فى ساعته، لم تصل حتى للواحدة ظهرًا، وهو وقت مبكر جدًا على الغداء، بالإضافة إلى أنه لا شهية له، فالقهوة والخبز المحمّص بالزبدة مازالا يذكران داخل معدته. أخذ تاكسيا وطلب منه أن يوصّله للحديقة التى التقى فيها يوم الإثنين بزوجة الطبيب، فالفكرة الأولى لا يجب أن تتبع بكل حروفها إن ثبتت استحالتها. لم يكن يفكّر فى العودة للحديقة، لكنه هاهو يعود. بعدها سيواصل على قدميه كمأمور مباحث يسير بهدوء ليراقب عسس الليل، وسيرى ازدحام الناس فى الشارع وربما يتبادل عدة انطباعات مهنية مع المراقبين الاثنين. عبر للحديقة، توقف لحظة ليتأمل تمثال المرأة ذات الدورق الفارغ. تركونى هنا بمفردى، هكذا كان يقول حالها، ولا فائدة منى سوى فى تأمل هذه المياه الميتة، كانت هناك فترة، عندما كان الحجر الذى صنعت منه أبيض، تتدفق فيها ليلاً ونهارًا عينا من هذا الدورق، ولم يخبرونى أبدا من أين تأتى هذه المياه، فأنا كنت هنا فقط لأصب بالدورق، والآن ولا قطرة واحدة تقطر منه، كذلك لم

يأت أحد ليخبرنى لماذا جف الآن. همس المأمور : إنه كالحياة يا ابنتى، تبدأ ولا نعرف من أجل ماذا، وتنتهى ولا نعرف لماذا. بلّ أطراف أصابع يده اليمنى وحملها لفمه. لم يفكّر أن هذه الإيماءة قد يكون لها أى معنى، مع ذلك، كان هناك أحد فى الجانب الآخر يتأمّل ما يفعله ويستطيع أن يجزم أنه قد قبّل هذا الماء الذى لم يكن حتى نقيًا، بل أخضر مائلاً للوحل، بطين فى عمق الحوض، ملّوثًا كما الحياة. الوقت لم يمر كثيرا، كان أمامه متسع ليجلس فى إحدى هذه الظلال، لكنه لم يفعل. كرّر نفس طريق الجولة التى أخذها مع زوجة الطبيب، دخل الشارع، كان المشهد مختلفًا، الآن من الصعب السير قدمًا،، فلم تعد المجموعات صغيرة بل حشود تعوق مرور السيارات، يبدو أن كل جيران الأحياء القريبة خرجوا من بيوتهم ليتفرجوا على ظهور معلن عنه. اجتمع المأمور بالمعاونين فى مدخل إحدى البنايات وسألهما إن كان قد حدث جديد فى غيابه. قالا لا، لم يخرج أحد، وظلت النوافذ دائما مغلقة، ويحكون أن اثنين، رجلاً وامرأة، ناديا على شقة الطابق الرابع ليسألا إن كان أهل البيت فى حاجة لشىء وأنهم شكروهما على لطفهما. لا شىء آخر - سأل المأمور .. من أين ندرى نحن، لا شىء آخر - أجاب أحدهما - سيكون التقرير سهل الكتابة. قال ذلك فى الوقت المناسب، وقطع أجنحة خيال المأمور، المبسوطة لتحمله أعلى السلم، طارقًا الباب، معلنًا عن نفسه : إنه أنا، داخلاً، راويًا الأحداث الأخيرة، الخطابين

اللذين كتبهما، الحوار مع رئيس تحرير الجريدة، بعدها زوجة الطبيب تقول له : تناول معنا غداءك، وهو سيتغدى، ويبقى العالم فى طمأنينة. نعم، فى طمأنينة، وسيكتب المعاونان التقرير، كان معنا مأمور صعد للطابق الرابع ونزل بعد ساعة، لم يخبرنا بشىء عما حدث بالشقة، لكننا شعرنا أنه عاد بعد تناول غدائه. توجّه المأمور ليتغدى فى مكان آخر، بلا أى اهتمام للأكل القليل الذى وُضِع أمامه، وفى الساعة الثالثة وجد نفسه مرة أخرى فى الحديقة متأملاً تمثال المرأة ذات الدورق المائل كمن تنتظر معجزة يتجدد بها الماء. تجاوزت الثالثة و النصف عندما نهض من الدكة حيث جلس وسار على قدميه إلى الجريدة. كان لديه وقت، لم يكن فى حاجة لركوب تاكسى، بلا إرادة منه لن يستطيع تفادى أن ينظر لنفسه فى مرآته، فما يعرفه عن روحه يكفيه كما أنه ليس على يقين أن أية صورة ستعكسها المرآة قد تروق له كلية. لم تكن الرابعة و الربع عندما دخل الجريدة. السكرتيرة كانت فى الاستقبال، قالت : المدير فى انتظارك. بدون أن تضيف كلمتى " سيدى بروبيدنثيال "، فربما أخبروها أن اسمه ليس ذلك وشعرت بالإهانة جراء عملية النصب التى وقعت فيها بحسن نية. مرّا بنفس الممر السابق، لكنهما هذه المرّة لفّا من الناصية التى فى العمق، الباب الثانى على اليمين كان يحمل لوحة تقول : المدير. طرقت السكرتيرة الباب بتحفظ، من الداخل أجابوها : تفضّل. دخلت هى أولا وأمسكت

الباب حتى دخل المأمور. شكرا، الآن لا نحتاجك ـ قال رئيس التحرير للسكرتيرة التى خرجت على الفور. أشكرك على موافقتك التحدث معى، سيدى المدير ـ بدأ المأمور .. بكل صراحة يجب أن أعترف لك أننى أرى صعوبات بالغة للنشر الفعّال للأمر الذى لخصّه لى رئيس التحرير، على أى حال، يبدو لا ضرورة لقول ذلك، ويشرفنى أن أطلّع على المستند كامل. هاهو معى، سيدى المدير ـ قال المأمور مسلّما إليه المظروف .. فلنجلس، واعطنى دقيقتين، من فضلك. لم تجعله القراءة يلوى رأسه كثيرًا كما حدث لرئيس التحرير، لكن بلا شك كان رجلا مشوشًا وقلقًا عندما رفع نظره. من أنت ـ سأل، متجاهلاً أن رئيس التحرير وجه له نفس السؤال .. إن وافقت الجريدة على نشر الخطاب، سأخبركما من أنا، وإن لم توافق، سأستعيد الخطاب وأنصرف بلا كلمة أخرى، باستثناء توجيه الشكر لكما على الوقت الذى أضاعتماه معى. لقد أخبرت مديرى أن معك خطابًا آخر مماثل لتسليمه لجريدة أخرى ـ قال رئيس التحرير .. بالضبط ـ أجاب المأمور ـ، وهو معى أيضا الآن، وسأسلّمه اليوم نفسه إن لم نتوصل لاتفاق، فمن الضرورى على الإطلاق أن ينشر غدا . لماذا.لأننا ربما نستطيع غدًا أن نصل فى الوقت المناسب لمنع ظلم سيُقترف. أتقصد زوجة الطبيب. نعم سيدى المدير، فهم يطمحون، بأية وسيلة كانت، أن يجعلوا منها كبش فداء للوضع السياسى الراهن للبلد. لكن هذا حماقة. لا تقل ذلك لى، بل قله

للحكومة، لوزير الداخلية، لزملائك الذين يكتبون ما يؤمرون. تبادل المدير نظرة مع رئيس التحرير وقال : كما لابد أن نفترض، من المستحيل نشر اعترافك كما هو مكتوب، بكل هذه التفاصيل. لماذا. لا تنس أننا نعيش فى حالة حصار، والرقابة تضع عيونها على الصحافة، خاصة على جريدة مثل جريدتنا. نشر هذا الخطاب يساوى إغلاق الجريدة فى اليوم نفسه ـ قال رئيس التحرير .. إذًا أليس أمامنا شىء نفعله ـ سأل المأمور ـ يمكننا أن نحاول، لكن لا أعرف هل ستؤتى ثمار المحاولة. كيف ـ عاد المأمور سائلاً .. بعد عدة نظرات سريعة متبادلة مع رئيس التحرير، قال المدير : إنها اللحظة المناسبة لتقول لنا مرة واحدة من أنت، هناك اسم فى الخطاب نعم، لكنه قد يكون مزورا، فقد تكون أنت ببساطة محرّض أرسلتك المباحث لتختبرنا وتورّطنا قائلاً إن ذلك هو عين ما حدث، ركّز جيدًا، ما أقصده هو أن اوضّح لك أنه لا طريق آخر لنواصل حديثنا إن لم تكشف لنا عن هويتك، والآن. أدخل المأمور يده فى جيبه، أخرج محفظته. هاهى هويتى ـ قال وسلّم كارنيه مأمور المباحث .. تغيّر تعبير وجه المدير فى الحال من التحفظ للدهشة. ماذا، أأنت مأمور مباحث ـ سأل .. مأمور مباحث ـ كرّر مذهولاً رئيس التحرير الذى أعطاه المدير الكارنيه .. نعم ـ جاء رده هادئا ـ وأعتقد أننا الآن يمكننا مواصلة حديثنا. إن سمحت لى فضولى ـ سأل المدير ـ ما الذى دفعك لأخذ خطوة كهذه. أسباب شخصية. أخبرنى بأحد

هذه الأسباب على الأقل لأقتنع أننى لا أحلم. عندما نولد، عندما ندخل هذه الدنيا، كما لو كنا نوقّع ميثاقًا للحياة الأبدية، لكن من الممكن أن يأتى علينا يوم نضطر فيه لنسأل أنفسنا : من وقّع هذا الميثاق بالنيابة عنى. أأنت مدرك لما يمكن أن يحدث. نعم، كان أمامى وقت لأفكّر فى العواقب. ساد الصمت الذى قطعه المأمور : قلتم إنكم ستحاولون. لقد فكّرنا فى خدعة صغيرة ـ قال المدير، ووجه إيماءة لرئيس التحرير ليكمل ـ الفكرة تكمن فى نشر ما نشرناه اليوم، بكلمات مختلفة، بلا بلاغة سيئة الذوق، وفى الجزء الأخير ندرج المعلومة التى قدّمتها لنا، ليس سهلاً، لكنه ليس مستحيلاً، هى فقط مسألة مهارة وحظ. نحن نراهن على تضليل أو كسل موظف الرقابة ـ قال المدير ـ علينا أن نصلى لكى يفكّر أنه حيث قرأ الخبر من قبل فالأمر لا يستحق أن يصل لنهايته. كم إمكانية لدينا فى صالحنا ـ سأل المأمور ـ أتريد الصراحة، ولا واحدة ـ اعترف رئيس التحرير ـ علينا أن نرضى بهذه الإمكانيات الضئيلة. وإن أراد وزير الداخلية أن يعرف مصدر الخبر. فى هذه الحالة سنبدأ فى التذرّع بالسر المهنى، مع أن ذلك سيخدمنا قليلاً فى حالة الحصار تلك. وإن ألح، وإن هدد. حينها، مع أن ذلك من الصعب علينا، لن نجد أمامنا حلا آخر سوى إظهار المصدر، بالطبع سيقع علينا عقوبة، لكن الحمل الأكبر من العواقب الوخيمة سيقع فوق رأسك أنت ـ قال المدير ـ هائل ـ أجاب المأمور ـ

بما أننا الآن نعرف مع من نعمل، فلنواصل للأمام، وإن كانت الصلاة تنفع فى شىء، سأصلى حتى لا يفعل القرّاء مثلما نتمنى أن يفعل الرقيب، أقصد أن يقرأوا الخبر حتى نهايته. أمين. قال المدير ورئيس التحرير بصوت واحد.

كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة بقليل عندما خرج المأمور. كان من الممكّن أن يستغل التاكسى الذى وقف فى هذه اللحظة بالتحديد لينزل راكب أمام باب الجريدة، لكنه فضّل أن يتمشّى. من المثير للفضول، أنه كان يشعر بنفسه خفيفًا، مطمئنًا، كما لو قد أخرجوا من عضو حياتى جسدًا غريبًا كان رويدًا رويدًا يلتهمه، شوكة فى الحنجرة، مسمارًا فى المعدة، سمّاَ فى الكبّد. غدًا كل أوراق اللعبة ستكون فوق الترابيزة، سينتهى اللعب المختبئ، لأنه بلا أدنى مجال للشك، فى حالة خروج الخبر للضوء، أو حتى عدم خروجه، عندما يخبر أحد، سيعرف الوزير على من سيشير فى الحال بأصبع الاتهام. يبدو أن الخيال جاهز ليسبح بعيدًا، حتى أنه خطى خطوته الأولى نحو القلق، لكن المأمور أمسك برقبته. اليوم هو اليوم، سيدى، وغدًا سنرى ـ قال .. قرّر أن يعود لشركة بروبيدنشيال إس إيه للتأمين، لكنه شعر فجأة أن ساقيه ثقيلتان، الأعصاب الرخوة كانت مثل مطاط استمر مضغوطًا وقتًا طويلاً، و حاجة طارئة ليغمض عينيه وينام جاءته معترضة. سأركب أول تاكسى يظهر ـ فكّر .. مازال علىّ أن أسير كثيرًا، فالتاكسيات التى

تظهر مشغولة، بل وقد لا تسمع من يناديها. فى النهاية، عندما كان بالكاد يسحب قدميه، شاهد زورق نجدة يأخذ غريقًا على وشك الغرق. رفعه المصعد بإحسان حتى الطابق الرابع، فتح الباب بلا مقاومة، تلقته الكنبة كما الصديق، فى دقائق قليلة كان المأمور، ممدود الساقين، ينام كما الخميرة، أو ينام نوم العادلين، كما كان يقال فى الزمن الذى فيه كانوا يعتقدون فى وجود عادلين. منتعشًا فى الحجر الأموى لشركة التأمين، التى كان سكونها هبة لمن يسكنها أو يعمل بها، نام المأمور وقتًا مريحًا، بعده استيقظ، كما بدا له، بنشاط جديد. بعد أن نفّض عنه كسله، شعر فى الجيب الداخلى للجاكيت بالمظروف الثانى، الذى لم يتم تسليمه. ربما قد اقترف خطئًا عندما راهن على حصان واحد ـ فكّر، لكنه فى الحال فهم أنه كان من المستحيل أن يعقد نفس الحوار مرتين، من المستحيل الخروج من جريدة لأخرى راويًا نفس القصة، وعند تكرارها، ستفقد مصداقيتها. ما تم عمله، قد تم عمله ـ فكّر ـ ولن أقلّب فى الأمر ثانية. دخل غرفة النوم ووجد جهاز الأنسر ماشين يعطى إشارات ضوئية. لقد هاتفه أحد وترك رسالة. ضغط على الزر، فى البداية سمع صوت عاملة الاتصال، بعدها صوت مدير المباحث قائلا: سجّل عندك، غدًا، فى التاسعة صباحًا، أكرّر فى التاسعة، لا التاسعة والثلث، سينتظرانك فى النقطة 6 شمالاً المفتش والمعاون اللذان عملا معك، يجب أن أخبرك، بالإضافة

لانتهاء مهمتك لعجزك الفنى و العلمى عن أدائها، أن وجودك فى العاصمة يعد غير مناسب فى رأى وزير الداخلية ورأيي، وأضيف أيضا أن المفتش والمعاون مكلفان رسميًا بإحضارك لتمثل أمامى، وأن فى صلاحيتهم حبسك إن قاومت. ظل المأمور ينظر للأنسر ماشين، بعدها، ببطء، كأحد جاء لوداع أحد سيسافر بعيدًا، بسط يده وضغط على زر المسح. بعدها دخل المطبخ، أخرج المظروف من جيبه، غمسه فى الكحول وصنع منه قرطاسًا ووضعه فى الحوض وأحرقه بالنار. دفقة من الماء أخذت الرماد فى الماسورة. بعد ذلك، عاد للصالة، أضاء كل الأنوار وكرّس نفسه للقراءة المتمهلة للجرائد، معيرًا اهتمامًا خاصًا لمن، بشكل ما، ترك بين يديه مصيره. وعندما حان الوقت، نظر فى الثلاجة فلربما يستطيع أن يعد شيئًا شبيهًا بالعشاء، لكنه تخلى عن الفكرة، فالقليل المتبقى ليس مرادفًا للنضارة ولا للجودة. لابد أن يضعوا هنا ثلاجة جديدة - فكّر - فهذه الثلاجة أدت واجبها على أكمل وجه. خرج، تناول عشاءه سريعًا فى أول مطعم وجده فى الطريق وعاد لشركة بروبيدنثيال إس إيه. كان عليه أن يستيقظ مبكرًا فى اليوم التالى.

كان المأمور مستيقظًا عندما دق الهاتف. لم ينهض ليجيب، كان يعرف أنه أحد من إدارة المباحث يذكّره بأمر الحضور فى الساعة التاسعة، احذر، ليس التاسعة و الثلث، عند النقطة العسكرية 6 شمالاً. أغلب الظن أنهم لن يعاودوا الاتصال ويدرك بكل سهولة السبب، ففى حياتهم المهنية، ومن يدرى ربما فى حياتهم الخاصة أيضًا، يستهلك كثيرًا رجال المباحث أنفسهم فى عملية عقلية نسميها استنباط، وتُعرف أيضا باسم تدخل منطقى للتعقل. فإن لم يجب، سيقولون، ذلك لأنه قادم فى الطريق. كم يلتبس عليهم الأمر. حقًا المأمور مستيقظ، حقًا دخل الحمّام ليقضى حاجة جسده الطبيعية، حقا ارتدى ملابسه وهمّ بالخروج، لكن ليس لينادى على أول تاكسى يقابله ويقول لسائقه الذى ينظر له مترقبًا فى مرآته: وصّلنى للنقطة 6 شمالاً. النقطة 6 شمالاً، معذرة، فأنا لا أعرف أين موقعها، قد تكون شارعًا جديدًا. لا، إنها نقطة عسكرية، لو معك خريطة، أشير لك عليها. لا، هذا الحوار لن يحدث أبدًا، لا الآن ولا بعد ذلك، فما سيفعله المأمور هو شراء الجرائد، وبهذه الفكرة ذهب لسريره ليلة أمس مبكرًا، لا ليستريح ما يحتاجه ثم ينهض صباحًا ليتجه للنقطة 6 شمالاً. كانت أعمدة

الإنارة بالشارع مازالت مضاءة، وصاحب الكشك قد انتهى من فتح كشكه، وبدأ فى رص المجلات الأسبوعية، وعندما ينهى هذا العمل، كما لو كان إشارة، ستنطفئ أعمدة الإنارة وتظهر سيارة توزيع الجرائد. يقترب المأمور بينما صاحب الكشك يعد الجرائد طبقًا للنظام الذى نعرفه، لكن، هذه المرّة، إحدى الجرائد الأقل مبيعًا نراها الآن بأعداد هائلة تعادل الجرائد الأخرى الأعلى مبيعًا. يشعر المأمور بالفأل الحسن، بالرغم من أن هذا الشعور المريح بالأمل يعانى صدمة عنيفة، عناوين الجرائد الأولى فى الصف كانت مشئومة، مثيرة للقلق، كلها هذه المرّة باللون الأحمر الغامق. «القاتلة». «هذه المرأة قتلت». «جريمة أخرى للمرأة المشتبه فيها». «حادثة قتل منذ أربع سنوات». وفى الجانب الآخر، كانت الجريدة التى كان فيها المأمور بالأمس، وتسأل: «ماذا يتبقى لنعرفه». كان العنوان غامضًا، قد يعنى هذا وذاك، وقد يعنى أيضًا العكس تمامًا، لكن المأمور فضّل أن يراه مثل كشاف ضوء صغير داخل وادٍ من الظلمات ليقوده بخطواته الحزينة. أعطنى كل الجرائد - قال - ابتسم صاحب الكشك فى نفس الوقت الذى فكّر فيه، على ما يرى، أنه فاز بزبون لقطة فى المستقبل وسلّمه كيس بلاستيك بكل الجرائد بداخله. تلفت المأمور حوله بحثًا عن تاكسى، لكنه انتظر حوالى خمس دقائق هباء، وفى النهاية قرّر أن يسير على قدميه حتى شركة بروبيدنثيال للتأمين، ونحن نعرف أنها

ليست ببعيدة عن هنا، لكن الحمل ثقيل، هو فقط كيس بلاستيك مكتظ بكلمات، ربما يكون الأسهل أن تحمل الدنيا على ظهرك. كان يتمنى، داخل شارع ضيق ليختصر الطريق، أن يهبه الحظ مقهى متواضعًا على التقليد القديم، مقهى من هذه المقاهى التى تفتح مبكرًا لأن صاحبها ليس لديه شىء آخر ليفعله وحيث يدخل الزبائن ليتحققوا من أن الأشياء تسير على ما يرام فى نفس الأماكن الاعتيادية وينبثق من الأبدية رائحة الحلوى. اختار ترابيزة، طلب قهوة باللبن، سأل إن كان يصنعون خبزًا محمّصًا، بالزبدة، بالطبع، فكان سمنًا نباتيا لا يطاق شمه. جاءت القهوة باللبن، كان يمكن شربها، لكن الخبز المحمّص جاء مباشرة من يد كيماوى القرون الوسطى الذى إن لم يكن قد اكتشف الإكسير فلأنه لم يستطع أن يتجاوز مرحلة التعفّن. كان قد فتح الجريدة التى تهمه أكثر، قام بذلك بمجرد أن جلس، ونظرة واحدة كانت تكفيه لينتبه إلى أن الخدعة قد تمت، فقد تم خداع الرقيب بعد التأكّد أنه يعرف المكتوب، دون أن يعبر برأسه أن عليه أن يأخذ حذره مما يعتقد معرفته، لأن فى الوراء تختبىء سلسلة لا نهاية لها من المجهولات، آخر السلسلة، ربما، لا حل له. على أى حال، لم يكن الأمر يستدعى الأوهام، فلن تظل الجريدة طول اليوم داخل الأكشاك، ويمكن تخيّل وزير الداخلية يجأر والغضب يتملّكه ويصرخ قائلا: اسحبوا هذه الزبالة فى الحال، وتحققوا عمّن أدلى بهذه المعلومات. جاءت الجملة

الأخيرة فى الكلام بشكل تلقائى، فهو كان يعرف كلية أن هناك شخصًا واحدًا يستطيع فعل هذا التسريب وهذه الخيانة. كان ذلك حينما قرّر المأمور أخذ جولة على الأكشاك حتى تصل إليها القوات ليلاحظ مبيعات الجريدة كثيرة أم قليلة، ليشاهد وجوه الأشخاص الذين يشترونها وهل سيذهبون مباشرة للخبر أم سيسلون أنفسهم بالتفاهات. ألقى نظرة سريعة على أربع جرائد كبيرة، كان عملاً بدائيًا بفظاظة، مع أنه فعّال، تسميم الجمهور المتواصل، اثنان زائد اثنان أربعة، ودائمًا سيكونون أربعة، بالأمس فعلت هذا، واليوم ستفعل ذلك، ومن لديه وقاحة الشك فى أن طريقًا سيؤدى قهرًا لطريق آخر هو شخص ضد الشرعية و النظام. شكرًا، دفع الحساب. بدأ بالكشك الذى اشترى منه الجرائد وتهللت أساريره عند رؤية المبيعات العالية للجريدة التى تهمه. إنها جريدة مهمة، أليس كذلك - سأل المأمور صاحب الكشك - إنها تبيع كثيرا. يبدو أن إحدى الإذاعات تحدثت عن مقال مكتوب هنا. يد واحدة تغسل الأخرى واليدان يغسلان الوجه - قال المأمور بغموض .. معك حق - أجاب صاحب الكشك، بدون أن يعرف العلاقة بين هذا وذاك .. حتى لا يهدر الوقت بحثًا عن أكشاك كان يسأل فى كل كشك عن الكشك الأقرب له، وربما بفضل مظهره المحترم كانوا يجيبونه دائمًا، مع أنه كان يلاحظ فى وجه كل بائع سؤالاً يود لو يطرحه : ماذا ينقصنى هنا ستجده عند الآخر. مرت ساعات، وحلّ

التعب من الإنتظار فى النقطة 6 شمالا على المفتش والمعاون وطلبا تعليمات من مدير المباحث، ومدير المباحث تحدّث مع الوزير، والوزير أعلم حقيقة الوضع لرئيس الحكومة، ورئيس الحكومة أجابه: هذه ليست مشكلتى، إنها مشكلتك، وعليك حلها. عندئذ حدث ما لا يمكن تجنبه، عند وصوله للكشك العاشر لم يجد المأمور الجريدة. طلبها متصنعًا إنه سيشتريها، لكن صاحب الكشك قال له : «لقد وصلت متأخرًا، منذ أقل من خمس دقائق سحبوها». «سحبوها، لماذا». «إنهم يسحبونها من كل مكان». «يسحبونها». «إنها طريقة أخرى لقول أنهم صادروا الطبعة». «ولماذا، ماذا كتبت الجريدة لكى يصادرونها». «شىء متعلق بسيدة المؤامرة، أنظر فى هؤلاء، الآن يبدو أنها قتلت رجلا». «ألا تستطيع أن تحصل لى على عدد، وسيكون معروفًا كبيرًا». «ليس عندى، حتى ولو كان عندى فلن أبيعه». «لماذا». «من قال لى إنك لست مباحث تمر من هنا لترى إن كنا سنقع فى الفخ». «معك كل الحق، فلقد رأينا أشياء أسوأ من ذلك فى الدنيا» ـ قال المأمور وانصرف .. لم يرغب أن يحبس نفسه فى شركة التأمين ليستمع لمكالمة الصباح وربما لمكالمات أخرى تطلب منه معرفة أين كان مختفيًا، ولماذا لا يرد على التليفون، ولماذا لم ينفذ الأمر الذى تلقاه ليكون فى التاسعة عند النقطة 6شمالا، لكن الحقيقة أنه لم يكن أمامه مكان آخر ليذهب إليه، فأمام بيت زوجة الطبيب سيجد بحرًا من الناس يصرخون، بعضهم فى

صالحها والبعض الآخر ضدها، وأغلب الظن أن أغلبهم فى صالحها، فالآخرون أقلية، لا يريدون أن يروا النكاية أو ما هو أشد. ولا يستطيع كذلك الذهاب للجريدة التى نشرت الخبر، فلو لم يجد شرطة مدنية فى المدخل، ستكون قريبة جدًا، ولا حتى يستطيع إجراء مكالمة تليفونية لأنه على يقين أن كل الخطوط مراقبة، وعندما فكّر فى هذا أدرك، أخيرًا، أن شركة التأمين تحت المراقبة، وأن الفنادق وصلها التحذير، ولا يوجد ولا بيت واحد فى المدينة يمكنه أن يستضيفه، حتى لو أراد. وتنبأ أن الجريدة استقبلت زيارة من المباحث، تنبأ أن المدير تم إجباره، بالحسنة و السيئة، على كشف هوية من سهّل المعلومات الثورية المنشورة، وربما كان ضعيفا لدرجة أنه أبرز الخطاب بشعار شركة بروبيدنشيال إس إيه للتأمين، الموقّع بيد وخط المأمور الهارب. كان يشعر بالإرهاق، يسير جارًا قدميه، غارقًا فى عرقه، مع أن الحرارة لم تكن مرتفعة لهذه الدرجة. لم يكن يستطيع أن يتجول طوال اليوم بهذه الشوارع مهدرًا الوقت بدون أن يعرف ما هدفه، فجأة شعر برغبة عارمة فى الذهاب لحديقة المرأة ذات الدورق المائل، فى الجلوس على حافة النافورة، فى تحسّس الماء الأخضر بأطراف أصابعه وحمله لفمه. وبعدها، ماذا سأفعل بعدها ـ سأل نفسه .. بعدها، لا شىء، العودة لمتاهة الشوارع، التوهة، الضياع والعودة للوراء، السير و السير، الأكل بلا شهية، فقط من أجل الحفاظ على الجسد، الدخول

للسينما ساعتين، تسلية النفس بمشاهدة مغامرات الرحلة لكوكب المريخ فى زمن مازال فيه رجال خضر، والخروج بعينين ترمشان أمام ضوء الظهيرة المشرق، التفكير في دخول سينما أخرى وإهدار ساعتين أخرتين مبحرًا عشرين ألف فرسخ بغواصة القبطان نيمو، وبعدها يتخلى عن الفكرة لأن شيئًا غريبًا قد حدث فى المدينة، رجال ونساء يمضون موزعين أوراقًا صغيرة يتوقف المشاه لقراءتها ويحتفظون بها فى جيوبهم، والآن يسلّمون للمأمور ورقة، إنها نسخة من مقال الجريدة المصادرة، هذا المقال الذى عنوانه : ماذا يتبقى لنعرفه، هذا المقال الذى يروى بين سطوره القصة الحقيقية للأيام الخمسة، حينها لا يستطيع المأمور أن يكبح دموعه، وفى نفس المكان، كما الطفل، يبدأ فى البكاء متشنجًا، فتقترب منه امرأة فى نفس عمره وتسأل إن كان قد أصابه سوء، إن كان يحتاج مساعدة، ولا يستطيع سوى أن يومئ لها بالنفى، وأنه بخير، وألا تشغل بالها، ويشكرها شكرًا جزيلاً، ولأن الصدفة أحيانًا تنظم الأمور جيدًا، يلقى شخص من طابق عال من نفس المبنى كبشة أوراق، وآخر يفعل نفس الشىء، وثالث كذلك، حتى تستقر فوق الأرض، والناس ترفع ذراعيها لتمسك بها، فتطير الأوراق مثل الحمام ويستريح إحداها على كتف المأمور بعدها تنزلق حتى تصل الأرض. والنتيجة أنه لم يفقد كل شىء، فالمدينة أمسكت بالقضية بين يديها، وصارت مئات من ماكينات التصوير تنتج نسخًا، والآن تقوم

مجموعات من الفتيات و الأولاد بدس الأوراق فى صناديق البريد الخاصة بالبيوت أو يسلّمونها باليد عند الأبواب، وشخص يسأل إن كانت تلك دعاية وهم يجيبون نعم سيدى، بل وأفضل دعاية توجد. هذه الأحداث السعيدة أعطت روحًا جديدة للمأمور، مثل فن السحر، السحر الأبيض لا الأسود، اختفى معه التعب، وصار رجلاً آخر هذا الرجل الذى يمضى قدمًا فى الشوارع، وصار رأسه رأسًا آخر يفكّر، يرى أبيض ما كان يراه أسود، مصححًا نتائج كانت قبل ذلك تبدو من الحديد والآن تذوب بين الأصابع التى تلمسها وتزنها، على سبيل المثال، ليس من الممكن فى شىء أن تكون شركة التأمين خاضعة للمراقبة، بما أنها قاعدة آمنة، وليس معقولاً رشق أفراد مباحث هناك يقفون بالمرصاد لأن ذلك يثير الشبهات حول أهمية المكان، وهو ما يحتم عليهم بعد ذلك نقل مقر الشركة لمكان آخر، وبهذا تبقى المعضلة محلولة. هذه النتيجة الجديدة و السلبية عادت لتلقى بظلال عاصفة كثيفة على روح المأمور، لكن النتيجة التالية، مع أنها ليست مهدّئة فى كل مظاهرها، خدمته أكثر، على الأقل ليحل مشكلة الغرفة العويصة أو، بمعنى آخر، الحيرة فى المكان الذى سينام فيه هذه الليلة. الحالة تشرح فى كلمات قليلة. لقد رأت وزارة الداخلية أو إدارة المباحث باستياء مبرّر كيف أن موظفها قطع الاتصال بشكل أحادى وهذا لا يعنى أنهم كفّوا عن الاهتمام بمغامراته وأماكنه المعتادة، وبالتالى، فى حالة الضرورة

الملّحة، يعرفون كيف يستطيعون العثور عليه. إن قرّر المأمور أن يتوه فى هذه المدينة، إن اختبأ فى مغارة مظلمة كما يفعل قطّاع الطرق و الهاربون، سيبذلون أكبر جهد معه، خاصة إن استطاع تكوين شبكة من المخلصين بنفس وسائل الثورة، وهى عملية، من جانب آخر، مع تعقيدها، لا تتحقق فى ستة أيام، ولقد مر هنا رجال مباحث كثيرون. وبناء على ذلك لا توجد أية مراقبة على مدخلى بناية شركة التأمين، بل على العكس، ترك الطريق ممهدًا حتى يناديه الحنين الطبيعى للمكان، وهو ليس أمرًا خاصًا فقط بالثيران، فالذئب يعود لجحره، وببغاء البحر إلى ثقبه فى الصخرة. سيتمكن المأمور من النوم فى سرير معروف ومريح، مفترضًا أنهم لن يأتوا ليقلقوا منامه فى منتصف الليل، بفتح الباب بطفاشات رقيقة مستسلمًا هو أمام تهديدات ثلاث طبنجات موجهة إليه. من المعروف جيدًا، كما قد نوّهنا عدة مرات، أنه هناك مناسبات مشئومة فى الحياة، فى جانب تمطر وفى الجانب الآخر تهب الرياح، فى هذه الحالة بالضبط يجد المأمور نفسه، فهو مضطر على اختيار بين شيئين أحلاهما مر، إما قضاء ليلة مزعجة تحت شجرة بالحديقة على مرئى من سيدة الدورق المائل، كرجل متشرّد، أو يتمتع بدفء بطاطين قد استعملها وملاءات مجعدة بشركة التأمين. فى النهاية لم يأت الشرح موجزًا كما وعدنا سابقًا، مع ذلك، ونتمنى أن تدركوا ذلك، لم نستطع أن نهمل التوازن المطلوب لكل

أطراف اللعبة، مفصّلين بعدم تحيّز عناصر الأمن والخطر المختلفة والمتناقضة، لننهى ما كنا نعرفه منذ البداية، أنه لا يستحق العناء الجرى إلى بغداد إن حاولنا تجنب اللقاء المحدد فى سامرّاء. وبعد وضع كل شىء فى الميزان وتخلينا عن إهدار وقت آخر فى نقل الأثقال حتى المللليجرام الأخير، حتى الإمكانية الأخيرة، حتى الافتراض الأخير، أخذ المأمور تاكسيًا حتى شركة برووبيدنشيال للتأمين، وكان ذلك آخر النهار، عندما تنعش الظلال الطريق المواجه ويصبح لخرير الماء المتساقط فى النافورة رائحة ويعود بغتة بسرعة تذهل المارين. لم ير ولا ورقة واحدة مهملة فى الشوارع. وبالرغم من كل شىء، يُلاحظ أن المأمور يمضى شديد التوجس والحق أنه لديه من الأسباب ما يكفيه. رأيه الشخصى وخبرته التى اكتسبها على طول الزمن حول المهارات البوليسية دفعته ليفكّر أنه لا خطر يترقبه فى شركة التأمين أو سيهاجمه الخطر ليلا، وهذا لا يعنى أن مدينة سامراء ليست فى مكانها. هذه الفكرة دفعت المأمور ليضع يده على طبنجته ويفكّر: على سبيل الاحتياط، سأستغل صعودى بالمصعد لأخلع قفل الأمان. توقّف التاكسى. لقد وصلنا - قال السائق .. وفى هذه اللحظة شاهد المأمور نسخة من المقالة ملتصقة على زجاج السيارة. وبالرغم من الخوف، كان قلقه وشكوكه يستحق المعاناة. كان مدخل البناية فارغًا، الحارس غائب، والمنظر رائع للجريمة الكاملة، ضربة خنجر فى القلب،

ضربة صماء فى الجسد فيسقط على الرصيف، يغلق الباب، سيارة بلوحة مزيفة تقترب وتبتعد بعد اقتراف جريمة الاغتيال، ليس هناك فى الدنيا أبسط من أن تقتلِ او تُقتل. كان المصعد منتظرًا، فلم يكن فى حاجة لطلبه. الآن يصعد، سيقوم بفكرته فى الطابق الثالث عشر، داخل سلسلة من خيبات الأمل الواضحة يقول إن هناك سلاحًا مستعدًا لإطلاق النار عليه. فى الممر لم ير ولا روحا واحدة، ففى هذه الساعة تكون المكاتب قد أُغلقت. أدخل المفتاح برفق فى الباب، وبلا ضجيج فتحه. دفعه المأمور بظهره، أضاء النور، الآن سيتفحص كل مكان بالشقة، يفتح الدواليب التى تسع أشخاصًا، ينظر تحت الأسرّة، يفتح الستائر. لا أحد. شعر بنفسه بهلوانًا بغموض، عفريتًا يقبض على مسدس يصوّبه ناحية لا شىء، لكن كما يقال: من يحتاط، يموت هرمًا، ولابد أنهم يعرفون ذلك فى شركة التأمين، بما أنها شركة تأمين. فى غرفة النوم كان الأنسر ماشين مضاءً، مشيرًا إلى أن هناك مكالمات، إحداها ربما من المفتش طالبا منه اتخاذ حذره، وثانية ربما تكون من سكرتير بطريق، أو الاثنان من رئيس المباحث، يائسًا بسبب خيانة رجل محل ثقة ومشغولاً بمستقبله الشخصى، بالرغم من أن مسئولية الاختيار لم تقع عليه. وضع المأمور أمام عينيه ورقة بأسماء وعناوين المجموعة، التى أضاف إليها تليفون الطبيب، واتصل هاتفيًا. لم يجبه أحد. عاود الاتصال. ثم عاود ثالثة، لكن الآن كما لو كان هناك إشارة ما،

تركوا التليفون يرن ثلاث مرات ثم أغلقوا الخط. اتصل للمرّة الرابعة وأخيرًا ردوا. «آلوه» ـ قالت زوجة الطبيب بجفاء .. «إنه أنا، المأمور». «آه، مساء الخير، لقد انتظرنا اتصالك». «كيف حالكم». «لا شئ جيد، فى خلال أربع وعشرين ساعة جعلوا منى العدوة الأشهر رقم واحد». «آسف على الجزء الذى ساهمت فيه ليحدث ذلك». «لست أنت من كتبت ما نُشر فى الجرائد». «لم أصل لهذا الحد». «ربما ما نشرته اليوم والآلاف من النسخ التى وزعت تساعد فى إيضاح هذه القضية». «أتمنى ذلك». «لا تبدو كثير التفاؤل». «لدىّ أمل، بالطبع، لكن الأمر يحتاج وقت، والوضع لن يُحل بين ليلة وضحاها». «لا يمكن أن نواصل العيش هكذا، محبوسين فى بيوتنا، نحن كما لو كنا فى زنزانة». «لقد فعلت كل ما كان بوسعى، لا أستطيع أن أضيف شيئًا آخر». «ألن تعود من حيث جئت». «المهمة التى كنت مكلفًا بها انتهت، ولدىّ أمر بالعودة». «أتمنى أن نلتقى ثانية ذات مرّة، فى أيام أفضل من هذه، إن وجدت». «على مانرى، لقد تاهت فى الطريق». «مَنْ». «الأيام السعيدة». «ستتركنى يائسة أكثر مما أنا فيه». «هناك أناس يظلون واقفين حتى عندما ينهارون، أنتِ واحدة من هؤلاء الناس». «إذًا فى هذه اللحظات أنا أشكر من يمد لى يده لأقف على قدمى». «آسف لأننى فى وضع لا أستطيع فيه مد يد العون». «أعتقد أنك قدمت مساعدات أكثر مما تريد أن نعرفه». «هذا فقط شعور لديك، تذكرى أنكِ تتحدثين مع رجل مباحث». «لم

أنس ذلك، لكن الحق أننى لم أعد أعتبرك رجل مباحث». «شكرًا على هذه الكلمات، الآن ليس أمامى سوى وداعك حتى نلتقى فى يوم من هذه الأيام». «إلى اللقاء الذى لا نعرف متى». «خذى بالك من نفسك». «وأنت أيضًا». «فلتصبحين على خير». «وأنت من أهله». وضع المأمور السماعة. كان أمامه ليلة طويلة وليس أمامه شىء ليفعله إلا أن ينام، هذا إن لم يقرر السهد اختراق سريره. غدًا، من المحتمل أن يأتوا بحثًا عنه. لم يقدّم نفسه عند النقطة 6 شمالاً كما أمروه، وبالتالى سيأتون بحثا عنه. ربما كانت إحدى المكالمات التى مسحها تقول ذلك، ربما حذروه فيها أن المبعوثَين سيصلان هنا فى السابعة صباحًا وأن أية محاولة للمقاومة ستكون عواقبها أشد سوءًا. وبالطبع لن يحتاجوا لطفاشة، فلديهم مفتاح. المأمور يتحلل. فى متناول يده ترسانة من الأسلحة جاهزة لإطلاق النار، يستطيع أن يقاوم حتى الطلقة الأخيرة، أو، حسنا، على الأقل، حتى أول قنبلة غاز مسيّلة للدموع التى يلقونها داخل الحصن. المأمور يتحلل. جلس فى سريره، بعدها ترك نفسه يتساقط، يُغمض عينيه داعيًا ألا يتأخر النعاس. أنا أعلم أن الليلة لم تبدأ بعد - يفكّر - فمازال هناك ضوء فى السماء، لكننى أريد أن أنام كما يبدو الحجر نائمًا، بعيدًا عن ألاعيب النعاس، محبوسا للأبد داخل كتلة حجرية سوداء، على الأقل، من فضلك، لو لم يكن هناك حل آخر حتى الغد، عندما يأتون ليوقظونى فى الساعة السابعة.

سمع النعاس صلاته الحزينة، فجاء مهرولاً وبقى عدة لحظات، بعدها انصرف ليخلع المأمور ملابسه ويدخل فى سريره، وبعدها عاد، سريعًا، ليبقى طول الليل بجانبه، طاردًا الأحلام بعيدًا، إلى أرض الأشباح، هناك، حيث يجتمع النار و الماء، وتولد وتتكاثر.

كانت الساعة التاسعة عندما استيقظ المأمور. لم يكن يبكى، وهى علامة على أن الغازين لم يستخدموا قنابل مسيلة للدموع، لم يجد نفسه مقيد الرسغين ولم ير مسدسات مصوبة ناحية صدغه، كم مرّة تأتى المخاوف لتضيف المرارة لحياتنا وفى النهاية نكتشف أن لا أساس لها ولا سبب لوجودها. نهض، حلق لحيته، نظف نفسه كالعادة، وخرج بنية واضحة لتناول القهوة فى نفس مكان الأمس. وفى الطريق سأشترى الجرائد. كنت أعتقد أنك لن تأتى اليوم - قال صاحب الكشك برقة قلب رجل عجوز يعرفه .. هنا تنقص جريدة - لاحظ المأمور .. لم تطبع اليوم، وسيارة التوزيع لا تعرف متى تعاود الطبع، ربما الأسبوع القادم، ويبدو أنها بالإضافة لذلك فرضوا عليها غرامة. لماذا. بسبب المقال، الذى عملوا منه نسخا. آه، حسنا. هاهو الكيس، الآن ستأخذ فقط خمس جرائد، ستقرأ أقل. شكره المأمور وانصرف بحثًا عن القهوة. لم يتذكّر جيدا مكان الشارع وكانت شهيته تُفتح مع كل خطوة، وعندما يفكّر فى الخبز المحمّص يسيل لعابه، سنعذر هذا الرجل على مايبدو فيه من الوهلة الأولى، حيث يبدو بمنظر مثير للحزن لا يتناسب مع سنه ووضعه،

لكن علينا أن نتذكّر أنه بات الليلة الماضية بمعدة خاوية. أخيرًا عثر على الشارع والمقهى، والآن يجلس أمام ترابيزة، وبينما ينتظر تمر عيناه على الجرائد، هنا عناوين مكتوبة بالأحمر و الأسود، حتى تكون لدينا فكرة قريبة عن محتواها. «حركة ثورية جديدة من أعداء الوطن». «من شغّل ماكينات التصوير». «أخطار المعلومات المنحرفة». «من أين خرجت الأموال لدفع النسخ». تناول المأمور إفطاره بتمهل، متذوّقا حتى آخر الفتات، حتى القهوة باللبن ألذ من الأمس، وعندما وصل للنهاية، بعد أن استرد الجسد صحته، ذكّرته روحه أنه مدان منذ الأمس بزيارة الحديقة والنافورة، الماء الأخضر وسيدة الدورق المائل. «لقد شعرت بالرغبة فى الذهاب ولم تذهب». إذًا سأذهب الآن . أجاب المأمور ـ دفع الحساب، جمع الجرائد وبدأ فى السير. كان يستطيع ركوب تاكسى، لكنه فضّل الذهاب سيرًا على الأقدام. لم يكن لديه شىء ليفعله وكانت هذه طريقة لإهدار الوقت. عندما وصل للحديقة، جلس على الدّكة التى جلس عليها مع زوجة الطبيب وعرف حقا كلب الدموع. من هذه الدّكة كان يرى النافورة وسيدة الدورق المائل. تحت الشجرة كان الجو مازال به برودة. غطّى ساقيه بأطراف المعطف واستراح متنهدًا برضا. جاء من خلفه الرجل ذو ربطة العنق الزرقاء بنقط بيضاء وأطلق عليه طلقة فى رأسه.

بعد ساعتين عقد وزيرالداخلية مؤتمرًا صحفيًا. كان يرتدى قميصاً أبيض وربطة عنق سوداء، يرتسم

على وجهه الحزن، الحزن العميق. كانت الترابيزة مغطاة بالميكروفونات وكوب ماء كزينة وحيدة. ومن خلفه، معلقًا، علم الوطن يتأمل. «سيداتى سادتى، مساء الخير، - قال الوزير - دعوتكم لأعلن لكم خبرًا مشئوما، موت المأمور المكلف بالتحقيق فى الشبكة المتآمرة التى رئيستها، كما نعرف، تم الإعلان عنها. وللأسف لم يكن موتًا طبيعيًا، وإنما حادثة اغتيال مع سبق الإرصاد و الترصد، وبلا شك قام بها قاتل محترف الإجرام إن وضعنا فى اعتبارنا أن طلقة واحدة كانت كافية للقضاء على حياته. يبدو واضحا أن كل الدلائل تشير إلى أنها عملية إجرامية جديدة من جانب عناصر ثورية مازالت فى العاصمة القديمة البائسة، لتقوّض استقرار الوظيفة المثلى للنظام الديمقراطى، وبالتالى، تقوم بعمليات ضد التكامل السياسى والاجتماعى والأخلاقى لوطننا، وبكل هدوء. ولا أعتقد أنه من الضرورى أن أبرز أن مثال الكرامة الأعلى الذى قدّمه لنا المأمور المغتال سيجب أن يكون هدفًا، لأبد الأبدين، ليس فقط لتقديرنا المطلق، وإنما أيضًا لتكريمنا العميق، وسنهبه كأقل تقدير لتضحيته التى أدت لحزننا ، بداية من اليوم، مكانا مشرّفا بين مقابر شهداء الوطن، وهناك حيث يخلدون، يرعوننا دائمًا بأعينهم. إن حكومة الأمة، التى أمثلها الآن، تنضم لحداد وحزن كل من يعرفون هذه الصورة الإنسانية المشرقة والتى فقدناها فى التوّ، وفى الوقت نفسه تؤكد لكل المواطنين و المواطنات فى هذا البلد

أنها لن تتقاعس فى الكفاح الذى يكمن فى محاربة شر المتآمرين وعدم مسئولية من يعاونونهم. مازال أمامى ملحوظتان، أولها أن المفتش و المعاون اللذين تعاونا فى التحرى مع المأمور المغتال كانا، بناء على طلبه، مستبعدين عن المهمة حتى لا يعرض حياتهما للخطر، الملحوظة الثانية، لأخبركم أنه من أجل الرجل النزيه، المثالى الخدوم لوطنه الذى لسوء الحظ فقدناه، ستدرس الحكومة كل الإمكانيات الشرعية لتتمكن خلال فترة قصيرة، وبصفة استثنائية بعد وفاته، أن تمنحه أعلى الأوسمة التى تميّز بها الدولة أبناءها وبناتها تكريما لهم. اليوم، سيداتى سادتى، يومًا حزينًا على كل الخيّرين، لكن مسئولياتنا تطالب أن نهدأ ويطمئن قلبنا». رفع أحد الصحفيين يده ليطرح سؤالاً، لكن وزير الداخلية قام بالانصراف، ولم يبق فوق الترابيزة سوى كوب الماء الذى لم يمس، كانت الميكروفونات تسجل الصمت المحترم الواجب للموتى، أما العلم، فى الخلف، فمازال بلا تعب ولا كلل يتأمل. الساعتان التاليتان قضاهما الوزير مع مستشاريه القريبين فى إعداد خطة عملية فورية تكمن، أساسًا، فى إرسال رجال مباحث أكفاء إلى المدينة بطريقة خفية، هؤلاء الرجال سيعملون مبدئيًا بملابس مدنية، بدون أية علامة قد تشير للجهاز الذى ينتمون إليه. وهكذا يعترفون ضمنيًا أنهم قد ارتكبوا خطئًا فادحًا عندما تركوا العاصمة القديمة بلا رقابة. لم يتأخر الوقت كثيرًا لنصحح الخطأ - قال الوزير .. فى هذه

اللحظة بالتحديد دخل أحد السكرتارية، جاء ليخبره أن رئيس الوزراء يريد الحديث فورًا مع وزير الداخلية ويطلب منه أن يذهب له فى مكتبه. همس الوزير أن رئيس الوزراء كان عليه أن يختار مناسبة أخرى أفضل، لكنه لم يجد بداً من طاعة الأمر. ترك مستشاريه يضيفون اللمسات المنطقية الأخيرة على الخطة وخرج. وصّلته سيارة، بأعلام صغيرة فى الأمام و الخلف، للبناية التى بها يقع رئاسة المجلس، وتأخر فى ذلك عشر دقائق، خمس دقائق أخرى وكان الوزير يدخل مكتب رئيس الوزراء. «مساء الخير، سيدى رئيس الوزراء». «مساء الخير، تفضّل بالجلوس». «لقد طلبت حضورى عندما كنا نعمل فى خطة تعديل القرار الذى اتخذناه بشأن سحب الشرطة من العاصمة، أعتقد أننى أستطيع أن أحضره لك غدا». «لا تحضره لى». «لماذا، سيدى رئيس الوزراء». «لأنك لن يكون عندك وقت». «الخطة عمليًا منتهية، فقط ينقصها بعض الرتوش». «أشك أنك لم تفهمنى، عندما أقول إنك لن يكون عندك وقت، أقصد أنك غداً لن تكون وزيرا للداخلية». «ماذا» ـ هكذا خرج تعجبه، منفجرًا وقليل الاحترام بعض الشىء .. «لقد سمعت جيداً ما قلته، ولست فى حاجة لأكرّره». «لكن، سيادة رئيس الوزراء». «فلنوفر حوارًا لا طائل من ورائه، منذ هذه اللحظة توقفت مهامك». «إنه عنف لا أستحقه، سيادة رئيس الوزراء، اسمح لى أن أقول لك ذلك، إنها طريقة غريبة وتعسفية لمكافآتى على الخدمات التى أسديتها

للبلد، لابد أن يكون لديك سبب، وأتمنى أن تقوله لى، لتقوم بهذا العزل الهمجى، نعم، ولن أسحب الكلمة». «خدماتك التى تتحدث عنها خلال الأزمة كانت سلسلة مستمرة من الأخطاء التى أعفى نفسى من عدها، أنا قادر على فهم أن الحاجة تصنع القانون، أن الغاية تبرر الوسيلة، لكن دائمًا بشرط أن تحقق الغايات وأن يطبّق قانون الحاجة، أما أنت فلم تُطبق قانونًا ولم تحقق غايات والآن يأتى قتل المأمور» . «لقد اغتاله أعداؤنا». «لا تأتينى بأغنية أوبرالية، من فضلك، أنا فى هذا المنصب منذ زمن طويل يؤهلنى ألا أصدّق بحكايات الزمن القديم، هؤلاء الأعداء الذين تتحدث عنهم، على العكس، لديهم من الأسباب ما يكفيهم ليجعلوا من المأمور بطلهم ولم يقتل منهم أحدا». «سيدى رئيس الوزراء، لم أجد أمامى مخرجًا آخر، لقد صار هذا الرجل عنصرًا خطيرًا». «فلنصفى حساباتنا معه بعد ذلك، ليس الآن، هذا القتل كان حماقة لا تُغفر، والآن، كما لو كان ما حدث قليلاً، هذه المظاهرات بالشوارع». «مظاهرات لا معنى لها، سيدى رئيس الوزراء، فمعلوماتى». «معلوماتك لا قيمة لها، فنصف الشعب فى الشارع و النصف الآخر سيلحق به». «أنا على يقين أن المستقبل سينصفنى، سيدى رئيس الوزراء». «سينفعك قليلاً المستقبل إن كان الحاضر يرفضك، والآن انتهت المقابلة، انصرف، انتهى الحوار». «يجب أن أنقل القضايا الراهنة لخليفتى». «سأرسل أحدًا يتكفل بذلك». «لكن

خليفتى». «خليفتك هو أنا، فمن يقوم بعمل وزير العدل يعرف جيدًا عمل وزير الداخلية، كل شىء فى بيته، أنا سأتكفل بذلك».

فى الساعة العاشرة صباحًا من يومنا هذا، صعد شرطيان بملابس مدنية للطابق الرابع ودقا الجرس. فتحت لهما زوجة الطبيب، وسألتهما: مَنْ أنتما، وماذا تريدان ؟. نحن معاونان مباحث ولدينا أمر باصطحاب زوجك لاستجوابه، ولا تضايقيننا بقولك إنه خرج، فالبيت مراقب، لذا فليس لدينا أدنى شك أنه بالداخل. ليس لديكما أى سبب لاستجوابه.، المتهمة فى كل الجرائم، على الأقل حتى الآن، هى أنا. هذه المسألة ليست من واجبنا، الأوامر التى تلقيناها صارمة، اصطحاب الطبيب، لا زوجة الطبيب، وبالتالى، إن أردتى ألا ندخل بالقوة، فناديه، واربطى الكلب، حتى لا تحدث له حادثة. أغلقت المرأة الباب. عادت لفتحه بعد قليل، جاء زوجها برفقتها. ماذا تريدان. أن تصحبنا لإجراء استجواب، لقد أخبرنا زوجتك، لن نقضى بقية اليوم فى التكرار. ألديكما تحقيق شخصية أو أمر ؟. الأمر ليس ضروريًا، فالعاصمة فى حالة حصار، أما تحقيق الشخصية فهاهو ذا، انظر لعله يفيدك. يجب أن أغيّر ملابسى أولاً. سيأتى أحدنا برفقتك. أتخاف أن أهرب، أن أنتحر. نحن فقط ننفذ أوامر، لا شىء أكثر. دخل

أحدهما بصحبته، لم يتأخرا كثيرًا. أنا أصحب زوجى أينما ذهب - قالت المرأة .. لقد قلت لك أنكِ لن تذهبى، أنتِ ستبقين هنا، لا تضطرينى أن أكون سخيفا. لن تستطيع أن تكون سخيفًا أكثر من سخافتك هذه. بل أستطيع، بالطبع أستطيع، ولا حتى تتخيلين لأى مدى. والطبيب. سيسير مقيدًا، أبسط يديك. أطلب منك ألا تضع الكلبشات فى يدى، من فضلك، أعدك بشرفى أننى لن أحاول الهرب. هيا، ابسط يديك ودعك من كلمات الشرف، رائع، هكذا أفضل، تسير أكثر أمنا. عانقت المرأة زوجها، قبّلته وهى باكية. لا يسمحون لى بالذهاب معك. اهدئى، سترين أننى قبل أن يحل الليل سأكون هنا. عد سريعًا. سأعود، حبيبتى، سأعود. بدأ المصعد فى النزول.

فى الساعة الحادية عشرة صعد الرجل ذو ربطة العنق الزرقاء بنقط بيضاء إلى شرفة بناية متاخمة مع الواجهة الخلفية للبيت الذى يسكنه الطبيب وزوجته. يحمل علبة خشبية مطلية، لها شكل مستطيل، بداخلها سلاح مفكك، بندقية آلية بمنظار، لن يستخدمه لأنه على مسافة كهذه من المستحيل ألا يصيب الهدف قنّاص ماهر. لن يستخدم أيضًا كاتم الصوت، لكن، فى حالة كهذه، ولأسباب أخلاقية، بدا للرجل ذى ربطة العنق الزرقاء بنقط بيضاء خيانة فظة استخدام هذه الآلة مع الضحية. ركّب السلاح والذخيرة، كل قطعة فى مكانها، أداة هائلة للهدف الموجه له. يختار الرجل ذو ربطة العنق الزرقاء بنقط

بيضاء المكان الذى سيطلق منه النار ويبدأ فى الانتظار. إنه رجل صبور، يعمل فى ذلك منذ سنوات طوال ودائمًا يؤدى عمله على أكمل وجه. عاجلاً أم آجلا ستضطر زوجة الطبيب أن تطل من الشرفة. مع ذلك، فى حالة إن طال الانتظار كثيرًا، الرجل ذو ربطة العنق الزرقاء بنقط بيضاء يحمل معه سلاحًا آخر، النبلة المعروفة، تلك التى تطلق طوبًا وتتخصص فى كسر زجاج النوافذ. فلايوجد أحد يسمع كسر زجاجه ولا يأتى مهرولاً ليرى من قام بهذه الهمجية الطفولية. مرت ساعة وزوجة الطبيب لم تظهر، ظلت تبكى، المسكينة، لكنها الآن ستخرج لتأخذ نفسها قليلاً، لا تفتح أية نافذة من التى تطل على الشارع لأنه دائمًا هناك أناس ينظرون، تفضّل النوافذ الخلفية، فهى أهدأ بكثير منذ وجد التليفزيون. تقترب المرأة من الحاجز الحديدى، تضع يديها فوقه وتشعر برطوبة المعدن. لم نستطع أن نسألها إن كانت قد سمعت الطلقتين المتتابعتين، ترقد الآن ميتة على الأرضية وينزف دمها قطرات حتى الشقة السفلية. يأتى الكلب مهرولاً من الداخل، يتشممها ويلعق وجه صاحبته، بعدها يرفع رقبته لأعلى ويطلق عواء مرتجفًا يقطعه فى الحال طلقة أخرى. حينئذ يسأل رجل أعمى : «أسمعت شيئًا». «ثلاث طلقات - أجابه آخر - لكن كان هناك أيضا كلب يعوى». «ثم صمت»، «ربما أصابته الطلقة الثالثة». «الحمد لله، فأنا أبغض عواء الكلاب».

صدر من هذه السلسلة

١ ـ «ملكة الصمت» للكاتبة الفرنسية «مارى نيمييه» ـ رواية ـ جائزة ميديسيس.

٢ ـ «فتاة من شارتر» للكاتب الفرنسى «بيير بيجى» ـ رواية ـ جائزة «انتير».

٣ ـ «موال البيات والنوم» للكاتب المصرى «خيرى شلبى» ـ رواية ـ جائزة الدولة التقديرية.

٤ ـ «أوائل زيارات الدهشة» للشاعر المصرى «محمد عفيفى مطر» ـ سيرة ذاتية ـ جائزة «سلطان العويس».

٥ ـ «اللمس» للكاتبة السعودية «ملحة عبدالله» ـ مسرح ـ جائزة «أبها».

٦ ـ «عاشوا فى حياتى» للكاتب المصرى «أنيس منصور» ـ سيرة ذاتية ـ «جائزة مبارك».

٧ ـ «قبلة الحياة» للكاتب المصرى «فؤاد قنديل» ـ رواية ـ «جائزة التفوق».

٨ ـ «ليلة الحنة» للكاتبة المصرية «فتحية العسال» ـ مسرح ـ «جائزة التفوق».

٩ ـ العاشقات ـ للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٠ ـ نوّة الكرم، للكاتبة المصرية «نجوى شعبان»، رواية، «جائزة الدولة التشجيعية».

١١ـ «الفسكونت المشطور» للكاتب الإيطالى ـ «إيتالوكالفينو» رواية ـ عدد خاص ـ جائزة «فياريچيو».

١٢ـ القلعة البيضاء ـ للكاتب التركى «أورهان باموق» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٣ ـ أين تذهب طيور المحيط ـ للكاتب المصرى «إبراهيم عبدالمجيد» ـ أدب رحلات ـ «جائزة التفوق».

١٤ ـ قرية ظالمة ـ للكاتب المصرى «محمد كامل حسين» ـ عدد خاص ـ «جائزة الدولة للأدب».

١٥ ـ الرجل البطىء ـ للكاتب الجنوب إفريقى «ج . م . كويتسى» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٦ ـ طحالب ـ للكاتبة الجنوب إفريقية «مارى واطسون» ـ متتالية قصصية ـ «جائزة كين».

١٧ ـ شوشا ـ للكاتب البولندى «إسحق باشيفيس سنجر» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٨ ـ شارع ميجل ـ للكاتب من ترينداد ـ «ف. س. نايبول» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

معرفتي

١٩ ـ الحياة الجديدة ـ للكاتب التركى «أورهان باموق» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

٢٠ ـ عشر مسرحيات مختارة ـ للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر» ـ مسرح ـ «جائزة نوبل».

٢١ ـ الآخر مثلى – للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» – رواية – «جائزة نوبل».

٢٢ ـ المستبعدون ـ للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

٢٣ ـ الأنثى كنوع ـ للكتابة الأمريكية «جويس كارول أوتس» ـ قصص ـ جائزة بن مالامود.

٢٤ ـ ثلاثة أيام عند أمى ـ للكاتب الفرنسى «فرانسوا فايرجان» ـ رواية ـ جائزة الجونكور.

٢٥ ـ اسطنبول.. الذكريات والمدينة.. للكاتب التركى «أورهان باموق».. «جائزة نوبل».

٢٦ ـ الطوف الحجرى.. للكاتب البرتغالى «جوسيه ساراماجو».. رواية.. «جائزة نوبل».

٢٧ ـ نار وريبة.. للكاتبة الألمانية «بريچيتّه كروناور» مختارات جائزة «چورج بوشنر الكبرى».

٢٨ ـ الذكريات الصغيرة.. للكاتب البرتغالى «جوسيه ساراماجو» .. سيرة ذاتية.. جائزة نوبل.

٢٩ ـ إليزابيث كُستلّو.. للكاتب الجنوب إفريقى ج. م. كوتسى .. رواية.. «جائزة نوبل».

٣٠ ـ السيدة ميلانى والسيدة مارتا والسيدة جيرترود.. للكاتبة الألمانية بريچيته كروناور .. قصص.. جائزة چورج بوشنر الكبرى.

٣١ ـ حين تقطعت الأوصال .. للكاتبة المكسيكية أمبارو دابيللا.. قصص.. جائزة بيربياروبيا.

٣٢- مارتش.. للكاتبة الأمريكية «جيرالدين بروكس» رواية.. جائزة البوليتزر.

٣٣ - اغتنم الفرصة.. للكاتب الكندى «سول بيللو».. رواية.. جائزة نوبل للآداب.

يصدر قريبًا من هذه السلسلة

١ ـ بريك لين ـ مونيكا على ـ جائزة البوكر ٢٠٠٣.

٢ ـ بريد بغداد ـ خوسيه ميجيل باراس ـ جائزة تشيلى الوطنية للآداب ٢٠٠٦.

٣ ـ عن الجمال.. زادى سميث.. جائزة الأورانج ٢٠٠٦.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس

WWW. egyptianbook. org. eg

E - mail : info @egyptianbook.org. eg

في يوم ممطر، في مدينة متخيلة ربما كانت مثلاً في البرتغال، يحجم المقترعون عن التوجه إلى صناديق الاقتراع حتى الساعة الرابعة بعد الظهر، ثم يصلون جميعاً في الوقت نفسه، وعند إحصاء الأصوات يتبين أن نحو ثلاثة أرباع المقترعين وضعوا في الصناديق أوراقاً بيضاء، وبعد أسبوع من حالة ذعر تسيطر على الحكومة تجري عملية الاقتراع مرة أخرى في يوم مشمس فتأتي النتيجة صادمة حيث يلقي ثلاثة وثمانون في المائة من الناخبين بأوراقهم بيضاء.
إن "بصيرة" "ساراماجو" تحول سياسة القمع إلى سخرية لاذعة تفضح الديمقراطية التي تستهدف الفوز بأساليب ملتوية وتكاد تكون رواية "البصيرة" هي وجه العملة الآخر لروايته السابقة "العمى" التي يتخيل فيها أن مدينة مجهولة في بلد مجهول يصعقها وباء غريب هو فقدان بصر الجميع ما عدا امرأة واحدة ظلت الشاهد الوحيد على هذه الكارثة.

** معرفتي **
me3refaty.blogspot.com

الهيئة المصرية العامة للكتاب

الهيئة المصرية العامة للكتاب

ISBN# 9789774203235
6 221149 010789